على طريق الوحدة العربية

فوزي الكيالي

الوحدة بالنسبة لأمتنا العربية ، قضية القضايا جميعها ... فهي الحرية ،والتقدم، والمشاركة في صنع الحضارة الانسانية ، وفرصة العيش الكريم ...

وفي هذه الظروف بالذات ، ونحن نواجه أشرس وأخطر عدوان تعرضت له أمة في التاريخ ، تصبح قضية الوحدة هي قضية الوجود ذاته ... لأنها ، في التحليل الأخير ، السبيل الوحيد للانتصار على الامبريالية ، والقضاء على خطر اسرائيل .

ومع ذلك : فلا زالت الوحدة ، بالنسبة للعدد الأكبر من المواطنين ، مجرد حديث يروى أو يكتب ، وشعار يهتف به ويصفق له ، أكثر منها معاناة يومية تستقطب الاهتمام، وتستأثر بالتفكير ، وتتحكم في السلوك ، بحيث تؤدي هذه المعاناة ، إلى خلق انقلاب عميق وشامل في مفاهيمنا ، وفي طرق تفكيرنا ، وفي أساليب عملنا ، مما يؤهلنا بحق لأن نقف على عتبة ما نحن بصدد العزم على تحقيقه ، وهو توحيد الوطن العربي ، مما يعتبر ، بكل المقاييس ، ثورة سياسية واقتصادية وعسكرية من شأنها أن تحدث انقلاباً حقيقياً في عالمنا المعاصر .

ويسرني أن أقدم هذا العدد الخاص بالوحدة العربيــة من مجلة « المعرفة » إلى المواطنين العرب في كل مكان ، اسهاماً متواضعاً في سبيل اعادة طرح قضية الوحدة بكل أبعادها – ان أمكن – طرحاً علمياً موضوعياً ، بعيداً عن المزاودات اللفظية والآراء الشعائرية .

إن أعداء أمتنا يدركون – مع الاسف – بشكل كامل وواضح منعكسات قيام الوحدة على مصالحهم ووجودهم أكثر مما يدرك المواطنون العرب هذه المنعكسات على حياتهم ووجودهم حاضراً ومستقبلاً . فاسرائيل تعلم علم اليقين أن قيام الوحدة يؤدي قطعاً إلى زوالها ، والاحتكارات العالمية تعلم كذلك أن قيام الوحدة يؤدي إلى تصفية مصالحها ، الخ ... ولذلك فان جميع أعداء أمتنا يتصرفون تجاه الوحدة من وحي هذا الادراك ، ويحاربونها حرباً لاهوادة فيها ، بينما نرى أن نضالنا من أجلها لم يصل بعد في حدته وقوته إلى مستوى من يقاتل دفاعاً عن حقه الأخير في البقاء .

في سبيل تطوير هذا الادراك ، وفي سبيل تعميق هذا الفهم ، وفي سبيل أن يتم انقلاب حقيقي في المفاهيم والأفكار والسلوك ، بحيث نبلغ مستوى الهدف الذي نطمح إليه ، نقدم هذا العدد مساهمة متواضعة على الطريق .

فوزي الكيالي

اللواء الركن مصطفى طلاس

الوحدة العربية

ضرورة استراتيجية

« اذا كانت الوحدة العربية هي قدر هذه الأمة وهدفها الكبير، فان العمل الوحدوي يكتسب في هذه المرحلة من نضالها أهمية متزايدة .. لان الوحدة مصدر قوتنا ولأنها السبيل الى حشد الطاقات العربيـة في المعركة ، وهي الطريق الى احباط كل مشاريع العدوان الرامية الى تصفية قضية العرب الكبرى – القضية الفلسطينية(١) »

الفريق حافظ الأسد

(١) من كلمة الفريق القائد حافظ الاسد في مسيرة دمشق الكبرى يوم ١٩٧٠/١٢/٥ .

قبل ان ادخل في الموضوع لابد لي ان القي بعض الاضواء على مفهوم كلمة « الاستراتيجية » ، هذا المصطلح الذي كثرت فيه الاقوال اكثر مما قاله مالك في الخمرة . . وبالغ في الاكثار من استعماله الكتاب على اختلاف ثقافتهم وجنسياتهم حتى وصلوا الى استخـــدام مصطلح « استراتيجية الحب » في المعنى المجازي على حد تعبير الجنرال « فالانتان » . ان كلمة « استراتيجية » يونانية الاصل، وهي مشتقة من: Stratos وتعني جيش ومن Agein وتعني قيادة ، وكانت الكلمة تعني في مصر القديمة ـ ايام البطالسة ـ قائد القوات المسلحة . ولقد تطور مفهوم الاستراتيجية عبر العصور ، وأدلى معظم المنظرين العسكريين بدلوه في هذا المجال . وعلى الرغم من تباين التعاريف التي قدمها هؤلاء من طرف ، والتقائها من طرف آخر ، فاننا نستطيع ان نقبل التعريف الذي قدمه الجنرال « بوفـــر » للاستراتيجية ، وهو من الكتاب العسكريين الفرنسيين المعاصرين : « الاستراتيجية هي فن استخدام القوة لتحقيق هدف السياسة » [1] .

اذن فالقوة هي ركن اساسي من اركان الاستراتيجية ، وبـدون القوة لاتوجد استراتيجية،على حد تعبير الجنرال«بوفر» ، وهذا قول لاغبار عليه مطلقا . وفي التاريخ القديم والحديث هزم قادة لامعون في الحروب لانه لم يعد لديهم القوة الكافية لتحقيق اهدافهم الاستراتيجية .

ورب متسائل . . ماعـــلاقة الوحدة العربية بموضوع الاستراتيجية ؟ وللإجابة على ذلك نقول ان اهم هدف استراتيجي للامة العربية في الظروف الراهنة

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع راجع : دائرة المعارف البريطانية ، لاروس القرن العشرين(بند الاستراتيجية)، كما يستحسن الرجوع الى كتاب : الاستراتيجية وتاريخها في العالم لـ « ليدل هارت » ومجموعة مؤلفات الجنرال « بوفر » عن الاستراتيجية .

التي تجابهنا هو موضوع تحرير الاراضي العربية التي استولى عليها الصهانية بالقوة بمساعدة ودعم الامبريالية الامريكية، وخلق اسرائيل في المنطقة كقاعدة عدوانية مسلحة تحول دون تحقيق حرية الامة العربية ووحدتها، واعاقة اهدافها الاخرى في التقدم والبناء والمساهمة في اغناء الحضارة الانسانية عموما .

ولتحقيق هذا الهدف الذي نعتقدونؤمن بانه لاشرف لنا، ولا كرامةولا وطن اذا لم ننجزه ، لابد لنا من تأمين القوة اللازمة لتدمير الوجود الصهيوني في الاراضي العربية المحتلة .. ولقد علمنا التاريخ ان الغزاة لايمكن ان يخرجوا من الديار التي اغتصبوها اذا عزفنا لهم السمفونية التاسعة لبتهوفن . . او اذا توسلنا إلى المجتمع الدولي لاصدار قرار من مجلس الامن او من هيئة الامم بادانتهم وضرورة انسحابهم .. ولكنهم يرحلون فقط اذا استخدامنا ضدهم الاسلوب الذي استخدموه ضدنا : « العنف المسلح » ، ولا شيء غير ذلك . قال علي بن ابي طالب : « رد الحجر من حيث اتى .. فلا يدفع الشر الا بالشر » .

كيف نؤمن القوة اللازمة للتحرير ؟ . والجواب على ذلك نقول ان الوحدة هي التي تخلق القوة وتوجد الطاقة المادية والبشرية والمعنوية القادرة على تحمل اعباء المعركة .. التي ربما تستمر جيلا آخر .. لان الصراع بيننا وبين الغزاة الصهانية هو صراع حياة او موت ، ولا يمكن لنا ان نعيش وإياهم على ارض واحدة ..

ورب متسائل : هل من الضروري ان نتوحد لنصبح اقوياء ؟ . . الا توجد أوضاع افضل تحافظ على الكيانات القطرية الهزيلة ؟ .. وعلى مصالح المنتفعين من هذا الواقع المتخلف ؟ ..

ان الجواب على هذا التساؤل هو : « لا » قولا واحدا ، ذلك اننا لم

نسمع ولم نقرأ في التاريخ عن امة صنعت شيئا مها للحضارة الانسانية او لنفسها على الاقل وهي مشتتة ومجزأة ..

فالولايات المتحدة الامريكية لم تكن شيئا مذكورا قبل ان توحد ولاياتها الخمسون ، وكذلك فان الاتحاد السوفيتي ما كان بامكانه ان يكون الند القوي للولايات المتحدة لو بقي مجزءا ..

والصين الشعبية بعد ان توحدت في مقاطعاتها الثماني والثلاثين ، استطاعت في غضون بضع وعشرين سنة ان تبهر العالم وترغم زعيم الامبريالية العالمية ريتشارد نيكسون ، ان يهرع الى الصين في شباط الماضي .. مع ان وزير الخارجية الأسبق « جون فوستر دالاس » رفض ان يصافح وزير خارجية الصين وتجاهله بكل غطرسة .. في اوائل الخمسينات ..

اما الان فلا أحد يستطيع ان يتجاهل العملاق الاصفر ، فدول الشرق والغرب تحسبان له ألف حساب .

اذن الوحدة هي التي صنعت القوة في امريكا وفي روسيا وفي الصين .. والجنرال ديغول ما كان بامكانه ان ينهج في سياسته الخارجية منهجا وطنيا لوكانت الأمة الفرنسية مجزأة ولا تملك الرادع النووي .

والامة العربية اليوم في واقعها الراهن لايوجد امامها من طريق تمضي به الى النصر على اعدائها الصهاينة الا طريق الوحدة ... ومن هذا المنطلق علينا ان نناضل لكي نجعل من دولة الاتحاد القاعدة المادية الصلبة لبناء صرح الوحدة العربية الشاملة ..

وان جميع المناضلين العرب مدعوون لصب جهودهم في هذا التيار لتحريك الرأي العام العربي ودفعه نحو هذا الهدف .. وكل جهد مهما صغر مهم .. وكل عمل مهما بدا ضئيلا عظيم .

الدكتور إحسان هندي

القوميّة ودولة الوحدة

تعريفات عامّة

تحتل كلمات « القومية » و « الأمة » و « الدولة » مكاناً فريداً في صحفنا وكتبنا وإذاعاتنا وسائر أجهزة إعلامنا ، فلا تكاد تفتح صحيفة ما ، أو تستمع إلى أية محطة إذاعة عربية ، إلا وتقرأ هذه الكلمات أو تسمعها عدة مرات في اليوم الواحد :

فما هو المعنى الدقيق لهذه الكلمات الثلاث ، وما هو الطابع الذي سترتديه في « دولة الوحدة » العربية العتيدة ؟ ثم من جهة أخرى : ماهي صلة هذه الكلمات بكلمات أخرى تشبهها مثل « الحكومة » و « الشعب » و « الوطن » ؟ هـذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذا المقال .

أ – القومية :

كلمة « القومية » في لغتنا العربية مشتقة أصلاً من كلمة « قوم » والقوم هم من يقومون إلى القتال قومة الرجل الواحد ، فمعناها اللغوي في الأصل يرادف – والحالة هذه – مفهوم « العصبية القبلية » تقريباً . أما الآن فهو يبتعد – وخاصة في نظرية القومية العربية المعاصرة – عن مفهوم العصبية القبلية كل البعد .

ومن الصعب أن نأتي بتعريف جامع مانع لكلمة « القومية » لأن هذه الكلمة هي – ككل الأسماء المجردة – مفهوم نظري يصعب تعريفه بدقة . ومن جهة ثانية يجب ألا ننسى أن إعطاء تعريف للقومية يتأثر كل التأثر بنظرة صاحب التعريف إلى مقوماتها الأساسية مثل : اللغة والتاريخ والإرادة المشتركة ... الخ. ولذا تتعدد التعاريف بتعدد النظريات القومية على الأقل .

ويجب هنا أن نميز بين مفهومين أساسيين للقومية :

١ – المفهوم الواقعي :

والقومية حسب هذا المفهوم « هي الوجود التاريخي والاجتماعي والثقافي والسياسي الذي يميز أمة من الأمم عن غيرها »، فالقومية العربية حسب هذا المفهوم الواقعي هي « وجود الأمة العربية بشكل يميزها عن غيرها منذ أن ظهرت كلمة « عرب » في اللغات السامية ، وكلمة ARABIA في اللغة اللاتينية وحتى الآن .

وضمن هذا المفهوم يتشابه معنى كلمة « قومية » مع كلمة « أمة » ، وهذا ما نراه في تسمية « مجلس القوميات » الذي هو مجلس للأمم التي يحويها الاتحاد السوفييتي ، هذا بالرغم من أن بعض الباحثين السوفييت يفضلون استخدام كلمة « قوميات » بمعنى الشعوب التي تنضوي في دولة واحدة بينما يحتفظون بكلمة « أمم » للدول المستقلة تماماً.

٢ – المفهوم النظري :

والقومية حسب هذا المفهوم هي « الفكرة التي تعبر عن وجود الأمة وتجسده بحيث تعكس آمال الأمة وأهدافها خلال مرحلة معينة من مراحل التاريخ » .

وهذا المفهوم الثاني ، الذي يعبر عنه أحياناً بما يسمى « نظرية القومية » هو مفهوم قابل للتعديل والتطور والتبلور ، بعكس المفهوم الأول الذي يرتبط بالأمة ولا يزول إلا بزوالها .

وسيتوضح هذان المفهومان أكثر إذا قلنا بخصوص القومية العربية : إن الأمة العربية بدأت بالظهور كجماعة متميزة في التاريخ منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة. ولذا فالقومية العربية حسب المفهوم الواقعي

موجودة منذ ذلك الوقت . وأما القومية العربية حسب المفهوم النظري فهي المبدأ الذي يعبر عن هذا الوجود ويحدد أبعاده ، وهي بهذا المعنى لم تظهر إلا منذ قرن من الزمن لا أكثر ، وتبلورت في النصف الأول من القرن العشرين مارة بعدة مراحل من التطور ، كما هي الحال بالنسبة للنظريات القومية جميعاً .

وإذا شئنا الحصول على تعريف مقبول للقومية بشكل عام نقول « هي الرابطة التي تجمع بين أفراد الأمة الواحدة وتشدهم إلى بعضهم ، وتشعرهم بأنهم متميزون عن غيرهم من الأمم بجملة مميزات ثقافية أو حضارية أو تاريخية أو سياسية » .

وأما بالنسبة للقومية العربية بشكل خاص فيمكن تعريفها بأنها « عقيدة نابعة من أعماق الذات العربية ، ومن تفكير كل عربي ، بأنه ينتمي إلى أمة متميزة وذات خصائص أصيلة وطابع معين » .

وأول ما نلاحظه في هذا التعريف هو العلاقة الوثيقة بين مفهومي « القومية » و « الأمة » ، ولا غرابة في ذلك إذ أن كلمة « القومية » في مفهومها الواقعي تكاد ترادف – كما أسلفنا – مفهوم « الأمة » تماماً ، حتى أن المصدر اللغوي للكلمتين واحد في أغلب اللغات الأجنبية مثل كلمتي « Nation » : وتقابل أمة » و « Nationalisme » : وتقابل قومية » الفرنسيتين .

ب – الأمة :

كلمة « الأمة » في اللغة العربية مشتقة من كلمة « أمم » دلالة على الارتباط الوثيق بين أفراد الأمة الواحدة بحيث يكونون كالإخوة الذين ولدوا من بطن واحد . والاشتقاق اللغوي للكلمة الأجنبية « Nation » ليس بعيداً عن المعنى العربي ، لأن الكلمة مشتقة من فعل « Naitre » بمعنى الولادة .

وأفضل تعريف للأمة – حسب رأينا – هو التعريف الذي اقترحه عالم الاجتماع الأمريكي « ماك دوجال » في كتابه « عقل الجماعة The Group Mind » حيث يقول عن الأمة إنها تتألف من : « أفراد يشعرون بأنهم متماسكون تماسكاً طبيعياً بروابط لها عندهم من القوة والصدق بحيث يكون في ميسورهم أن يعيشوا بالسعادة والهناء إذا كانوا معاً ، ويصابون بالضيم إذا تفرقوا ، ويرفضون كل خضوع وانقياد للشعوب التي لا تشاركهم هذه الروابط » .

وقد اخترنا هذا التعريف دون غيره للأمة وذلك لأنه مرن ، يمكن انطباقه بدقة على أية أمة مهما كان وضعها والنظرية القومية التي تعتنقها ، لأنه لا يتورط بتحديد المقومات الأساسية للأمة بل يترك ذلك لظروف كل أمة وخصائصها وأهدافها .

فهذه الروابط التي يشير إليها التعريف توجد بين أفراد الأمة المستقلة كما توجد بين أفراد الأمة التي لازالت مستعمرة أو مجزأة أيضاً ، وهي يمكن أن تكون « اللغة » إذا كانت الأمة تعتنق النظرية الألمانية في القومية ويمكن أن تكون « التاريخ المشترك » إذا كانت تعتنق النظرية الايطالية . ويمكن أن تكون « المشيئة الواحدة » — أو وحدة الآمال والأهداف — إذا كانت تعتنق النظرية الفرنسية ، ويمكن أن تكون كذلك « وحدة العرق » إذا كانت تعتنق النظرية النازية ، ويمكن أخيراً أن تكون « وحدة المصالح الاقتصادية » إذا كانت الأمة تعتنق النظرية الماركسية اللينينية في مجال النظريات القومية.

وإذا حاولنا تطبيق التعريف المذكور أعلاه على الامة العربية — بحسب واقع هذه الامة وتطلعاتها حالياً — فإن التعريف الذي نقترحه للأمة العربية هو التالي :

« الامة العربية هي الجماعة البشرية التي يعيش أفرادها ضمن الحيز الجغرافي العربي — الذي يمتد من المحيط إلى الخليج ومن جبال طوروس إلى عدن والصحراء الافريقية الكبرى — ويتميزون عن غيرهم بتكوين نفسي خاص ناتج عن لغة مشتركة ، هي اللغة العربية ، وتاريخ واحد وتراث ثقافي واحد ومصالح واحدة مشتركة تجد تعبيراً لها في وحدة الآمال والاهداف » .

وقد حاولنا في هذا التعريف التركيز على الاركان الاساسية للقومية العربية التي تتمثل الآن باللغة العربية ، وبالتاريخ الواحد ، وبالتراث الثقافي الواحد ، ثم أخيراً بالمصالح الاقتصادية والسياسية الواحدة .

جـ — الدولة :

إن كلمة « دولة » في اللغة العربية مشتقة من فعل « دالَ » بمعنى دارَ الزمان وانقلب، وتغير ؛ وأما في اللغات الاجنبية فهي مشتقة — على العكس تماماً من الكلمة اللاتينية « STATUS » التي تعني حالة مستقرة(١).

والاشتقاق اللاتيني يمثل واقع الدولة الآن أكثر من الاشتقاق العربي الذي ينطبق على « الحكومة » أكثر من « الدولة »، لان الدولة مستقرة باقية — إلا في حالات استثنائية — والحكومة هي التي تتغير وتتقلب كما سيمر معنا .

والدولة كما يعرفها علماء الحقوق والاجتماع هي « جماعة من الناس يعيشون في أرض مشتركة مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة »(١) .

(١) انتقلت هذه الكلمة الى الانجليزية فأصبحت STATE ، والى الألمانية STAADT وأما بالفرنسية فلا تزال كلمة « Etat » تعني « دولة » إذا كُتب الحرف الأول منها كبيراً ، كما تعني « حالة » إذا كُتب صغيراً عادياً .

(١) عن كتاب « آراء وأحاديث في الوطنية والقومية » لساطع الحصري — ص ١٠ — الطبعة الرابعة — دار الكتب للملايين — بيروت ١٩٦١ .

فالدولة كما نستخلص من هذا التعريف تستلزم وجود ثلاثة عناصر إذن : السكان ، والأرض ، والسيادة .

١ ــ السكان La Population :

المقصود بالسكان هو جماعة الناس الذين يعيشون معاً على أرض الدولة، ولا عبرة لعدد السكان ، قلوا أو كثروا ، في ذلك ، حيث نجد هناك دولاً يزيد عدد سكانها عن ٥٠٠ مليون نسمة ــ كالصين مثلاً ــ ونجد دولاً أخرى بالمقابل لا يتجاوز عدد سكانها بضعة آلاف مثل الفاتيكان ، وأندورة ، وموناكو ، وسان مارينو (٢) .

وقد يطلق على عنصر السكان أحياناً اسم « الشعب Le Peuple » ، وهذا يعني أن الشعب هو العنصر الديموغرافي (السُكّاني) الذي يشكل الدولة . ومن هنا لا يُعتبر من قبيل الخطأ قولنا « الشعب السوري » « الشعب المصري » و « الشعب الليبي» طالما أنه هناك دولة باسم سورية وأخرى باسم مصر وثالثة باسم ليبيا . ولكن من الخطأ القومي الفادح أن نقول « الأمة السورية » أو « الأمة المصرية » أو « الأمة الليبية » لأنه ليس هناك إلا أمة واحدة في جميع هذه الدول ألا وهي الأمة العربية .

وقد أحسنت حكومة « جمهورية مصر العربية » صنعاً حين ألغت تسمية « مجلس الأمة » واستبدلتها بـ « مجلس الشعب» بحيث يُحتفظ بتعبير « مجلس الأمة » للمجلس الاتحادي الذي يمثل الدول الثلاث .

٢ ــ الأرض Le Territoire :

هي الحيز الجغرافي المعين الذي يحتله السكان بشكل مشترك ، وهو عنصر ضروري ولا غنى عنه لتكوين الدولة والاعتراف بها ، ولكن الدولة قد تفقد أرضها مؤقتاً فتشكل «حكومة في المنفى » . وليس من فرق بين أن تكون مساحة هذه الأرض كبيرة أو صغيرة حيث هناك دول تمتد على أكثر من قارة (الاتحاد السوفييتي) وهناك دول أخرى ليست أكثر من جزيرة صغيرة (مالطة مثلاً) .

وقد يُطلق على هذا العنصر اسم «الاقليم» كما يُطلق عليه أيضاً اسم « الوطن » لأن كلمة وطن ما هي في الأساس إلا نوعاً من المفهوم العاطفي لارض الدولة أو الاقليم . وهكذا نقول عن أرض الدولة « الاقليم » لما ننظر إليها نظرة مادية مجردة ، كما نطلق عليها اسم «الوطن» لما ننظر إليها عاطفياً من حيث أنها أرض الآباء والأجداد .

وحبذا لو نستخدم في هذا المجال كله «تراب»

(٢) راجع مقالنا « دول أوربة الصغرى » الذي نشرناه في مجلة « الشرطة » عدد ٦٣ كانون الثاني ١٩٧١ .

التي يستخدمها إخواننا الجزائريون في كتاباتهم لأن هذه الكلمة الأخيرة تجمع المعنيين المادي والروحي (العاطفي) معاً . ومن هنا يتبين لنا إمكانية وجود فرق دقيق بين « الوطنية » و « القومية » ، حيث أن الوطنية هي شعور الحب والولاء الذي يكنه الفرد المواطن تجـاه قطعة من الأرض هي « الوطن» . وأما القومية فهي شعور الحب والولاء الذي يكنه الفرد نحو جماعة من البشر هي « الأمة » . وستتوضح لنا نقاط التشابه والاختلاف بين هذين التعبيرين بعد قليل .

٣ — السيادة La souveraineté :

معنى السيادة هو أن يوجد في الدولة سلطة عليا تنبثق عن السكان لتنظيم حياة الجماعة . وهذا العنصر ضروري جداً لوجود « الدولة» والاعتراف بها وإن لم يكن ضرورياً لوجود « الأمة » نفسها التي لا تحتاج لأي اعتراف. والمثال على ذلك أنغولا وناميبيا الافريقيتان حيث لا ينازع أحد في أن كلاً منها تشكل أمة مستقلة عن الأمة التي تستعمرها (البرتغال بالنسبة للأولى وجنوب أفريقيا بالنسبة للثانية) ولكن أياً منها لم تستكمل بعد وضعها القانوني كدولة معترف بها لفقدان عنصر السيادة فيها.

وهكذا فالاستقلال — وهو مظهر أساسي من مظاهر السيادة — ضروري لوجود الدولة ولكنه ليس ضرورياً بتاتاً لوجود الأمة . صحيح أن المذهب القومي يدعو لأن يكون لكل « أمة » واحدة « دولة » واحدة ، بحيث تكون الدولة هي التعبير السياسي عن الأمة ، ولكن الواقع الدولي — للأسف — هو غير ذلك في كثير من الأحيان ، حيث أننا نجد في عصرنا هذا أربعة أنواع من الأمم:

أولاً — الأمة — الدولة Etat-nation :

وهي الدولة التي تنطبق فيها الحـدود السياسية الواقعية على حدود الأمة من الناحية الديموغرافية بحيث تحوي الدولة ضمن حدودها الأمة بكاملها .

وهذا الشكل هو الصورة المثالية في المجتمع الدولي حسب النظرية القومية ، ونجده — مع شيء من التجاوز — في عدد محدود من الدول مثل : فرنسة — ايطالية — السويد — اليابان — رومانيا — الخ .

ثانياً — الأمة المجزأة في أكثر من دولة :

ويكون ذلك حين لا تفلح الأمة في توحيد نفسها ولم شتاتها فتكون حدود الأمة أكبر من حدود الدولة ، أي أن الحدود المثالية القومية تكون أوسع من الحدود الدولية الواقعيـة .

وخير مثال على هذا النوع من الأمم هو الأمة العربية التي تضم حالياً ١٨ دولة مستقلة (هذا إذا أسقطنا من الاعتبار موريتانيا والصومال) ومساحات من الأراضي المقتطعة

والمغتصبة من قبل سلطات أجنبية(١) .

ثالثاً — الدولة متعددة القوميات :

وقد ينعكس الوضع السابق فتجتمع أكثر من أمة داخل نطاق دولة واحدة بحيث تحتوي الدولة على أمتين أو أكثر ، كما هي الحال في بلجيكا التي تحتوي أمتين هما الفالون والفلامنك ، وفي سويسرة حيث تتعايش ثلاث أمم ، أو بالاحرى أجزاء من أمم (وهم الفرنسيون والايطاليون والالمان) وفي يوغوسلافيا التي تضم ست قوميات مختلفة وفي الاتحاد السوفييتي الذي تعيش فيه حوالي عشرين قومية أو أكثر (٢) .

رابعاً — الأمة الممزقة :

وقد تكون عناصر الأمة موزعة على عدد من الدول ذات القوميات المختلفة عنها، بدون أن تنجح في الاستقلال عن أي من هذه الدول لتحكم نفسها أولاً وتلم شملها ثانياً .

والمثال على هذا الامة البولونية في القرن التاسع عشر حين كانت تتوزعها كل من بروسية والنمسا وروسية القيصرية . وأمة « الباسك BASQUE » في عصرنا هذا حيث هي مجزأة بين فرنسة واسبانيا .

وبما أن « الوطنية » هي عاطفة الولاء تجاه « الوطن » المتمثل بأرض الدولة ، « والقومية » هي عاطفة الولاء تجاه الامة ، ولذا فان هاتين العاطفتين لا تندمجان مع بعضها تماماً إلا في حالة واحدة من الحالات الاربع السابقة وهي الحالة الاولى (حالة الامة — الدولة) .

وأما في بقية الحالات فتختلف العاطفة الوطنية عن العاطفة القومية ، ولكن ليس من الضرورة أن تتنافرا أو تتعارضا، وخاصة في حالة الامة المجزأة إلى أكثر من دولة (كالامة العربية) ، حيث على حكومات الدول في هذه الحالة أن تخلق نوعاً من الانسجام بين المصالح الوطنية — المحلية والمصالح القومية — العليا ، لان الاختلاف بين هذه المصالح يسبب نوعاً من الانفصام العاطفي وتمزق الولاء في نفس المواطن نرجوا ألا يحدث بين ظهرانينا .

ولا يسعنا هنا إلا ان نلاحظ أن بعض البلدان العربية المغربية تستخدم خطأً كلمة « قومي » بمعنى « وطني » للدلالة على المؤسسات المحلية مثل تعبير « المركز القومي للسينما » بمعنى « المركز الوطني للسينما » ،

---

(١) هذه الأراضي هي فلسطين وسيناء والجولان التي يحتلها الصهاينة ، وعربستان والجزر الثلاث (أبو موسى ، طمب الكبرى وطمب الصغرى) التي تحتلها ايران ، ولواء اسكندرون الذي اقتطعته تركية ، والصحراء المغربية ومقاطعة افني ومدينتا سبته ومليلة التي تحتلها اسبانيا .

(٢) إن وضع الولايات المتحدة الامريكية يختلف حيث أن سكانها الذين ينحدرون من أكثر من مائة قومية — ينصهرون سريعاً ضمن بوتقة واحدة هي الدولة الامريكية .

وحبذا لو تم تغيير مثل هذه التسميات بحيث تحتفظ بصفة « قومي » أو « قومية » للمؤسسات التي تعمل على مستوى الوطن العربي ككل Ponarale .

وتطبيقاً لهذه الفكرة ليس من ضير أو حرج ان يكون هناك وطنية سورية ووطنية مصرية ووطنية ليبية طالما أن هذه الوطنية تسير ضمن اطار القومية العربية التي لا يجوز أن تكون سورية أو مصرية أو غير ذلك .

وخلاصة القول في مجال الفروق بين « الأمة » و « الدولة » ، أنه لا يزال هناك موجب للتمييز بين هذين المفهومين وذلك لاختلاف الواقع الدولي عن النظرية القومية المثالية التي تستهدف أن يكون لكل أمة دولة واحدة تمثلها . ولكن في انتظار ذلك نجد أن كيان الأمة لا يتوقف على تشكل دولتها العتيدة، لأن الأمة تكون موجودة ولو لم تكن قد تمكنت من تشكيل دولتها القومية لأسباب خارجية أو داخلية ، أو اذا كانت قد توصلت لاستقلالها ثم فقدته ، وكذلك في حال كون الأمة مجزأة وموزعة على عدة دول مستقلة لم تتوحد بعد .

وما الحركات القومية التي ظهرت منذ القرن الثامن عشر حتى الآن إلا نوع من « ثورة الأمم على الدول » ، استهدفت في بعض الاحوال انفصال الأمة عن الدولة التي كانت تحكمها ، وسعت في أحوال اخرى وراء توحيد شعوب الأمة التي كانت موزعة بين دول متعددة لتكون دولة قومية واحدة»(١).

★ ★ ★

وبهذا الشكل نكون قد أوضحنا الفروق الدقيقة بين جملة من المفاهيم التي يتصل بعضها ببعض وهي : القومية — الأمة — الدولة — الوطن — الشعب — الوطنية ، ولم يبق بعد إلا بيان الفرق بين كل من الدولة والحكومة من جهة ، وبين القومية والجنسية من جهة ثانية .

١ — الدولة والحكومة :

قلنا ان عناصر الدولة هي ثلاثة: الأرض والسكان والسيادة ، والعنصر الأخير هو همزة الوصل بين تعبيري «الدولة» و «الحكومة» لأن الحكومة هي التي يوكل اليها أمر ممارسة السيادة في الدولة ، سواء اتخذت هذه السيادة مظهراً داخلياً (كالقبض على مجرم) أو خارجياً (كإعلان الحرب على دولة اخرى مثلاً) .

وهكذا فالحكومة هي التي تضطلع بأعباء ممارسة السيادة في الدولة ، هذه الاعباء التي نسميها أحياناً باسم « الحكم » بكل ما تعنيه

(١) عن « ما هي القومية » لساطع الحصري — ص ٣٤ .

هذه الكلمة الاخيرة من صلاحيات ومسؤوليات.

وهذا الفرق بين الدولة والحكومة يقود الى فرق آخر وهو استمرار الدولة ؛ لانها هي الاصل والجوهر ، وتغير الحكومة لانها ليست اكثر من مظهر عارض ، ووسيلة لممارسة الدولة سيادتها .

٢ – القومية والجنسية :

العلاقة بين مفهومي « القومية » و « الجنسية » علاقة وثيقة ، إلى درجة أن الكلمتين نابعتان من نفس الاشتقاق في اللغات الاجنبية ولكن هناك في الوقت نفسه فرق دقيق بينها :

فالقومية Nationalisme هي علاقة عاطفية ذات مفهوم اجتماعي طرفاها الفرد والامة ، وأما الجنسية Nationalité فهي رابطة ذات مفهوم قانوني (تشبه العقد) بين الفرد والدولة التي يتبع لها .

ولتوضيح هذا الفرق بشكل أفضل نقول ، إن الانتماء لقومية معينة هو انتماء عقائدي ، مبني على العاطفة والشعور ولا يحتاج لاية إجراءات شكلية لاظهاره ؛ بينما نجد أن التبعية لجنسية معينة هي انضواء قانوني شكلي بوسع كل طرف فيه (الدولة من جهة ومواطنها من جهة ثانية) وضعه والتحلل منه .

وهذا فرق مهم بين القومية والجنسية من حيث أن من يتبع جنسية معينة بوسعه أن يتخلى عنها وأن تسقط عنه ، بينما لا يعقل بتاتاً أن يتخلى إنسان عن قوميته أو أن تسحب عنه هذه القومية لان هذا الانتماء للقومية شعور عاطفي تلقائي وليس أمراً اختيارياً أو شكلياً .

وعلى هذا يجوز أن يكون للانسان أحياناً أكثر من جنسية واحدة (مثل بعض المهاجرين السوريين في دول أمريكا اللاتينية الذين لا يزالون يحتفظون بجنسيتهم السورية بالرغم من أنهم اكتسبوا جنسية البلدان التي يعيشون فيها عن طريق التجنس ، وقد يصبح في حالات معينة « بلاجنسية Heimateose » حينما تسقط دولته جنسيتها عنه ولا يكتسب جنسية دولة أخرى بالتجنس (١) .

(١) بل نجد أنه من الجائز ، في بعض الحالات الخاصة ، أن يجد انسان ما نفسه يحمل جنسية معينة بينما هو في قرارة نفسه ينتمي الى قومية تناصب دولته التي اكتسب جنسيتها العداء كما هو الحال بالنسبة لعرب فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ حيث أنهم شكلياً يحملون الجنسية الاسرائيلية في الوقت الذي لا يزالون فيه يدينون بالولاء للقومية العربية من الناحية العاطفية .
[أما أهالي المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ فلا تملك اسرائيل فرض جنسيتها عليهم لأنهم لا يزالون حسب مبادىء القانون الدولي أردنيين أو سوريين أو مصريين : راجع كتابنا « قوانين الاحتلال الحربي » – إصدار الادارة السياسية للجيش – دمشق ١٩٧١ .]

بينما القومية لا يُعقل أن تتعدد أو أن تُسقط ، وإن كان بعض المفكرين لايعتبرون مجرد الانتساب السلبي إلى قومية معينة مبرراً لاعتبار شخص ما « قومياً » ويُصرون على أن يكون هذا الشخص مؤمناً بقوميته ويعمل من أجل رفعتها وتحقيق أهدافها لكي يستحق هذه الصفة .

وهذا يقودنا الى ايضاح فرق أخير بين « القومية » كفكرة ، و « القومية » كمبدأ أو كعقيدة : ففكرة القومية هي مجرد نظرية تحمل طابع السلبية في مفهومها ، وأما المبدأ القومي فهو ذو مفهوم ايجابي لانه اعتناق للفكرة القومية أو بالاحرى « وضع هذه الفكرة في مجال التطبيق وحيز العمل » .

★ ★ ★

وبعد أن حددنا بهذا الشكل مفهوم كل من « القومية » و « الامة » و « الدولة » وما يتصل بها من كلمات وتعابير ، ننتقل إلى الجزء التطبيقي من بحثنا وينصب على الطابع الذي يمكن أن ترتديه هذه المفاهيم في دولة الوحدة العربية المنشودة .

من المعلوم بالنسبة للدولة أنها يمكن أن تكون « موحدة » او « اتحـادية » : فالدولة الموحدة هي التي تمارس فيها السيادة حكومة واحدة بدون أن يشاركها في هذه الممارسة أي جهاز آخر . ولكن مركزية السيادة في الدولة الموحدة لاتعني مركزية السلطة أيضاً لان الدولة الموحدة نفسها يمكن أن تكون مركزية (حين تصدر الاوامر والتوجيهات المهمة كلها من حكومة العاصمة كحالة سورية قبل تطبيق قانون الادارة المحلية) أو لا مركزية حين تكتفي الحكومة بممارسة السلطة في القضايا الرئيسية والعامة وتترك ممارستها في القضايا المحلية والثانوية الى ممثلي الحكم المحلي (المجالس البلدية ، مجالس المحافظات ... الخ) .

وأما الدولة الاتحادية فهي التي تتعدد فيها الاجهزة التي تمارس السيادة وتتوزع بين الحكومة المركزية من جهة والحكومات المحلية للدول الاعضاء من جهة ثانية ، وهناك نوعان من اتحاد الدول في العصر الحاضر :

آ — الاتحاد الفيديرالي :

وتكون فيه السيادة بشكل رئيسي للسلطة الاتحـادية بينما تحتفظ الدول الاعضاء بصلاحيات الحكم المحلية . ويجري النص على كيفية توزع الاختصاصات في صلب الدستور نفسه وذلك بتعيين اختصاصات السلطة الاتحادية حصراً وترك كل ما عدا ذلك للسلطات المحلية (كحالة الولايات المتحدة الامريكية) . ويمكن ايضاً تبني العكس وذلك بتحديد اختصاصات السلطات المحلية في الدستور وترك ما دون ذلك للسلطات الاتحادية ، والطريقة الاولى أفضل

بالطبع (١) .

وأهم الدول الفيدرالية في عصرنا الحالي: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والبرازيل ويوغوسلافيا وألمانيا الغربية ... الخ .

ب ـ الاتحاد الكونفيدرالي :

وتكون فيه السيادة بشكل رئيسي للدول الاعضاء بينما يوكل للسلطة الاتحادية القيام بالاختصاصات العامة والمشتركة فقط : الخارجية ـ الدفاع ... وبعبارة أخرى يمكن القول ان اختصاصات السلطة الاتحادية في الاتحاد الفيدرالي تكون أهم وأشمل من اختصاصات حكومات الدول الاعضاء ، بينما تكون اختصاصات الحكومات الاعضاء ـ على العكس ـ أعم وأشمل في حالة الاتحاد الكونفيدرالي . والمثال التقليدي على الاتحاد الكونفيدرالي هو « الاتحاد الملفيتي » أي سويسرة ، هذا مع العلم أنه لم يبق من كونفيدراليته إلا الاسم حيث انقلب الى اتحاد فيدرالي كامل منذ بعض الوقت . وهذا ليس بالغريب إذ أن العصر الحاضر يخلق دوماً نوعاً من تركز السيادة بحيث تسير الدول الفيدرالية شيئاً فشيئاً نحو الوحدة الاندماجية ، وتتحول الدول الكونفيدرالية بدورها تدريجياً الى دول فيدرالية .

ولو أردنا معرفة موضع « اتحاد الجمهوريات العربية » الحالي في هذا التصنيف لقلنا إنه نوع من « الكونفيدرالية » التي تسير نحو الفيدرالية بنشوء المؤسسات والاجهزة الحكومية المختصة ، هذا إذا لم نعتبره نسيجاً قائماً بذاته Suigeneris (٢) .

ونحن نعتقد بأن نظام الحكم الذي يناسب دولة الوحدة العربية العتيدة أكثر من غيره هو النظام الفيدرالي لانه يؤمن حداً من التوحيد لا تؤمنه الكونفيدرالية من جهة ، ولانه يسمح لكل دولة عضو بأن تحافظ على شيء من خصائصها وطابعها من جهة ثانية لان الوحدة الاندماجية الفورية يمكن ألا تلائم دولاً عاشت منفصلة عن بعضها قروناً من الزمن على الاقل كحالة الدول العربية . ولا مانع طبعاً من تبني النظام الفيدرالي كخطوة أولى ثم السير به نحو الوحدة الاندماجية بالتدريج .

هذا بالنسبة للدولة ، وأما بالنسبة لحكومة هذه الدولة فنعتقد بأن النظام الجمهوري

---

(١) من الأمثلة على توزع ممارسة السيادة في الاتحاد الفيدرالي أن جمهوريتي اوكرانيا وروسيا البيضاء هما عضوان في الأمم المتحدة رغم مشاركة الاتحاد السوفييتي ككل فيها .

(٢) أما الوحدة التي كانت قائمة بين مصر وسورية بين ١٩٥٨ و ١٩٦١ فكانت وحدة اندماجية مبدئياً ولكنها اتخذت شكل اتحاد فيدرالي كمرحلة مؤقتة . والشيء نفسه يقال على مشروع الوحدة بين مصر وليبيا .

البرلماني هو أصلح أنواع الحكومات للدولة العربية العتيدة لانـه يوزع السلطات والاختصاصات بشكل يقف حائلاً دون نشوء أية نزعة فردية للانفراد بالحكم .

ومن البدهي أخيراً أن الامة التي ستشكل العنصر الديموغرافي (السكاني) لدولةالوحدة العتيدة هي الامة العربية التي يجب أن تكون صاحبـة السيادة في الوطن العربي بشكل وحيد وحصري . وهـذا لا يمنع حق بقية القوميات الصغيرة التي تعيش بين ظهرانيها (الاكراد - البربر - الارمن - الشركس - التركمان - الآشوريون ...) من متابعة المعيشة فيه والتمتع بخيراته بشرط ألا تنازع في حق الامة العربيةفي السيادة على أراضي الوطن العربي جمعاء أو تحاول مشاركتها في هذه السيادة ، لان أغلب هـذه القوميات الصغيرة قد لجأ الى بلادنا منذ زمن قصير هرباً من جور العثمانيين وغيرهم . وقد استقبلتهم الامة العربية فأصبح لهم ما للمواطن العربي وعليهم ما عليه ، خاصة وأن نظرية القومية العربية ليست مبنية على العرق وصفاء الدم ، والمواطن العربي - حسب تعاليم هذه النظرية - ليس هو من يمت بأصله الى قحطان أو عدنان وإنما هو الشخص الذي يتكلم العربية ويشعر بأنه فرد في الامة العربية ، يتحسس آلامها ويحاول الاسهام في إيصالها الى آمالها وأهدافها

الوحدة العربية والتاريخ

أنور الرفاعي

الوحدة العربيّة في تجلياتها عبر التاريخ

العرب والتاريخ :

أنا عربي ، أتكلم اللغة العربية ،وأعيش في أرض العرب ، وأعتز بالقومية العربية ، وأشعر شعور اخواني العرب ، في شتى الأقطار العربية ، وان بعدت بنا الشقة ، وتباين الوضع السياسي ، فأنا في دمشق ، أرتبط بأخي العربي في بغداد وفي القاهرة وعمان ، وفي الرياض وصنعاء ، وتونس والجزائر والرباط ، وبكل أخ عربي يتكلم لغتي ، ويشاركني آلامي وآمالي ، سواء قطن أرضاً عربية ، أو هاجر الى ديار الغربة ، مقيماً أو مستوطناً .

ما السر في هذه الرابطة التي تشدني الى مجموعة كبرى من البشر ، فأفاخر بانتمائي لها ، وأضحي في سبيل رفع شأوها ، واعلاء كلمتها وأحس أحاسيسها ، وأتفاعل مع مشاعرها؟ هل لأن الدم الذي يجري في عروقي هو دم العروبة ، الذي يخفق في قلب كل اخ عربي لي ؟ أم لأن الارض التي نعيش عليها،والسماء التي أظلتنا هما ارض عربية ، وسماء عربية مشتركة بيني وبينه ؟ ام ان التاريخ الطويل الذي ساهم فيه اجدادنا وسجلوا فيه اروع البطولات ، وحملوا فيه رسالة من رسالات الانسانية ، ومشعلا حضارياً اضاء جوانب الفكر ، كما اضاء ظلمات الجهل هو تاريخنا المشترك ؟

أنا عربي ، وكل عربي في ارض العروبة أخي في اللغة،اخي في الدم،اخي في التاريخ الماضي ، اخي في بناء الحاضر والمستقبل ، اخي في المشاعر والاهداف ، اخي وان لم تلده امي ، ولكن ولدته امتي وبلادي(١) .

انا واخواني العرب ، « وحدة »حقيقية، وحدة في الأصل والمنبت والتاريخ ،وحدة في اللغة والعقيدة،وحدة في الحضارة والثقافة، وحدة في « العروبة » تجمعنا هذه العروبة الواحدة ، وان كنا في شرق الارض او مغربها ، والعرب قد سموا انفسهم من اقدم الازمان ، بعرب الشرق او المشارقة، وعرب الغرب او المغاربة،وانتسبوا في كل الاحوال الى « عروبتهم الجامعة »(٢) ..

انا ، وكل عربي ، نرنو ونعمل لتحقيق وحدة سياسية تجمع شمل « امة العرب » في كيان سياسي واحد،وحدوياً كان اواتحادياً، فدرالياً كان او كونفدراليا ، موحد التنظيم السياسي في مجموعة ، ام تنوع هذا التنظيم، معقوداً في سلك « جامعة عربية » اومنتظما في اطار « دولة او دول عربية » ، ولكني، وكل عربي ، رغم اختلاف النظم القائمة في اقطار العروبة ، وتباين العقائد السياسية ، والعواطف نحو امم العالم بين شرق وغرب وحياد وعالم ثالث ، نشعر اننا نعيش في « وحدة اخوة » لحمتها الدم واللغة ،وسداها الآمال والآلام (٣) هي « وحدة

---

(١) أنور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ . دمشق ١٩٧١ ص ١١ — ١٢ .

(٢) عبد الرحمن البزاز ، بحوث في القومية العربية . القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٥٦

(٣) في مقال للدكتور عبد الستار الحواري أحد وزراء التربية في العراق(العربي العدد ٨٠ ص ٤٥ — ٤٦ يقول : ألحت في بعض الاسفار بمقر الامم المتحدة بنيويورك .. وكان للعرب في المجلس مندوب يمثل أقصى الغرب . فلما انفضت الجلسة ، أقبل الاخ العربي علي وهو قد ادرك ، مكان جلوسي انني واحد من ابناء الشرق العربي في أقصاه . وكانت تحية حارة ، وكان حديث مودة وأخوة يعرفها العربي كلما شقت به المدار ، فاشتاق الى لغته وبني قومه ، ووجد في أخيه =

قلوب » (١) ومشاعر وأحاسيس ، ووحدة ماضي ، عميقة الجذور ، اصلها في الارض وفرعها في السماء .

هذا الماضي الذي شهد النبتة الاولى لوحدة العرب ، وما زال يرعاها وينميها ، ويصيبها ما يصيب كل نبات على الارض ، خصب ، وتفتح زهر ، وثمر يانع ، ثم تعرية من الورق والمحصول ، الى حين ، مفرده حياة واخصاب . . . متى بـدأ ، ومتى ظهرت معالمـه ؟

هل وحدة العرب ، قد تجلت مع رسالة الاسلام ؟ ام ان العرب كانت « خير امة اخرجت للناس » من قبـل ؟ اذا لم يكن هناك شك ، عند المحب والمبغض ، ان فترة « العرب المسلمين » قد تجلت فيـها الوحدة العربية بأجلى مظاهرها وأبهى اشكالها ، فان هذه الفترة هي « مرحلة قصيرة في عمر الامة العربية التي لم تتجاوز بعد اربعة عشر قرناً من حياة العرب التي تعود الى ماقبل اربعين قرناً من ميلاد المسيح »(٢) ولأن تاريخ العروبة يمتد ضمن الاطار الحضاري الذي استقر فوق الرافدين وسواحل بلاد الشام وسهولها وسهول وادي النيـل ، وسهول اليمن وجبالها وسواحل المغرب وسهولها ، وهو تاريخ مترام في القدم ، سابق للزمن الذي اخترعت فيه الابجدية ووجد فيه الصفر ، لان هذا التاريخ هو تاريخ اقوام وشعوب تحدروا من الأصل نفسه الذي تحدر منه عرب الجزيرة العربية الذين حملوا رسالة الاسلام ، وتكلموا لغات مشتقة من المصدر نفسه الذي اشتقت منه لغة قريش التي نكتب نحن بها الآن ، وكانت لهم — عبر التاريخ الانساني — الخصائص الحضارية نفسها التي نزحت بعد الاسلام من جزيرة العرب ، منتشرة في وادي الرافدين ووادي النيل وبطاح الشام والمغرب(٣) . .

وحديثنا عن الوحدة العربية في تجلياتها عبر التاريخ ، هو الحديث عن امة العرب ،

= العربي دفء الوطن الام ، وربيع الامة الخالدة التي مازالت على الرغم من كل شيء أمة واحدة قائمة صامدة .

واقبل علينا صديق اوربي متعجباً يتساءل : هل لكما سابقة من معرفة أو سابقة من لقاء؟ وأجبته : إني ألقى أخي العربي لاول مرة ... ألم تسمعنا نحن العرب نقول : ان وطننا يمتد من المحيط الى الخليج . ها أنذا من القطر العربي الذي يقع عنده الخليج . وهذا الاخ العربي من الجناح الذي يقع على المحيط . انها اللغة العربية التي وصلت بين أبناء هذه الامة في هذا الوطن المترامي الاطراف ، يرتفع بها الصوت في وسط آسيا فيرن صداه في أقصى افريقية .

(١) د. أحمد زكي : العربي العدد ٨٨ ص ٨ .

(٢) أنور الرفاعي : مجلة المعرفة العدد ٤٢ .

(٣) المعرفة العدد ٤١ .

ووحدتها، منذ وجدت امة العرب ، وعربت ارض العرب ، واخذت تحيك عقد الحضارة عقدة عقدة ، لتصنع منها اسس حضارة الانسان،ولتحيك « البطانة والاساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن بعض كتاب الغرب خطأ انها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث . وكم يدهشنا حين نعلم ، كم من اعظم مخترعات الغرب الحديثة ، وكم من نظمه الاقتصادية والسياسية وما لديه من علوم وآداب ، وما له من فلسفة ودين، يرتد الى مصر والشرق(١) . اذ على مسرح الوطن العربي القديم « الأهل بالسكان ، وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والخدمات ، وعلوم الرياضة ، والطب ، والحقن الشرجية،وطرق صرف المياه، والهندسة ، والفلك ، والتقويم والساعات، وصورت دائرة البروج ،وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب ، وشيدت المكتبات، ونشأت الآداب والموسيقى،والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلي المصقول ، والاثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج ، واستخدمت أدهان التجميل والحلي، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمر ... على هذا المسرح عرفت هذه الاشياء كلها، واستمدت منها اوربا وامريكا ثقافتها على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان . وقصارى القول ان الآراميين لم يشيدوا صرح الحضارة، بل اخذوها عن مصر وبابل، وان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاءاً ، لان ما ورثوه منها اكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت الى مدائنهم مع التجارة والحرب»(٢) .

وهذا الحديث ، يلزمنا العودة الى الماضي السحيق ، نتلمس فيه الركائز الاساسية التي كونت امة العرب، ورعت تاريخهم الطويل.. وهنا لابد لنا من الاشارة الى اصل العرب.. وهل يوجد هناك جنس عربي .. وهل العروبة عرق صاف ، ام هي عروق امتزجت وتكون منها جنس معين ، ام هي لغة مشتركة ، وتاريخ مشترك وابداع فكري وفني وتقني مشترك ؟ كما لابد لنا من التطرق الى ارض العرب الاولى ، والأرض التي انساح اليها العرب وعمروها ،وربطوا مصيرها بتاريخهم، وما طرأ على هذه الارض من احداث ،وما

---

(١) ويل ديورانت : قصة الحضارة ج١ مصر ١٩٤٩ص ٥١ .

(٢) ويل ديورانت : قصة الحضارة ج٢ من المجلد ١ مصر ١٩٦١ص ١٠٠٩ .

اعتورها من تعديل في الحدود ضيقاً واتساعاً، ضماً واقتطاعـاً .. وعن حديث الارض والشعب الذي سكن الارض ، اي عن حديث البنية الطبيعية والبيئة البشرية والاجتماعية، تكونت وحدة العرب عبر التاريـخ .

بين تعبير الجنس السامي وتعبير الجنس العربي:

في ١٧٨١ ، طلع العالم الالماني اللغوي شلوتسر على الناس باصطلاح جديد هو .. السامية والساميون . وقصد بالسامية اللغات السامية ، وبالساميين الشعوب السامية ، واقتبس هذه التسمية مما جاء في الفصـل العاشر من سفر التكوين من انه كان لنوح عليه السلام ثلاثة اولاد هم سام وحام ويافث تحدر منهم البشر بعد الطوفان ، وعلى هـذا فجميع سـكان الارض اليوم يعودون بأصولهم الجنسية الى نوح بعد ان مات سكان الارض بالطوفان ، فهم اذن يعودون الى أحد الارومات الثلاث: سام ومن نسله اتى الساميون، وحام ومن عقبه اتى الحاميون، ويافث ومنه اتى الآريون .

فالسامية اذن ، حسب هـذه النظرية مصطلح علمي — واقعي ثابت — أطلق على كل من يتكلم لغة سامية كالبابلية والآشورية والفينيقية، والآرامية والحبشية والعربية(١) اذ الواقع يدل على ان مؤسسات هذه الشعوب الاجتماعية وطقوسها الدينية ، وسماتـها السيكولوجية ، وخصائصها الجسدية تكشف عن وجود شبه مذهل ، ولعل في ميسور المرء ان يفترض من غير ان يبتعد عن جادة الظن ، ان اسلافنا ، شكلوا ، في العصور الخالية ، جماعة واحدة ، وتكلموا لغـة واحدة واحتلوا مكاناً واحداً (٢) .

وأخذ بهذه النظرية كثير من الكتـاب لسهولة ارضاء غريزة النفس بمعرفة اصل الانسان وسلالاته الاولى ،وانقسامه الى فروع ولكن علماء اللغة والاجناس انكبوا على هذه النظرية يشرحونها ويفتشون في الوقائع المادية والاستنتاج العلمي ، مايؤيدها أو ينقضها ، وازداد اهتمامهم بها بعد طلوع دارون بنظريته عن « التطور .. وعن اصل الاجناس ، في القرن الماضي ، ومع تقدم علم اللغة وعـلم السلبشة (السلالات البشرية — الانتروبولوجيا) نقدت نظرية الاجناس السابقة وقبلت فكرة اللغات السامية ، ومازال النقد العلمي يدحض هذه النظرية باباً بابا ،حتى اسقطها من الحسبان ووضعها على الرف مع النظريات التي كانت سائدة في عصور مضت ، وبطلت حقيقتها في الوقت الحاضر ، لتحفظ كمقتنيات فكرية ، في متحف تطور الفكر البشري ، كما تحفظ العاديات في متاحفها الخاصة ..

وقد ذهب بعض الكتاب العرب منحى آخر في تفسير معنى « سامي » فقال الاستاذ

(١) روم لاندو : الاسلام والعرب ص ١٧ — ٢٠ (الترجمة العربية)

زكي الارسوزي : « وبهذه المناسبة نحاول ان نقشع الابهام عما لصق بكلمة سامي ؛ فقد جرت العادة ان ينعت العرب والاقوام التي تشعبت عنهم كالكلدانيين (بنو خلدة) والآشوريين (بنو شور) بالساميين ،ولكن بينا كان اجدادنا يعنون بالسامي المعنى الاشتقاقي للكلمة (سما يسمو سمواً) المعنى الذي يلتقي مع الاسطورة التي تقول بأننا اولاد السماء ، بينا كان الامر كذلك. واذا باليهود يحرفون هذا المعنى الى معنى آخر (سام بن نوح) ، شأنهم بتشويه معالم ثقافتنا شأن هجائنا الشعوب السامية (١) » .

وينبري كاتب عربي آخر لنقد تعبير السامية في التوراة هو الاب اسحاق ساكا فيقول : « والتسمية (السامية) بحد ذاتها لاتنحصر في الشعوب المنحدرة من سام فحسب ، بل تعم سائر الشعوب التي نطقت باللغة السامية « وان كانت غير سامية الجنس والدم . ويتضح هذا من مراجعة الجدول الخاص بانساب نوح الوارده في التوراة (تكوين ٢ — ١٠) اذ ترى عدم ذكر الكنعانيين بين ابناء سام لكونهم غير ساميي الجنس والدم ، في حين أن لغتهم تعتبر سامية محضة . ولقدقوم كثيراً من جعل الكنعانيين ساميين وشك في صحة الجدول التوراتي لعدم ذكر الكنعانيين بين ابناء سام . كما اخطأ « بروكلمان » بقوله : « ان بني اسرائيل هم الذين اقصوا الكنعانيين من الجدول السامي لاسباب سياسية ودينية » كما ننكر على الدكتور « ولنغستون » قوله : « نحن نميل الى الاعتقاد بان الرابطة التاريخية التي كانت تربط العبرانيين بالكنعانيين كانت قدتفككت عراها ، وامحت آثارها منذ عهد بعيد ،قبل خروج بني اسرائيل من الجزيرة العربية .. وهذا هو السبب في عد الكنعانيين من بني حام ، والصحيح الثابت ان الكنعانيين ساميون ، فبمخالطتهم الآراميين الساميين غلبت الآرامية على لغتهم الآرية حتى صاروا آريين ساميين ، ومثل الكنعانيين الاحباش، فهم حاميو الاصل وساميو اللغة . . ونتيجة البحث ان السامية اطلقت على الشعوب السامية الاصل ، النقية الدم،والحامية الناطقة بلغة الساميين ، لذا يجب التمييز مابين « شعوب سامية » و « لغات سامية »(٢)..

وحين كانت تتكشف هذه الحقائق العلمية، وتتجه سهام النقد الى نظرية العرب السامية. مال فريق من الكتاب الى استعمال تعبير « العرب الساميين » معتبراً العرب الذين

(١) زكي الارسوزي : الامة العربية : ماهيتها ، رسالتها ، مشاكلها دمشق ص ٥٩ — ٦٠
(٢) الاب اسحاق ساكا : معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى : العرب — الآراميين — العبرانيين . العربي عدد ٩١ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

سكنوا جزيرة العرب منذ القديم ، شعباً من الشعوب السامية ، واللغة العربية احدى اللغات السامية ... وقبل هذا الاستعمال ردحاً من الزمن ، لكنه لم يستطع الاستمرار أمام اضواء العلم الساطعة باستمرار ، فخفت صوت « العرب ـ الساميين » ليضمحل ، وتظهر صورة جديدة تحت الأنوار الكشافة وهي ، العرب دون ان تلصق بها أية صفة أخرى ، سامية أو غير سامية ، لأن الجماعة السامية هي « الجماعة العربية » وان « مهد الساميين الاول هو من هذه الجماعة العربية الاصل » (١) وان التسمية الصحيحة للأقوام السامية هي : الاقوام العربية(٢). وان كثيراً من العلماء اليوم يقررون أن الجنس السامي حسب الاصطلاح الدارج ، والجنس العربي ، هو الاصطلاح الأصح قد هاجر من مهده في الأصل الى جزيرة العرب ... »(٣) وان الأمة العربية قديماً وحديثاً هي الجنس السامي بأكمله ، ومنزلة جميع الوحدات السامية عند العرب منزلة الشعوب المتفرعة عن أمة واحدة ، مع دوام اتصال الفرع بالأصل ، واستمرار المدد من الأصل الى الفرع ، ومنزلة اللهجات السامية من اللغة العربية منزلة الفروع الدانية من الأصل الواحد (٤) ولن يضير هذا الرأي مخالفة النقاد ، كما اعتبره الدكتور محمود ابوسمرة .. فرق اله لاضرورة له لاثبات مقومات الوحدة ، في الوطن العربي يوقع الباحث في اشكالات تاريخية ذاتية وبيولوجية شائكة ليس من السهل النفاذ منها بسلام ، ويقودنا الى التناقض ، ذلك لأن وقائع التاريخ لاتبدو بمثل هذه السهولة (٥) .

وعلى هذا فاننا نعتبر جميع الشعوب التي كان يطلق عليها اسم الساميين ، شعوباً عربية فمثلاً : الأكاديون (البابليون والآشوريون) ، الآموريون ، الكلدانيون ، الكنعانيون ، ومنهم (الفينيقيون) الآراميون ، العرب .. هي اسماء اطلقت على شعوب من جنس واحد ، انشأت على لسان العامة ، من لقب لحق بجد من الأجداد او من النسبة الى مكان من الامكنة ،اولصفة من الصفات .. فالأكادي منسوب الى مدينة أكاد ... والأموري حوراني اصبح بابلياً

(١) الابراشي ورفاقه : الاساس في الامم السامية .

(٢) محمد عزة دروزة : الوحدة العربية ١٩٥٧ ص ٢٦ .

(٣) دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج١

(٤) محمد عزة دروزة : المرجع السابق ص ٢٨ نقلا عن الابراشي .

(٥) دكتور محمود أبو سمرة : في مقال نقد كتاب الشهر (الوحدة العربية لـ دروزة) العربي عدد ٣ ص ١٥٢ .

لما حكم مدينة بابل ، وظــل يلقب نفسه « ابا الآموريين » ، والكنعاني الذي تاجر مع الأغريق سمي فرنسياً ، والعربي هو السامي الذي توطن الغرب بالنسبة الى العراق ، والآشوري والآرامي من عنصر واحد . وكلا الأسمين يدلان على البداوة (١).

وإذا قبلنا ، ان نضع كلمة « عرب » مكان كلمة « سامي » اينما وجدت ، باعتبار العربي يمثل الجنس السامي ، واللغة السامية كما يفعل رجال الادارة ، حين يستبدلون تعريفــاً او اصطلاحاً او كلمة ، بتعريف او اصطلاح او كلمة أخرى ، مــع تغير القانون ، فان هذا يقودنا الى الحديث عن مهد الجنس العربي ، ومواطن الجنس العربي الأولى ... افلم تؤمن ... بــلى ... ولكن ليطمئن قلبي .

وقبل ان نستوفي خلاصة ماوصل اليه العلماء ، عن مهد الجنس العربي ، وموجاته المتلاحقة الــتي عربت منطقة واسعة من آسيا وشمال افريقيا ، وهي مايسمى منذ القديم والى اليوم والى الأزل ، بالوطن العربي لابد لنا من ان نستعير من علماء الجيولوجيا والجغرافيا القديمة والانتربولوجيــا بعض الحقائق العلمية التي وصلوا اليها لنستطيع ان نضع الحديث عن سكان الجزيرة العربية القدماء في موضعه من التصنيف والبحث العلمي ...

يقر العلماء ، ان الأرض ، قبل ان يخلق الانسان ، شهدت تطورات جيولوجيــة رهيبة ، وظهرت على الحياة باشكال مختلفة ومرت بمناخ متغير شديد لم تستطع ان تعيش بين الحيوانات الضخمة ، المزودة طبيعياً بما يقاوم هذا الجو الأرضي القاسي .. وما ظهر الانسان الا في اواخر الدور الجيولوجي الثالث وأوائل الدور الرابع بعد ان قضت الارض من عمرها آلاف ملايين السنين ، وان اقليم سطح الارض لم يمل الى الاعتدال كما تراه اليوم دفعة واحدة ، بــل اقتضى ذلك ردحاً آخر طويلاً من الزمن . وان ظروفاً مناخية متقلبه مرت على سطح الارض وضعها العلماء في « عصور » ، وانه في وقت ما ، وفي الوقت الذي كان يسمى بوف الجغرافيين بالعصر المطير ، كانت المناطق الصحراوية اليوم ، الــتي تشكل حزاماً صحراوياً قاحلا في مناطق « عروض الخيل » الجغرافية ، في شمال خط الاستواء ، وجزبه على بعد تقــارب وتناظر منه ، كالصحراء الافريقية الكبرى ، وصحارى جزيرة العرب .. كانت في العصر المطــير الجغرافي اراض معشوشبة تشبه مايسمى بارض السافانا الخصبة ، وكانت ترتع فيــا

(١) الشيخ نسيب وهيب الخازن : أوغاريت ص ٣٦ — ٣٧ .

الحيوانات وكانت مناطق جذب السافانا ، قد رسمت خريطة للارض في الالفين السادسة والخامسة قبل الميلاد ، لوجدنا ان الساحة الممتدة من شاطىء افريقيا الغربي الى جبال ايران كانت كلها منطقة متصلة من الحدائق والأراضي المعشبة ، وذلك ان ضغط الهواء البارد في العصر الجليدي كان يرغم رياح الأطلسي الرطبة ان تتجه مشرقاً بجنوب فتحطه في المناطق التي تحولت مع تبدل المناخ العام لسطح الأرض الى مناطق ضغط هوائي شديد ، عديمة الامطار (١) :

ولو رجعنا الى مخلفات انسان هذه العصور لوجدنا آثاراً لانسان مزارع يعيش وسط مياه متدفقة واعشاب خيرة . ففي جنوب الجزائر وليبيا حفر صيادو العصر الحجري القديم رسوم الفيلة والجواميس والزرافات على صخور نجدها الآن محاطة بمئات الاميال من قفر تستحيل فيه الحياة.. وفي الصحراوين الشرقية والغربية لوادي النيل كما في سورية، وفلسطين وجدنا ادوات ترجع الى العصور الحجرية القديمة .. ونفس هذه المشاهد في المنطقة الشمالية من الوطن العربي كانت تتكرر في المنطقة الجنوبية منه ، فالطرق التجارية التقليدية بين اليمن والحجاز والشام، وجنوبي مابين النهرين ، كانت في الاصل مجاري انهار متدفقة (٢) .

وقد اضطررنا الى هذا الاستطراد لندرك السبب الذي جعل العلماء يختلفون في تحديد المنطقة الاولى التي ظهر فيه ، ما كانوا يسمونه بالجنس السامي ، واتفقنا على تسميته بالجنس العربي ، لأنه لم يكن بمقدور هؤلاء العلماء، نفي المناطق الصحراوية الحالية من مأمن نشوء الجماعات البشرية وتكاثرها ، لأنها كانت في وقت من الأوقات مناطق جذب لا مناطق دفع كما هو حالها فيما بعد .. فترى مثلاً «نوكولن» المستشرق الألماني يعتبر المهد الاول هو هضبة ارمينية بينما يعتبره المؤمنون بالتوراة انه ما بين النهرين ، ويرى « راغناس غريدي » انه جنوب الفرات ، ويرى « بارتن » الذي قارن بين السامية والحامية ان هاتين السلالتين انحدرتا من اصل واحد ثم تفرعتا الى شعبين وأن موطنهما الأصلي كان شرقي افريقيا ، عبر منه الساميون الى جزيرة العرب وانتشر الحاميون في افريقيا(٣) بينما أجمع اكثرهم مثل شبرنجر وسايس وشرادر ودي كريه وهوبزي كرامن وبردكلن وكينك وجول ماير وكرل ، نتيجة لاستقراءات واستنتاجات

---

(١) هنري فرنكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى .

(٢) أنور الرفاعي : الانسان العربي والحضارة . لبنان ١٩٧٠ ص ٢٨ .

(٣) : ص ٢٦ راجع .

اجتماعية ودينية ولغوية وتاريخية أن الموطن الأصلي هو جزيرة العرب(١) .وهكذا نرى : شبه اجتماع على أن بلاد العرب الأصلية اي شبه جزيرة العرب ، كانت مهداً لجميع الشعوب التي ظهرت من عصور مختلفة في ربوع الهلال الخصيب(٢) وفي الشام وشمال افريقيا ووادي النيل . اذ أن الدراسات التاريخية المقارنة للغات السامية قد دلت على أن الجماعات السامية القديمة (العربية) هي جماعات بدوية عاشت مدة طويلة من الزمن في بيئة جغرافية واحدة واكتسبت من خلالها الخصائص اللغوية المشتركة التي يتبينها الباحثون في لغات تلك الجماعات وان تلك البيئة التي استقرت فيها تلك الجماعات الاولى البدوية هي جزيرة العرب(٣) .

اصيبت هذه الجزيرة بما اصيبت به مناطق عروض الحيل الجغرافية ،بالجفاف ، الذي أخذ يحول الأرض المعشوشبة الى سباسب فأرض جرداء.. وكان على السكان، أمام تحدي الطبيعة المستمر التأقلم . واتباع الحياة البدوية المتنقلة انتجاعاً للكلأ وطلباً لموارد الماء ، او الاستقرار في الواحات ، ولكن بعض السنين العجاف ، التي اصيبت به المنطقة ولمدة طويلة ، في فترات متعاقبة ، يفصل بينها مئات الأعوام ، جعلت بعض السكان ، يفرون من السغبة التي حلت بهم، ويتجهون من مناطق الصحوبة الدائمة .. الى مناطق الحضرية الدائمة ، على حد تعبير الجغرافيين ، أي من الصحاري الى وديان الأنهار الكبرى فكانت وديان دجلة والفرات والعاصي ، وساحل الشام ووادي النيل هي المناطق التي جذبتهم اليها ، فخرجوا اليها، تدفعهم غريزة حب الحياة ، وتحدوهم حياة افضل ، فعمروها وما زالت ارض الجزيرة كالقلب النابض . تغذي هذه المناطق بالدماء العربية، بشكل لايحفظ لها عروبتها فحسب، وانما يغلب على كل دم جديد قادم منخارج المنطقة العربية ، وقد أثبت تاريخ الحضارة ، أن ما من شعب دخل مقيماً او غازياً ، ارضنا الا وتأثر اكثر مما أثر ، فهو اما يخرج بعد حين كأن لم يكن بالأمس ، واماينصهر في بوتقة المحيط العربي ، ويذوب وتضيع معالمه الأصلية ، وذلك بشكل عام . ولا عبرة للشواذ النادر .

ولا يعني هذا القول ، التمسك بصفاء الجنس العربي ، ونقاوته عرقياً ، وعدم اختلاطه بغيره من الاجناس والشعوب ، بل يؤيد القول العلمي بأنه « ما من جنس

(١) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ .
(٢) دكتور نور الدين حاطوم : محاضرات عن الحركة القومية .
(٣) دكتور خليل يحيى نامي : مقال في العربي عدد ٨٥ ص ٩١ .

صاف على سطح البسيطة » لان حركة الشعوب واختلاطها وتزاوجها وتأثرها بعضها ببعض ، كان ولا يزال قائماً ، في كل أجزاء الارض ، قوياً حيناً وضعيفاً حيناً آخر ، شديد التيـار ضار ضال . . . اذ حركة الناس ، كدورة الهواء العامة لا تنقطع حتى حين نظن أن الهواء راكد لا يتحرك ... فأثناء الهجرات البشرية الكبرى والغزوات والحروب تبرز حركة الاختلاط الجنسي ، وأيام السلم تتمثل بالرحلة والتجارة ، ولكن حركة الانتقال لا تقف وبالتالي حركة الاختلاط الجنسي .

ورغم هذا القول العلمي العام فان جزيرة العرب . لا الاطراف ، لم تتلق منـذ مطلع العصور التاريخية ، اي حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد ، أية موجة بشرية تطغى عليها وتذوب عناصرها الخاصة ... وبقيت تلك القرون السحيقة الى القرن السابع بعـد الميلاد ، تحت تأثير جنس متشابه الملامح ، موحد الأصل ، كأنه ينبع من قلب الجزيرة العربية ويفيض على ما حوله ، ولهذا كان مصدراً لهجرات عديدة متعاقبة كانت تبدأ تجمعهـا وتكونها دوماً في قـلب الجزيرة الأوسط فيما بين الخليج العربي ونجد والحجاز ثم تنساح على الاطراف الخصبة في اليمن والشام والعراق لتبدل في تركيبها الجنسي ، فتحتفظ لها دوماً اتصالها بالاصل الصحراوي العربي من جهة ، ونسبة الدماء العربية في تكوينها من جهة أخرى . ولهـذا لا تزال نجد الى اليوم خاصة ، ان تركيب اليمن الجنسي لايختلف عن تركيب العراق او عمان او بـلاد الشام في غير بعض التفصيـلات المحلية . ونجد دوماً في الداخل الصحراوي في كل من البلاد عناصر مستطيلة الرؤوس ، وعلى الجبال عناصر مستديرة الرؤوس ، وفيما بين الصحراء والجبال ، وما بين تلك الجبال والبحر عناصر ذات رؤوس متوسطة او مستديرة(١) وانما مردُّ هذه الوحدة الى ان أنحاء الجزيرة العربية قد ألفت شملها وجمع فيما بينها منـذ اقدم العصور التاريخيـة المعروفة تلك الموجات من البشر(٢) المعروفة باسم الهجرات العربية القديمة ، والتي أقامت في بلاد ما بـين النهرين وبلاد الشام ومصر مع وادي النيـل عبر سيناء او القرن

(١) لمعرفة المقصود من هذه الاصطلاحات العلمية عن أثر شكل الرأس في اختلاف الاجناس يمكنك تراجع : انور الرفاعي – حضارة العرب منذ أقـدم العصور حتى ظهور الاسلام (الباب الاول) .

(٢) شاكر مصطفى : العرب في التاريخ . منشورات حزب البعث العربي الاشتراكي (المكتب الثقافي) – دمشق ١٩٥٠ ص ٥ – ٦ .

الافريقي . والتي ذهبت عناصر منها الى شمال افريقيا ، فحمــلت الدم العربي الى قارطاجة ومنها الى حوض البحر المتوسط الغربي .. ولا حاجة بنا لتعداد هذه الهجرات وبيان تاريخ حدوثها التقريبي(١) .

لانريد ان نغوص في اعماق التاريخ ، لنكشف النقاب عن اصل كلمة عربي،وعربي، ونردد هنا مختلف النظريات ، ونسجل تاريخ اول مرة استعملت فيها هذه الكلمة من النقوش التي عثرنا عليها،لأن المهم ، ان هذا الاصطلاح درج على السنة الناس منذ عهد لايمكن تحديده ، لأن ما جاء في النقش الأشوري للملك « سكنا حر » الثالث عن جندب العربي الذي يعود تاريخه الى عام ٨٥٤ ق.م لايعني ان هذا الملك هو اول من استعمل هـذا الاصطلاح، بل كان مستعملا قبله واستخدمه في اخبـاره ، وكذلك فان « هيرودوت » المؤرخ اليوناني ذكر جزيرة العرب بهذا الاسم في كتاباته وكذلك وردت لفظة العرب في التوراة في مناطق كثيرة منها ..

وانما الذي نريد ان نشير اليه هو نظرية ان بين العرب التي تجعل العرب ثلاثة اقسام :

١ ــ العرب البائدة وهم سكان الجزيرة العربية الاصليون كعادوثمود وطسم وجديس وإرم وجرهم وغيرهم وقد ضاعت اخبارهم وآثارهم ، ولانفهم عنهم اكثر من التلميح

(١) من الاقوال التي رددها الكتاب في هذا الشأن :

قال هردر : « كان العرب في زمن الجاهلية ، منتشرين خارج جزيرتهم ايضاً فأقاموا ممالك صغيرة في العراق وسورية ، وكان بعض قبائلهم يقيم في مصر . وكان الاحباش منحدرين عن عرقهم .

سيديو : تاريخ العرب العام . (الترجمة العربية) ص ٣١ .

« ان أقواماً سامية من عرب آسيا ، طرأوا على وادي النيل وعموا فيه لغتهم وصبغوه بصبغتهم ، كما هو ظاهر من النقوش العربية القديمـة ، وان لغتهم حافظت على ساميتها بمرور الزمن » .

هنري بريستو : تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسي .

« ان المصريين والسودانيين من أصل واحـد ، وانهم جاءوا الى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال » .

دكتور كمال حسن : تاريخ السودان القديم .

«ان كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها يتركب من عناصر سامية حتى أجروميتها »

غوستاف لوبون : الحضارة المصرية .

الذي اشارت اليه الكتب السماوية كالقرآن الكريم .

٢ ـ العرب العاربة او العرب العرباء (اي العرب الحقيقيون) وهم نسل قحطان،

٣ ـ العرب المنسوبة او المتعربة (اي الذين روتهم الدماء العربية فحولتهم عرباً ، وهم نسل عدنان وبذلك يحصر النسابون العرب ، عرب الجاهلية على الاقل بفرعين كبيرين : عرب الجنوب من أولاد قحطان وعرب الشمال من نسل عدنان .

ويضيف كثير من الباحثين إلى ذلك فرعاً ثالثاً يشمل اولاد نقاعة ، ونقاعة هـذا جد تنوخ وتغلب وجهينة وغيرها ممن لم تنتسب الى شمال او جنوب .

وهذه النظرية التي اعتاد كتاب العربية اعتمادها مع ما ينقصها من تأييد علمي يجعلها حقيقة ثابتة ، مما يزيده من بعض مظاهر الخلاف بين عرب الشمال وعرب الجنوب الذي برزت آثاره مع انتشار القبائل العربية مع الاسلام فانها لاتمنع ان ننظر الى التاريخ العربي القديم من زاوية أخرى ، بعد انيثبت لنا علمياً ، بان الكلدانيين مثـلاً والبابليين والآشوريين ، والآموريين والفينيقيين والكنعانيين والآراميين والانباط والغساسنة والمناذرة والهكسوس والقارطاجيين وعرب اليمن وعرب الحجاز، وعرب البوادي ماهي الا مجموعات بشرية خرج بعضها من الجزيرة العربية واستوطن مناطق جديدة ، واتخذ أسماء جديدة ، كما يتخذ الاولاد أسماء مميزة ، لاينفي اختلافها وتعددها صلتهم بالاب المشترك وانما لابد لذلك للتعريف بها ... فهي اذن مجموعات تنتمي الى عرق او جنس واحد.. وهي وحدة تاريخية وبشرية وحضارية منذ وجدت وتنقلت في ارجاء الوطن العربي الكبير واعطته صفته البشرية العامة .

وقد سبق لي ، ان اقترحت في كتابي ، « الانسان العربي والحضارة » و « الانسان العربي والتاريخ » ان نجعل تاريخ العرب في الاقسام التالية :

١ ـ العرب القدماء ، ويضم جميع الشعوب العربية القديمة الـتي سكنت الجزيرة العربية ، او اطرافها كوادي دجلة والفرات وبلاد الشام ، او التي عمرت وادي النيل ، او التي انتقلت الى شمال افريقيـا فأقامت دولة قارطاجة ، وقد كانت هذه الشعوب ، مع اختلاف اسمائها ومناطق سكناها ذات أصول حضارية متشابهة وان اختلفت في بعض المظاهر ، لأن الصلة بينها كانت دائمة مستمرة ، لاصلة الهجرات المتعاقبة من الوطن الأم الى الأطراف فحسب ، ولا صلة التحام الجيوش فحسب ، بل صلة التجارة التي أقرّت التمازج والاقتباس والتأثر والتأثير كل في الآخر ، واذا كانت مصلحة التاجر

في وجود تباين في الأدوات ونوع الانتاج وأسواق الاستهلاك لتبقى التجارة رائجة ، والربح مضموناً ، فان قوافل التجار وسفنهم ، كانت هي العامل الأكبر في ربط المراكز الحضارية العربية القديمة بعضها ببعض ، وكانت اقوى من جيوش الغزو والفتح ومن التوسع الامبراطوري وكانت رغم رغبة التجار في استمرار التباين لحاجة التجارة الى نقل المصنوعات والمواد المتوفرة من منطقة الى اخرى تفتقر اليها ، فانها كانت في نفس الوقت تقرب الصلة وتقوم بعملية التلقيح .

وقد تأثرت هذه الشعوب العربية القديمة بالبيئة الطبيعية ، فاختلفت مظاهر الحكم فيها مثلاً او بعض المظاهر الدينية ، او الفنون المعمارية ، ففي وديان الانهار الكبرى ظهرت الامبراطوريات كالعراق ومصر ، وفي المناطق الساحلية الضيقة او السهول التي تفصلها الانهدامات ظهرت حكومات المدن كساحل الشام وداخله ، واعتبر بعضهم الشمس اكبر الآلهة ، واعتبر بعضهم الآخر القمر ، واعتمدت الشعوب في بناء حضارتها على ما تمد به طبيعتها ، فكان بناء مابين النهرين من الطين او الآجر لافتقار المنطقة للحجارة بعكس مصر التي شادت من الحجر اهرامها ومعابدها ونحتت تماثيلها .

٣ ـ عرب الجاهلية ، ويضم عرب الجزيرة الاوائل خلال قرنين او ثلاثة قرون قبل الاسلام .

٢ ـ العرب المسلمون : ويضم تاريخ العروبة الذي اقترن بالاسلام .

وقد لاقى هذا الاقتراح عند كثير من أهل الرأي والفكر قبولاً .

ونحن اذا قبلنا به مرة اخرى ، فانه يرشدنا سواء السبيل الى الوحدة العربية في تجلياتها عبر التاريخ ، لاننا اذا اغفلنا موقتاً الجانب الديني الذي كان الحافز المباشر لخروج عرب الجزيرة الى الاقطار المجاورة لنشر تعاليم الاسلام ، والذي طغى على كل العوامل وتغلب عليها ، فاننا نستطيع ان نرى الوجوه الاخرى لما سمي بحركة الفتح العربي الاسلامي ، اذ لم يكن انسياح عرب الجزيرة الى ارض الشام ومصر جديداً ، ولاول مرة مع ظهور الاسلام ، بل كان تاريخ الجزيرة وتاريخ هذه المناطق سلسلة متصلة الحلقات قبل الاسلام بآلاف السنين مستمراً لا انقطاع فيه ، تارة يكون ضعيفاً لايلفت نظراً ولا يثير اهتماماً ، واخرى يكون قوياً بشكل جماعات تكافح وتقاتل وتجاهد لتستبدل الارض القاحلة ، والسنين العجاف بالأرض الخصبة والسنين الخيرة المعطاءة . ثم لم تكن هذه الحروب التي شهدتها هذه المناطق مع جيوش العرب المسلمين جديدة على المنطقة ، فان الهجرات العربية

التي ألحنا اليها لم تتم سلمياً ، وانما أتقنت، بدافع غريزة حب البقاء ، أن يهاجم البدوي المناطق الخصبة المستقرة، والمدن العامرة، وأن يدافع أصحاب هذه المناطق على ما يملكون. وما سيرة قيام الدول العربية القديمة في أرض العراق من اكاديين وبابليين وكلدان.. والحروب بين المناذرة والغساسنة واصطناع الطرفين لبعض القبائل العربية ، وحركات امتداد الغزو العربي في عهد الامبراطورية الى الشام ، ووصول النجدات الشامية في عهد زنوبيا ملكة تدمر لنصرتها ومساعدتها على التحرر من الحكم الروماني ، وما هذا كله الا فصول في تاريخ المنطقة تتكرر باشكال واسماء مختلفة . ولم تكن حوادث ما يسمى بالفتح العربي الاسلامي الا واحداً من هذه الفصول ولا تزال تتكرر وتتتابع الى يومنا هذا فيردف الريف المدينة ،وتردف البادية الريف، وتبقى الجزيرة الخزان البشري والقلب النابض ، وتحفظ على المنطقة وحدتها .

وكما كانت وحدة العرب قائمة قبل الاسلام بآلاف السنين ، فانها وضحت للناس جميعاً بعد الاسلام ، فكان الاسلام عامل وحدة جمعت سكان الوطن العربي في مصير واحد .. رغم ما فيه من اختلاف في الدين او الجنس. لان الاسلام كان « حركة عربية اصيلة » فقد نشأ والتشر في بيئة عربية خالصة ، باللغة العربية الفصحى ، لغة قريش التي أجمعت الآراء على أنها الرابطة اللغوية والعنصرية للعرب جميعاً ، وحمل العرب رسالة انسانية نبيلة تدعو الى الحرية والمساواة والإخاء والعدل(١) ..

وكان الرسول العربي، زعيماً قومياً لجميع العرب ، على اختلاف عقائدهم ، كما كان رسولاً أميناً للمسلمين، وكان القرآن ، كتاب المسلمين الديني ، وكتاب العرب القومي .. وعامل الوحدة القائمة حتى اليوم ، وما بقي من يتكلم العربية(٢) ..

(١) نور الدين حاطوم : محاضرات عن المراحل التاريخية للقومية العربية . مصر ١٩٦٣ ص ٦ .

(٢) قال طه حسين في مؤتمر الادباء الثالث عام ١٩٥٨ : « المكوث الحقيقي للوحدة العربية بجميع انواعها وفروعها — الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ايضاً انما هو النبي عليه السلام الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق ... ولم يكد القرن الثاني الهجري ينتهي حتى تنظر الى القرية العربية فنجدها ليست هي الجزيرة وحدها ، وانما هي قبل كل شيء في هذه البلاد التي فتحت والتي امتزج فيها العرب بغيرهم من سكان البلاد الاصليين ..اذن أنشأ الاسلام=

ولعل فيما اورده زعيم عربي(٣) ، عن لقاء العربي المسلم بالعربي قبل الاسلام ايام المملكة الاولى للفتح العربي ، ما يشير الى وحدة العرب قبل الاسلام وبعده حيث قال: « في يوم من أيام التاريخ البعيد ، انتظمت خطى آبائنا في مركب الفتح ، من قبل الجزيرة العربية الى فلسطين ، الى مصر ، الى برقة ، الى القيروان وفاس ، الى مرمى الموج من شاطىء الاطلسي ، الى قرطبة واشبيلية ولشبونة ، الى ليون من ارض فرنسا ... ثم لم يعد أحد منهم بعدُ الى الجزيرة ، لانهم لم يشعروا قط بالغربة في بلد نزلوه ، ولم يشعر اهل بلد نزلوه بأنهم غرباء بينهم .. وفي اليوم نفسه من ذلك التاريخ البعيد سارت جحافل آبائنا الفاتحين من قبل الجزيرة العربية الى دمشق ، الى حمص وحلب ، الى الفرات ودجلة ، الى الموصل وما وراء النهر ... ثم لم يعد أحد منهم كذلك الى الجزيرة ، ولم يشعر بغربة ..

وكانت هذه الموجة العربية الجديدة ، قد أبرزت ووضحت رسم حدود الوطن العربي ما بين جبال الموصل ، وما بعد جبال اطلس ، وهي نفس الحدود التي اقام ضمنها العرب القدماء ..

ولهذا كان طبيعياً حين أسس العرب المسلمون امبراطورية كبرى ضمت ارض الوطن العربي القديمة ، وأراض اخرى ، ثم تجزأت هذه الامبراطورية ، اذ استعادت البلاد غير العربية كفارس مثلاً وباكستان ، وآسيا الصغرى .. وجهها القومي الاعجمي واحتفظت باسلامها ، وهو الدين المقتبس ، بينما احتفظت المنطقة العربية الاصلية ، بطابعها القومي وهو العروبة ، والعقائدي وهو الاسلام ، ولم تستطع جميع الجهود المبذولة في العصور التي تلت الى يومنا هذا ، والى يوم يبعثون تغيير هذا الوجه . فلا الحروب الصليبية ولا حملة « الفرنسة » المسعورة التي حاولها المستعمرون الفرنسيون

= أمة جديدة ، وجعل هذه الامة عربية ، عربية اللغة ، وعربية التفكير والشعور ، وعربية الحضارة ، وعربية الادب » .

وقال أمين نخلة : « ان ملة القرآن والانجيل تتلاقيان ، حتى كأن الاسلام اسلامان، واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة » . وقال الياس خليل : « محمد هو لنصارى العرب كما هو لمسلميهم ... ومولد ابن عبد الله القرشي مولد للقوة ، ومحرر للجهاد لاخوّة عربية مقدسة » . وقال الشاعر القروي في مقدمة ديوانه : « أنا واحد من سبعين مليون من العرب كل واحد منهم انا » .

(٣) الرئيس جمال عبد الناصر في مقدمة كتاب عن افريقيا . اقرأ : أنور الرفاعي : الوطن العربي ص ٢١ – ٢٢ من مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق ١٩٦٠ .

في المغرب العربي وخاصة في الجزائر ، او « الطلينة » التي حاول الايطاليون جعل ليبيا بها . ان تغير او تبدل او تحرف من وجه هذه المناطق العربية .

مما تقدم ، نرى أن سكان الوطن العربي الحالي ، عاشوا منذ عمر هذا الوطن بالانسان ، وفي رياض تاريخ هذه المنطقة ، ويعيشون اليوم ، في وحدة طبيعية وبشرية وحضارية ، رغم ما كانت تعيش فيه دول لهم متفرقة اصطنعوها ، مختلفة الاسماء متعددة الحكام ، في المظهر السياسي ، الا الشكل الظاهر ، الذي لا يستطيع أن يغير الجوهر .. وما قيمة وحدة سياسية ينقصها وحدة القلوب والعواطف ووحدة الدم واللغة ووحدة التاريخ ووحدة الآمال والآلام ... وأنت اينما تنقلت في ارجاء الوطن العربي الحالي . ألا تحس أنك في وطن واحد ، وبين ظهراني شعب متجانس يحمل نفس المشاعر ؟.

ولو أن اللغة وحدها كانت حلقة الوصل بين أبناء العروبة تلقاها راسخة فكيف اذا كان نسيج الوحدة ، لحمة وسدى ، أصل ولغة وعقيدة وماض وحاضر وأمل بالمستقبل ؟.

الدكتور أحمد طربين

الوحدة العربية بين الصيرورة والوجود

كنا بالأمس البعيد أمة واحدة ، حددت اهدافها تحديداً قبله العرب في جميع اقطارهم ، وعلى مختلف نزعاتهم وطبقاتهم ، لأنه يعبر عن معنى وجودهم ؛ فهذا النبي العربي يشرّع لأمة العرب وحدتها : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » ، وهذا الخليفة عمر يشرّع حريتها في قوله:

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ». ويشرّع اشتراكيتها في قوله: « فإنما الرجل وحاجته ، والرجل وجهده ، والرجل وسابقته » . ويشرع مساواتها في قوله : « ليأتين الراعي وهو بجبل صنعاء رزقه من بيت المال وهو في مكانه » . وهذا السلطان صلاح الدين ينهض من وسط الضعف والتفكك ، وقد رأى جموع الفرنجة تطوّق دياره نتيجة تناحر الأمراء وتباعد الحكام ، فيوجه رسالته المشهورة الى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين: « كونوا يداً واحدة وأعضاء متساندة وقلوباً يجمعها ود وسيوفاً يضمها غمد ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان ، والكفر مجتمع على الايمان » . والحديث عن انتصار صلاح الدين هو حديث الانتصار على الفرقة والتجزئة والانقسام : انتصر بعد حروب دينية استعمارية طاحنة دامت قرنين ، وكفاه يوم النصر ان خرج المغلوبون من القدس تحت ظلال سيوفه .

لقد قامت الامة العربية في ظل هذه الاهداف المحددة بفتوحات سريعة وعظيمة ، أعقبتها حركات ثقافية وحضارية جبارة ، أوصلت العرب الى أعلى المراتب في العلوم والآداب والصناعات .

ولكن الأمة العربية خضعت لسنّة التغير والتطور كسائر الأمم ، فانقطعت عن التقدم ، وتخلفت عن قافلة الحضارة ، وبقيت لقرون طويلة تزداد تخلفاً وتأخراً في جميع الميادين .

وقد تأخرت خاصة في ميدان خطير الشأن هو ميدان الوعي القومي ؛ فلم تشعر شعوراً واضحاً بوحدتها ، ولم تقدّر تقديراً كافياً الاضرار والعواقب التي تحل بها نتيجة تخلفها عن التطورات العالمية في هذا الميدان . لقد خضعت الشعوب العربية للحكم العثماني عن رهبة أو رغبة أو عجز ، وظلت مدة طويلة كأنها مخدرة مستسلمة لسلطان الخلافة في اسلامبول ، الى أن استفاقت أواخر القرن التاسع عشر بتأثير انبعاث الروح القومية ، واعتناق الترك للفكرة الطورانية موخراً وأخذهم بتنظيم شؤون دولتهم المتداعية على أساس قومي .

حافظت الاقطار العربية على وحدتها في ظل الحكم العثماني ، وكانت القاعدة أن تعيش كل ولاية على دخلها الخاص ، وتدفع الى خزانة الدولة قدراً معقولاً من الجزية ، لان السلاطين تحققوا أن أسلوب الحكم اللامركزي ،

وبساطة الجهاز الاداري واعتدال الضرائب مما يقربهم الى قلوب الناس .

وربما كان أسوأ وجوه الحكم العثماني هو تميّزه بالرجعية والمحافظة على نحو ابقاءما كان على ما كان . ولما كان العثمانيون يعدّون وظيفة الحكم شيئاً ثانوياً في حياة المجتمع، ويعتبرون أن الشؤون الحكومية الاساسية أربعة هي حفظ الأمة ، والذود عن البلاد ، وجباية الأموال العامة، والقضاء ، فانهم تركوا ماعدا ذلك للجماعات والهيئات والطوائف ، تديره وفقاً لعرفها وتقاليدها . ولذا كان قصارى م الحكومة أن تحافظ على الأوضاع الراهنة لئلا يتطرق إليها أي تجديد أو تغيير ، خشية أن يؤدي إلى زعزعة البناء التقليدي الاداري الموروث .

فالرعايا في الولايات متفرقون حسب انتمائهم لجماعات أهل الحرب أو أهل العلم أو الشرع أو الكتابة، أو الفلاحة أو الحرف أو التجارة . يدورون في أطر طوائفهم وهيئاتهم واهتماماتهم التقليدية ، ولم يكن قد ظهر فيهم أساس أو فكرة لبناء تضامني جديد وكان يصح أن يظهر بين الأهلين زعيم يطالب برفع الظلم عن قومه ـ العرب ـ فأكثر الظلم واقع عليهم ، وأن ينادي بأن الظالمين غالباً من الغرباء . ولكن يبدو أن الذين انتقدوا الظلم لم ينتقدوه على هذا الأساس وانما انتقدوا تقصير الحاكم في أداء واجباته نحو المحكوم.

فلا عجب إذا جمد المجتمع العربي في أطره القديمة، وتوقف عن هذا النمو، واتسم بشيوع روح التواكل وانعدام الحوافز واهمال مرافق البلاد . وزاده سوءاً اختلال توازن القوى المهيمنة على الادارة والحكم ، واصطناعها العصبيات المسلحة للاحتماء بها ، واضطرارها لارضاء نزوات أخلاطها في الانتهاب والانتهاب ولذلك لم يؤد الحكم العثماني إلى قيام علاقات اقتصادية وثقافية بين مختلف الأقطار العربية أكثر توثيقاً من ذي قبل .

إن أسباب تأخرنا في ميدان الوعي القومي كثيرة متنوعة ، ولكن أهمها في نظري هو : الأوضاع السياسية التي خلقتها المطامع الاستعمارية في الأقطار العربية ، والنزعات الاقليمية التي تولدت عن تلك الأوضاع .

استولت دول الاستعمار على مختلف الأقطار العربية ـ قطراً بعد قطر ـ في تواريخ وظروف متباينة استمرت منذ الربع الأخير من القرن الماضي الى الربع الأول من القرن الحالي . ومضت تحكمها بأساليب متنوعة ونظم تشريعية وادارية واقتصادية وثقافية خاصة . ثم ان انقسام أقطار الوطن العربي على هذه الصورة الى دول متعددة تتميز كل منها بعلم خاص ونقد خاص وحكومة خاصة ونظم خاصة . . . أوجد بعض النزعات الاقليمية التي أعاقت تقدمنا في ميدان الوعي القومي . وكان لابدّ أن ينجم عن تعدد الدول

وتعدد نظمها اختلاف المفكرين فيها حول المسائل الأساسية التي تمس كيان الأمة وتتصل بصميم حياتها .

ان القضية في آسية العربية التابعة للحكم العثماني قبيل الحرب العالمية الاولى ، كانت القضية العربية بوجه عام لا القضية السورية أو العراقية أو الأردنية أو الحجازية بوجه خاص . ومعلوم أن اقطار آسية العربية رزحت تحت الحكم الاجنبي بعد قرن واحد تقريباً من امتداد السيطرة الاجنبية الى أقطار افريقية العربية ، فالنادي الذي تأسس في الآستانة بعد اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ لجمع شمل العرب ، كان يحمل اسم (النادي العربي) . ورئيسه عبد الكريم الخليل كان يفاوض رجال الحكم في عاصمة السلطنة العثمانية بوصفه ممثلاً للشبيبة العربية لا بوصفه ممثلاً للشعب في سورية أو في العراق أو لبنان . والاتفاقية التي تم التوصل اليها تشير صراحة الى انها عقدت بين ممثل الشبيبة العربية ، وبين ممثل الحزب الحاكم في السلطنة العثمانية . ولايوجد في مواد الاتفاقية أي ذكر لمصطلحات كيانية دولية سياسية كسورية أو العراق أو لبنان . . بل تسودها دائماً أحكام تتعلق بالعرب وبحقوق العرب وبلغة العرب . والثوره التي انطلقت من الحجاز لتحرير المشرق العربي لم تكن حجازية ، بل كانت عربية حمل ألويتها عدد كبير من المناضلين والمقاتلين الشبان من مختلف أقطار العرب . وان مجلس المديرين الذي تشكل في سورية الداخلية بعد تحريرها كان مجلساً عربياً يضم رجالاً من شتى أقطار العرب ، رئيس المجلس كان حجازياً ، ونائب رئيسه كان سورياً ، ومدير شؤونه العسكرية كان عراقياً ، ومدير الامور العدلية كان لبنانياً ، ومدير شؤونه المالية كان فلسطينياً . ولا حاجة الى القول ان تعريف هؤلاء الرجال بهذه التسميات قد جرى بناء على الاوضاع التي استحدثها الاستعماريون فيما بعد . وأما حينذاك فمن المؤكد ان هذه التسميات لم تكن تخطر على بال احد . والوصف الذي يجمع هؤلاء ويعرفهم هو انهم جميعاً من العرب . وبديهي أن التجزئة التي تمت انما جرت لا مراعاة لمصالح الاهلين وحقهم في تقرير مصيرهم ، وانما مراعاة لأطماع الاستعمار الاوربي ، وتمشياً مع مبدأ التعويضات المتقابلة في اقتسام مناطق النفوذ وقطع ما كان يصل بين اقطار المشرق العربي من ناحية وبينها وبين أشقائها أقطار المغرب العربي من ناحية أخرى .

لم تكتف قوى الاستعمار بتحطيم الوحدة السياسية التي نعم بها العرب على أرض وطنهم الأكبر إبان الحكم العثماني وماقبله ، وانما تآمرت أيضاً على مابقي موحداً من أقطار الوطن العربي في آسيه العربية ، وهو الهلال الخصيب وبذلك تكاملت عملية الغدر والاحتلال التي فرضها

الاستعمار على أقطار الوطن العربي ، فقسمته الى (٢٥) وحدة سياسيه ترزح تحت حكم الفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والاسبان، في آسيا العربية وافريقية العربية . وبذلك أيضاً فقدت الأقطار العربية حرية التواصل والترابط ، وتوقفت عملية الصهر والاندماج والتماثل التي كانت تجري عبر العصور ، وتوجب على العرب أن يناضلوا الرقع لير الأجنبي أولاً ، ثم يعملوا للتواصل والتقارب من جديد وازالة حواجز القطيعة والانفصال والسجن الانفرادي المفروضة عليهم ، والتي أوجدها مرور الزمن مايؤيدها في النزعات الاقليمية والمصالح المختلفة المزعومة .

وكان من الطبيعي أن تتبلور الدعوة للوحدة العربية عشية الحرب العالمية الأولى فلاتشمل بنظرها سوى أقطار المشرق العربي، لأن المعركة كانت قائمة آنذاك ضد الدولة العثمانية ، والبلاد العربية التابعة لها في آسيه العربية ، والمحددة في ميثاق دمشق (١٩١٥) الذي كان يعبر عن حصيلة الفكر العربي في موضوع الوحدة حتى هذا التاريخ . وفي أواخر الثلاثينات تتصاعد ردود الفعل العربية باطراد ، وتشارك فيها مصر الشعبية لا الرسمية، فضلاً عن العراق وأقطار آسيه العربية . وتشهد الفترة مابين الحربين التي سارت جهود العرب خلالها من أجل التحرر والوحدة جنباً الى جنب ، عودة الصيغة الجمهورية للدعوة الوحدوية العربية بنتيجة وفاة فيصل ومن بعده غازي من ناحية، وتشهد من ناحية أخرى تزايد التجاوب الشعبي بين أقطار المشرق العربي وبين وادي النيل ، عن طريق فلسطين . وقد عبر عن هذا التجاوب في خطاب ألقاه في مؤتمر بلودان الذي انعقد بعد شهرين من نشر توصية تقسيم فلسطين (١٩٣٨) . حيث قال :

« ان فلسطين للعرب جميعهم ، وليست لأهلها فقط ، وهي صلة الوصل بين العرب في آسية وافريقية . وليس على أهل فلسطين ان ينفردوا بالدفاع عنها أو تقرير مصيرها واذا انقطعت او انقطع جزء منها ، انفرط عقد العرب وباؤوا بالهوان ، فلا يعقل ان يسلم العرب لأي شعب من الشعوب بالاستيلاء عليها وعلى جزء منها . وعليهم أن يكونوا صفاً واحداً في مقاومة نشوء دولة يهودية وتنفيذ فكرة التقسيم ، وعليهم بذل كل جهد والتوسل بكل وسيلة لدرء الخطر المحدق بالعرب أجمعين » .

وتشعر بريطانية بحرج موقفها سياسياً وعسكرياً بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١) واضطرارها الى اعادة الملكية الى العراق على أسنة الحراب البريطانية، فتحاول دعم مركز بغداد واستباق تطورات مابعد الحرب العالمية الثانية باعادة تتويج الهاشميين مجدداً على الفكرة الوحدوية في المشرق ، فيبرز في جو المفاوضات والمشاورات الجارية في القاهرة والاسكندرية (١٩٤٤ - ١٩٤٥) مشروعا الهلال الخصيب وسورية الكبرى . ولكن

المشروعين بصطدمـــان بالجمهورية السورية وبالنزعة القومية الخالصة الصادرة عن سورية كما يصطدم بمقاومة الاسرتين المصرية والسعودية وتظهر جامعة الدول العربية التي لم تكن في حقيقة الأمر خطوة نحو هدف وحدوي معين بقدر ما كانت مشروعاً مضاداً لابطال المشاريع الوحدوية الجزئية الماضية، وللمحافظة على الوضع الراهن وبقيت الجامعة ـ أساساً ـ جامعة للوحدات والكيانات السياسية، لا وحدة وكياناً سياسياً في حد ذاتها . وهكذا فان أول جهد بذلته (الدول) العربية التي اقامت معظمها تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى، لاعادة الوحدة في الأربعينات ، كان نجاحاً محدوداً جداً ان لم يكن فشلاً كاملاً . ولا حاجة الى القول ان فشل الجامعة تقع مسؤوليته على الدول الأعضاء التي ليست للجامعة عليها أية سلطـــة ملزمة . فتصميم معظم الدول على اتباع خطة تجعل المشاكل والاعتبارات المحلية سبقاً على القضايا الحيوية التي تهم العرب في مواجهتهم للسيطرة الأجنبية ومخططاتها ، كانت تفتقر الى سعة الافق والى التمرد على الوضع الأرضي الراهن .

وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حققت الجماهير العربية النصر في معـارك التحرير الوطني ، وبدأت تتسلم مسؤوليات الحكم ، وأخذت تمارس عملية مراجعـة معتقداتها السياسية والاجتماعيـة السابقة وتعيد النظر في سلم القيم . وكان أكثر ما يشغل بالها مسألة تغيير معالم المجتمع القديم ليس فقط بالقضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم واقامة عدالة اجتماعيـة وتدعيم الجيش الوطني وترسيخ مبادىء الديمقراطية ، وانما أيضاً برفض المساومات والحلول الوسط والتفكير الاصلاحي والانطلاق من الايمان بأن ممارسة الاستقلال هي بالضرورة دفـع التقدم نحو الوحدة العربية عن طريق انشاء مؤسسات سياسية واقتصادية وثقافية تحول التضامن التاريخي العفوي بين الأقطار العربية الى حقيقـة فعلية تفرض نفسها على تحديات الحضـارة الحديثة والسياسة الدولية بما يتناسب مع أهميتها البشرية والاقتصادية والاستراتيجية.

ثم ان ضياع فلسطين(١٩٤٨-١٩٤٩) أقنع الجماهير العربيـة بأن الاستقلال ليس نهاية المطـاف ، وأنه ليس بد من اجراء التغيير الاجتماعي والسياسي الجذري ، وان صيغة جامعة الدول العربية لا بد من تجاوزها وان القيادة الواعية قومياً واجتماعياً ضرورة مصيرية من أجل وجود العرب واسترجاع كرامتهم .

ان عبرة النكبة الفلسطينية التي مازالت طرية في عيون ملايين العرب الذين عاشوها كانت تدفعهم لسؤال المعذب والحاسم ، لماذا أضعنا فلسطين ؟ وتوالت الاجابات مشفوعة بمعاذير ومبررات لم تقنع جيـل الشباب . ونادى القوميون الثوريون باتهام القائمين على الوضع القطري الراهن ، ونسف منطق

السيادات الاقليميـة السياسية ، وارساء أسس اتحاد عربي قومي .

ان تجربة الجامعة أثبتت بشكل حاسم ان تعاون الحكومات العربيـة كان يتحطم على صخرة السيادة الفردية ، وعلى صعيد العلاقات الدولية مع العالم الخارجي .

وبينما أعلنت الفئات المثقفة الواعيـة والاحزاب العقائدية وكثير من الضباط الشبان ، وقطاعات عماليـة وحرفية من جماهير الوطن العربي عن رغبتهـا المشتركة في التغيير الشامل ، كان الحكام والرسميون من ناحيـة اخرى يصرّون على التمسك بالوضع الراهن . واتسعت الفجوة بين الرسميين وجماهير الشعب وتفاقمت حدتها باستياء عبّر عن نفسه احيـانـاً بالهمس المتزايد ، وأحياناً في النجاح بالقيام بعمل حاسم حينما تكون الظروف مواتيـة . من ذلك مثلاً النصر الذي تحقق في الإطاحة بالحكم التقليدي في سورية عام ١٩٤٩ أولاً ، ثم في مصر بنصر حاسم عام ١٩٥٢ ، وما جرى من تغيرات جذرية وأقل جذرية في بناء المجتمع وتوجيه الحكومات والدساتير في بعض الاقطار العربية الاخرى بعـد منتصف عام ١٩٥٢ .

وكان الأمل ان كسب معارك التحرير الوطني ضد الاحتلال الأجنبي سيؤدي الى تحقيق الوحدة وعودة الأمر الطبيعي الى نصابه الأصلي ، واستعادة الحالة الطبيعيـة التي شوهتهـا دول الاستعمار في التقسيم التعسفي الذي قطعوا به أوصال الأمة العربية ولكن الوقائع أظهرت في كل دولة طبقة من الحـكام والسياسيين وطلاب الوظائف الذين ارتبطت مصالحهم بالحفاظ على الوضع الراهن .

هـذا إلى أن المثقفين والمفكرين الذين يتوسطون عادة الشعب والقيادة السياسية كانوا يتحملون قسطهم من المسؤولية عن (انفصالية) أقطارهم ، لأن الشعوب وعلى رأسها هؤلاء المثقفون والمفكرون فشلوا في اقناع حكوماتهم بأنهم جادون في تحقيق الوحـدة .

وان الاشياء المتعاظم من عجز جامعـة الدول العربية ، مصحوباً بمشاعر الفجيعة التي ولدها سقوط معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي التي جرى توقيعها عام ١٩٥٠ كرد فعل على نكبة فلسطين ، ثم ما كان من تمزق هذه المعاهدة وإنكارها في الشهور الأولى لعام ١٩٥٥ ، قد دفـع بأنصار الثورة إلى السير قدماً على طريق الوحدة ابتداءً من النصف الثاني من العام نفسه .

إن القوميين الوحدويين في مسعاهم لاقامة مؤسسات سياسية أوثق وأقرب إلى

فكرة الوحدة من الجامعة ، وجدوا أمامهم سبيلين :

١ – ان يحولوا الجامعة الى أداة سياسية فعالة وحدوية – اما باعادة النظر في ميثاقها أو بواسطة تدابير تكميلية تتبناها داخل اطارها .

٢ – أن يوجدوا صروحاً جديدة لوحدة عربية مستقلة عن الجامعة .

وأدرك القوميون الوحديون أنه لا بد من توفر شرطين اذا أريد تجسيد الوحدة في شكل أوثق من الجامعة وهما :

١ – كشف عجز الجامعة عن تحويل نفسها الى وعاء للوحدة بسبب التيارات المتصارعة والمتوازنة في اطارها ، وأن يظهر ذلك عملياً للحكومات وللرأي العام الشعبي العربي .

٢ – مضاعفة الجهد لتقوية الوعي القومي وايقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة الامة العربية، والانتقال من طور الصيرورة الذي تمر به القومية العربية الى طور الوجود ، وحينئذ تتوضح السبل أمام الوحدة وتزول العقبات وتنهار العوائق بكل سهولة . اما اذا بقي الشعور القومي ضئيلاً والايمان الوحدوي ضعيفاً فان اتفه العوائق تبدو بمثابة أكبر التحديات فتتعطل الجهود أمام أولى الصدمات وتنهار العزائم أمام أصغر المشاكل .

وحين تقوى فعالية الشعب وحين يستقطب المفكرون القوميون قواه النزوعية ويوصلونها الى الحكام ، وحين يصبح وزن الرأي العام حاسماً ، فان واضعي سياسات الدول لا بد أن يسترشدوا بنوازع الشعب نفسه ، ويستوحوا من مصالحه وارادته العامة، وبهذا يمكن اضعاف القوى المعوقة للوحدة .

ان الوفاء بهذين الشرطين للقيام بالتحويل القومي المطلوب، قد استغرق من العرب أكثر من اثني عشر عاماً ، ولم تظهر ثماره إلا في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٨ ، حين ترجمت نفسها الى حقيقة ملموسة بقيام الجمهورية العربية المتحدة فوطئ على سورية ومصر تحت جناحيها وعبّرت لأول مرة عن تحقيق مضمون هذين الشرطين وبنجاح محدود أرضياً .

لقد جاءت وحدة القطرين تتويجاً لانتصارات قومية متلاحقة حققتها الثورة العربية بنضال جماهيرها في مطلع الخمسينات، ابتداء من الاصداء القوية التي أحدثتها الثورة المصرية (تموز ١٩٥٢) في الآفاق العربية من أقصاها الى أقصاها. وتجاوب الشعب العربي مع التجربة الثورية المصرية بعد بروز هويتها العربية ، وكسر احتكار السلاح، وتأميم القناة ومواجهة العدوان الثلاثي، وإحباط المؤامرات على سورية لمحاولة عزلها عن مصر . وعلى صعيد القطرين فالظروف كانت متشابهة متماثلة من حيث تحررهما ومقاومتهما للاحلاف الاستعمارية الغربية ومعاناتها من التناقضات الحزبية الداخلية .

وكانت شخصية جمال عبد الناصر كقائد ثوري صلب قد احتلت مكانتها في النفوس، فأصبحت رمزاً لوحدة النضال العربي من أجل تحقيق أهداف جماهير العريضة في التحرير والوحدة ولم يكن بد من التقاء القائد العربي المصري بحزب البعث والقوميين والوحدويين في سورية على صعيد وحدة الهدف والعمل وتماثل المواقف تجاه تحديات البيئة الدولية التي كانت تتجسد في الصهيونية وحلفائها الامبرياليين .

وبعد خمسة شهور من قيام الجمهورية العربية المتحدة ، انهار حلف بغداد الاستعماري ، وسارعت الجمهورية الفتية لمعونة الثورة العراقية ضد ما يتهددها من الاخطار بموقف مشهود شل مؤامرات العدوان عليها . وسارعت جماهير الشعب في لبنان العربي لطرد الانحراف من منصة الحكم متأثرة بالتيار الوحدوي الذي امتد إليها من دولة الوحدة ، وخطت بلبنان خطوات رئيسية الى الامام من حيث ارتباطه كدولة بالقضية القومية العربية .

ولو أن المبادرة ظلت في يـــد القوميين الوحدويين وقتها لـكانت بغداد تشارك دمشق والقاهرة أعراس الوحدة ، ولـكان اللقاء السوري المصري العراقي موضوعياً أكبر تحد عرفه العرب وأعداؤهم في العالم العربي الحديث بعد أن طال غياب العراق عن مسؤولياته على حدود العدو .

ولكن تحالف عناصر الانتهازية الفردية مع الشعوبية المحلية عرقل هذا اللقاء التاريخي المرتقب ، ثم جاء الانقضاض في الموصل وكركوك وبغداد على صفوف الوحدويين، وسقط العراق في حفرة سحيقة تطوقه عزلة يسهر عليها فلول الشعوبية وأنصار الوضع الراهن .

وكان انحراف ثورة العراق مما شجع الاقليمية البرجوازية المرتبطة بالاستعمار على فك الوحدة بين القطرين السوري والمصري بعد اعلان قرارات تموز الاشتراكية لعام ١٩٦١، هذا الى ضعف التنظيم الشعبي وعدم كفايته لحماية دولة الوحدة وتطويرها أجهزة الحكم عن التطور الى مستوى العمل الثوري الشعبي كل ذلك أدى الى حدوث أخطاء في التطبيق هي أخطاء طبيعية تصادفها كل وحدة قومية في التطور الأول من ترسيخ جذورها ، نتيجة تباين المراحل التاريخية التي كان للقوى الاقليمية والاستعمارية أكبر الاثر في اقامـــة سدودها وافتعال ازماتها .

وأدركت الجماهير المفجوعة بأعز أمانيها أن معاركها مع الرجعية البرجوازية لن تنفصل عن معاركها مع الصهيونية والامبريالية ، ولذا تضافرت جهودها لتفجير الثورة في اليمن (ايـلول ١٩٦٢) ، وتوالت هجمات الجماهير ففجرت ثورة رمضان في العراق ، وأطاحت بالحكم الفردي المنحرف . وقامت ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ في سورية ورفعت شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية وأعلنت أنها سوف تغسل عـار الانفصال ،

وأوشكت دنيا العرب ان تعيش فرحتها الكبرى حين أذيع بيان الوحدة الاتحادية الثلاثية في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٣ بين أقطار سورية والعراق والمتحدة ، لولا أزمة الثقة بين البعث في دمشق وبغداد وبين القاهرة ، وحلول الريبة والشك محل التكاشف الأخوي والحوار البناء . فتعقدت الأمور ، ولم تجد بنود الميثاق سبيلها الى التحقيق على أسف عميق وحزن ظاهر من جماهير الأمة العربية .

لقد كانت تجربة الوحدة السورية المصرية تجربة حاسمة في تاريخ النضال الوحدوي ، فقد تركت نكسة الانفصال وراءها درساً بالغ الاهمية والخطورة ، وهو أن الوحدة لا يمكن انجازها إلا بتحالف قوى الشعب العاملة ذات المصلحة الحقيقية في الوحدة ، على اعتبار أن هذه الوحدة هي الوسيلة الوحيدة المؤدية الى تحطيم مراكز القوة الاستعمارية والبرجوازية التي تسلب القوى الشعبية حقها في خيرات بلادها ونتاج عملها .

وعلى اعتبار أن الوحدة هي المعبر الوحيد الموصل الى مجتمع الكفاية والعدل ، وأنها هي السلاح الحاسم لانتصار الجماهير العربية على الاستعمار والتخلف والتبعية الاقتصادية والتجزئة السياسية . وعلى اعتبار أن الوحدة (الى ذلك كله) هي الحل الحتمي لمشكلة الدفاع عن الحرية والحفاظ على الديمقراطية . فلا نكران أن التجزئة تحول دون التحام جماهير الامة العربية ، بحيث تبقى جماهير كل قطر محصورة داخل حدودها الاقليمية ، تواجه منفردة الحكم الانفصالي القائم بكل وسائل قمعه وردعه .

ان افتقار التنظيمات الحزبية والقومية في الوطن العربي الى الرؤية الواضحة المستندة الى الفكر التحليلي الانتقادي والمعرفة الجدلية ، قد أدى — قبل نكسة الانفصال وبعدها — الى عجزها عن تفهم طبيعة القوى الاجتماعية والسياسية القادرة على تطوير الوحدة وحمايتها . وقد انعكس هذا العجز بنوع من التأثير السلبي على قضية الوحدة سواء في طعنة الانفصال ، أو في قصور التنظيمات الحاكمة عن تحقيق خطوات عملية وحدوية أخرى ما بين ١٩٦١ — ١٩٧٠ . وذلك على الرغم من الايمان المعلن بحتمية الوحدة كحركة تاريخية واجتماعية قادرة على فك الترابط العضوي بين السيطرة الاستعمارية والتخلف الاجتماعي ، وبين التجزئة القطرية وإقامة اسرائيل في قلب الوطن العربي .

صحيح أن القوى الوحيدة القادرة على إنجاز الوحدة هي القوى التي يدفعها وعيها

لمصالحها الى النضال والتضحية من أجل الوحدة ومقاتلة جميع أعدائها . ولكن نجاح هذه القوى لا يكون مضموناً إلا اذا جرى تحقيق الوحدة بين اقطار يسودها نظر عقائدي واحد وتنظيم سياسي واحد يستوعب نظر وتجارب الثورات الوحدوية في الوطن العربي .

لقد أكدت تجارب العمل الوحدوي بعد الانفصال أنه يتعذر تحقيق الوحدة بين قطرين يسودهما تنظيمان سياسيان منفصلان متباعدان ولو كانت اهدافها المعلنة واحدة أو متطابقة وبخاصة اذا تحكمت فيها عقد الماضي القريب ذلك أن قضية الوحدة بالاضافة الى تلاحم مضمونها القومي بمضمونها الاجتماعي تشترط وحدة التنظيم السياسي الجماهيري الطليعي في الاقطار العربية المؤهلة للوحدة وبعبارة اخرى لابد لدولة الوحدة من وحدة الطليعة القائدة فكرياً واستراتيجياً وجماهيرياً .

وان أخطر محنة يتعرض لها المناضل الوحدوي تأتيه عن ذلك الذي (جماعة أو فرداً) يعتقد أن عقيدته هي الحقيقة المطلقة ، وما عداها زيف وأوهام .

وان قيام الصراع، الخفي والظاهر ،داخل الحركة الثورية العربية ، وما يعكس من نتائج سلبية على الصعيد العسكري والاقتصادي والسياسي، هو المسؤول عن الفشل في التوصل الى صيغة مرضية للوحدة. ومما يدعو للاسف والدهشة معاً، كيف استطاع العدو الاسرائيلي دائماً ان يرتفع بأهداف الى صعيد تذوب معه فوارق الاحزاب والجماعات ، وخطوطها التي تتراوح بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ونعجز نحن حتى عن الاتفاق على صعيد الاقطار العربية الثورية ذات الاهداف الواحدة .

ان هذا الصرح الوحدوي المأمول لم يلعب الفكر العربي دوراً أساسياً في توضيح أبعاده وتعميق الشعور بالحاجة اليه. يجب أن نعترف بأن الفكر القومي ما زال في مراحله الاولى؛ فما كتب عن الوحدة صالح لاستثارة الجماهير لا لتربية عقلها . والتعبئة الشعبية للوحدة ليست شعارات وبيانات واجتماعات قومية فحسب ، وانما هي عمل تخطط له الاحزاب العقائدية والمفكرون القوميون ، ينقدونه بحرية مطلقة ليعرفوا ثغراته قبل أن يتغنوا بانتصاراته .أين الدراسات عن المشاكل الجدية التي تواجه دولتين اتحدتا ؟ دولة تعدادها ٢٧ مليوناً ودولة تعدادها ٥ ملايين ألن تنشأ مشاكل من نوع ما بينها ؟ ألن يكون ثمة احتكاك وحساسية بين كيانين سياسيين في مستهل وحدتها؟ أين الدراسات التفصيلية لمثل هذه المشاكل ولنوعية الحلول عند حدوث خلافات ناتجة عن هذه المشاكل ؟

وهذا الكلام يجرنا الى ماسمي بأخطاء الوحدة . لا أنكر حدوث أخطاء ، وكيف لا تحدث أخطاء في التطبيق ؟

لقد اعترف الزعيم العربي الراحل عبد الناصر بأخطاء ارتكبها ، ليس في مذكرات كتبها بعد اعتزاله السياسة ، ولا في كتاب طلب نشره بعد مضي سنين ، ولكن وهو يواجه اعداءه ، وفي ذروة معركته معهم . إن الكلام عن الاخطاء هو نفسه أساس خاطىء للبحث في الموضوع . ليست الاخطاء هي المسؤولة عما جرى في سورية . ربما كانت الاخطاء مناسبة للانفصال ، ولاشك في انها كانت المبرر في نظر الانفصاليين . أما السبب فقد كان شيئاً غير الاخطاء ، سبب يطول شرحه ويتشعب موضوعه ، وإن كان يتصل به اتصالاً واشجاً شاغل قديم لأعداء العروبة يدعو الى إبعاد مصر عن أية وحدة عربية .

ولعل أهم نواحي الوحدة العربية هي مسألة وضع مصر ضمن هذه الوحدة . هناك وجهات متعددة لبحث هذه الناحية ؛ مثلا يمكن بحثها من خلال إجماع ألد أعدائنا على إبعاد مصر عن قضايا المشرق العربي . ونلاحظ أن هذا الإجماع ليس إجماعاً آنياً ، ولكنه إجماع عنيد متتابع ، يتخذ مظاهر مختلفة متطورة مرتبطة بأوضاع المشرق العربي ، وبمحور الخلافات الرئيسية في هذه المنطقة ، من مشاريع سورية الكبرى ، الى مشاريع الهلال الخصيب ، الى مشاريع حلف بغداد ، الى مبدأ ايزنهاور . والخط العريض الذي يربط بين جميع هذه المشاريع هو فصل مصر عن المشرق العربي . ومن الطبيعي أن تعتبر دول التجزئة دولة الوحدة النواة ، دولة خطرة تهدد كيانها ، وبخاصة اذا أصبحت هذه الدولة النواة الداعية للوحدة العربية رمز الفكرة الوحدوية وأملها في نظر الجماهير .

ان حتمية الوحدة العربية بما تعنيه من طي أعلام الدول الاقليمية ، ورفع علم دولة الوحدة التي تنتظم الوطن العربي كله ، مصير حتمي يفرضه الواقع الموضوعي للأمة العربية وسنن تطوره . وإن أية إرادة مضادة له قد تعيقه ولكنها لن تحول دون تحقيقه . ونحن بعد تجربة عدة حلول فاشلة لمشكلات أمتنا في شتى أقطارها ، لا بد أن ننتهي الى القول : ان أقصر

الطرق وأضمنها لحل مشكلاتنا الداخلية والتغلب على تحديات البيئة الدولية الخارجية هي الوحدة .

ولكن هذه الإجابة عن حتمية الوحدة هي اجابة غير جامعة ولا مانعة ، ذلك لانها تحتمل البحث عن اجابات جديدة على اسئلة مطروحة . من هذه الاسئلة مثلاً :

لماذا حتمية الوحدة تشمل كل اقطار الوطن العربي ، حتى الاقطار التي يبدو في الظاهر أنها قد لا تعاني من بعض او كل تلك المشاكل والتحديات ؟ ولماذا تكون حتمية الوحدة السياسية مقصورة على الوطن العربي فلا يمتد رواقها الى أقطار آسيوية وافريقية مجاورة تواجه نفس المشاكل والتحديات ؟

ثم ماذا لو حلت احدى تلك المشاكل ، وسقط واحد من تلك التحديات قبل تحقيق الوحدة ، هل تسقط الوحدة ؟ او بعد تحقيق الوحدة ، هل يعود الانفصال ؟

والسؤال الأخير ذو أهمية خاصة ، اذ المفروض ان كل الذين يبررون حتمية الوحدة بمتاعبهم الاقليمية وصعوباتهم المرحلية ، أن تزول تلك المتاعب والصعوبات بعد الوحدة ، فيفقدون آنذاك مبرر البقاء في دولة الوحدة ، وقد ينزعون الى الانفصال حين يفقدون المكاسب التي كانوا يعلقونها على قيام الوحدة ! هذا الى أن الاتجاه نحو حتمية الوحدة من خلال البحث عن حلول لمشاكلنا المعاصرة واختبارها ، ومعاناة فشلها ، يحمل الامة ثمناً فادحاً من الوقت والجهد والألم الذي يقتضيه التجريب في حياة البشر .

حسبي أن أقول ان أولى حقائق الحياة السياسية من حولنا في العالم هي ان قوة العرب ، جميع العرب ، في الميزان الدولي هي قوة متواضعة ، وبخاصة في عصر التكتلات الاقليمية . لقد مرت عهود اوصلت امتنا حد التفوق الساحق ، فتمكنت من املاء ارادتها عبر القارات على اساس هذا التفوق في القوة والحضارة . ولكن هذه العهود ولت ، وان كان وحيها باقياً والحنين اليها جارفاً ، واصبح العرب في وضعهم الراهن كالعديد من امم الارض في منزلة متواضعة اذا قيسوا بمراكز القوة الفاعلة المعاصرة . وان مراجعة ابسط الاحصائيات العالمية تكشف المقارنة بين مصادر القوة الحديثة الصناعية والتقنية التي تملكها دول المرتبة الثانية والثالثة امثال فرنسا وبريطانيا والمانيا الغربية واليابان ، ولا اقول دولتي المرتبة الاولى ، وبين ما في حوزة العرب مجتمعين من مصادر هذه القوة واسبابها .

كما أن الادارة العربية لاتزال محدودة الفعالية حتى في نطاق الوطن العربي ، واوضح مثال على ذلك قيام اسرائيل في القلب من مشرقنا واستمرارها ، بل وتوسعها على الرغم منا طوال السنوات العشرين الماضية .

أذكر هذا ليس تشبيطاً للعزائم وامعاناً في التشاؤم ، بل بالعكس لكي نخرج من عوالمنا الصغيرة التي قامت على أشبار من التراب والتاريخ ، حيث نتلهى بالقشور وندور حول انفسنا ، ونقف فوق عصبية الكيانات الاقليمية فيتهددنا الفناء ونحن لاهون .

ان علة النكبة هي اننا مازلنا نواجه (اسرائيل) موحدة بواقع التجزئة الذي يستميت عدونا لتخليده بين اقطار امتنا .

بقي ان نسمع رأي عدونا الصهيوني في علة النكبة ، وامامي تصريحان معبران لمسؤولين صهيونيين ، يصوران الخط العريض الذي يصل هزائمنا عام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

١ ـ سئل ضابط كبير سابق في الهاغنا : ماهي أحرج الساعات التي مرت على قيادة (الهاغنا) إبان حرب ١٩٤٨ ؟

أجاب : الساعات الثماني والأربعون الأولى التي تلت يوم ١٥ أيار (مايو) وهو يوم دخول الجيوش العربية النظامية فلسطين

سئل : ماسبب ذلك ؟

أجاب : اعتقدت قيادة الهاغنا ان دخول الجيوش العربية في يوم واحد دليل على اتفاق العرب على هدف واحد .

سئل : وبعد الساعات الثماني والأربعين الأولى ؟

أجاب : تنفسنا الصعداء !

٢ ـ ولنتأمل ملياً في تصريح آبا ايبن وزير خارجية اسرائيل لجريدة دافار (٢٧/١٢/١٩٦٧) وقد جاء فيه قوله :

« على أي حال ، ينبغي أن ندرك أن نتيجة الصمود الذي حققناه خلال عام ونصف العام لم تكن ظاهرة طبيعية ، فهي تتجاوز معطيات الواقع الجغرافي السياسي ومن حق خصومنا في العالم العربي أن يُدهشوا العجز هم عن ترجمة قدراتهم ومزاياهم الهامة إلى تظاهرة فعالة تقتلع اسرائيل من مواقعها .

« في بعض الأحيان أحلم وأقول إن حال اسرائيل ليس كحال العرب الذين لديهم خمس عشرة دولة شقيقة تؤيدهم تأييداً مطلقاً مع احدى الدول الكبرى . ويبلغ عددهم مائة مليون لا مليونان ونصف المليون . ومساحة العالم العربي أحد عشر مليون كيلو متر مربع لا عشرون ألفاً . هذا إلى ثروات النفط التي ينعمون بها .

وأعتقد أن هذه الأوراق لو كانت متوفرة في أيدينا لاستطعنا أن نقوم بدور هام جداً في المجال الدولي .

« ولكن لماذا لم يستطع العرب تحويل إمكاناتهم الهائلة إلى قوة دافعة تقتلعنا من مواقعنا ؟ الجواب هو لأنهم منقسمون فيما بينهم حول استخدام ثرواتهم » .

إن اسرائيل أوقعت بالجيوش العربية هزائم تبدو غير معقولة :

في عام ١٩٤٨ والقيادات العربية موالية للاستعمار أو ملاينة له .

وفي عام ١٩٥٦ والقيادات العربية متحررة أو شبه متحررة .

وفي عام ١٩٦٧ والقيادات العربية متحررة واشتراكية .

اختلف الزمان واختلفت العهود واختلفت النظم ، والنتيجة واحدة !

وبعد عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ كثر الحديث عن ضرورة الوحدة العربية .

ومنذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ جرت بها ألسنة كانت مسخرة للتبجح الاقليمي والانعزال القطري . والباحث الموضوعي لا يرفض منطق العودة الى الحق ؛ بل ان هذا يؤيد ما سبق قوله ، ان الذي لا يعي الوحدة حلا عملياً حتمياً لمشاكل الوطن العربي وتحدياته المصيرية ، فلا بدّ أن يهتدي يوماً بمعاناة الفشل .

ان الباحث في حرب ١٩٤٨ لا بد أن يرى خطاً واحداً يصل بين جميع العمليات الحربية الاسرائيلية ، وهذا الخط هو استراتيجية الاستفراد . وهي استراتيجية طبقتها اسرائيل حيناً في هذه الجبهة، وحيناً في تلك الجبهة لمعالجة الجبهات العربية المختلفة، وتقوم أساساً على واقع التجزئة والانقسام الذي يسيطر على مقدرات الوطن العربي عموماً ، ودوله المحيطة باسرائيل خصوصاً .

والخط العريض الذي يجمع بين حصيلة حروب ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ موضوعياً هو أن القومية العربية والأمة العربية برغم جميع منجزاتها ما زالت في طور (الصيرورة) عند الأكثرية ، وفي طور (وجود) عند الأقلية .

وقد آن للفكر العربي ان يدرك حقيقة بسيطة هي أن المواجهة العربية لحماية الوجود العربي واستعادة الحقوق والقضاء على مصدر العدوان ، لا بد ان تتم في نطاق وحدوي .

وإذا كانت الأقطار العربية في حاجة الى التخطيط العلمي في كل ما يمس حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. فهي أحوج ما تكون الى التخطيط العلمي في المجال الأكبر ، مجال العمل الوحدوي .

ان ذلك يجب ان يدفع الأحزاب العقائدية العربية والمفكرين القوميين الى المساهمة في توضيح طريق الوحدة ورسم السبل المؤدية اليها ، ووضع الصيغة العلمية اللازمة لها ، بعيداً عن التعصب العقائدي ، وفي معزل عن مستلزمات السيادة القطرية والمصلحة الحزبية القريبة في أي بلد عربي .

ان انضمام القطر العربي السوري الى ميثاق طرابلس ثم الى دولة الاتحاد الثلاثي بين مصر وليبية وسورية التي أعلن قيامها في مطلع ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ، يعتبر خطوة في هذا المجال الوحدوي . كذلك فان الوحدة الاندماجية التي أعلنت مؤخراً بين جمهورية مصر العربية والجمهورية العربية الليبية ، تعتبر خطوة متقدمة أخرى .

وان مباشرة الحوار والتنسيق بين التنظيمات العقائدية في الأقطار العربية الثلاثة ضرورة تحتمها تحديات المرحلة التاريخية الراهنة . وبقدر ما يقترب العاملون في هذا المجال من مستوى الرد على هذه التحديات ، بقدر ما يستحقون أشرف الصفحات في تاريخ أمتهم الحديث .

الوحدة العربية والإقليمية

الدكتور شكري فيصل

من خلال التجربة الشخصية

رحلة الوحدة في الضمير العربي

مدخل :

أحب أن اباعد بين هذا البحث وبين « الكلي » و « العام » ، وأن اتجاوز فلسفة الأشياء وتعمد تعميقها الى الاشياء نفسها معراة من كل ما يخرج بها عن طبيعتها الى شيء كثير او قليل من التجريد ومن التقنين .. سأحاول بعد احدى عشرة سنة من احداث الانفصال ان انأى عن اصدار الاحكام واطلاقها الى شيء من العرض او من الوصف .. ولن اكون في هذا الحديث الكاتب الذي يحاول جمع الحقائق وتصنيفها ، ولكني اريد ان ابقى في منطقة العرض والوصف والتصوير .. لقد اريق في العقد الذي مضى كثير

من الكبير وسودت آلاف من الصفحات ، تحدث فيها اصحابها عن كل ما يتصل بالوحدة فكرة واسلوباً.. وجاء الاتحاد الثلاثي ليصقل الموضوع مرة ومرة وليثير عـلى اطراف أقلام كثيرة، معالجته ومناقشته . واني لأرجو أن يكون هذا الحديث ــ البحث منطلقاً من زاوية جديدة ، انها ليست بطبيعة الحال بعيدة عما يقال وعما قيل ، ولكني قد انتهي الى ذلك من غير الطريق الذي انتهى اليـه الآخرون .

إن الذي يتيح لي هـذا أني شاركت في هذه التجربة .. انغمست فيها إلى قريب من قمة الرأس .. قدمتها على كل شيء آخر في حياتي ، وأوشكت أن أنسخ من هذه الحياة صفحات وصفحات في سبيلها . لقيت الفرحة ولقيت العنف .. مضيت في الطريق النظري ومضيت في الطريق العملي .. أكلت الأشواك من أقدامي وغمرتني نشوة كرائحة التفاح، أول نضجه ، في بستان من بساتين الزبداني او بلودان .. عرفت الحرية وعرفت الحرمان من الحرية .. تقلبت بين الأنباء والمنابر وانكفأت إلى زنزانة ضيقة لا تكاد تتسع إلى أكثر من كتاب الى جانبي أقرأ فيه في الضحى الماتع على نور كهربائي بعيد .. عشت في الوطن الصغير واضطررت أن أغادره الى أقطار من الوطن الأم .. رأيت الأشياء من قرب ورأيتها من بعد .. عالجتها من كل وجه : من الوجوه التي اعتقد ومن الوجوه التي رأيت غيري يعتقد .. كسبت صداقات وخسرت صداقات .. رأيت في عيون والدتي وأولادي وزوجي الفرحة أقصى الفرحة والدموع أحر الدموع .. عرفت الوحدة في دمشق وعرفتها في القاهرة مع أنصارها ومع خصومها .. ثم حين تنقلت هنا وهناك أدركت مدى ما كان لهذه التجربة في حياة العرب المعاصرين .

من أجل ذلك أجدني مضطراً أن أكتب في كل أيلول ، ولو أني مزقت أحيـاناً ماكتبت ، وأنا أكتب في أيلول هذا ونحن نعيش تجربة الاتحاد ، ونجد فيـه بعض الطريق إلى بعض التعويض .. إن الكتابة اليوم ليست عملاً شخصياً ولكنها ضرورة وطنية وقومية ، وهي كذلك ضرورة نفسية وفكرية ، ولكنها لن تكون في نطاق الأفكار قدر ماستكون في نطاق الاشيـاء .. ان الأشياء نفسها قادرة على أن تحركنا فوق ماتحركنا الأفكار .. شياطين الفكرة يستطيعون أن يجمعوا في قراب واحد بين الفكرة والفكرة النقيض بشيء من العبث أو من البراعة ، وبشيء من سحر المنطق والبيان .. ولكن الأشياء تظل هي الأشياء ولن تكون عصا موسى ثعباناً إلا في يد نبي وفي حادث معجز .. إنها ستظل عندي وعندك هذه العصا ، نهش بها على الغنم من غير مآرب أخرى..

السؤال

والسؤال بعدُ : ماذا عن رحلة الوحدة في قلوبنا وواقعنا ، نحن هذا الجيل الذين شهدنا الوحدة وشهدنا بعد ذلك انفصامها .. ثم شهدنا آمالاً خافقة تبدو وتغيب كما يغيب وجه الشمس وراء السحب ساعة صباح أو ساعة مساء في يوم من أيام الخريف !

* * *

المرحلة الاولى

في البداية كنا أطفالاً .. فتحنا عيوننا على شيء اسمه الانتداب . كان هذا الانتداب يتمثل أمامنا قبعة عسكرية ولغة اجنبية وعلماً يخفق غير علمنا . عرفناه لغة قاهرة في المدرسة ، ومنهاجاً مفروضاً في الدروس وثقافة مغايرة لثقافتنا . وفي الحياة عرفناه هذا النظام الذي يقوم على الإكراه ويستلب ارادة الناس ويحتل أرضهم ويستثمر خيراتهم ويسرق ذهبهم . كرهناه وتعلمنا كرهه في المدرسة التي كان يريد أن يسيطر عليها ، وفي المسجد الذي كان يريد أن يصرف الناس عنه ، وفي الطرق والأزقة والشوارع التي كانت تئن تحت وقع جنوده وتتلوى تحت مصفحاته ودباباته .

وتناهت الينا أنباء الثورات واصواتها ، هنا وهناك ، في حلب وحماه ودمشق وحوران وجبال الساحل .. رأينا صور الشهداء وسمعنا أسماءهم . اساطير المقاومة كانت رؤانا . لم نتأخر عن اي عمل سلبي كنا قادرين عليه . كسرنا اعمدة الكهرباء . اصطدنا بالحصى الصغير الفناجين العازلة ، أدرنا وجهنا للعملاء في المدرسة ، استمعنا الى اللغة الفرنسية وتكلمناها من غير أن نرفع أبصارنا الى معلميها ، واستنكف بعضنا عن تعلمها وآثر أن يترك المدرسة على أن يدخل صفاً لأستاذ أجنبي.. رأينا افريقية من خلال هؤلاء الجنود المساكين الذين كانوا ينقلونهم عبر آلاف الكيلومترات ليزرعوهم في الثكنات وعلى أبواب الموت وفي الشوارع .. عرب ومسلمون من شمال افريقية ومن السودان وتشاد وجيبوتي ومدغشقر كانت علاقتنا بهم على أساس من الخوف منهم والمقاومة لهم ومقابلة رصاصهم بالاحجار .. كانت ميسلون أرض الكرامة والاستشهاد ما ذكرناها الا غلب علينا الخشوع، وما مررنا بها الا وقفنا عند هذه الأجداث نقرأ الفاتحة ونجدد العهد .

كان من أمامنا وفي مواجهتنا اذن هذا العدو الأجنبي ماثلاً في هذه الصور ومئات من مثلها .. وكان الى جانب هذا في أعماقنا وقلوبنا هذا التاريخ العربي وهذا الارث الفكري وهذه الحضارة التي نشأنا على تقديسها .. وسقياً للذين علونا ذلك كله عن طريق اللغة او عن طريق العقيدة أو عن طريق الثقافة أو عن طريق ذلك كله .

وكذلك التقى في نفوسنا هذا الحاضر وهذا الماضي ، ومن بعيــد كان المستقبل يتراءى ويغيب ، يشرق ويغيم .. ان آلام الحاضر وروعة الماضي وآمـــال المستقبل وجدت ركائزها في أعماق عقولنا ومشاعرنا بل لعلها هي التي صاغت هذه العقول والمشاعر .

حصيلة ذلك أنه استقر في أذهاننا على نحو ما استقر في قلوبنا مبدأن معاً : الوحدانية في السماء والوحدة على الارض ، وأن حركتنا في التاريخ انما كانت تدور في هذين المحورين : محور التوحيـــد في الذهن ، تفادياً للجزئي والمضطرب ، ونفياً للتنـاقض والمختلف ، وسعياً وراء الكليات الكبرى ، ونفاذاً الى أبعد حدود التجريـــد الانساني .. ومحور الوحدة في الواقع ، حتى يكون العرب في الحاضر مثـــل رسالتهم في الماضي ، وحتى يكونوا أمة من الناس لها رسالتها ولها مكانتها وعليها العبء الذي تلقيـــه الانسانية فوق اكتافها .

لم نكن في حاجـــة الى أفكار وبراهين وجدل حول ذلك .. لم نكن في حاجة الى أن نسأل الآخرين في وحدتنا ومقوماتنا ، ولا أن نفكر في رضاهم ولا أن نحتكم في الخلافات اليهم .. لم نكن في حاجـــة الى مقدمات وأنظار .. كانت هذه الافكار اشياء واقعــة في حياتنا .. الشـام هي الشـام من طوروس الى سينـــاء ، وما بعــد القاهرة كان بلاد الغرب .. المغاربة كذلك من الطرف الآخر كانوا يعرفون أن كل ما بعد سيناء هو بلاد الشام .. ما فلسطين ؟ ما الاردن ؟ أجزاء من جنـــوب الشام .. ماحوران واللاذقية؟ مدن وجبال .. الجزيرة هي الجزيرة مهدنا .. مـــا وراء الجزيرة من الشرق وما وراء صحراء الشمال الافريقي من الجنوب كان نوعاً آخر من امتـدادنا الديني والحضاري واللغوي .. كانوا اخوة لنا من غير أن تلدهم أمهاتنـــا .. الحدود ما أشد مـا أنكرناها .. كثيرون منـــا اقتلعوا أحجارها .. وكثيرون كانوا يبصقون فوقها كلما مروا بها .. يمزقون راياتها ، يحرقونها في كل حفل او ذكرى .. ينشرون العلم العربي ليظللوا به الشهيد أو ليزينوا به الحفل .. كل لون من ألوان القسمة او الفرقة لم يكن الا تجديفاً من التجديف ، وكفراً من الكفر .. وبلاد العرب أوطاني من الشام الى تطوان ومن مصر الى اليمن وأقاصي الخليج ..

الحزب الاول الذي اراد ان يكون حزباً عربياً موحداً لدولة عربية موحدة « عصبة العمل القومي » كان يسفه اشد التسفيه كل محاولات التجزئة ، وكان يدعو بلسان عربي مبين من غير ما جلجلة ولا احتراس ولا عقد ولا احتقاد الى الوطن الواحد .. الاحزاب السياسية القطرية لم تكن على شيء من نقيض او مخالفة ولكنها كانت تركز جهودها العملية في قطر واحد ، دون ان تكون بعيدة عن اخوة لها في قطر آخر .. وحين طرحت

نزعتا : القرية المستقلة والمدينة المحكومة ، سقطت نزعة القرية المستقلة .. لانه كان عقيدة وفكرة ومنهجاً ان القرية وحدها لاوجود لها والقطر لا كيان له ..!!

القرية وحدها لاوجود لها ، والمدينة وحدها لا كيان لها والقطر وحده لا أساس مكيناً له .. الوجود والكيان والاساس في الوطن العربي الواحد .

من اين جاءت رياح التجزئة .. كيف هبت على الفكر العربي والحياة العربية . ماذا كان منافذها ؟

انما قد ندرك ذلك اذا نحن تابعنا رحلة هذا الجيل في آفاق الوحدة .. او رحلة هذه الوحدة في ضمائر هذا الجيل .

المرحلة الثانية

لنتجاوز الثورات وعهود الاضراب والمظاهرات .. ولنغض عن الاحداث الجزئية او الكبيرة ، لنصل الى عهود الاستقلال .

لقد استردت الاقطار العربية ، على درجات ومراحل واختلاف في الاساليب ، حريتها ، ونعمت بحياة جديدة ، كان معناها الأصيل الذي يجب ان تأخذ به هو مسؤوليتها التي ألقيت على عاتقها ، والواجبات الضخمة التي أسندت اليها .

كان عليها ان تبدأ حياتها من الصفر ، بل بل أوشك أن أقول : كان عليها ان تبدأ مما هو قبل ذلك ، عنيت التخلص من عقابيل الاستعمار : تفكيك القيود ، وتطهير الأرض من الألغام ، حتى تكون الأيدي العربية قادرة على الحركة الحرة الطليقة .

ولعل الخطأ الاكبر في حياة الشعوب العربية بدأ مع خطوات الاستقلال . لم يكن خطأ مقصوداً ولكنه كان خطأ على كل حال.. ذلك ان كل بلد عربي بدأ ينشيء حياته على نحو خاص هو خلاصة ظروفه وموقعه وتاريخه وسكانه والمخلفات التي خضع لها في تاريخه القديم وفي تاريخه الحديث ..

لم يبدأ العرب حياتهم بعد الاستقلال من زاوية واحدة .. أو لنقل انهم لم يقوموا بعمل متناسق يقود بعضه الى بعض ويتكامل بعضه مع بعض . أخذوا بهذا الاستقلال .. ولكن الاستقلال في مفهوم الوحدة الاصيل لم يكن هو الهدف .. كان الهدف إقامة الوطن العربي الواحد ، وكان الاستقلال الطريق الى هذا الهدف ، وكان بناء الحياة الاستقلالية يجب ان ينهض في كل جزء من جزئياته على اساس انه جناح من بناء كبير كامل .. ومن المؤسف انه لم يحدث هذا ، وانما الذي حدث ان تغلبت روح الاستقلال ، وان الاستقلال اتخذ معنى فردياً ، او كذلك في أغلب وجوهه .

لقائل ان يقول ولكن الاستقلال كذلك اتخذ معناه الجماعي .. فقد اخذت الاقطار التي سبقت اليد على عاتقها ان تسعف الاقطار الاخرى وأن تساعدها .

وانا لا أشك في ذلك لحظة واحــدة .. لا أشك في ان مصر مثلا قدمت مساعدات لاتحد لأقطار مشرقية واقطار مغربية على السواء ، ولا أشك في ان استقلال المغرب وتونس ساعد الحركة الثورية التحررية في الجزائر .. لست على شيء من شك في ذلك ، ولكن التعاون ظل العملية الاستقلالية على مقياس واسع ولم يشمل عملية البناء الداخلي الا على أضيق المقاييس .

ان الاستقلال أخذ في بعض الحالات معنى « عكسياً » .. فلم يكن استقلالا عن الاجنبي فحسب ، ولكنه – وفي نية طيبة في مواقف كثيرة – اتخذ شكل الاستقلال عن الاخوة .. اراد كل (وطن) عربي مستقل ان تكون له ذاتيته الخاصة ، ومن يدري فقد يكون ذلك نوعاً من التعويض الجمــاعي عن سنوات الانتداب او الحماية أو ماقبلها ، وقد يكون نوعاً من النزعات الفردية الشخصية .. ومها يكن من أمر فقد وجد هــذا الشعور الذاتي الضيق .. وبدأ الحديث عن التفاضل والتمايز والفروق، وبدأ الحديث هامساً حيناً ومرتفعاً حيناً عن ملامح وسمات لهذا القطر لاتتوفر في قطر آخر . . وسمعنا اشياء عن نسبــة الأمية ، ارتفاعها او انخفاضها عن بلد آخر .. ورنت اصوات تتحدث عن بلاد لها اشعاع ، وبلاد ليس لها اشعاع .. وبلاد تغلب عليـا البداوة وبلاد تتغلب عليها الحضارة اومظاهرها.. وسمعت نغمات كثيرة ، ورصدت نزعات .. كأنما هي تمهيد لهذا الذي نحن فيه الان .

ومعنى هذا ان الاستقــلال عن الاجنبي الذي كان يجب ان تتحول كل مفاهيمــه واتجاهاته لتكون معطيات للوحدة وطريقاً اليها ، أخذ على نحو أو آخر – شكل تميز قطر عن قطر .. ولعله اتخذ شكل القطيعة في بعض المرات .. سيطرت هنا وهناك روح الفردية . ولابد للذين يعنون بالفكر العربي السياسي المعاصر من ان يدرسوا كيف غذيت هذه الروح الفردية في المجال العربي الكبير ، حتى يكونوا على بينة من الاسباب التي عاقت حتى اليوم قيام وحدة جامعة او وحــدة كبيرة .

ولم يقف الأمر عند « الاستقلال » الذي يعني « التفرد » بل تجاوز ذلك الى الاستقلال الذي يعني « الاقليمية » .

في كل بلد نشأت هذه النزعة الاقليمية دون ان تتنكر ، بادىء ذي بدء ، للفكر العربي الوحدوي ، وأعطيت هذه الاقليمية سلسلة من المسوغات : بعضها من الماضي البعيــد الذي هو بالمستحاثات اشبه وإليها اقرب ، وبعضها من الماضي القريب .. بعضها من الطبيعة وبعضها من الثروة . . بعضهــا من الملامح الاجتماعية وبعضها من الملامح النفسية لم ينهض من يصرخ في وجه هؤلاء ليقول لهم : ان الاخوة من اب وام يختلفون كذلك فيما بينهم ولكن هذا الاختلاف لايسوغ القسمة ..

لم يرتفع صوت حاد جهوري يقول لهم: ان اقطاراً اخرى في العصر الحاضر ، شديدة التباعد يصبغ علائقها الدم ، تفتش عن نقاط التقاء تبدو وكأنها تتخيله أمام خطوط الالتقاء العربي والنسيج المشترك الذي يطوي العرب كلهم في برد واحد . .

وهل يستطيع الانسان ان يغفل في هذا النحو عمل الاستعمار .. ان الاستعمار — على نزعات التحرر التي سادت العالم — لم يتخل عن اساليبه ولا عن مصالحه ولا عن مشاعره .. ظلت رواسبه الماضية والمتجددة تعمل عملها بعد الاستقلال .. وكانت اللغة او النفوذ اللغوي بعض الميادين التي عمل فيها فمكن للاقليمية ان تبرز أو ان تقوى على نحو جديد .

بعد الاستقلال الذي يعني التحرر ، والاستقلال الذي عنى التفرد ، وبعد الاستقلال الذي عنى اباحة الشعور الاقليمي او بعد التسامح معه ، اضطربت الصورة في ذهن الانسان العربي الذي فطر على الوحدة ونشأ عليها اضطراباً واضحاً .. تداخلت خطوطها أو درس بعض من هذه الخطوط أو حال لونه .. وداخلت الحياة العربية أفكار ووقائع جديدة وبخاصة حين انتشرت الأفكار الاخرى الاممية ، وحين اتخذت ثوباً انسانياً من العسير ان يدافع .

في هذه المرة لم تكن نكسة المشاعر القومية في واقع الحياة الاستقلالية وانما تجاوزت ذلك الى أن تكون الانتكاسة الأخرى في صلب الفكر القومي .. وأنا لاأريد ان أخوض هنا في جزئيات هذه الفترة ، ولكن أحب ان أسجل من غير كبير تحفظ أنه كان هنالك شيء من الارهاب وشيء من شدّ الشعر في سبيل إكراه الفكر القومي على أن يخرج من جلده وأن يلبس جلوداً أخرى .. وانتظرنا فترة طويلة ، لعلها تجاوزت عقداً من السنين ، قبل أن يستبين للطرفين معاً — في وضوح وبعد معاناة قاسية خسرنا فيها صداقات ومواهب واكتسبنا خصومات وعداوات وما تقود اليه الخصومات والعداوات — أن الفكر القومي ليس نقيضاً للفكر الانساني ؛ وان بينهما مثل مابين هذه الدائرة الصغيرة والدائرة الكبيرة ، وأن الوفاء للدائرة الصغيرة وفاءاً حقاً هو في صميمه — بعيداً عن كل جدل — جزء من الفكر الانساني العريض الرحب ؛ وأن شعباً ما لم يشهد في تاريخه ولم يمارس مثل هذه التجربة الانسانية كما مارسها الشعب العربي في دعوته الاسلامية .. بل ان بعض مقومات الحركة العربية مع النبي صلى الله عليه وسلم لم يتح مثلها لأية حركة أخرى حتى اليوم .. وهل كانت تجربة التجمع الاسلامي إلا التجربة الرائدة والتجربة الفذة ؟!

وكذلك اصطلحت هذه جميعاً ، الفردية

والاقليمية والأمية ، على أن تباعد مابين الشعب العربي وقضيته الأولى .. الاحزاب المحلية العربية نسيت ذلك في غمار الممارسات اليومية للمشكلات وغاب عنها الوجه الأصيل في تيار الأزمات التي دفعت اليها أو وقعت عليها .. والأحزاب الأمية ظلت في فترة التشنج ، أن الفكر العربي يجب أن يخلي مابينه وبين مقوماته التي له حتى يكون فكراً صحيحاً .

ومضت هذه كلها تؤصل لهذا التباعد أو تمكن له على نحو يبدو للجيل الناشيء أنه طبيعي .

وعلى حين كان الوطن العربي يعرف الأردن امتداداً لدمشق ، وبيروت ثغراً للداخل ، ومصر والسودان بلداً واحداً وشمال أفريقية هو المغرب ، وعلى حين كان المواطن العربي ينكر في كل ساعة مظاهر التفرقة المختلفة وينعاها على أصحابها — نشأ جيل جديد في ظل هذه الممارسات العلمية والفكرية لاينكر ذلك بادىء الأمر ، ثم أنه يتدرج نحو ان يقبل بعد ذلك هذا الواقع المجزأ دون ان ينسى ، بين الحين والحين ، الدعوة الجامعة .

ولقد شهدنا — نحن هذا الجيل — ذلك بوضوح .. عرفناه في أحداث ووقائع ويوميات .. لمحناه في تصرفات الأفراد وفي تحول شعورهم القومي أو دخول الوهن عليه ،

ان الذين عاشوا في هذا الوضع الجديد — أو من هذه الأوضاع الجديدة — ارتضوها والطامحون الى العيش — أياً كانت المبادىء التي تظل هذا العيش أو يقوم عليها — وجدوا ضمان العيش .. وطلاب المناصب والرئاسات خافوا ان تتضاءل — في مجتمع كبير — فرصهم في المناصب والرئاسات .. والذين كانوا على شيء من حذر بفضل بعض الدوافع النفسية والوراثية آثروا أن يوقدوا هذا الحذر مخافة أن تعلو الموجة الجديدة رؤوسهم : احتراسات وتحفظات من كل نوع اقتصادي وعرقي وطائفي ولغوي ، وإثارة لهذه الاحتراسات من حيث لاوجود لها وتضخيم حيث كان لها بعض الوجود الخاطىء او المنحرف .

المرحلة الثالثة

في هذا الجو كانت تتفجر على جزء آخر من ارض الوطن العربي ، على صعيد مصر الطاهر ، حركة جديدة .. كانت هذه الحركة على وعي بأبعاد الموقف المصري قدر وعيها لأبعاد الموقف العربي ، فقد استطاعت أن تعرف هذه الدوائر المتداخلة وأن تدرك تسلسلها وتفاعلها .. من الدائرة الضيقة في الاقليم العربي ، الى الدائرة الواسعة في الوطن العربي ، الى الدائرة الاوسع في امتداد الاسلام في القارتين ، الى الدائرة الانسانية الكبرى.. عرفت هذه الابعاد والمحاور ، ونظرت الى

الافق السياسي الآخر الاجنبي نظرات لعلها اقرب الى الوضوح والعمق . . ثم انطلقت من وعيها هذا لتفرض في الوطن العربي وجوداً جديداً ، ولتقلب الفكر العربي من اسلوب المعاناة التقليدية او الوجدانية او النظرية الى مراكز العمل المدروس والهادف ، ولتنطلق الحركة العربية فتمد لهـا الآفاق في مغرب الوطن العربي ، ولتجعل منها مركز الريادة والقيادة .

هذا الذي حدث في القـاهرة — على تفاصيل كثيرة لا يتسع لها المكان ولكن في وسع القارىء أن يستحضرهـا — فجر من جـديد في القطر السوري بخاصة الشعور الوحدوي العميق الذي كانت خدرته الظروف — او حـالت — وطامنت من استعلائه ، واشركت بينه وبين مشاعر اخرى بعيدة عنه .. ودفعت به مرة اخرى الى مقدمـة القضايا السياسية ، فبدت الوحدة تحقيقـاً لهدف بعيد وتأصيلا لوجود عربي سليم .

وكذلك كانت حركة الوحـدة الاولى بين القـاهرة ودمشق اضخم احداث الحياة العربيـة . . لأنها اعادت القيمة الحقيقية للاستقلال ، ووضعت هـذه القيمة موضع التـداول والنمو ، وامتصت كل السلبيات الكثيرة التي رانت على السلوك الوحـدوي وعلى الفكر الوحدوي .

واذا كان هذا بعض تقييمنا للوحـدة في نطاق التاريخ العربي الحديث ، فان هذه الوحدة — في نطاق التاريخ العربي السابق — كانت تجديداً لحركة التوحيد في القرن السادس الهجري في اعقاب احتلال الصليبيين . . ان الذي افتقده العرب منذ سبعة قرون ، منذ وفاة صلاح الدين ، وجدوا آثاره في حركة الوحدة بين مصر وسورية .. فقـد انتفض التاريخ من جديد ، ووجد عقاب صلاح الدين اجواء سلبية يحلق فيها .

وفي النطاق النفسي لم يكن هنالك حدث آخر ، كحدث الوحدة ، أثار القوى الداخلية ومنح النفس العربية الثقة .. لا الثقة المعنوية فحسب وانما الثقة المادية كذلك .

والذين عاشوا رمضان قبل معركة التوافيق أيام الوحدة ورمضان الذي سبقه ، يدركون معنى هـذه الثقة ومداها .. كانت طائرات صهيونية خفيفة في رمضان ما قبل التوافيق تداعب سكان دمشق ساعة الافطار فيروع الناس الى الخابىء والملاجىء ، يدعون طعـامهم وشرابهم وعبـادتهم . . وكان الصهيونيون يعرفون ذلك فيعاودونه مرة او مرتين في الاسبوع .. فلما كان رمضان معركة التوافيق لم ينهض احـد من وراء مائدته ، ولم يروع اطفال ولا نساء ، على عنف المعركة وقسوتها .. ذلك لأن معركة التوافيـق كانت — وطرفا الكماشة : الجيش الأول والجيش الثاني — يشاركان معاً فيها ، عملا وتحفزاً الى العمل ، او عملا

من طرف ومراقبة من طرف آخر .. لقد استخدمت فيها احدث الاسلحة واقواها ، ومع ذلك لم يشعر أحد بهـا ، ولم تتحدث الدعاية طويلاً عنها ، لأن الاعمـال الصالحة لا تحتاج من يدعو لها .

لقد عاهدت القارىء منذ بدأت هـذا الحديث على أن اقول اقل الاشياء .. ووفاء اكتفي بان اقول ان الجماهير وجدت ذاتها في الوحـدة ، وان الاستقلال استرد معناه وأن الحركة العربية صححت مسارها ، وان ذلك كله أثار الاستعمار من جديد .

المرحلة الرابعة

ما الذي حدث للوحدة حتى انتهت الى ما انتهت اليه ؟

تلك قضية أخرى لا أريد أن اواجهها مواجهة المفكر بل مواجهة المشاهد :

هناك أولاً هـذه الحقيقة التي تتصل بالسياسة الخارجية وهي أن الشرق والغرب، على السواء ، لم يكونا مع الوحدة ولم يكونا متعاطفين – وهذا أضعف التعابير – معها .

كلا الجانبين وجد فيها ما يخيفه ويتهدده، ان الاستعمار الغربي له هدف واحـد ، والأهداف الأخرى كلهـا متفرعة عنه .. ذلك أن يظل هذا الوطن مفتتاً .. انه رضي استقلال أجزائه مكرها ، ولكنه لن يرضى توحيد هذه الأجزاء .. همه دائماً أن يرجع بالعرب الى الصحراء، وأن يدفعهم دفعاً عن البحر والساحل والحضارة والاحتكاك .. الاحتكاك بالحياة الجـادة معناه أن تتفتح طاقات هذا الشعب الكبير .. انه شعب ذكي وغني ، ثم هو شعب له عراقته الحضارية فلن يتابع السير الحضاري من الصفر .. سيتابع ويعوض وينطلق .. وانطلاقه يشبه انطلاق المارد ، وغرض الاستعمار الغربي أن يظل هذا المارد حبيس هذه التجزئات حتى يموت أو يموت منه التطلع .. ومن يدري كيف كان يتغير وجه العالم لو استطاع هؤلاء المائة مليون من العرب أن يكونوا دولة واحدة ، فيها هذه الثروة البشرية ، والثروة الاقتصادية، والثروة المعدنية ، وثروات التاريخ والتراث، وثروات الثورة والحركة ، ولها هـذه اللغة التي لا تضاهى ، وهـذه الحضارة التي لا تجارى ، وعندها أو عند الفرد منها – هذا التطلع الذي لا يجارى تطلع ؟.. من يدري ماذا كان يكون وجه العالم لو استطاعت هذه الأقطـار المشتتة أن تنتقل الى الاستقلال الى الوحدة ؟

الـسلطان الشرقي كذلك كان له في هذا الاتجاه مثل هذا الهـدف .. انه اذا رضي الاستقلال محاربة للاستعمار الغربي ونيلاً منه ومطاردة له ، فانه لا يريد الوحدة على هذا النحو .. ان له مفهوماً أو مفاهيم عن الوحدة وتصورات لها ، وقد حاول أن يروج لـهذه المفاهيم والتصورات .. وكلها لاتبلغ أويجب

أن لاتبلغ حد الدولة الواحدة وبخاصة اذا ظلت هذه الدولة تحتفظ برسالتها وتعتصم بها وتتابع نشرها .

في مفهوم الفكر الشرقي أن للعرب لغتهم فلتبق لهم هذه اللغة..ولهم وجودهم الحضاري القديم فليتغنوا بهذا الوجود الحضاري القديم.. القومية يجب أن لا تجاوز هذه المجموعة من المظاهر : اللغـة في اطارها القديم – وهل هناك من يقوى على مطاردة لغة لهـا تراث أربعة عشر قرناً ! – والمأثورات الشعبية « الفولكلور » والفرق الغنائية والمسرحية الخاصة ، واحياء الازياء والتقاليد المحلية .

وليس شيء من ذلك بـ"محال" في أذهاننا حين نتحدث عن القومية .. بل لعل هذا كله أن يكون ، في مفهومنا ، لقيض القومية ، ولعله أن يكون في هذه الفترة بالذات وبخاصة حين نقصد قصداً الى احيائه واشاعته ،نوعاً من تأصيل الحس القومي عن طريق هـذه التظاهرات الفنية المختلفة .

في تفكيري ، اريد أن اقول في تفكير جيلي كله،جيل عصبة العمل القومي والبدايات الاولى لما بعده ، يجب أن تلسخ كل هـذه الاشياء اذا اريد لها ان تكون عامل اعتزاز محلي يفسد النفس الوحدوي .. انها في الاصل ليست متفاوتة . او ليست بعيدة التفاوت . ولكن اذا اريد استثمار تفاوتها لتأكيد اللون المحلي على حساب اللون الجامع فاننا نفضل مائة مليون مرة أن نضحي بالرقصة الشعبية، والاغنية الخاصة ، وانواع الالبسة ، وان نستبعدها ونلفيها عن وجودنا المشترك الموحد.

بعد هذه الحقيقة الخارجية تبدأ سلسلة من الحقائق الداخلية ، في مقدمتها في نظري ان الوحدة لم تـُنـْزَل فكرياً في المنزلة التي كان يجب ان تنزل فيها .. هذا أولاً ، ثم ان غياب هذه المنزلة الفكرية الصحيحة ساعد على اثارة المشاعر الاقليمية المضللة وعلى تجنيدها وعلى الاحتماء بها .

أ – من انزال الوحدة غير منزلتها كان لابد من الربط بين حدث الوحـدة وبين احداث التاريخ المماثلة .. كان يجب التذكير دائماً بأن هذا هو الاصل الذي قامت عليـه عهود الازدهار والتقدم في حياتنا العربيـة وفي حياة الشعوب الاخرى الاوربية . ولم يكن من خير الفكر السياسي العربي ان تعتبر الوحدة خلقاً جديداً ، وأن يظن انها بداية التاريخ .. انها في الواقع استئناف لتاريخ ، وتحقيق جديد لمبدأ يلخص الحركة العربيـة كلها في الاسلام وقبل الاسلام .. ذلك هو انه ما من مرة افترق فيها العرب الا وكانت الغلبة عليهم ، وانه ما من مرة التقوا الا كان لقاؤهم منعطفاً جديداً في التاريخ .. ان هذا المبدأ هو المنطق وهو التاريخ وهو الواقع . وكان يجب دائماً الالحاح على أن حركة الوحدة هي جزء من هذا المبدأ واستكمال له في الحيـاة

العربية ومماثلة لما كان في بعض الحيوانات الغربية .

قد يكون رجال الصف الاول سكتوا عن هذا تجافياً لسوء التفسير، أو حتى لا تعطى الأصابع الاجنبية القذرة فرصة العبث والدس . ولكن كان يجب أن يتعاقب على تأصيل ذلك وتأكيده كل الذين ولوا التوجيه .. من المدرسة والكتاب الى مؤسسات الاعلام الاخرى .. حتى نرى في حركة الوحدة استمراراً الماضي ومتابعة له ، وتجذيراً وحتمية تاريخية لامنصرف عنها .

ولكن الذي حدث أن الوحدة اعتبرت قضية من القضايا الجديدة التي خلقها هذا العصر ، ووضعت موضع النقاش ، واحتاطها جو من السؤال والجواب ومن القال والقيل فكان ذلك من بعض الوهن الذي داخلها .. وكان من الحق ومن الواجب معاً أن تكون موضع تقديس وان تعتبر مسلمة من المسلمات وان لايرى فيها الشعب العربي تجربة من التجارب التي يقدر لها الاخفاق او النجاح ، بل مرحلة من المراحل المقدسة التي لارجعة عنها .

ان مجرد الخوض في قضية الوحدة بدا نوعاً من التوهين لها .. انه أنزلها منزلة أن تكون وأن لاتكون . ومن هنا كان من الطبيعي أن تتحرك في ذلك السنة وأقلام : كثرة كاثرة مما كان منها باطل أو كالباطل . أو هو الحق الذي يراد به الباطل .

اذا اضفنا الى ذلك عمليات التشكيك النظري ، وقد كانت عمليات واسعة ادركنا مدى ما آل اليه الامر .

قلت ان شيئاً من القال والقيل وجد طريقه الى الفكرة والتطبيق معاً .. ولا بد من ان اعرض نماذج لما شهدت ورأيت ..

واني لأقف عند نموذجين : واحد اكثر ما يكون اتصاله بالحياة المادية وآخر اكثر ما يكون اتصاله بالحياة النفسية .

وان كان هدف النموذجين واحد ، هو التمزيق .

من أمثلة النموذج الأول ما كان أشيع عن هجرة ، أو تهجير ، الفلاحين المصريين الى منطقة الجزيرة .

تلك واحدة من القضايا التي أرادوا بها بلبلة الرأي ، واخراج الوحدة من معنى القوة الذاتية التي تعود على الجماعة العربية الى معنى الغلبة والتسلط .. بل لماذا نخشى أن نقول انهم استعملوا هنا أقسى الكلمات على الوجدان العربي ، كلمة ، الاستعمار .

وما أظن ، في احساسي الوحدوي ، أنه كان يمكن أن تكون هناك حركة أخرى أكثر أصالة وأشد اصابة من أن تهاجر جماعات من مصر الى الشام ، من قطر الى آخر .. كان يكون ذلك هو الرد الطبيعي على التجميد الاستعماري خلال قرون طويلة ، وكان يكون تجربة عملية رائدة في سبيل كسر هذه

الأطواق التي أحيطت بها أجزاء الوطن العربي .. وما أدري كيف يكون الانسان عربياً ، بل كيف يكون انساناً ، يشهد تكاثف الملايين فوق هذا الشريط الأخضر في مصر ثم يشهد هذه المساحات الشاسعة الفارغة في سهول الجزيرة ، ثم لا يرضى مثل هذه الهجرة أو يدعو لها .

وما أدري كيف يكون الانسان على شيء من الوعي ، يشهد تجربة اسرائيل في نقل الآلاف من يهود من كل أطراف الأرض ، ويرى كيف يتم دمج هذه النماذج المتنافرة ، ثم ينكر تجربة المزارعين المصريين .

ألم يكن حقاً ما سمعته من أحد هؤلاء الذين أنكروا هذا الأمر في البداية وحملوا عليه ثم عاد الى الرشد فاذا هو يقول ، ما تمنيت شيئاً كما أتمنى الآن لو تمت هذه الخطوة .

اما أمثلة النموذج الثاني فقد كان منها ما تحدثوا عن مكانة دمشق ، وعن تجاوز هذه المكانة، وعن الحيف الحضاري الذي ستتعرض له .. وضعوا أصابعهم في آذانهم وأخذوا يصيحون : دمشق ..

ودمشق .. انها نور العين وضياء القلب وبسمة الحياة .. انها امنا وارضنا ومثوانا .. ولكن ماذا يقول هؤلاء الناس اليوم اذا لم قاسوا المسافة بين دمشق وبين قوات العدو ؟ وهذا كله في حين كانت دمشق العاصمة الثانية ، وكان هنالك هذا التبادل المستمر بين جماعات الموظفين من الوزير الى الضارب على الآلة الكاتبة .

ومن المؤكد ان هذا الاتجاه كان دخيلا حتى على اصحابه .. انهم كانوا على يقين ان الذي يقف على الطرف الآخر لدمشق ليست القاهرة ؛ ولكن الذي يقف للقاهرة ودمشق على السواء، بل للمدينة ومكة ، لو مدوا ابصارهم انما هي تل ابيب . وانما هي هذه القدس التي احتلوا عظمها ثم احتلوها بعد ذلك .

ومن اجل ان يعي المواطن الناشىء هذه الحقيقة احب ان اقول ان الذي استثمر ذلك اشد استثمار وعزف على هذا الوتر اسوأ نغم ، انما هو مؤسسة اعلامية في عاصمة بلد آخر قريب..

فمن هذه المؤسسة تعالت انغام النشيد السوري مرة ومرات في اليوم ، لاتذكر وانما تثير .

والحق يحسن كذلك أن نلاحظ أن الأمر بدأ مبكراً وبدأ هادئاً .. كان ظاهرة بعيدة عن ان تكون عربية النشأة، فالعربي لا يحسن هذه المواجهة الناعمة .. لو كان الأمر بيننا لشتم بعضنا بعضاً .. أما البدء بأنغام النشيد السوري بعد أشهر من قيام الوحدة فذلك يعني أن عقلاً هادئاً بارداً كان يدير ذلك – ولعله من هذه العقول الهجينة – وكان يخطط له وكان يتخذ منه أداة إيحاء ، وكان يرمي عن طريقه عربياً بعربي ، حتى يبقى هو .

ومرت الايام .. وبكى الذين قـادوا الانفصال من هنا .. كانت عيونهم ، اسبوعاً بعد اسبوع وحدثاً بعد حدث، تمتلىء بالدموع.

ولواري ناس كانت الوحدة أغلى عندهم من عيونهم وقلوبهم ووجودهم ، وأعز عليهم من أمهاتهم وآبائهم واولادهم . . خافوا ان يصطبغ هذا النسيج الالهي الذي ربط مابين العربي والعربي بالدم، فيكون في التاريخ الجديد مرة اخرى قميص آخر لعثمان ، أو عصبية متجددة من عصبيات قيس ويمن ،

وهاجر من هاجر ، وابتعد من ابتعد ، وسكت متحدثون ، وانطوى على جراحهم مجروحون .

ومرت الايام .. واصبح طرفا الكماشة في مثل لين الهواء في الربيع .

ومرت الايام .. وتكاثرت الحـركات والنزعات ، دون ان نتعلم من التجربة الأقل الاشياء ؟

ثم نستيقظ من جديد ، على بشائر الاتحاد الثلاثي .. ولنحيا في هذا الامل من جديد .

السؤال والجواب :

وبعد ، فما هو الطريق؟ ما الشأن؟ماالذي يجب ان نقوله للجيل الناشيء ؟

ان امانة في اعناقنا ان نقول . فلن نخفي عن الجيل الذي ينشأ تجربة الجيل الذي تقدمه. ان الطريق كلمات قصيرة مبسطة :

الصالح العام فوق الصالح الخاص في نطاق التعامل القطري .

والمصلحة القومية فوق المصلحة الاقليمية في نطاق التعامل القومي .

والدخول في معركة الوطن بعيداً عن كل الحساسيات .

والعودة الى التاريخ ، القديم والحديث على السواء ، حتى تتأصل عندنا هذه المبادىء وحتى نؤمن أن قدرنا ، أشتاتاً ، غامٌ غامٌ الى حد الضياع .

وتجاوز الجدل النظري الذي لاحدود له. ان الاستسلام اليه نوع من الخدر . والوحدات القومية لاتصنعها « الدراسة » . . الدراسة سبيل الذين يأتلفون اليوم بعد عداوة قرون. وقد آن لنا ان ندرك ان اقصى خسارة لاتعدل ، في حساب الجماعات والافراد ، خسارة شبر من الارض. ولاتعدل في المقاييس المادية تكاليف معركة من المعارك .

* * *

قلت في البداية انه حديث . . أنا ابرأ ان يكون دراسة . . انه حديث عن تجربة شخصية . . وماالذي يمنع مجلة كالمعرفة ان تفتح الطريق امام تجارب الآخرين ؟وماالذي يمنع الدولة ان تدعو الى ذلك دعوة ملحة حتى يعرف الجيل الذي سيظل على السلطة ماذا كان في خلال هذه السنوات العشر العجاف . . حتى تكون دولة الاتحاد الثلاثي غنية غنية .

عبدالكريم غلاب

الإقليمية
مرض عارض أم عاهة دائمة ؟

نفكر في الوحدة العربية لأننا لانعاني من التمزق العربي فحسب ، ولكننا نعاني – أكثر من ذلك – من ظاهرة الاقليمية المتأصلة في أجزاء الوطن العربي .

في الربع الأخير من القرن العشرين ، وفي الوقت الذي تتكتل فيه الشعوب والدول التي سحقتها الخلافات الاقليمية ، والتي سالت دماء ملايين من أبنائها في سبيل وحدة هذه الأقاليم حتى كونت في القرن الماضي وحدتها ، تعيش هذه الدول عصر وحدة المجموعات الاقتصادية وعصر الوحدة الوطنية أو المجموعات الاتحادية. هناك شعوب لايجمع بينها تاريخ ولا حضارة ولا دين ولا لغة ، وتفرق بينها في الوقت نفسه ترات تاريخية مازال تعيش في ضمير كل عائلة ، وحتى الكهول من أفراد العائلات مازال تقشعر أجسامهم لذكرى هذا الماضي

الدامي القريب ، ومع ذلك تسعى لتكوين وحدة اقتصادية ستنتهي باندماج صناعي وتقارب ثقافي وتعاون اجتماعي . وليس ببعيدان ينتهي الامر بها بعد جيل او اجيال الى وحدة وطنية لايختفي معها الماضي فحسب ، ولكن تختفي معها ايضا الاقليمية الوطنية ووحدة الدولة وعلم الدولة .

وهذه شعوب الهند الاقليمية التي مزقتها الى ممالك وامارات متنازعة لتكون وحدة شعب يضم سبعمائة مليون انسان أو تزيد ، ولتجند الدولة هذه الملايين السبعمائة لخدمة الانسان والارتفاع بمستواه .

وهناك دولة الولايات التي تستقبل المهاجرين من مختلفي الأصول والألوان والجنسيات واللغات ، ولكنها تصهرهم في المجتمع الموحد – مهما تكن سبيل هذه الوحدة – ليصارعوا في الحياة ، وليفرضوا سلطتهم المادية بتحد مطلق على العالم .

وهناك دولة الشعوب مختلفي القوميات واللغات والاديان والاجناس والعروق ، المنتمين لأبعاد قارية واسعة الافق ، ومع ذلك يكونون دولة تسير وفق مذهب موحد في الايديولوجية والعقيدة والعمل الاقتصادي والاجتماعي .

نحن نشهد هذا التطور الوحدوي في العالم المتقدم، ولا نعود بأفكارنا الى الماضي البعيد الذي كانت فيه شعوب هذه البلاد ممزقة الى قوميات ووحدات وامارات ، ولكننا فقط نعود الى بداية القرن الماضي لنبحث فيه عن ايطاليا الحالية وارثة مجد روما ونسل امبراطوريتها الضخمة فلا نجد لها وجوداً ، دويلات وامارات صغيرة تستقل احداها ثم يطمع الجيران في الاخرى ، وتتآمر الدول المجتمعة في فيينا سنة ١٨١٥ على تقسيمها. النمسا تأخذ البندقية والاراضي المحيطة بها. البابا معزول في روما . اسرة بوربون تقعد على عرش نابولي . ملك بيد مونت يضع تاج القرب المتاخم لفرنسا على رأسه . وتعاني سليلة الامبراطورية الرومانية من التمزق . ثم يبعث ماتزيني جمهوريتها على يد جمعية «ايطاليا الفتاة» . وتبدأ المسيرة نحو الوحدة بالثورات والحروب مع الجيران والطامعين ويجهز «غاريبالدي» على خصوم الوحدة من اجانب وعملاء ، وينتهي الامر بالملكية سنة ١٨٦١ التي صفتها نهاية الفاشية بعد الحرب الكبرى الثانية .

في نفس التاريخ كان هناك شعب آخر يناضل من أجل وحدته هو شعب المانيا الذي لم يمر على وحدته نصف قرن حتى أصبح يهدد أوربا – للمرة الثانية – والعالم من ورائها بالسيطرة وفرض العبودية . مراحل من الصراع مرت بها المانيا المقسمة الى مجموعة دويلات . النمسا تحت أسرة هابسبورج ، وكانت القوة الكبرى في المانيا . بروسيا

تنافسها في الزعامة. دويلات وامارات هنا وهناك لم تفلح المحاولات لتكوين اتحاد فيما بينها رغم ثورات الشعب الممزق سنتي ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . ثورات كانت تخمدها المصالح وجيوش الامراء والحاكمين. ويحاول بسمارك منذ قرن تقريباً (عين رئيساً لحكومة بروسيا سنة ١٨٦٢) أن يوحد المانيا والنمسا تحت زعامة بروسيا . ويتلقى هجوم فرنسا بزعامة نابليون الثالث، وتكون الحلقة الاولى من هزائم فرنسا (سنة ١٨٧٠) على يد الجيوش الالمانية، وتنتهي الثورات والحروب بتسلم القيصر ويلهلم الثاني عرش المانيا بعد أن نحى بسمارك عن منصبه، وبذلك توحدت المانيا سياسياً لتنتظر تمزقاً آخر جنته هي على نفسها يوم سارت وراء هتلر في محاولة مجنونة للسيطرة على العالم .

ما تزال الاقليمية تطبع ايطاليا ، وتطبع المانيا بصفة خاصة في التراث والفنون وطابع الحياة المحلية ، ولكن الدولتين - ولهما أشباه في أوربا الوسطى والشرقية - نهضتا بعبء حضاري واقتصادي وصناعي وعلمي ، وأخرجتا شعبيهما من عالم الصراع الداخلي والحرب الخارجية والبؤس الاقليمي حتى أصبحت لهما الكلمة - ولألمانيا على الأخص - يوم يهتز الدولار عن عرشه .

من كان يصدق أن الجيل الذي زحف - قبل ثلاثين سنة - على باريس وبروكسل وامستردام ، وهدد لندن وسحق وارسو وبراغ وطرق أبواب موسكو ثم عاد مندحراً تحت زحف الشعوب المقهورة هو نفسه الذي يبني الوحدة الاوروبية فيحرر الاجيال القادمة ، لا من بؤس الفقر فحسب ، ولكن كذلك من تهديد اليوم والغد ، ومن الشعور بذنب الماضي أو باستعلاء الحاضر، أو بالخوف من المستقبل ؟

ثم هذه الصين زعيمة شعوب آسيا ذات السبعمائة مليون نسمة كانت في منتصف القرن الماضي نهباً لاستعمار طاغ . انجلترا تشيد الرجال بنفسها لتتحمل فيما تحمل من بضائع الافيون الى الشعب الصيني حتى تقهر فيه روح المقاومة ، والخصومات تمزق وحدة البلاد والثورات تفصل الجنوب عن الشمال عن الوسط عن الغرب ، والأباطرة والملوك والأمراء يشنون حملة من المذابح ، دونها مذابح ايلول ضد كل العناصر المناضلة التي ترغب في حماية البلاد وانقاذها من التمزق وطرد المحتلين من أرضها ، والقادة العسكريون ينصب كل منهم نفسه آمراً أو أميراً على البلاد وتقوم بينهم - بمساعدة المستعمرين طبعاً - حروب أهلية ، والوطنيون يزحفون من الجنوب بقيادة صن يات صن الذي كون

حكومة في كانتون تعرضت للمحن المتكررة، في وسط محنة السيطرة الأجنبية على كل موانىء الصين لتبقى في أيديهم كل ممكنات البلاد الاقتصادية ، واليابان تهاجم البلاد من حين لآخر لتسحق قوتها حتى تبقى سيدة الموقف في آسيا ، وينتهي الأمر بالتمزق الشامل ، اليابان في منشوريا ، انجلترا في هونغ كونغ ، حكومات عديدة في كل بقعة من القارة الكبيرة ، تشان كاي تشيك يسيطر على الحكومة الوطنية ليقوم بمذابح ضد التقدميين والشيوعيين ، حكومة كانتون في الجنوب ، منطقة سوفييتية في الداخل ، العدو الياباني يتنمر فيحاول أن يجهز على البلاد عن طريق المذابح التي سجلها التاريخ. والصين ذات الحضارة التليدة والفلسفة العريقة والانسان الذكي الصبور تعصف بها الزوابع الهوج كما لو كانت ورقة منزوعة من غصن ذابل تذروها الرياح في كل الاصقاع .

كانت الطريق شاقة وطويلة وعنيفة عنف الخصوم الذين كانوا يُعلنون في شماتة : «انه ليس هناك شعب اسمه الصين ، وان كانت هناك حقيقة جغرافية » كما قال أحد الانجليز ويعلن آخر في خبث : « شعب الصين ؟ هذه تلال كانت هنا ونثرتها الرياح » كما قال أحد الفرنسيين . وقد كان لهذه الهزائم المتكررة أثرها حتى في نفوس المناضلين فكتب صين يات صين مرة يقول : « كانت الهزيمة مرة ، وكانت من شدة مرارتها أنها هدمت ثقتهم المطلقة في حضارتهم ، وأقنعتهم أن شجاعتهم وحضارتهم لا تساوي شيئاً أمام الحضارة الرهيبة المخيفة القادمة من الغرب » .

ومع ذلك استطاعت الصين أن تتغلب على هذا التمزق الاقليمي ، عن طريق الشعب لا عن طريق القادة فحسب ، وبالوحدة الشعبية ضد التمزق والصراع الداخلي والحروب الأهلية ، وبالعمل من أجل المرأة والرجل والفلاح والعامل والتلميذ والطالب لا بالعواطف والشعارات والتناقضات . وبتجنيد الشعب ضد الفساد والرشوة والاستغلال والاقطاع ، لا بالانتفاع من وراء الدولة وبامتصاص دماء الشعب .

وعاد شعب الصين يقود الحياة ويفرض ارادته على كل خصومه موحداً قوياً لا يركع للجوع والفقر والاستعمار والأفيون.

الاقليمية عند شعوب أروبا وآسيا لم تكن عارضة بقدر ما كانت متأصلة . ومع ذلك انتصرت الشعوب عليها لتحل محلها الوحدة الوطنية أولاً . ثم الوحدة القارية ان شئت ثانياً .

والملاحظات الأولية في هذا الانتصار الذي حققته الشعوب في طريق الوحدة :

ـ أنها لم تكن فكرة عاطفية أو رأياً فلسفياً تحقق بمحض التمنيات .

ـ أن طريق الوحدة كان محفوفاً بالصعاب الداخلية والخارجية فالمؤامرات التي كانت ضد وحدة ألمانيا أو ايطاليا أو الصين أخطر من أن يستهين بها المؤرخ، سواء المؤامرات الداخلية من الاقطاعيين والاباطرة والأمراء والمستفيدين من التمزق الوطني، أو المؤامرات الخارجية التي لعبت فيها كل الدول المجاورة والبعيدة، وخاصة فرنسا بالنسبة لكل من ألمانيا وايطاليا وانجلترا، واليابان بالنسبة للصين، أدواراً خطيرة للابقاء على الوطن الممزق حتى يظل منبعاً للابتزاز والاستغلال والانتفاع ومجالاً لاحتقار البشر واستخدامه.

ـ ان الوحدة كانت هادفة لخير الشعوب ومصلحتها، ورغم ان المستغلين تسلقوا قمة الوحدة في شكل أباطرة أو ملوك أو رؤساء وصبغوا على أنفسهم طابع الحكم الالهي، أو طابع الزعامة المعبودة، فان الشعوب ما لبثت أن حطمت هذا الاستغلال التسلقي وأعادت السيادة للشعب. وربما كانت هذه الشعوب التي مرت بمحنة التمزق في طريق الوحدة هي أكثر الشعوب التي تطبق الديمقراطية السياسية أو الاجتماعية. وبذلك كانت الوحدة لفائدة الشعب لا لفائدة الذين حاولوا استغلالها للحكم الفردي المطلق.

نحن في الوطن العربي مثال من هذا التمزق.

ولا نخون التاريخ فنزعم أننا كنا شعباً واحداً أو دولة واحدة في تاريخنا العربي، ولكننا مع ذلك كنا نستقي من منبع عرقي واحد، عرباً أصلاء أو تعربنا عن طريق الهجرات المتبادلة المتداخلة. ووحدنا الدين في أغلب شعوبنا. وكانت الثقافة بالمعنى الواسع، التي تشمل الحضارة الفكرية والفنية والمادية والشعبية، تبلور هذه الوحدة وتوجهها نحو التلاحم والترابط.

كانت هذه دواعي الوحدة، وقد عملت عملها في ربط صلات الوطن العربي كلما تقاربت الدول الحاكمة هنا وهناك، وكلما تباعدت مصالح هذه الدول أو قامت بينها نزاعات. المهم أن الحكومات لم تكن عامل وحدة بمقدار ما كانت عاملاً في تدعيم روح الاقليمية والانفصال، لأنها لم تكن في الغالب الأعم حكومات نابعة من الشعب بمقدار ما كانت حكومات متسلطة اقتعدت كرسي السلطة عن

طريق الغلبة العسكرية في الغالب أو انتزعته من أسلافها عن طريق الانقلاب . وكانت تخضع في ذلك لسنة التطور ، تكون الدولة شابة فتستولي وتهيمن وتوحد – عن طريق الفكرة الامبراطورية – كما مكنتها القوة العسكرية من ذلك. ثم تعتمر وتضعف عسكرياً وثقافياً وتتلاشى إدارياً في الوقت الذي تكون أقدار دولة أخرى تهيء لها كل ظروف السيطرة والغلبة بقيادة زعيم مغامر أو مصلح أو حكيم .

المهم أن سلطان الدولة العربية الاسلامية يوم كانت خلافة أو مجموعة دول وخلافات، لم تستطع أن توحد الوطن العربي ولا الوطن الاسلامي الا مظهرياً بالولاء بالقوة والخطبة للخليفة .

ولكن الشعوب العربية مع ذلك كانت تحمل بذور الوحدة الفكرية والعقيدية ، فكان المثقفون يتبادلون المعرفة فيتنقلون بين فاس وقرطبة والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ليدرسوا ويتصلوا بالعلماء والطلبة ويلقوا المحاضرات ويناقشوا ويجادلوا، وكان الفنانون ينقلون خبراتهم الفنية في الموسيقى والرسم والنقش . وكان الرجل والقافلة تسير ما بين المحيط والخليج فلا تحس غربة ولا تجد فارقاً كبيراً بين مجتمع ومجتمع .

ولكنا مع ذلك لاننكر أن القبلية العربية الأولى التي كانت تقسم الجزيرة العربية سواء من حيث الأصول القبلية أو من حيث النزعات والاختلافات والتارات والحروب انتقلت مع العرب في سياحتهم الواسعة بين المحيط والخليج . وقد حاول الاسلام أن يهدىء من ثائر هذه الخلافات ، ولأمر ما كان القرآن يلح على الوحدة الانسانية ، ويضع العمل الصالح أساساً لكل تميز . ومع ذلك تضافر الحكم الموزع والطموح الى الى السلطة وابعاد الشعب في كثير من الأحيان عن مركز المسؤولية في تدعيم الاقليمية التي استمرت جذورها من القبلية أحياناً، ومن الوطنية الضيقة أحياناً أخرى ، ومن الحكم أحياناً ثالثة . وظهر أثر ذلك لا في الحياة الشعبية فحسب ، ولكن كذلك في الآداب ، وفي الشعر العربي بخاصة الذي استغل الفخر – الفن العربي القديم – في التفاخر بالمدن والأقاليم والدول والحكومات .

هذا مظهر للاقليمية، وهو ارث ثقيل ورثه الوطن العربي الحديث وهو يكتشف نفسه ، فيجد بعضه تحت الامبراطورية العثمانية التي استعاضت بالفكرة الامبراطورية والحكم العنصري والاقطاعي عن فكرة التوحيد التي تحملها في الأصل معنى الخلافة الاسلامية أي وحدة الحكم للامة الموحدة ، ويجد بعضه منفصلاً عن باقي الوطن العربي تحت حكم استعماري أو سيطرة أجنبية . ويجد بعضه وقد ضعفت فيه روح القومية بالمعنى المتفتح لتحل محلها روح الاقليمية بالمعنى العنصري

الضيق ، ويجد بعضه ، وقد انبعثت فيه وطنية منحرفة معتمدة على الفينيقية أو البابلية أو الفرعونية او الزنجية أوالبربرية .

وراء كل ذلك بدون شك الاستعمار من جهة والانحراف الفكري من جهة أخرى :

الاستعمار يعمل على تمزيق هذه المجموعة ولو أنه في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن كان يرى خطورة وحدتها في الدين لا في القومية . ونحن نعرف أن المبشرين كانوا ممهدين للاستعمار كما كان علماء التاريخ والجغرافية والطبوغرافية والرحالون هم الطليعة الممهدة لجيوش الاحتلال في كل الوطن العربي وفي افريقيا بل في الصين وكل دول آسيا .

وأخذ الاستعمار من العلم كل سيئاته — ان كان للعلم سيئات — فأخذ يطبق النظريات الانفصالية على الوطن العربي ، فيبعث مصر الفرعونية مثلاً في الوقت الذي يتجاهل أو يسكت عن أصول الفراعنة أنفسهم الذين قدم بعضهم مما وراء سيناء وقدم بعضهم من صحراء لوبيا وقدم بعضهم من جنوب الوادي « السودان » . ويبعث الفكرة البربرية في المغرب العربي ويتجاهل أو يسكت عن الأصول الأولى للبربر الذين قدموا من الجزيرة العربية أو ماحولها فهم عرب وفينيقيون — ان كان لنا أن نحكم العرقية في القومية التي نريد أن نبنّيها — مهما اختلفت اللهجات التي يتحدث بها هؤلاء البربر . ثم هم اختلطوا بالعرب بعد الاسلام والهجرات العربية المتوالية حتى ان الكثير من العائلات البربرية مصممة على الانتساب الى الشجرة النبوية أو يرجعون بنسبهم الى عمر بن الخطاب أو أبي بكر الصديق أو علي بن أبي طالب .

ويبعث الاستعمار الفكرة الفينيقية ، و « العِلْم » لايسعفه هذه المرة فالفينيقيون عرب ، والمنتمون اليهم في صميم العروبة .

ويبعث فكرة التفرقة الدينية والمذهبية والطائفية . ولم تكن أي منها بقادرة علمياً ولا سياسياً على انجاد فكرة الاقليمية والدعوة لها بمنطق علمي أو سياسي . ولذلك فالقومية انتصرت على كل تخطيط قام به الاستعمار على الأقل من الوجهة النظرية .

ولم يعد « العِلْم » الاستعماري يتفوق علينا نحن العرب فيقسمنا الى أقاليم بدعوى أننا أمم مختلفة العروق والانتماء الجنسي ، ولم يعد بقادر على أن يقسم الاقليم الواحد الى قبائل وشعوب كما حاول في المغرب والجزائر وكما لايزال يحاول في السودان ، وكما لاتزال آثار من محاولاته في العراق .

لم ينجح الاستعمار في القضاء على عناصر الوحدة الكامنة في الوطن العربي . ولكنه مع ذلك نجح في ابعاد هذا القطر عن ذلك

وفي بث كثير من المفاهيم التي مازال نعاني منها لا في العمل السياسي والاقتصادي فحسب ، ولكن كذلك في الميدان الفكري الذي مازال يوحي للكثيرين بأصول نظرية للاقليمية كما سنرى .

وأعتقد أن في مقدمة سيئات الاستعمار التي دعمت الاقليمية الى حد كبير ، المأساة التي أوجدها وسط الوطن العربي باحتلال فلسطين ووضع الأرض المحتلة منطلقاً للتوسع الاستعماري من جهة، ولفرض أوضاع عسكرية واقتصادية وتهديدية على كل قطر عربي مجاور تجعله يفكر – باقليمية ضيقة – في النجاة أو في درء الأخطار على الأقل .

وهكذا يمكن أن نقول أن مأساة فلسطين كان يجب أن تقضي على الاقليمية لتحل محلها الوحدة، ضرورة أن الوحدة هي سبيل التحرر من الاخطبوط الاستعماري الصهيوني، ولكن مردود المأساة كان عكسياً . ويرجع ذلك الى انعدام المفهوم العلمي للوحدة عند المسؤولين في الوطن العربي على الأقل ، والى انعدام الادراك الحقيقي لخطر الاقليمية في مثل وضعنا الحالي .

أما الانحراف الفكري فلم يكن آتياً عن جهل فقط بالظروف الموضوعية والتاريخية والعرقية والتلاحم والاندماج لتكوين القوميات ولكنه أتى كذلك عن تأثر بالفكر الاستعماري الذي كان يوحي ببعث المجد الوطني انطلاقاً من « الحفريات » . . . ولذلك كان الانحراف مصدر تناقضات خطيرة وفاضحة تبرهن على مدى هذا الانحراف . وكانت تتلاقى في فكر هؤلاء الاقليميين مثلا الدعوة الى الفرعونية أو الفينيقية والانتماء الى أوربا، وكان بعضهم ربما عن فكر « ذي نية حسنة » يأبى أن يكون هناك عالم عربي أو وطن عربي ،وكان يتنازل – فكرياً – أحياناً فيسميه « عالم العربية » كما كان يقول المرحوم الدكتور محمود عزمي على وزن الشعوب الناطقة بالفرنسية أو بالانجليزية مثلا ،لأن العالم العربي شيء لا وجود له ، الا أن قومه يتكلمون لغة اسمها العربية .

وقد عاشت هذه الفكرة في أيام نضال الشعوب العربية من أجل استقلالها فزادت في تمزيق وحدة النضال ، وكان الشعور بالاقليمية عند الحاكمين وقادة الرأي السياسي والثقافي يزيد في عنف المعركة ، لأنه يفصل مشرق الوطن العربي عن مغربه ، بل يفصل المشرق بعضه عن بعض والمغرب بعضه عن بعض .

ولكن يجب أن نؤكد أن هـــذه الفكرة لم تكن تعيش في ضمير الشعب العربي ، وانما كانت تعيش في عقول بعض المنحرفين فكرياً الذين يهتمون بالعزلة الاقليمية الضيقــــة ، وان كان

انفتاح انتائي فعلى أوروبا أو عالم المتقدمين.

ويجب ان نؤكد كذلك أن الفكرة الاسلامية ـ التي لم تكن تختلف مفهوماً وفي ضمير المواطنين عن الفكرة العربية وخاصة في المغرب العربي وربما في عموم الشعب العربي ـ كانت تقلل من خطورة هذا الانحراف الفكري ، فكانت تربط بين أجزاء الوطن العربي شعبياً ، وبذلك عاش شعب المغرب مع سوريا وهي تناضل في سبيل الاستقلال وضد الاستعمار الفرنسي ومع مصر ، وهي تكافح الاستعمار الانجليزي ، ومع فلسطين وهي تعيش المأساة قبل الزحف الصهيوني الاخير . وعاشت شعوب سوريا والعراق والجزيرة ومصر مع شعوب المغرب في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وهي تعيش تجربتها النضالية التي انتهت بطرد الاستعمار من هذا الجزء العربي .

الاستعمار والانحراف الفكري والسياسي مازالان يدعمان الاقليمية وشاهد ذلك في المآسي التي تعيشها أقطارنا العربية مشرقاً ومغرباً لم تنفع الجامعة العربية في القضاء على هذا المرض ، ولم تنفع مؤتمرات القمة، وبعد قرابة ثلاثين سنة من الجامعة التي انتهى اليها نضال الشعوب العربية في سبيل الوحدة مازال يحرم على الفلسطيني مثلاً أن يناضل في جزء من أرضه أو في أرض عربية أخرى لاسترجاع أرضه المغتصبة ، وما تزال بعض من البلاد العربية تغرق في الاقليمية فتوقف أو تقطع العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية مع البعض الآخر ، وما تزال تعيش أزيد من عشرين دولة في وطن تهدده الأطماع الماحقة من كل جانب وهو لا يحتمل غير دولة واحدة قوية .

ولكن أعتقد أن للتاريخ حتميات ، وأن الوطن الذي توحدت بعض أجزائه في الماضي باسم الخلافة أو الامبراطورية أو باسم الوحدة الاسلامية سيستجيب لاحدى حتميات التاريخ الأساسية وهي وحدة الشعوب العربية . التاريخ سيقضي على التمزقات الاقليمية ويسير بالوطن العربي في سبيل الوحدة لأسباب ، وتحت شروطه .

أما الأسباب فهي :

ـ العصر عصر التكتلات .

ـ الجيل الجديد في الوطن العربي سيدرك خطورة التمزق الاقليمي وسيسير وفق حتمية التاريخ يتحقق الوحدة بدلاً من القومية .

— تأثير الاستعمار والانحراف الفكري سيضعف بفعل اليقظة التي تدفع بالأجيال الصاعدة لتخرج من منطقة التخلف الفكري .

وأما الشروط فهي :

— أن يدرك المسؤولون في الوطن العربي مسؤولياتهم نحو المستقبل فلا يعرقلون التاريخ حتى لاتصبح المعركة جانبية بينهم وبين الشعوب بدلاً من ان تكون بين الشعوب والواقع الاستعماري او الانحراف الفكري .

— أن تعود للشعوب كرامتها الحقيقية فتتحمل مسؤولية التفكير والتسيير على أساس نظام ديمقراطي سليم .

— أن يتجه التثقيف في الوطن العربي نحو بعث الفكر المتحرر من رواسب التخلف والأفكار المسبقة ، ونحو الادراك الحقيقي لمسؤولية الانسان العربي ، ونحو تقييم سليم للتاريخ ، ورؤيا واضحة للمستقبل .

الاقليمية ستنتهي للأسباب والشروط الحتمية ، فهي مرض عارض تمكن من الجسم العربي نظراً للقابلية ، ولذلك فالمستقبل للوحدة لا للاقليمية .

الرباط



خلدون الشمعة

نحو الأدب القومي

الصيحة التي أطلقها مستشرق معاصر[١] في دعوته عن (هوراس) معاصر يمنح من عمره عقداً من الزمن يقضيه في دراسة الشعر العربي ، وترجمة مختارات منه ترجمة مزودة بدليل تكتب فيه القصائد المختارة بحروف لاتينية يتسنى للقارىء الأجنبي التعرف من خلالها على شيء من الملامح القومية للشعب العربي عن طريق ولوج عالم القصائد الصوتي بالإضافة إلى عالمها المعنوي، هذه الصيحة قد تنطوي على قدر غير ضئيل من المبالغة في التبسيط. إذ ليس ثمة من معادلة بسيطة بين التحقق

(١) ديزموند ستيوارت

القومي وبين قدرة أدب أمة من الأمم على التعبير عن ذلك التحقق القومي . وليس ثمة من تطابق مستمر بين حقيقة المشاعر القومية وبين التعبير الأدبي .

غير أن الدعوة هذه لها دلالتها المتميزة بكل تأكيد : إنها ترى في الأدب العربي المحور المركزي للثقافة العربية . فالثقافة العربية أدبية المنزع ، وأحد سبل فهم العرب إنما يتحقق بدراسة لغتهم وآدابهم ، حتى من خلال إيقاعها الصوتي .

وعندما صدّر (أنتوني ناتنغ) كتابه الشهير في التاريخ العربي ببيت الشاعر (عمرو بن كلثوم) (ألا لا يجهلن أحد علينا ..) فانه كان يؤكد على دور الشاعر العربي كمعبر عن صوت الجماعة ، وربما عن قيمة عربية صميمة هي تغليب الحق على المنفعة الآنية .

والحال ان دور الثقافة الادبية في التكوين القومي للأمة العربية كثيراً مايضيع تحت ركام عناصر التكوين القومي الاخرى ، الاجتماعية منها والاقتصادية ، والتاريخية : ومهما يكن المعنى الذي نقصده من عبارة الثقافة الادبية فانه لابد أن يلمع إلى التراث الادبي لدى العرب خلال مراحله المختلفة بما في ذلك أدب عصر النهضة الذي يبدأ منذ القرن التاسع عشر .

غير أن (التراث الأدبي) ، مصطلح غائم ينطوي على معنى (الملكية) الخاصة على الرغم من أنه لاينفي حقيقة التفاعل أو التناغم أو التجاذب أو التنابذ بين مختلف الثقافات . فنحن نزهو بتراثنا الشعري كما كان يفعل العرب القدامى . والمتحف الشعري العربي تزدحم قاعاته بالأمثال والمعلقات والقصائد والحكايات والمقامات التي يتشكل منها موروثنا الأدبي .

غير أن عرض هذا الموروث دون اختيار قد جعل قاعات العرض محشوة بقطع الأثاث الى حد لم يعد الجديد معه يجد مكاناً الى جانب القديم . وها نحن ، كالمتنبي في شعب بوان ، نبحث عن الوحدة الأدبية والثقافية في غمرة تفككنا السياسي . لقد كانت الوحدة في اللغة والأدب ، الوحدة الأشد ثباتاً من سواها في التاريخ العربي . ولدينا من عصر (ابن خلدون) مثالاً رائعاً على مقاومة الثقافة العربية للتجزئة على الرغم من التحلل السياسي . ان هذه الوحدة الأدبية على حد تعبير ساطع الحصري (١) هي التي « تفسر

(١) (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) دار المعارف بمصر — ص (٦٣).

لنا سهولة انتقال ابن خلدون من قطر الى آخر ، وسرعة انتشار شهرته بين هذه الأقطار، فاننا نجده يخطب ويدرس في الجامع الكبير في (غرناطة) ، وفي جامع القرويين في (فاس) ، وفي جامع القصبة في (بجاية) وجامع الزيتونة في (تونس) ، كما نجده يعقد حلقات التدريس في جامع الأزهر غداة وصوله الى (القاهرة) ، ونجده ،في الأخير يجتمع بعلماء الشام في المدرسة العادلية بدمشق».

والحقيقة ان الوحدة الثقافية العربية بمظهرها الادبي كانت تشكل باستمرار ،تحديات كبرى للاستعمار في فترات التجزئة . فقبل نصف قرن نشر (ويلكوكس) رسالته الشهيرة « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطه تتكلم البونية لا العربية » (١) حاول فيها ضرب فكرة الوحدة العربية عن طريق سلب العرب لغتهم وأدبهم . وقبل ثلاثة عقود من الزمن ظهرت نظرية (احمد ضيف) في كتابه : « مقدمة في بلاغة العرب » ومفادها ان اقليمية الأدب العربي تتجلى في ان ثمة آداباً عربية وليس هناك ادب عربي واحد . وفي أواخر الثلاثينات أعلن (أمين الخولي) ان احدى المهات العاجلة للثقافة المعاصرة هي دراسة الادب العربي انطلاقاً من التقسيات المكانية والسياسية وليس على اساس الفترات التاريخية . كما ظهرت الدعوات الى العالمية والحرف اللاتيني في كتابات (سلامة موسى) و (عبد العزيز فهمي) و (سعيد عقل) .

وبالطبع تختلف هذه المحاولات في بواعثها وآفاقها . غير ان إصرارنا على وحدة الأدب العربي إنما يصدر أساساً عن حقيقة مفادها أن الصلة بين الأدب والقومية شديدة الوثوق، والتمزق السياسي والاقتصادي ينبغي ألا ينظر اليه على أنه دليل على الانفصال الثقافي. ومن التحديدات الضارة التي يقوم بها « المؤرخون ذوو الثقافة الأكاديمية انهم لا ينظرون الى العلاقة بين الفن والحياة القومية إلا في اطار القومية البورجوازية وأيضا في ضوء ما يطلقون عليه تعبير « اقليمية » الحركات القومية في القرن التاسع عشر . وهم يزعمون ان «الفن القومي» فن ضيق الأفق أو اقليمي على النقيض من عمومية « الفن الحقيقي » . وكبديل لهذا يتحدثون عن (الخصائص القومية) التي يحتمل ان تكون قد وجدت (في الدم) طول الوقت، فيذكرون نزوع الانجليز نحو الشعر والذكاء الخاص بسكان بلاد الغال عند الفرنسيين والعمق العقلي عند الألمان والانفعال والحساسية عند الطليان الى غير ذلك من التعميمات المشابهة التي لا معنى لها والتي يكذبها أي فرز حقيقي للأشكال المتنوعة للفن في أمة ما من الأمم .

(١) البونية PUNIC لهجة من اللهجات الفينيقية .

وكما ان الفن الواقعي كان سابقاً في وجوده بفترة طويلة على كل حركة تلقب نفسها بأنها حركة واقعية ، كذلك فإن الشكل القومي للفن كان سابقاً في وجوده بفترة طويلة على الحركات الواعية في الفن . فالفن القومي ، أو بمعنى آخر الفن الذي يصف ويعكس حياة الأمة ، ظهر إلى الوجود مع نشأة الأمم نفسها .[١]

وقد اعتقد الشاعر (ويتمان) ان الأدب القومي هام لأنه يقدم نموذجاً أساسياً أو صورة للشخصية القومية . وكانت كتابات (دوستويفسكي) (الانسانية) نفسها ، ترى أن خصيصة (الانسانية) هذه ، والفهم الشامل لها ، وقف على الشعب الروسي . وعندما وضع (غوته) عبارة الأدب العالمي فانه « لم يكن في حقيقة الأمر يدور بخلده مثل هذا المعنى . فقد استعمل الاصطلاح ليبشر بوقت تصبح فيه كل الآداب أدباً واحداً . والاصطلاح يحمل فكرة توحيد الآداب جميعها في تركيب عظيم ، تلعب فيه كل أمة دورها ضمن ائتلاف عالمي . غير أن (غوته) ذاته رأى أنها فكرة شديدة البعد ، وان ما من أمة ترغب في التنازل عن شخصيتها . » (٢)

لقد عرف (باوند) الأدب بأنه اللغة مشحونة شحناً عالياً . وهذا التعريف يومئ الى الأدب باعتباره وثيق الصلة بالقومية . وبالطبع فان المقصود باللغة هنا ليس أداة النشاط الثقافي للأمة فحسب ، وانما أداة وجودها الثقافي أيضا . ومن هذا المنطلق تبدو الحاجة ماسة الى اعادة كتابة الأدب العربي على أساس انه أدب قومي . والمقصود بهذا المصطلح ، الأدب العربي بمبدعاته المختلفة وليس الأدب الخطابي أو الأدب الذي يعالج قضايانا القومية . وبهذا المعنى تصبح الأشكال الأدبية كأشكال ، جزءاً لا يتجزأ من الأدب القومي . فالمقامة مثلا شكل عربي تماماً كما أن الرواية فن أوروبي . وهذا المنهج في دراسة الأدب هو أحد مناهج ثلاثة لدراسة تاريخ الأدب :

- المنهج العام .
- المنهج المقارن .
- المنهج القومي .

---

(١) (سيدني فنكلشتين) : (الواقعية في الفن) — ترجمة (مجاهد عبد المنعم مجاهد) ص (١٢٣) .

(٢) (رينيه ويليك) و (أوستن وارين) — (نظرية الأدب) ترجمة محيي الدين صبحي ص (٦٠) .

وعلى الرغم من تداخل هذه المناهج ، فإن المنهج القومي مازال تحت دائرة الضوء. فدراسة الأدب على أساس انـــه ظاهرة انسانية عامة ، لم تؤد إلى إلغاء عبارة الأدب الأوربي مثلاً أو الآداب الشرقية. وحتى عبارة الأدب الأوربي نفسها فإنها لاتنفي وجود أدب انكليزي وأدب فرنسي وأدب رومي وأدب ألماني ، وإنما هي تعامل الأدب على مستوى آخر من الدراسة أشد شمولاً وإن لم يكن بالضرورة أشد دقة وإحكاماً. وحتى في مجال المنهج المقارن في دراسة الأدب فان التصنيف القومي للأدب يطرح نفسه كحقيقة يبحث الدارسون عن الدلائل التي يمكن ان تنهض عليها . وإذا نحن أخضعنا تاريخ الأدب العربي قبل عصر النهضة، للمعايير التي تفرضها ثقافتنا المعاصرة فإن هذا سيعني تتويج الشعر دون غيره من نشاطات الثقافة الأدبية بمعناها الشامـــل . فالشعر العربي كما يقول (بروكلمان) [١] « ليس له من الدلالة في نمو الثقافة الإنسانية مثل ما للتأثير العلماء الكاتبين بالعربية من دلالة في بناء صرح العلم. لان اللغة العربية لم تبق مقيدة بحدود أمة واحدة، بل صارت أداة كل ثقافة وحضارة في المحيط الواسع الذي نفذ إليه الإسلام ديناً: من شواطيء بحر بنطس (الاسود) إلى زنجبار ، ومن فاس وتمبكتو إلى كشغر وجزر الملايو . ولم تتنازل اللغة العربية للغات الوطنية عن أداء هذه المهمة إلا في وقت متأخر ، وفي بعض الجـــوانب فحسب . » ويستنتج (بروكلمان) من ذلك انه ينبغي عدم الاقتصار في تاريخ الادب العربي على فن القول وإنما ينبغي أن « يدخـــل مؤرخ الادب العربي كل ظواهر التعبير اللغوي في دائرة عمله » .

وبالطبع فان الأدب العربي في فترة مابعد النهضة ربما تنطبق عليه مقاييس الثقافة الاوروبية ، بسبب أثر هذه الثقافة عــلى مختلف الانواع في الأدب العربي المعاصر . غير أننا يجب أن نتذكر ان القرن السابع عشر قد شهد في أوروبا بداية تحول ظاهر عن الثقافة القائمة على الكلمة والاتجاه نحو شكل جديد من الثقافة لا يعتمد على الكلمة.

---

(١) تاريخ الأدب العربي الجزء الأول ص (٣) .

ويرى (جورج شتاينر) في كتابة النقدي « اللغة والصمت » ان نوعاً من الثقافة التي خرجت من مدار حضارة الكلمة قد أخذ يبسط ظله على الثقافة الغربية منذ هذا التاريخ . وبعد أن كانت اللوحات الفنية والمقطوعات الموسيقية تحمل أسماء أدبية ، توقف هذا التقليد . وبالمقابل مازال الثقافة العربية ثقافة أدبية بالضرورة . وهذا عائد جزئياً الى ما تنطوي عليه اللغة العربية من تركيب فني . فالعربية تعتمد على تركيب الجذر والنموذج الذي يمكن بواسطته توليد المعاني من داخل الكلمة . وهي بطبيعتها الاشتقاقية هذه ذات طبيعة أدبية كامنة . وان أي محاولة لكتابة تاريخ الأدب العربي من منظور قومي ينبغي ان تأخذ بعين الاعتبار ان اللغة العربية ذات طبيعة أدبية كثيراً ما تتجلى حتى في الكتابات التي تقف خارج المدار النوعي للأدب . وهكذا فان التأريخ للأدب العربي باعتباره تاريخاً للأدب القومي ينبغي أن يأخذ في الحسبان جملة من الاعتبارات لا تتصل بالمادة الأولية لهذا التاريخ ، قدر ما تتصل بطبيعة هذه المادة . ذلك أن الوضع الخاص للغة العربية وما تمثله من القيم الابداعية ، والمظهر الادبي للثقافة العربية ، يجب أن يكونا في الصميم من نظرية تاريخ الأدب القومي . وبالطبع فان أي تاريخ للأدب القومي لا يمكن أن يتسم بكليته بالانسجام وانما يكون حصيلة للبحث عن الانسجام في الموروث الثقافي . وبعبارة أخرى فان قاعات العرض لن تصبح عندئذ محشوة بقطع الأثاث الى حد لا يجد الجديد معه مكاناً الى جانب القديم .

إن (الأدب القومي) مصطلح غائم طالما أنه لا يدل على أدب قومي بعينه . واذا كانت وحدة الثقافة العربية قد صمدت حتى في فترات التجزئة السياسية ، فان كون هذه الثقافة أدبية المنشأ والمنزع ، يومىء الى عنصر الوحدة الكامن في الأدب العربي ، باعتباره أدباً قومياً . وبالطبع فنحن لا نقصد بصورة الوحدة هذه ، مظهراً (ستاتيكياً) ساكناً وإنما نؤمن بأن الثقافة نشاط دائب التطور والتحول والصعود والهبوط . والبحث عن عناصر الانسجام في هذه الصورة المتحركة قد يكون المهمة الأساسية للمؤرخ الذي سيؤرخ للأدب العربي باعتباره أدباً قومياً . إنه تقص للوحدة من خلال التنوع لا بد أن يسهم في صنع دولة العرب القومية في عالم ما يزال منقسماً على أساس قومي مقتحم ، رغم الأقنعة الفكرية التي « تؤدلج » التجزئة القومية لدى العرب في وقت تسلم فيه بقومية (الأسكيمو) .

الوحدة العربية بين الحتمية واللاحتمية

ظهير عبد الصمد

الوحدة العربية

اتجاه تاريخي له طابع

الحتمية

ان قضية الوحدة العربية كهدف وكشعار ، مطروحة منذ فترة طويلة نسبياً في أوساط الجماهير الشعبية في سورية وفلسطين ولبنان ، ولحد ما في العراق وفي أوساط المثقفين الديمقراطيين في العراق ومصر ومناطق الخليج وفي بعض البلدان العربية الأخرى في شمالي افريقيا .

والأوساط الرجعية الرسمية وغير الرسمية في السعودية والأردن ومراكش وتونس وغيرها لا ترفض كلها صراحة، فكرة الوحدة العربية، وانما تتحدث عنها كلاماً عاماً ايجابياً، وتعمل ضدها من الناحية الواقعية وتسعى لتمييعها وللمزج بينها وبين الوحدة الاسلامية، او للتشكيك بالانتماء القومي للسكان، والعودة به الى انتماءات قومية غير عربية، فينيقية او بربرية او فرعونية او سورية .. الخ ووضع أسس النزعة الكوسموبوليتية «العدمية القومية» أي بكلمة، ان قضية الوحدة العربية تشغل بصورة موضوعية اذهان الجماهير العربية في مختلف البلدان العربية منذ فترة طويلة نسبياً، وهي قد أصبحت احدى القضايا الهامة المطروحة امام العديد من البلدان العربية التقدمية، وخاصة بعد انشاء اتحاد الجمهوريات العربية في الظروف الراهنة، وقبل ذلك انشاء الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر وما تلا ذلك من انفصال، أي ايجاد الحلول لقضية الوحدة العربية واتخاذ موقف منها، أصبح قضية من القضايا ذات الأهمية البالغة في حياة شعوب الأمة العربية، وفي حياة الاحزاب التقدمية، القومية منها والشيوعية، وطرح هذا الموضوع أمام مختلف القوى الوطنية التقدمية ومعالجته من الناحيتين العلمية والواقعية، وفي ضوء آفاق التطور، أصبح قضية حيوية.

إن العالم العربي الممتد من الخليج إلى المحيط ما يزال يعاني التمزق والتجزئة والاحتلال والعدوان الاسرائيلي وبقايا الاقطاع وشتى أصناف الرجعية بالرغم من وجود الأنظمة التقدمية فيه. والانجازات الاجتماعية الضخمة التي تمت فيها والتحالفات العميقة مع الحركة الثورية العالمية ومع الاتحاد السوفياتي وبلدان المنظومة الاشتراكية الأخرى وبالرغم من وجود أهداف ومطامح مشتركة لهذه الأنظمة التقدمية تتطلب منها موضوعياً ان تكون موحدة أو متقاربة، انها لم تنجح في تحقيق ذلك حتى الآن، فالبلدان العربية التقدمية لا تزال غير موحدة بالمعنى الكامل للوحدة، وما تم فيها حتى الآن بين سورية ومصر وليبيا، أي تشكيل اتحاد الجمهوريات العربية، هو خطوة أولى في الطريق نحو الوحدة، خطوة هامة، يمكن لها فيما إذا ترسخت وتوطدت ان تفتح الطريق أمام البلدان العربية تدريجياً للسير نحو وحدة حقيقية كاملة، وحدة تعكس مطامح الجماهير الوطنية والقومية وتلبي حاجات العمال والفلاحين والمثقفين

الثوريين ، في التقدم والتنمية والخلاص من التجزئة والتخلف ، وفي السير بخطى وطيدة نحو الاشتراكية .

الأسباب المعيقة للوحدة

ان ثمة عوامل وظروفاً حالت سابقاً وما تزال تحول حالياً دون هذه الوحدة ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ دور الدوائر الامبريالية والصهيونية في تشويه ومحاربة حركة التحرر العربية ثم في محاربة الوحدة العربية وتشويه حقيقتها، وعملها الدائب في سبيل تكريس التجزئة القائمة وافتعال خلافات بين البلدان العربية ، خلافات طائفية أو غيرها ، واخافة بعض البلدان العربية من فكرة الوحدة العربية بسبب اختلاف مستوى التطور الثقافي والحضاري والاقتصادي بين البلدان العربية ، ان الامبريالية تخاف كثيراً من توحيد البلدان العربية ومن تطورها الاقتصادي وتحقيق التنمية فيها ، وتريد ان تبقى البلدان العربية مجزأة وخاضعة لاقتصاد الدول الرأسمالية وسوقاً لها ومصدراً للمواد الأولية كالنفط وغيره. ان الامبريالية مستعدة لاستخدام كافة الوسائل للحئول دون وحدة البلدان العربية ، ودون تحقيق التنمية فيها . وقد أقامت اسرائيل في المنطقة بهدف الفصل بين البلدان العربية ولاستخدامها قوة ضغط وتوسع ضد حركة التحرر العربية واتجاهاتها التقدمية .

٢ ـ دور الأوساط الرجعية في محاربة الوحدة العربية انطلاقاً من مصالحها الاقتصادية وخوفاً من المحتوى التقدمي والاتجاهات الاشتراكية التي تحملها ، وخاصة ان هذا المحتوى والاتجاه الاشتراكي يزداد ويتنامى بمقدار مساهمة الجماهير المتزايدة في حركة الوحدة .

٣ ـ سيادة العفوية في العمل الوحدوي وفقدان التخطيط العلمي في هذا الميدان الهام ، وفيما عدا بعض المجالات الضيقة ، ومحاولات التنسيق والتخطيط الجزئي الناجح أحياناً والفاشل أحياناً أخرى ، يمكن القول ان العفوية هي وحدها السائدة في مختلف الميادين الاقتصادية والعلمية والاجتماعية وحتى السياسية أيضاً.

٤ ـ قوة الروح الاقليمية ووجود

عناصر وفئات ذات وزن ، بعضها تقدمي ، وبعضها رجعي تعمل ضد اتجاهات الوحدة انطلاقاً من المصلحـة الاقتصادية ، أو انطلاقاً من مفاهيم خاطئة عن الوحدة والاتجاهات العاملين والمناضلين من أجلها ، وانطلاقاً من نزعات عدمية قومية . أو انطلاقاً من نزعات قومية ضيقة سورية أو مصرية الخ ... أو بسبب تصرفات وتصريحات وأعمال بعض المسؤولين ممن يعلنون انهم من دعاة الوحدة العربية .

٥ ـ الأخطاء التي ارتكبت أثناء الوحدة المصرية السورية ، ومحاولات تعميمها على كل خطوة وحدوية ، أو محاولة اعتبار هذه الأخطاء وكأنها لاصقة بالوحدة العربية أو بكل خطوة وحدوية ، أو كأنها جزء من الوحدة ومرتبطة بها عضوياً .

٦ ـ ضعف دور الطبقة العاملة في التأثير الحاسم على الاحداث في البلدان العربية ، وفي دفع الامور والتطورات باتجاه الوحدة ، ويعود ذلك الى تأخر التكوين السياسي والاشتراكي والوحدوي للطبقة العاملة ، وإلى تأخر أحزابها في الاهتمام بصورة صحيحة وعلمية في قضية الوحدة ، وهذا لا ينفي وجود عناصر وفئات عمالية طليعية ، كانت مهتمة منذ فترة طويلة بقضية الوحدة وكانت ذات وعي سياسي واشتراكي .

٧ ـ وجود حذر من الوحدة العربية كواقع وكشعار لدى العديد من ابناء القوميات غير العربية والتي تعيش مع العرب في اوطانهم ، وهؤلاء بتصوراتهم غير الواقعية عن الوحدة ، وبحذرهم ينطلقون من رواسب وخيمة في نفوسهم ، اما بسبب الدعاية الاستعمارية المعادية للوحدة ، أو بسبب العلاقات غير الطبيعية بين القوميات المتعايشة على الارض العربية . او بسبب شوفينية الطبقات والعناصر الرجعية العربية ضد أبناء القوميات الاخرى في الوطن العربي .

ان العرب في تاريخهم الطويل كانوا يتعايشون باخاء مع الشعوب الأخرى ، وفي العصر الحديث وقفوا وناضلوا ضد أعمال التتريك والفرنسة ودافعوا عن وجودهم ولغتهم وتعاونوا في نضالهم هذا مع العديد من أبناء القوميات الاخرى التي تعيش مع العرب في أوطانهم . ان

حركة التحرر العربية حركة تقدمية مناهضة للعدوان القومي ومع حق كل شعب في الحفاظ على وجوده وتقرير مصيره بنفسه.

٨ ـ بقايا التخلف في العالم العربي ، فبقايا الاقطاع ووجود العشائرية والبداوة فيه تضعف روابط الامـة ، وتقوي العلاقات الاقليمية والعشائرية والعقلية الاقطاعية ، وتنمي الحذر بين الاقاليم العربية تجاه بعضها البعض . وتجعل كلا منها ينظر إلى نفسه وكأنه كل مستقل ، منفصل عن بقية البلدان العربية ، ولا رابطة تربطه بها إلا رباط المصلحة المادية.

٩ ـ عدم توفر العنصر الذاتي بصورة كافية ، فالاحزاب والقوى التقدميـة المؤمنة بالوحدة ، والعاملة لها ، والمناضلة من أجلها لا تزال تنطلق عاطفياً في هـذا المجال ، ولم تقم حتى الآن بتخطيط علمي او بتنسيق واضح مع بعضها البعض للسير بصورة مدروسة نحو الوحـدة ، ويمكن القول ان هـذه الاحزاب والقوى رغم اخلاصها لقضية الوحـدة من الناحيـة النظرية ، لا تزال متخلفة من ناحية التطبيق والممارسة .

١٠ ـ عدم وجود وضع دولي مناسب يتيح لشعار الوحدة العربية مجال التحقيق فعلا ، فالدول الاستعمارية لا تساند شعار الوحدة العربية ، وانما تقف منه موقف العداء والمحاربة ، وبعض الدول الحليفة والصديقة غير متحمسة له ، ربما بسبب الخوف من نشوء خـلافات بين الدول العربية تؤثر على وحـدة القوى المناوئة للامبريالية، وربما بسبب افكار وتصورات خاطئة عنها ، ولكن عدم الحماس هذا هو أمر عارض ، فالقوى الحليفة والصديقة لا يمكن ان تظل على مواقفها هـذه من قضية الوحدة العربية ، ومصالحها ومصالح حركة التحرر العربية واحدة. وتداخـل المهام القومية والمهام التقدمية في هذه الحـركة واندماجها ببعضها البعض ، يجعل من قضية الوحدة العربية فيما إذا تحققت قفزة نوعية في المعركة ضـد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، وخطوة حاسمة في ميدان التنمية والخلاص من التخلف ، والسير نحـو

الاشتراكية، ومن المهم ان نعمل من أجل اكتساب حماس ودعم القومي الحليفة و الصديقة وشرح طبيعة ومحتوى حركة الوحدة العربية واهدافها الوطنية والتقدمية ومن المهم ايضاً بالنسبة للعاملين من أجل الوحدة أن يقيموا بين الفترة والفترة تقييماً موضوعياً لأعمالهم وتصرفاتهم وسياستهم وسلوكهم وان يزيلوا ما رافــق ذلك من اخطاء او من مظاهر نزعات التعصب القومي او ما قد يبرز من اعمال وتصرفات غير طبيعية او ضارة . وهذا في مصلحة حركة التحرر العربية وفي مصلحة البلدان الحليفة والصديقة . وشعار الوحدة العربية لايمكن ان يصبح امراً واقعاً بصورة صحيحة مالم تتوفر له العوامل الموضوعية والذاتية ، ومالم يتوفر لها الوضع الدولي المناسب ، فالوحـدة الالمانية ، والوحدة الايطالية والوحـدة الاميركية لم تتم فقـط استناداً إلى القوى الداخلية ، وانما تمت واستندت ايضاً إلى الوضع الدولي المناسب واستفادت من التناقضات الدولية والتحالفات الدولية .

١١ - الوضـع المستقر النسبي للدول العربية المجزأة ، واعتياد بعض هذه الدول على المساعدات الدولية ، أو على مواردها الخاصة وشعورها بعـدم الحاجة لبعضها البعض .

١٢ - عـدم بحث وتحليل اثر الوحدة العربية في تسريع عملية تقوية القوى المنتجة في العالم العربي وتسريع عملية التنمية فيه . ان الوحدة العربية في حال تحققها لابد ان تؤدي لتقوية القوى المنتجة وتأمين سوق واسع وتسريع عملية التطوير ، ولا بد من أن تؤدي إلى اضعاف مواقــع الاستعمار والرجعية اولاً ثم القضاء عليها ثانياً .

ولكن هذه العوائق رغم أهميتها وقدرتها حتى الآن على أن تسد الطريق نسبياً بوجه تحقيق الوحدة العربية ، الا انها لا تستطيع ان تحول دون مسيرة التاريخ . فالتاريخ يتطور الى الامام ، والقوى المعيقة ليست ثابتة وهي تتغير ، وقضية الوحدة العربية هي قضية المستقبل ، ولا بد من ان تتحقق مهـما كانت العثرات والصعوبات اذا قـام المؤمنون بها بالنضال الضروري الـلازم ، وسلكوا الطرق الصحيحة المدروسة، واستفادوا من الاوضاع الدولية ومـن القوى الثورية العالمية .

ان التجزئة هي شيء مصطنع، وهي ضد سير التطور بمداه البعيد ، وهـي انعكاس لقرون الاحتلال والتخلف والاقطـاعية ، وهي من صنع الاستعمار وتخطيطه . انهذه التجزئة لا يمكن ان تستمر ، بالرغم من كونها أمراً واقعاً ، وبالرغم من مظاهر القوة التي تبرز فيها الدويلات العربية المجزأة، وبالرغم من مظاهر الاستقرار النسبي التي تتجلى فيها وبالرغم من وجود دعم دولي لهذه الدويلات، وبالرغم من وجود فئات وطبقات رجعية ، واحياناً « تقدميه » تعمـل وتدعو وتبشر ضد الوحدة وتدافع عن التجزئة .

اتجاه التطور نحو الوحدة :

ان اتجاه التطور في العالم العربي هو نحو الوحدة ، ويعود ذلك للاسباب التالية :

١) ان العـالم العربي كان في الأساس موحداً والتجزئة القائمة فيه الآن تمت رغماً عن شعوبه ، ففي عهد السلطة العثمانية كانت البـلدان العربية رغم خضوعها لـلاحتلال العثماني ، مترابطة موحدة من سلسلة جبـال طوروس حتى جبال الاطلس والاوراس في شمال افريقيا،ومن حدود فارس حتى اليمن الشمالي والجنوبي . ولم يكن هناك أي شعور بوجود فوارق بين البلدان العربية ، كان الـكل يجمعهم الشعور بانهم جزء من الأمـة العربية ، وان كان ذلك بنسب تختلف مـن بلد عربي الى بلد عربي آخر .

٢) العالم العربي مترابط ، لاتفصل بين اراضيه الحواجز الطبيعيه ، وتـوحده لغـة واحدة ، واللهجات المحلية فيه والمنبثقةعن اللغة العربية ، مفهومة كلها في جميـعالبلدان العربية تقريباً وتاريخ هذه البلدان وتاريخ شعوبهاهو تاريخواحد،تاريخ مشترك تفاعلت فيه شعوب العالم العربي واندمجت وانصهرت حتى اصبحت تشكل كـلاً موحـداً ، رغم بعض الفوارق التي لايخلو منها أي بلد مـن البلدان او اية مدينة من المدن . والمطامح الوطنيةوالاجتماعية لهذه الشعوب هي مطامح واحـدة ، مطـامح التحرر والديمقراطية والاشتراكية ، ومصالح هذه البلدان،المصالح الاقتصادية العميقة ، هي مصالح واحدة ، مصالح مشتركة ، فالبلدان العربية تكمل بعضها البعض من الناحية الاقتصادية،فهناك الثروات النفطية الهـائلة في الجزائر وليبيا والعراق والجزيرة العربية ، وهناك الخامات المعدنية المختلفة في مراكش ومصر والعراق وسورية واليمن والسعودية ، وهناك الانتاج الزراعي، انتاج الحبوب والفواكه في مختلف البلدان العربية ، وهناك الصناعات الخفيفة و « الثقيلة » نسبياً ، وصناعة الاستخراج في بعض البلدان العربية ، وهناك اليد العاملة المتوفرة في بعض البـلدان ، والخبرة العلمية التكنيكية المتوفرة نسبياً في بلدان عربية اخرى.أي بكلمة ان البلدان العربيةوالثروات الدفينة والمستثمرة فيها،هي في حالةتكامل

نسبي ، وهي بحاجة لبعضها البعض، وبامكانها فيما اذا نظمت ودرست بصورة علمية واستثمرت بصورة صحيحة بأن تدفع العالم العربي خطوات واسعة الى الأمام في ميدان التنمية والتصنيع ، وفي مجال الخلاص من التخلف ، والتكوين النفسي لهذه الشعوب هو تكوين واحد تقريباً ، فمن خلال التاريخ المشترك ، والثقافة المشتركة تكونت نفسية مشتركة رغم الفروق التي لابد منها بين هذا أو ذاك ، ورغم التلاوين المختلفة لمواطني البلدان العربية المختلفة ، ولكنها كلها تصب في تيار النفسية المشتركة والتي هي نتاج مشترك لكلما في الأرض من أحداث وثقافات والنفسية المشتركة ليست شيئاً ثابتاً تماماً ، وانما هي عملية تاريخية تتطور وتتغير وفقاً للتغييرات المختلفة التي تطرأ على الأمة ، انها ثابتة نوعاً ما ، ولكنها تغتني بالتطورات الجديدة والتفاعلات الحضارية المستمرة والدائمة .

ولا شك ان الواقع الراهن في العالم العربي وواقع التجزئة والتخلف، واختلاف الانظمة والاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلدان العربية ، ودور الاحتكارات الاستعمارية والدوائر الصهيونية ، عرقلت وستعرقل باستمرار عملية التكامل الاقتصادي والتقارب العربي في مختلف المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية وغيرها . ولتحقيق هذا التكامل والتقارب مثلاً ، فلا بد من تحقيق الوحدة العربية ، وتشكيل دولة الوحدة . ان دولة الوحدة هي حلقة لا بد منها من اجل تحقيق كامل مقومات الأمة العربية .

ان الامة العربية المجزأة خلال سعيها لتحقيق التنمية والتصنيع في بلدانها تضطر تحت ضغط الواقع الراهن الى الانطلاق من الواقع الاقليمي لكل بلد ، وبدلاً من صناعة متكاملة في مختلف البلدان العربية ، تلبي الحاجات الاقليمية وتستند الى المواد والخامات العربية ، وتسد حاجة السوق العربية ، تضطر الى انشاء صناعات محلية ، تلبي حاجات السوق الاقليمية ، وتزاحم نفس الصناعات في بلد عربي آخر ، وبذلك تعرقل عملياً وتائر التنمية ، وتهدر الطاقات في ميادين غير منتجة . ان التنمية المحلية في كل بلد تواجه صعوبات جمة مختلفة ، ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبات الا بالاستناد الى الوحدة وتعاون البلدان العربية التقدمية مع بعضها البعض .

من الممكن ان تتم « تنمية محلية » في بعض البلدان العربية من خلال التعاون مع دول راسمالية متقدمة ، ولكن التجارب الملموسة بينت ان مثل هذه التنمية هي ذات اثر محدود ، ومشوه ، ووحيد الطرف ، ولا تستطيع مثل هذه « التنمية » العاجزة ان تحل مشاكل البلاد الاقتصادية ، وهي على المدى البعيد تشكل عبئاً على اقتصاد البلد

وتنميته ، بسبب ارتباطها المباشر او غير المباشر باقطار البلدان الرأسمالية الامبريالية. او بسبب عدم اعتمادها على الموارد والخامات المحلية والعربية .

والتنمية المحلية التي تسير في طريق انشاء قاعدة مادية محلية ، مصانع وآلات زراعية متطورة وصناعة استخراج وغير ذلك ، يكفي ان تسهم نسبياً في دفع عجلة التطور الى امام في البلدان العربية ، وفي تحقيق بعض التكامل الاقتصادي العربي ، فيما اذا جرى تنسيق وتخطيط بين البلدان العربية التقدمية في المجال الاقتصادي والصناعي ، ويمكن القول ان التكامل الاقتصادي بين البلدان العربية لا يمكن ان يتحقق بصورة صحيحة وكاملة ما دامت البلدان العربية مجزأة .ان السير في طريق الوحدة هو الطريق للتكامل الاقتصادي ، وهو الطريق لتأكيد وجود الأمة العربية وتكوينها النفسي المشترك ففي ظل الوحدة العربية وفي ظل التكامل الاقتصادي العربي يمكن الاستفادة بصورة افضل من الامكانيات المتوفرة ، وتحقيق تطور افضل في مختلف المجالات الاقتصادية كما يمكن الوصول الى تقسيم عمل عربي افضل للطاقات والموارد والخامات واليد العاملة ..الخ والاستفادة من المساعدات الواردة من بلدان المنظومة الاشتراكية بصورة اجدى واكثر فعالية .. الخ .

٣) ان مصلحة التنمية في البلدان العربية هي في تلاحمها ، في وحدتها ، وليس باستطاعة البلدان العربية ، كما هي عليه الآن ، ان تحقق تنمية فعلية لأوطانها . بامكان كل قطر لوحده بأن يقوم بتنمية محلية في ضوء امكانياته المالية والعلمية والبشرية، فالكويت مثلاً او ليبيا تتوفر لديها الاموال الكافية من اجل التنمية والتصنيع ، كما تتوفر لديها مواد اولية وخامات تصلح للصناعة النفطية والكيميائية ، ولكن في هذين البلدين العربيين لا تتوفر الكثير من الحاجات الضروريه للانسان . ولا يوجد فيها السوق الداخلية المناسبة، وهذان البلدان يستثمران الاموال الفائضة في البلدان الاجنبية ويوظفانها في البنوك الاجنبية ، في سويسرا وبقية البلدان الاوروبية بينما الكثير من البلدان العربية ، كسورية ومصر والعراق تتوفر فيها اما خامات طبيعية او كفاءات علمية او كادرات عالية او موارد زراعية وصناعية ضروريه للصناعة والزراعة ،ولكن نقص الاموال يسد الطريق امام الاستفادة من هذه الطاقات والامكانيات ، ان مصلحة الكويت وليبيا ومصلحة مصر وسورية والعراق وبقية البلدان العربية الاخرى هي في التعاون والتنسيق والاستفادة من كافة الامكانات والطاقات في مختلف البلدان العربية من اجل التنمية وتسريع الخلاص من التخلف.

ان الانطلاق من كون العالم العربي مجموعة أقاليم مستقلة عن بعضها البعض . ولكل منها

خطته الخاصة وتنميته الخاصة ، لن يؤدي الا الى تكريس التجزئة وتباعد البلدان العربية عن بعضها البعض ،ووقوف بعضها ضد بعض الآخر ، ومثل هذه الانطلاقة لن تكون في مصلحة حركة التحرر العربية ، كما لن تكون في مصلحة التنمية ولن تساعد الا الاعداء الامبريالية والصهيونية والرجعية ، ان هذه الانطلاقة تعكس بقايا الفعلية الاقطاعية في العالم العربي ، كما تعكس عقلية الحانوتي المتخلفة ، الذي لا يفكر الا في دكانه الخاصة وأرباحه الخاصة ويتجاهل مصلحة الامة ومصلحة التطور والتنمية والتقدم الاجتماعي ان مثل هذه العقلية ، ومثل هذه الانطلاقة لا مستقبل لها . ان القوى التقدمية ،وجماهير العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين في كل بلد عربي ،وعلى النطاق العربي العام سيقفون بوجه هذه العقلية وسيناضلون من أجل تنمية حقيقية في كل بلد عربي ، تقوم وتستند الى دراسة علمية وتستفيد من كافة الطاقات والامكانيات والاموال العربية ، وتحقق التكامل الاقتصادي والمصالح الاقتصادية المشتركة بين البلدان العربية ، وتكون خطوة في الطريق لتحقيق وايجاد القاعدة المادية للوحدة العربية ، وفي الوقت نفسه خطوة للسير بخطى حازمة أكثر في طريق الانجازات التقدمية والتحولات الاشتراكية .

٤) وجود قوى عمالية وفلاحية ومثقفين ثوريين ، تعمل وتناضل من أجل تحقيق الوحدة العربية ، ان قضية العمل للوحدة العربية والاهتمام بها لم تعد قضية تخص الفئات البرجوازية ، فقبلا كانت هذه القضايا في مرحلة من مراحل التطور من شواغل بعض أوساط البرجوازية الوطنية والمثقفين، وكان اهتمام الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين في هذه القضية، اهتماماً عابراً ، يشتد أحياناً ويضعف أحياناً ، ولكن في الظروف الجديدة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد انتصار قوى الحرية والديمقراطية والاشتراكية في العالم ، بعد انتصار الاتحاد السوفياتي على ألمانيا النازية ، وبعد تحرر البلدان العربية واستقلالها وتشكيلها دولها المستقلة، تطورت قوى العملية الثورية واستيقظت الجماهير الشعبية الواسعة في المستعمرات والبلدان التابعة ، وأخذت تسهم بشكل أوسع في الحياة السياسية لشعوبها وأخذت الطبقة العاملة العربية تهتم أكثر فأكثر بقضية الوحدة وترى فيها احدى المهام الأساسية الكبرى الموضوعة أمامها . ان الطبقة العاملة العربية في مختلف أوطانها لا تناقض بينها ، فمصالحها واحدة وتحقيق الوحدة العربية يكسبها قوة أكبر في مواجهة اعدائها ، ويجعل منها جيشاً جباراً قادراً على حماية المنجزات الوطنية التقدمية، ورد أخطار النشاط الاستعماري والصهيوني من جهة ، وعلى دفع عملية التطور الى أمام في شتى الميادين الوطنية والاقتصادية والاجتماعية من جهة ثانية، ان الطبقة العاملة

عندما تهتم بقضية الوحدة العربية تسبغ عليها روحها وتعاقها في ضوء أفكارها ومصالحها الطبقية، وبذلك تصبح قضية الوحدة العربية والعمل لأجلها قضية طبقية الى جانب كونها قضية قومية ، ولا تعارض في ذلك، فالقضية القومية عندما تكون في خدمة الطبقة العاملة ومصالحها الطبقية ، تصبح قضية طبقية ، والطبقة العاملة تناضل من أجل وحدة عربية تسير في اتجاه التقدم الاجتماعي والاشتراكية.

٥) وجود فئات وعناصر واحزاب شيوعية تناضل وتعمل من أجل الوحدة العربية ، ونرى فيها في الظروف الراهنة ، قوة في المعركة ضد الامبريالية والصهيونية ومن أجل ازالة اثار العدوان الاستعماري الصهيوني وتحرير الأرض العربية المحتلة ، كما نرى في الوحدة بين بلدين عربيين تقدميين معاديين للاستعمار والصهيونية وسائرين في طريق التحولات التقدمية ، هي وحدة تقدمية . وهذه الاحزاب والعناصر والفئات الشيوعية ، اصبحت ترى ايضاً منجملة مهامها الأساسية في العالم العربي ، النضال من أجل تحقيق وحدة عربية بين البلدان العربية التقدمية والسائرة في طريق التحولات الاشتراكية .

٦) وجود احزاب وطنية تقدمية مختلفة ذات برامج وحدوية مختلفة ، وناضل من أجلها منذ فترة ، ووصل بعضها للسلطة في بعض الدول العربية ، وبامكان هذه الأحزاب التقدمية ان تلعب دوراً بحكم وجودها في السلطة، في الاسراع بمسيرة الوحدة العربية والعمل لأجلها .

٧) وجود انظمة وطنية تقدمية في العالم العربي ، كلها تتحدث بنسب مختلفة عن ضرورة الوحدة العربية والعمل لها ، وفيا بينها يجري احياناً أعمال تنسيق وتعاون في بعض المجالات الاقتصادية والسياسية ... الخ .

وأبرز مثال على ذلك أعمال التعاون والتنسيق التي تتم بين سورية والعراق بعد تأميم آبار وممتلكات شركة نفط العراق الاستعمارية .

٨) وجود تجارب وحدوية – الوحدة المصرية والسورية، اتحاد الجمهوريات العربية – وهذه التجارب رغم بعض النواقص والاخطاء التي وقعت فيها تعكس مطامح الجماهير التقدمية في العالم العربي ، وتلبي حاجة موضوعية لحركة التحرر العربية ، وتكرار

هذه العملية الوحدوية يعكس موضوعية الاتجاه الوحدوي ويرسم اتجاه التاريخ واتجاه التطور .

ان اتحاد الجمهوريات العربية والشكل الذي أخذه أي « الشكل الاتحادي » والدور الذي يمارسه والانجازات الوطنية والتقدمية التي ستتحقق من خلاله في شتى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ستلعب دوراً في دفع مسيرة الوحدة . وبامكانه القوى التقدمية ومن واجبها أن تلعب دوراً في تقوية مواقع الاتجاهات التقدمية في هذا الاتحاد وفي تجنيبه الانزلاق في مسار اليمين أو التعاطف ولو بشكل غير مباشر مع قوى الرجعية العالمية . ان قوة هذا الاتحاد هي في السير باتجاه التقدم الاجتماعي والتعاون مع القوى التقدمية في العالم وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي .

اتجاهان في العالم العربي وحدوي وانفصالي اقليمي

من كل ذلك يتبين ان العالم العربي في الظروف الراهنة يبرز فيه اتجاهان :

١ – اتجاه اقليمي انفصالي له عناصره وقواه ومؤيدوه في كل بلد عربي ، وكذلك على النطاق العربي العام ، وهؤلاء هم بقايا الاقطاع والعناصر والأحزاب البرجوازية التقليدية ، والعناصر الكوسموبوليتية ودعاة القومية الضيقة في العالم العربي الذين يدعون للقومية السورية أو المصرية الخ . ويساند هؤلاء الامبريالية العالمية والحركة الصهيونية ويستند هذا الاتجاه الى الواقع السائد في العالم العربي .

٢) اتجاه وحدوي تقدمي له عناصره وقواه ومؤيدوه في كل بلد عربي ، وكذلك على النطاق العربي العام ، وهؤلاء هم القوى الوطنية التقدمية وأحزابها المختلفة من شيوعية وقومية تقدمية ، والطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والمثقفين الثوريين وكذلك الأنظمة التقدمية العربية ، ويستند هذا الاتجاه الى آفاق التطور وامكانياته الثورية الكبيرة والى الحاجات الموضوعية للعالم العربي . ولهذا الاتجاه الوحدوي أنصار أيضاً في الأوساط التقدمية العالمية ويمكن أن يلقى دعم جميع القوى التقدمية والاشتراكية العالمية فيما اذا جرى عمل منظم وشرح مستمر من خلال الممارسة والتخطيط العلمي .

وبين هذين الاتجاهين صراع قديم ومستمر ، منذ الحرب العالمية الاولى حتى الآن . وتجلى هذا الصراع في دعوات اقليمية صريحة في كل بلد عربي تقريباً ، والى الدعوة الى بعث قوميات مندثرة كانت في فترة من التاريخ تعيش في بعض البلدان العربية ، والى التشكيك بوجود الامة العربية ، كما تجلى في تكون أحزاب سياسية تدعو لتشكيل كيانات اقليمية في بعض البلدان العربية ،

وفي المقابل تجلى هـذا الصراع أيضاً في الدعوة الى تحقيق الوحدة العربية وتشكيل الدولة العربية من المحيط الى الخليج أو بين عدد من البلدان العربية المتقاربة . اولاًوفيا بعد تشمل الاقاليم العربية الاخرى ، كما تجلى في تكون احزاب سياسية تدعو الوحدة العربية .

جوهر الصراع صراع طبقي

ويمكن القول ان هذا الصراع في جوهره العميق وبخطوطه الاساسية هو صراع طبقي فقوى الردة والرجعية المتحالفة مع الامبريالية والصهيونية ، قوى الاقطاع والبرجوازية ، كانت تساند وتؤيد وتدعم الاتجاه الاقليمي . ان مصالحها الطبقية كانت مرتبطة ببقاء التجزئة والنزعات الاقليمية .

امـا القوى التقدميـة ، قوى العمال والفلاحين والمثقفين واحزابها الوطنية التقدمية من شيوعية وقومية تقدمية ، كانت تدعم الاتجاه الوحدوي ، وترى مصالحها الوطنية والقومية والطبقية مرتبطة بـه وبالعمل لتنفيذه وتحقيقه في الواقع والحياة .

ووجود هـذا الصراع الطبقي على نطاق العالم العربي بين قوى التجزئة وقوى الوحدة — لا ينفي وجود بعض العناصر أو الفئات التقدمية بين القوى الداعمة للتجزئة — أو وجود بعض عناصر رجعية بين القوى الداعمة للوحـدة — فوجود مثل هـذه الظاهرات طبيعي ولكن ذلك لا ينفي وجود الصراع الطبقي بين قوى التخلف والتجزئة وقوى التقدم والوحدة . ان هذا الصراع قائم وموجود رغم بعض الاختلاطات ورغم بعض الظاهرات ، والغلبة في هذا الصراع ستكون للوحدة العربية والقوى العاملة من أجلها ، اذا قامت هذه القوى بمـا ينبغي من تنظيم وبحث ودراسة الواقع الراهن بصورة علمية دراسة واقع التجزئة والانطلاق من ذلك للتغلب عليه ، ووضع الحلول الملائمة لاقامة القاعدة المادية لمجتمع الوحدة في كل بلد عربي وعلى النطاق العربي العام ، ودراسة تجارب الوحـدة العديدة ، والافادة من النواقص والايجابيات .

ان الواقع الراهن في البلدان العربية ، واقع التجزئة والتخلف قد يستمر اذا لم يجد النضال ضده ، وقـد يصعّب آلام ولادة الوحدة ، فهذا الواقع لن يتغير من نفسه ، وهو قد يترسخ فيا اذا استمر وقتاً طويلاً من الزمن رغم مجافاته لسنن التطور ومخالفته للمصالح العميقة والحاجات الموضوعية للشعب العربي ، وطبقاته الكادحة . والنضال ضده، قد يصبح اكثر صعوبة واكثر حدة . الا ان سير التاريخ موجـه ضد التجزئة وباتجاه الوحدة .

ان استقراء التاريخ العربي المعاصر منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن يؤكد على ان الوحدة العربية انما هي قانون تاريخي أو اتجاه تاريخي يعبر عن الحتمية التاريخية ـ ومن المعروف ان القوانين الاجتماعية لاتتحقق من نفسها ، لاتتحقق تلقائياً ، وانما تتم وتتحقق من خلال النضال لإيجادها ، من خلال ايجاد الأسس المادية لها ،من خلال ايجاد القاعدة المادية للوحدة العربية ، وهذه الاسس تنمو وتترعرع .

الدكتور عفيف بهنسي

الحضارة
وحتمية الوحدة العربية

لم تكن الدعوة الى الوحدة العربية منذ بداية هذا القرن لتقوم على غير الأساس العاطفي ، تحركه الدوافع القومية التي قامت على وحدة الماضي والعقيدة واللسان. وهذه الدعوة على مثاليتها ، لم ترفدها الدراسة النظرية الكاملة التي يمكن أن تشكل الخلفية الايديولوجية للحركة الوحدوية ، بل ان ثمة دراسات على جدارتها ، كانت متأثرة الى حد بالفكر الديني (دروزة) ، أو كانت مرتبطة بمفهوم تربوي (الحصري) ، أو كانت متأثرة بفلسفة اللغة (الأرسوزي) . وقد تتمم هذه الأبحاث القيمة بعضها ، الا أننا

مازلنا ننادي بضرورة أصدار موسوعة قومية تتضمن جميع معطيات القومية والحضارة العربية ، وجميع مقومات شخصية الفرد العربي في الماضي والحاضر والمستقبل ، كي تكون أساساً نظرياً للوحدة العربية كأخطر عملية انسانية تحررية في عصر المسابقات الاستغلالية بين الدول المتقدمة الكبرى .

ومن المؤكد أننا عندما نوجه الانتباه الى طبيعة الدعوة الوحدوية في نشأتها، فاننا بذلك لكي نوضح النقص الذي اعتور هذه الدعوة دائماً ، وهو غياب الخلفية العلمية الواقعية التي تجعل هذه الدعوة اكثر وضوحاً واقناعاً ، وتجعل اهدافها اكثر اهمية وانطباقاً مع ظروف التقدم الحضاري في هذا العصر .

ومع أن الاسباب التي تبرر الوحدة العربية وافرة ومقنعة ، الا أن ثمة عوامل حضارية تجعل هذه الوحدة حتمية طالما أن الامة العربية تعيش او تحايث الظروف الحضارية التي يتطور ضمنها العالم بصورة انفجارية .

على ان ثمة رأياً بات ينادي بـه خبراء العـالم المتحضر اليوم ، من أنـه على شعوب العالم الثالث أن توجه تطورها نحو اهداف غير الاهداف التي تعمل من اجلها الدول الكبرى . بمعنى آخر أن على هذه الشعوب المتطورة التي لا تستطيع الوصول الى مستوى البحث العلمي في ما وراء هذه الارض ، ولا تستطيع تجاوز العقل البشري الى العقل الالكتروني والسبرنيتيك ، والتي لا تستطيع الاستعاضة عن قوة النار بقوة الذرة ، الا اذا استطاعت استيراد ذلك استيراداً ، هذه الشعوب ، مطلوب منها أن تنصرف الى حياة البساطة ، الى الزراعة لتقدم الغذاء للمفكرين والباحثين ورواد الفضاء ، والى الفولكلور لتمتلىء قلوب اصحاب الاعمال السائحين بالطمأنينة والراحة والذكريات الطريفة ، والى الخدمات الصغرى لكي يتسلى هؤلاء الاجلاء في اوقات نقاهتهم واثناء رحلاتهم .

والحق أن هذا التقسيم الجديد لفعاليات الانسان يجد صدى وتطبيقاً في كثير من دول العالم اليوم ، فثمة خدمات سياحية أصبحت تعادل اضخم الصناعات وتشكل اهم الموارد في دول اوربية كاسبانيا وايطاليا وبلغاريا او في دول عربية كمصر ولبنان وتونس وغيرها .

وثمة دعوة مستمرة الى الحياة الطبيعية من خلال المخيمات ومعسكرات الشباب والرحلات الرياضية واتجاهات الازياء . وكذلك اتجهت الدول الزراعية الى نشر

فنونها القروية من يدوية او تشكيلية ، بل ان مؤتمراً سنوياً يعقد في يوغسلافيا تحت عنوان الفن الصميمي Lârt insitique يجعل الفن البدائي وفن الناس البسطاء بديلا للفنون الحديثة ، « من تجريدية مرهقة او مريالية عصبية مريضة او تعبيرية قاسية مفترسة » .

وهكذا وجدت هذه الدعوة اذناً صاغية بالضرورة ، في المجتمعات التي لم تستطع لظروفها المتخلفة أن تنهض وتجاري التطور الحضاري في العالم .

ولكن هذا يعني انقسام العالم الى قسمين، عالم يقوم على البحث والاختراع والتقدم العلمي وعالم يقوم على الخدمات . ومها تكن فوائد هذا التقسيم الآنية، فانه يبقى غريباً عن طبيعة الانسان والحضارة ، فالانسان ليس وظيفة محددة ، بل هو طاقة تريد ان تبذل وتبتكر ، وان هذه الطاقة مرتبطة دائماً بدوافع معنوية ودوافع مادية ، ومهما اعتمدت الدول المتقدمة على مغرياتها في اجتذاب العقول المهاجرة اليها ، فان هذه العقول تبقى حاملة جنسياتها ، ومآلها العودة مها طال الزمن . ومن جهة اخرى ، فان العالم المتقدم الذي انهكته المبتكرات الجديدة وشروط الحياة المعقدة ، وانهكته البيئة الملوثة بفعل المصانع والمبيدات وكثافة السكان ، ان هذا العالم ليبحث باستمرار عن فسحة من الراحة والطمأنينة ، ولا بد أن تكون هذه الفسحة قريبة من بيئته ومن حياته والا فانه سيجنح نحو انحرافات شبيهة بانحرافات الهيبيين والبيتلز التي تنشد الحرية دون وعي .

ان توجيه العالم الثالث الى أهداف بعيدة عن التقدم ، متطورة ضمن حدود الماضي ، يجعل وجود هذا العالم خارجاً عن طبيعة الحضارة الجديدة ، ولكن هذا لا ينفي أن على دول العالم الثالث أن تختار طريقاً حضارياً خاصاً مرتبطاً بشخصيتها وبتراثها أو بأهدافها ارتباطاً عضوياً .

والأمة العربية ، أمة حضارة بل أمة حضارات متعاقبة حملت دائماً شخصية واحدة ، اذا اعتورها الوهن مرة نهضت ثانية على شكل حضارة أخرى ، حتى أنها اعتبرت من أكثر الحضارات العالمية خلوداً وأطولها عمرا . فاذا كان أجدادنا الأوائل هم الذين افتتحوا التاريخ بحضارة الرافدين وحضارة وادي النيل وحضارة سورية القديمة ، فان هذه الحضارة قد أعطت الانسانية خير ما لديها من أخلاق وعقائد وأفكار وفنون ، استمرت آلاف السنين موحدة شكلا ومضموناً .

فلقد انتقلت الأبراج والقباب والأقواس في العمارة الرافدية الى جميع العمارات التي ظهرت في عهد البيزنطيين والاسلام وانتشرت خارج حدودها لكي تصل الى أقصى أنحاء أوربا متغلغلة في تقاليد عمارتها الرومية والغوطية التي تفاخر بها .

وانتقلت العقائد السماوية والكوكبية الى العالم الاغريقي الروماني بعد أن انتشرت لدى جميع الشعوب السامية من آرامية وفينيقية ، حتى استقرت في الأديان الثلاثة قائمة على مفهوم الرب الأزلي، تبعاً لمفهوم قديم كان قائماً أيضاً عند الرافدين حتى التدمريين وأهل الحضر .

ولقد تجلت هذه الوحدة في شخصية حضارية أكثر وضوحاً بعد ظهور الاسلام. ومع أن العرب الذين أقاموا امبراطورية تمتد من الهندوس حتى الأطلسي خلال نصف قرن من الدعوة الاسلامية ، كانوا قد انتقلوا من الصحراء الشظفة الشحيحة الى فردوس بلاد الشام، فانهم تمثلوا الحياة بسرعة مذهلة ، كما تمثلوا الحضارة الهلنستية والساسانية بسرعة مماثلة ، ولم يمض زمن حتى كانت لهم تقاليدهم المستقلة ، وكانت لهم شخصيتهم الفنية التي لم تعد تذكر أبداً بأي تأثير غريب .

ومما لا شك فيه أن دمشق عاصمة الأمويين كانت قد وضعت أساساً لهذه الشخصية الحضارية الموحدة التي امتدت خاصة في شمالي افريقية ووصلت الى الاندلس ، لكي يصبح ازدهارها هناك استكمالاً لبناء حضارة ما زالت أعجوبة التاريخ ، في قوة بنيتها وفي روعة غناها وبعد طموحها .

وعلى الرغم من تفكك الوحدة العربية عبر التاريخ الاسلامي ، فان وحدة الحضارة بقيت مستمرة راسخة ، وهكذا فان مفهوم المسجد أو المدرسة أو الرباط أو القصر ، بقي واحداً من الناحية المعمارية والفنية بجميع تفاصيله وأقسامه، المآذن والقباب والأقواس والمقرنصات والزخارف، الخزف والخشب والنسيج.
وتبدو هذه الوحدة أيضاً في شخصية الحضارة العربية ذاتها ، فثمة قرابة بين

العمارة والفنون والأفكار واللغة والعقائد والعادات، مما يجعل بناء الحضارة العربية أكثر تكاملاً من أي الحضارات الأخرى.

ان وحدة الشخصية الحضارية، هي العامل الأساسي في بناء الامة العربية وفي استمرار وحدتها التي مازالت قائمة حتى يومنا هذا، على الرغم من التجزؤ السياسي المفروض والذي لم يستطع اطلاقاً القضاء على الوحدة القومية الراسخة منذ القدم، ولن يستطيع الحؤول دون الوحدة السياسية والاقتصادية الحتمية.

ان هدف العرب من وحدتهم اذن لايمكن أن يكون عاطفياً طالما أن الوحدة القومية قائمة من خلال التراث واللغة والافكار والآمال الموحدة، بل هو هدف علمي يحقق أهدافاً مشتركة ومصالح متكاملة وتقدماً متيناً، يحقق للانسان العربي ظروفاً معاشية جيدة، ومستوى حضارياً مرتبطاً بتقدم الحضارة الحديثة. وهذه الأهداف واقعية وليست طوبائية، ولانها كذلك فهي لابد أن تعتمد على المنطق والتخطيط والعلم. ولا بد أن تبدأ من وحدة الاقتصاد؛ وحدة النقد والعمل والسوق. ان هذه الوحدة التي تجعل مثلاً الدينار العربي رمزاً واحداً لقيمة العمل والسلع والانتاج الأدبي والفني، هي القمينة باثارة الاختراع والابتكار والخلق وتحقيق الاكتفاء الذاتي وتوسيع نطاق الاستهلاك وتحرير الثروات النفطية وغيرها من سيطرة العالم المستغل.

فالنفط الذي يشكل أهم مورد قومي في اكثر الاقطار العربية، لايستغل ابداً على الأرض العربية، وهكذا فان عمليات التصنيع البتروكيمائية التي تقوم في اوربا تحرمنا من دخل قومي يصل الى عشرين ضعفاً من دخل النفط الخام. ولا يعوزنا لتصنيع النفط الا السوق، وهنا المهزلة، فلقد قرر الخبراء أن عمليات تصنيع النفط غير ممكنة لعدم وجود اسواق كافية لتصريف انتاجها الغزير وقليل الكلفة. واذا اضفنا الى ذلك صعوبات انتقال اليد العاملة بين الأقطار العربية وصعوبة انتقال الأموال وتداول العملات العربية المختلفة، أمكننا ان نضع قائمة بالعوائق التي تحول دون تحقيق تقدم اقتصادي مؤهل للتقدم الحضاري المعاصر.

ان هدف الوحدة العربية، اذا كان حضارياً بقدر ماهو قومي، فان هذا الهدف الحضاري لايمكن ان يتحقق إلا بنفس الوسائل التي تقوم عليها الحضارات الحديثة اليوم.

واول هذه الوسائل هو توسيع حجم

الامكانيات البشرية والطبيعية والمادية، فليس من تقدم بدون امكانيات، وتحدد درجة التقدم تبعاً لحجم هذه الامكانيات. والعالم العربي لاتعوزه هذه الامكانيات الوفيرة ولكنها امكانيات مبعثرة ضائعة تحتاج الى اعادة التوزيع والى تحقيق التكامل، فحيث تجود الأرض بالانتاج الزراعي، تفتقر الى الآلة، وحيث تنبجس بواطن الأرض عن آبار النفط، تفتقر الى الماء والرجال، وهكذا فان توحيد هذه الطاقات يعني توسيع حجم امكانيات التقدم.

ومن وسائل الحضارة الحديثة تعقيل العمل الوحدوي، ونموذج هذا التعقيل اليوم هو السوق الأوربية المشتركة. فقد قامت هذه الوحدة الأوربية الاقتصادية على أساس توزيع الصناعات بحسب توفر الثروات الأولية ووجود اليد العاملة لتحقيق تكامل اقتصادي فعال يجعل أوربا سوقاً واحدة وينظم عمليات التسويق في العالم، ويجعل الانتاج يتمتع بأفضل الشروط وبأقل التكاليف.

ولا يمكن أن يتحقق أي وجود وحدوي سليم بعيداً عن الدراسة المنطقية التي توضح المصلحة القومية حتى الاقليمية منها، ولعل من اهم اسباب التجزؤ الاعتقاد بأن الوجود الوحدوي يتطلب التضحية المستمرة بالمصالح الاقليمية. وتغذي المؤسسات الاستعمارية هذه الدعوة بمساعدات جانبية تشترط مقابلها التزام السياسية التي تناسبها.

ان قانون التطور إذ يفرض على الواقع العربي الارتفاع الى مستوى الحضارة المعاصرة، فان هذا القانون أصبح عاجزاً عن تدارك التخلف المؤسف الذي تعانيه، ومع ذلك فان مؤشره يبقى متجهاً نحو الامام، نحو الافضل والأرقى، طالما أن تكون المجتمعات والحضارات عضوي يجنح حتماً نحو التكامل والنمو. ولكن عندما يكون جسم هذه المجتمعات مجزأ، فان عملية النمو تبقى قاصرة ضعيفة، وهذا ماتعانيه الدول العربية في واقعها المجزأ، على الرغم من جميع المحاولات التي تقوم بها سواء بتأثير الحركات الثورية، أوبفعل الموارد النفطية الهائلة، أو نتيجة عمليات الاستيراد الثقافي الغربي التي يعتقد بعض العرب أنها الطريق السليم الى مجاراة العالم المتقدم.

ومن المؤسف أن التجزؤ اذ يحول دون تكامل اقتصادي يرفع من مستوى المعيشة

والحياة لدى الانسان العربي ، فانه يحول أيضاً دون البناء الثقافي المتطور الذي يحقق حضارة حديثة معادلة للحضارات المعاصرة .

ان الواقع العربي المجزأ هو سبب النكبة الثقافية التي نعانيها ، فاذا كانت اللغة العربية هي عامل الوحدة القومية والثقافية في العالم العربي ، فانها مع الأسف لم تستطع ، وعلى الرغم من ملايين المؤلفات ، وعلى الرغم من آلاف الكتاب والباحثين والمحققين الذين ينشرون دراساتهم وانتاجهم يومياً في الكتب والمجلات والصحف ، ان توسع نطاق الاتصال بانتاجهم خارج حدودها السياسية الضيقة التي خلقت ألف سبب لعرقلة دخول وخروج هذا الانتاج ، وهكذا فان مؤلفاً ما ، سواء أكان قصة أو ديوان شعر أو بحثاً جامعياً ... لايستطيع أن ينتقل من كاتب في دمشق الى قارىء في القاهرة ذاتها بسبب صعوبة النقل من حيث التكاليف والتعقيد والرسوم ، وبسبب صعوبة التبادل النقدي وغير ذلك من الأسباب .

كذلك أمر النتاج الفني من لوحات وتماثيل ، أو نقل الآثار الفنية وتبادل الآثار المتحفية مما يعزز معرفة الحضارة العربية موحدة متكاملة .

وإذا كان هدف كل أمة تقوية شخصيتها الثقافية ، فان هذه الشخصية لايمكن ان تقوى بمعالجة جزئية او جانبية ، فالامة العربية المتمثلة بلسانها الموحد البليغ ، وبفنها المتميز العريق ، وبتراثها الفكري المتكامل ، هي وحدة حضارية راسخة لايمكن تحريكها جزئياً ، بل لامناص من معالجتها في حالتها الكاملة بعيداً عن جميع الحدود والعوائق . ولنأخذ مثلاً معالجة تطوير اللغة العربية مثل تسهيل الصرف والنحو ، واختصار أحرف الطباعة ، واصدار المعاجم اللغوية ومعاجم المعاني والموسوعات . أو لنأخذ موضوع توضيح ملامح الفن العربي بعزل الأساليب المستوردة وبالكشف عن أسرار الفن العربي العريق ، هنا لا بد من القول أن انشاء الوحدة الاقتصادية لا يعدله في الأهمية الا تحقيق الوحدة الثقافية التي تتكفل محو الأمية والاستفادة من العقول والطاقات وتشجيع المواهب وتوسيع أسواق النشر ودعم اللغة وايجاد الكاتب والعالم والفنان والباحث العالمي ، ذلك أن أهمية أي

منهم انما تأتي عن مدى انتشار آثاره ومعرفة الناس لانتاجه .

واذا أضفنا الى الوحدتين الاقتصادية والثقافية ، الوحدة العسكرية التي لامفر منها لمجابهة التحديات والعدوان ولتكريس قوة دولة الوحدة داخلياً وخارجياً ، كان هذا معناه أن الوحدة العربية السياسية حتمية لامحال في ذلك ، لان التطـور الحضاري الطبيعي يقودنا حتماً الى تحقيق هذه الوحدة المنشودة .

صفوان قدسي

هل تتحقق الوحدة بالتطوّر التلقائي ؟

دراسة في معنى الحتمية واللاحتمية

بالممارسة وحدها ، يتأكد يوماً بعد يوم أن قضية الوحدة العربية تخسر ، بين وقت وآخر ، موقعاً كانت تقف فيه ، وان الاقليمية السياسية والفكرية هي التي تكسب المواقع التي تخليها قضية الوحدة العربية . وربما كانت هذه اشارة لاتخطئها العين المدققة الى ان التاريخ لايتحقق من تلقاء ذاته ، وانما التاريخ يحتاج الى بشر يحركونه . وحين تضعف ارادة البشر في صنع تاريخهم، فان هذه الارادة تصبح أسيرة وضع عاجز لاتملك معه الا أن تستسلم وتسلس قيادها لارادة الآخرين . والتاريخ في نهاية المطاف هو صراع إرادات، والارادة الأشد تصميماً على تحقيق ذاتها هي التي تكسب الجولة في معركة كسر ارادات الآخرين .

وبهذا المقياس ، فان ارادة الوحدة العربية تستطيع أن تكسب الجولة في معركة كسر ارادات الآخرين حين يتوفر لديها من التصميم مايجعلها قادرة على أن تكون في مستوى المهمة المطلوب انجازها .

وتستطيع الباصرة المتفحصة ان تضع يدها على حقيقة مفادها ان الفكر الاقليمي ، في غمرة الدعوة الى وضع قضية الوحدة في يد التاريخ ، قد سلح نفسه ، وأقام من حوله الخنادق والمتاريس، وكرس حقيقته الاقليمية أكثر فأكثر، وان الفكر العربي القومي وجد نفسه في مواقع الدفاع عن النفس أمام الهجمة الاقليمية المسلحة بأحدث أدوات الارهاب الفكري. بل لقد تجاوز الأمر هذا الحد بحيث أصبح الفكر القومي محاصراً ، ان لم نقل متهماً ومداناً ، وانحسرت دعوة الوحدة العربية أمام هذه الموجة الشعوبية الجديدة ، وأصبحت هذه الدعوة تعلن نفسها بصوت خفيض بعد أن كانت هي الصوت الأعلى والأقوى ، وحلت بالقضية القومية محنة قلّ أن تحل بقضية أخرى .

ومهما يكن من أمر ذلك كله ، فان هناك حقيقة ناصعة في وضوحها ، وهي أنه إذا كان التاريخ صراع إرادات ، فان إرادة الوحدة العربية تستطيع أن تنتصر في معركة كسر إرادات الآخرين حين تسقط من حسابها ذلك الوهم القائل بأن التاريخ محكوم بقوانين صماء لاقبل للانسان بالتأثير فيها ، وان التاريخ يتحرك من تلقاء ذاته لابفعل محركات بشرية تدفعه إلى الأمام ، وان الظروف الموضوعية ليست مهيأة الآن لتحرك وحدوي على نطاق واسع وشامل ، كأنما الظروف الموضوعية قوى غاشمة غير مرئية تفعل في الانسان فعلها مثل ماتفعل قوانين الطبيعة بالمادة الصماء .

والدراسة التالية محاولة في فهم معنى الحتمية واللاحتمية في مسألة الوحدة العربية ، ووضع اليد على الحقيقة القائلة ان الوحدة العربية ليست محكومة بقوانين لاقبل للبشر بالتأثير فيها ، وان معنى التاريخ إنما يتحقق من خلال البشر الذين يسهمون في تحريكه وصنعه .

* * *

مع نهاية النصف الاول وبداية النصف الثاني من هذا القرن ، حققت اللاحتمية تقدماً ملموساً في مجال توسيع تأثيرها ، بحيث بدت اشد انتشاراً بين الفلاسفة ، وحتى

بين علماء الفيزياء انفسهم . وعلى الرغم من أن مسألة الحتمية واللاحتمية ظلت مفتوحة للنقاش ، وكان من الواضح انها لن تحسم في مجال العلوم قبل فترة اخرى من الزمن ، فان التطورات المتلاحقة في ميدان الفيزياء الحديثة احدثت مايشبه الانقلاب في هذا المضمار، بحيث اصبحت اللاحتمية اكثر قدرة على هز الارض من تحت اقدام الحتمية التي بسطت سلطانها قروناً طويلة .

وتكشف الفيزياء الحديثة في هذا الميدان عن حقائق بالغة الأهمية والخطورة . ذلك أنه في حين كانت الفيزياء التقليدية تعلن عن وجود حتمية لا يمكن إنكارها ، فإن الفيزياء الحديثة تقدم من الشواهد ما يجعل من مفهوم الحتمية في الفيزياء التقليدية مفهوماً متخلفاً . أي أن الفيزياء الحديثة، بما تكشف عنه من حقائق لم تكن معروفة من قبل ، تضع العلوم الطبيعية أمام اختبار حاسم ، وتميط اللثام عن المحنة التي تواجهها النظرة التقليدية الى العلوم الطبيعية .

كانت الفيزياء التقليدية تعلن بصوت عالي النبرات من أن « الحتمية شرط من شروط وجود العلم »، هذه الحتمية التي يقوم تعريفها في الفيزياء على « امكان توقع الظواهر توقعاً دقيقاً ، اي انتظار حصولها في مكان معين وفي زمان معين بالضبط ، فالحتمية موجودة إن كان الإلمام بشرط بعض الظواهر المشاهدة مع معرفة بعض القوانين الطبيعية ، يخول توقع تلك الظواهر او أمثالها في زمن لاحق ، وبالتخصيص مثلاً ، إن أمكن معرفة موقع متحرك وسرعته الابتدائيين ، وأمكن بذلك معرفة موقع هذا المتحرك وسرعتـه بالضبط بعد مرور مدة معينة من الزمن . عندئذ يستطيع الفيزيائي أن يجزم بالحتمية لأنه يستطيع أن يتحقق وقوع الظواهر ونتائج حساباتـه » (١) . غير أن العالم الفيزيائي « هيزنبرغ » وضع يده على حقيقة هدمت الأساس الذي يقوم عليـه مفهوم الحتمية في الفيزياء التقليدية . فقد اكتشف هذا العالم أنه « كلما دق قياس موقع الجسم ، غيرت هذه الدقة كمية حركته ، وبالنتيجة سرعته ، وكلما دق قياس كمية حركته ، التبس موقعه . ويمتنع أن يقاس موقع الجسم وكمية حركته معاً قياساً دقيقاً ، أي يصعب تعيين موقع الجسم وسرعته الابتدائيين بالمفهوم الميكانيكي الاتباعي ، لذلك يصعب معرفـة موقعه

(١) انظر البحث الخاص بـ « اللاحتمية وعلائق الارتياب » في كتاب « تقدم العلم » للدكتور عبد الكريم اليافي — ص ١٠١ .

وسرعته في زمن لاحق »(١) . والأغرب من ذلك هو أن الفيزياء الحديثة تكشف عن أن هذه اللاحتمية « هي لا حتمية أساسية صيمة صرف في الظواهر الميكروفيزيائية ليس لنا في تغييرها والنفوذ اليها يدان » ،وانها ليست مجرد لا حتمية ظاهرية «نقف عند حدودها اليوم لأن أدواتنا وأجهزتنا ومناهجنا القياسية لم تبلغ الغاية في الدقة ولا أحرزت النهاية في الضبط »(٢) .

ولقد يمكن القول ان قصور ادواتنا واجهزتنا ومناهجنا القياسية هو السبب الذي يوحي بوجود هذه الحتمية التي تشير اليها الفيزياء الحديثة ، وان هناك بكل تأكيد حتمية وبما كان من الصعب الكشف عنها بسبب هذا القصور في الادوات والاجهزة ومناهج القياس . غير ان رد هذا القول لايبدو بالغ الصعوبة ، باعتبار ان هـذا القول « فرضية ميتافيزيائية ونوع من الايمان لايبحثه العالم الفيزيائي ولا يحق له أن يبحثه بعد أن عرّف معنى الحتمية في الحوادث الفيزيائية بامكان التوقع المضبوط » (٣) . ومع ذلك ، فان علماء الفيزياء الحديثة بذلوا جهوداً كبيرة للكشف عما اذا كانت هـذه اللاحتمية صميمة أم أنها مجرد حتمية ظاهرية تختبىء وراءها حتمية باطنية . وقد انتهت هذه الجهود الى حقيقة مفادها « أن اللاحتمية في حوادث الميكروفيزياء صميمة وأنه يصعب عليهم بمفاهيمهم الحاضرة ، واعتباراتهم المعتمدة في هذا الوقت ، أن يستشفوا امكان الوصول الى الحتمية ولو تحسنت وسائل البحث ومناهج القياس لديهم » (٤) .

وعلى الرغم من ان علماء الفيزياء الحديثة ، على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية ، يقرون بالنتائج التي انتهت اليها هذه الابحاث والدراسات ، فان البعض منهم يحاول القفز من فوق هذه النتائج بهدف تمكين فرضياته السابقة من ان تجد الهواء الذي تتنفس به ، بعد ان اصيبت هذه الفرضيات بحالة اختناق بسبب هذه الكشوف . وفي الوقت الذي اعلن فيه معظم العلماء عن ان هـذه الكشوف الباهرة تحرر الانسان مرة اخرى من قيود الطبيعة التي سجن داخلها (٥) ، بمثل ما تؤكد ان الحرية حاضرة في

(١) و (٢) و (٣) المصدر السابق ص ١٠٣ و ١٠٤ .
(٤) المصدر السابق ص ١١٦ .
(٥) يكتب Sullivan في الفصل الثالث من مؤلفه Limitation of Science ان هذا التطور فيما لو تمكن من تثبيت اقدامه بصورة نهائية، فسوف تترتب =

قلب الوجود ، فان هناك فريقاً عز عليه أن يجد قناعاته القديمة تتساقط امام ناظريه ، فلجأ الى اسلوب هو اقرب الى التحايل على هذه الاكتشافات .

هذا الفريق لم ينكر صحة هذه الكشوف، وانما هو سلك طريق احتوائها ، وضمها الى مملكته القديمة ، وتحويلها الى جزء من تراثه العلمي والفكري . وعلى سبيل المثال ، فان هذا الفريق يرى في هذه الكشوف خلاصاً مما يسميه بالحتمية الميكانيكية ، ووصولاً الى حتمية من نوع آخر يطلق عليها اسم الحتمية الاحتمالية(١) .

= عليه نتائج بالغة الاهمية . سوف يكون من السهل عندئذ الاعتقاد بأن وعينا او شعورنا بالارادة الحرة ليس وهماً ، وسيكون بالامكان ان نكون اكثر حرية في أن نعزو للطبيعة تقدماً حقيقياً مبدعاً، بدلا من ان ننظر اليها على انها تسير كآلة هائلة كل ماتنتجه مقرر سلفاً .. ولو ان مبدأ عدم التحديد قد جرى قبوله بصورة قاطعة ، فسوف يفضي ذلك الى اعظم ثورة تتحقق حتى الآن في الفكر العلمي وفي الفلسفة المرتكزة عليه .

(١) — انظر في هذا المجال مقال محمود امين العالم « العلم والحرية » المنشور في كتاب الهلال « معارك فكرية » — العدد ١٧٧ — كانون الثاني ١٩٦٥ ، والذي سبق نشره في مجلة « الهلال » شهر نيسان من السنة نفسها . يقول كاتب المقال عن هذا المنهج الجديد : انه ليس تخلياً عن الحتمية العلمية ، وإنما عن الحتمية الميكانيكية ، وافساح السبيل إلى حتمية جديدة هي الحتمية الاحتمالية ، وهي حتمية لاتنفي الضرورة والعلية ، بل تؤكدهما على نحو أكثر تعبيراً عن الواقع . أي أن الأستاذ العالم يسارع إلى احتواء هذا المنهج الجديد بهدف استخدامه لخدمة معتقدات معينة ، ويهدف تفسير نتائجه بالطريقة التي تناسب هذه المعتقدات . وهو يقول في مقاله المذكور : « وما يزعمه بعض المفكرين والعلماء من أن العلم قد تخلى عن حتميته وضرورته بنتائجه الاحتمالية الجديدة ، وبمبدأ عدم التحديد ، إنما هو وهم كبير . ان النظرية العلمية في واقعها الجديد إنما تعبر في الحقيقة عن مزيد من العلمية في فهم الواقع والسيطرة عليه ... لقد تحرر العلم من كثير من القيود التاريخية ، وأصبح أكثر انطلاقاً وموضوعية وحيوية ... » . والغريب هو أن الأستاذ العالم حين يعترف بسقوط الحتمية الميكانيكية ، وظهور مايسميه بالحتمية الاحتمالية ، يتجاهل التناقض القائم بين مفهومي الحتمية والاحتمال .

وخلاصة القول هي ان العلوم الطبيعية تواجه موقف مراجعة شاملة تجري من خلاله عملية اعادة النظر في بعض المفاهيم السائدة على ضوء حقائق جديدة تكشفت ، وتحت تأثير خبرات جديدة اكتسبها الانسان عبر رحلته الطويلة بحثاً عن الحقيقة . ان مفهوم الحتمية الذي ظل سائداً ومسيطراً سيطرة لاحدود لها ، انحسر تأثيره بفعل هذه الحقائق الجديدة التي تكشفت ، وبسط مبدأ اللاحتمية وعلائق الارتياب ، او ما يسمى بمبدأ عدم التحديد ، ظله الكبير على منهج القيــاس في الفيزياء النووية ، وظهر المنهج الاحصائي كبديل عن المناهج السائدة(١) .

وعلى الرغم من ان هذه اللاحتمية لاتنفي عن العلوم الطبيعية موضوعيتها ، الا انها تضفي على هذه الموضوعية عناصر جديدة كانت غائبة تماماً . من ذلك مثلا انها تجعل الانسان عنصراً فاعلا في اية تجربة علمية ، وتمنحه مقدرة التأثير في هذه التجربة. كذلك فان هذه اللاحتمية انتزعت من العلوم الطبيعية جمودها ، وحققتهــا بدم جديد اطلقت عليه اسم « الاحتمال » . وكان ذلك كله ثورة في عالم الفيزياء تداعت على اثره مفاهيم وافكار ونظريات وحقائق قديمة ، ودخلت العلوم الطبيعية عصراً جديداً(٢) .

---

(١) انظر دراستنا « الوحدة بين التطور التلقائي والفعل الثوري » . مجــلة « الطليعة » الدمشقية ــ العدد الفصلي ــ خريف ١٩٦٩ ــ خاص بالوحدة العربية .

(٢) لانريد ان يذهب بنا الشطط الى حد الموافقة على الفكرة القائلة ان قوانين العلم فروض واحتمالات ، وان العلم مضطر لفرض وجود المادة وجوداً موضوعياً والا لما كان لوجوده اي معنى ، فهو ان تشبث بوجود المادة ، فانمــا يتشبث بأسباب وجوده وابقاء على حقه في الحياة ، ولذلك فانه مها اوتي من قوة البيان ، فهو عاجز ــ وسيظل عاجزاً ــ عن اثبات وجود المادة وجوداً موضوعياً مستقلا عن الذات . راجع مقال الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا « لايقين في العلم » ــ المعرفة ــ العدد ٣٧ ــ آذار ١٩٦٥ ــ ص ٤ . ولكننا نتفق مع السيد الكاتب حين يقول في مكان آخر ان الانسان يؤثر في الاشياء ويوفق بينها وبين حاجاته الخاصة ، بينما الحيوان يتطابق مع الاشياء ويلساق بالظروف المحيطة به . فالحيوان يتقبل الظروف كما هي ، اما الانسان فانه يخلق الظروف . ولئن هو قبل بعض الظروف ، فانه هو يقبلها ليغيرها ويصرفهــا في غاياته واغراض وجوده ، أي ليبدعها ويخلقها من جديد ــ راجع « المعرفة » العدد ٤ ص ٣٣ .

ولعل أكثر ما يثير الانتباه في هذا المجال هو انه إذا كانت الفيزياء المعاصرة هي خلاصة هذه الكشوف الباهرة ، وهي الكشوف التي تقول انه حتى في ميدان الفيزياء، فان الحتمية الصماء ليست حقيقة علمية على الاطلاق ، وان الاحتمال وحده هو الذي يمكن أن يوضع في الاعتبار عند استخدام منهج القياس في أية تجربة فيزيائية ، وان الاعتراف بعلائق الارتياب والإقرار بوجود شيء اسمه حساب الاحتمال، يهدد المفهوم التقليدي للحتمية، وان الكشوف الفيزيائية الحديثة تومىء إلى عجز العلم عن التنبؤ الدقيق في مجال الميكروفيزياء ... إذا كانت الفيزياء المعاصرة قد تخطت عالمها القديم وخرجت من جلدها واقتحمت عصراً جديداً سحب البساط من تحت أقدام حقائق قديمة كانت متداولة ومسلماً بصحتها ، فان العلوم الانسانية تستطيع استخلاص الدروس المستفادة من ذلك كله . أي انه إذا كانت العلوم الطبيعية قد اعترفت للانسان بدور أكبر في هذا الكون ، فان العلوم الانسانية تستطيع أن تستخلص النتيجة الأكثر أهمية ، وهي انها تملك أن تجد لنفسها مكاناً في هذا العالم دون أن تتخلى عن اعترافها بما للانسان من دور بالغ الأهمية في صنع تاريخه وحضارته .

هذا التطور المتحقق في العلوم الطبيعية(١) ، يحفز الانسان أكثر فأكثر على

---

(١) ظهر في فرنسا مؤخراً كتاب لـ « جاك مونود » الحائز على جائزة « نوبل » في الفيزيولوجيا والطب لعام ١٩٦٥ ، تحت عنوان « الصدفة والضرورة .. مقال في الفلسفة الطبيعية للبيولوجيا الحديثة ». وتقول دراسة عن هذا الكتاب، ان «مونود» يعلن هجومه على لاهوتيي التقدم الذين ينشرون الأوهام المخدرة ويستخدمون في منطقهم مبادىء زائفة . إنهم يؤكدون ان الكائن الحي لا يمكن يتخلص ابداً من القوانين الطبيعية والكياوية وقوانين الحرارة الديناميكية وقوانين ارتباط الجزئي ، وهي قوانين لا تبشر بالخير للانسان ، لأنها تفرض نوعاً من الحتمية لا فكاك منه . ولكنه يؤكد ان العلم الحديث هتك الحجاب ، فقد بيّن أن الكائن العضوي لا يسير وفق المبادىء التي تنتهك للطاقة فقط ، ولكن ظهوره وانتاجه يقوم ايضاً على الصدفة . . . وقد حاول « مونود » أن يفند الفلسفات الأساسية القائمة التي بنيت على خطأ وامتلأت بالأوهام ، والتي تقوم على الجانب الأشد علانيـة وانفضاحاً من الفرد ، أي على كيانه وأهدافه ، مهملة الأمور التي تكمن في أساس هذا الكيان والذي يعتمد على ميكانيزم لاعادة انتاج الحياة واستمرارها . ويقول « مونود » انه في ظل هذه الفلسفات ، لا بد من التلاعب والتغرير وتصوير الفرد على أنه مجبر على القيام بأنواع اجبارية من النشاط تتفق مـع قوانين المادة، الامر الذي يفرض نوعاً من الحتمية .

تحقيق تطور مماثل في العلوم الانسانية . غير أن أشد الصعوبات التي تعترض هذا الحافز، محاولة العلوم الطبيعية احتواء العلوم الانسانية ، إما بالغاء دورها أصلاً ووصمها بالعجز والقصور والتخلف ، أو بقسرهـا عـلى الخضوع لمنطق العـلوم الطبيعية ومقاييسها وقواعدها وقوانينها ، أي بالغـاء قيمتها الخاصة وانتزاع فرديتها وتحويلها إلى علوم صماء أشبه بحجارة المختبرات .

والعلوم الانسانية مـا تزال حتى الآن محتفظة بالقدر الأعظم من استقلالهـا ، وسوف يبقى لها منطقها الخاص وقواعدها وأدواتها ، دون أن يعني ذلـك التنكر لأية فائدة يمكن أن تنجم عن البحث عن أرض مشتركة تقف عليها جنباً إلى جنب مع العلوم الطبيعية ، تأخذ منها وتعطيها . وما دامت كشوف الفيزياء الحديثة تضع العلوم الطبيعية في حجمها الحقيقي ، وتضع مقدرة الانسان على الوصول إلى حقيقة العالم الذي يحيط به، في حجمها الحقيقي أيضاً ، وتعيد النظر في العديد من المسلمات التي ألفت فردية الانسان ونفت عنه حريته ، فان العلوم الانسانية تستطيع ان تفتح حواراً مع هذه الكشوف التي تؤكد ماذهبت إليه العلوم الانسانية من انها لا يمكن أن تخضع لمنطق العلوم الطبيعية. واذا كانت العـلوم الانسانية قد اكتشفت في وقت سابق بطلان مساحـة من الأرض تقف فوقها ، خـارج رقعة العلوم الطبيعية ، فان الكشوف الحديثة في مضمار الفيزياء تسمح للعلوم الانسانية بأن تتحرر أكثر فأكثر مما علق بها من تأثيرات العلوم الطبيعية حين كانت العلوم الطبيعية تدعي لنفسها مقدرة سحب البساط من تحت أقدام أية علوم أخرى لا تخضع لمنطقها وقواعدها وقوانينها(١) .

---

(١) يقول الدكتور فؤاد مرسي في كتابه « حتمية الحل الاشتراكي ... سياسياً واقتصادياً وفلسفياً » . . « ان كل محاولة للفصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية بدعوى ان هذه الاخيرة لا تخضع لمنهج الفلاسفة بل لتجارب العلماء ، سوف تفشل » . غير ان الدكتور مرسي يقول في مكان آخر من الكتاب « ان معنى التاريخ يتحقق من خلال البشر الذين يصنعون التاريخ ، وما البشر الا ارادات تحركها الحوافز الدينيـة والعاطفية والجمالية والسياسية ، وتقودها أفكار » . والسؤال الآن : اذا كان التاريخ ، وهو من العلوم الاجتماعية أو الانسانية ، يتحقق من خلال البشر الذين هم ارادات تحركها الحوافز الدينية والعاطفية والجمالية والسياسية ، فهل ينسحب هذا التعريف على العلوم الطبيعية ؟ . وهل يتحقق معنى العلوم الطبيعية من خلال البشر ايضاً ؟

وعلى أية حال ، فمن الصعب صب العلوم الانسانية في قوالب من الاسمنت المسلح وانتزاعها من فرديتها . وإذا ما أخذنا علم النفس كمثال على ذلك ، فانه يمكن القول ان المحاولات التي بذلت في وقت سابق لالحاق هذا العلم بالعلوم الطبيعية واخضاعه لمقاييسها وقوانينها ، قد اخفقت الى حدما . ولعل هذه العودة بعلم النفس الى عصره « الفرويدي » التي نراها ماثلة أمامنا الآن على صعيد الدراسات النفسية ، برغم ماتوصم به « الفرويدية » من انها تلح على الجانب الذاتي في الانسان ، وتتجاهل العديد من المعطيات الاقتصادية والاجتماعية وتركز على دور الجنس في الانسان وفي الحضارة التي يصنعها ... هذه العودة بعلم النفس الى عصره « الفرويدي » دليل واضح على ان العلوم الانسانية تستعصي على محاولات الحاقها بالعلوم الطبيعية . صحيح ان ثمة صلات وشيجة بين مختلف العلوم الطبيعية والانسانية ، الا ان كل علم من هذه العلوم يحتفظ بقسط كبير من فرديته وتميزه وطابعه الخاص . وآخر صيحة في ميدان علم النفس هي تلك التي تنادي بضرورة اكتشاف أرض مشتركة بين الفرويدية والماركسية على مابين الاثنتين من تباين بالغ الوضوح .

وإذا ما أخذنا التاريخ كمثال آخر على ذلك ، أمكن القول ان هناك محاولة لحقن التفسير المادي للتاريخ بعناصر جديدة تجعل الانسان قوة فاعلة ومؤثرة في عملية التطور التاريخي . أي ان اكتشاف العنصر المادي في عملية التطور التاريخي لم يكن كافياً لتفسير التاريخ ، وظلت هناك فجوات وفراغات بحاجة الى من يملؤها بحيث يصبح هذا التفسير أكثر غنى وثراء ، بل وأكثر اقناعاً(١) .

(١) يذهب الدكتور جورج طعمه الى ابعد من ذلك حين يقرر ان كل علم من العلوم يتعرض لأخطاء قد تظهر في نتائج العلم ، ولكن امكانية الخطأ في العلوم الاجتماعية هي اكبر من غيرها . فدراسة المجتمعات البشرية دراسة معقدة التراكيب ، متشعبة النواحي متعددة الظواهر ، يدخل فيها العديد من العوامل والمؤثرات المتفاعلة بعضها مع بعض الى حد بعيد جداً . ومهما اتصف العالم بالتجرد والاتزان وعدم الانحياز ، فانه يصعب عليه التخلص من عشرات المؤثرات فيه ، الموروثة والمكتسبة ، ويصعب ان يتخلص دائماً من اعتقاداته الخاصة بتأثير العوامل الاقتصادية او الدينية أو الفكرية التي كان لها فعلها في تطور المجتمعات ، او ان يتجرد من التأثيرات الخفية التي يخضع لها على شعور منه أو غير شعور ، والتي تعود لولاءاته المختلفة كقوميته أو دينه أو وضعه الاجتماعي أو موقفه العقائدي ، او التي تتسرب اليه من محيطه التقليدي الذي نشأ فيه ، او التي تنعكس كلها =

ومعنى ذلك أن هناك محاولة للتخلص من النظرة الأحادية للعالم والانسان . ولم تعد ثمة فلسفة بعينها تملك مقدرة الاعلان عن احتكارها للحقيقة ، وظهرت دعوات الى دمج مذاهب وفلسفات هي في الأصل والأساس متناقضة بشكل صريح، بهدف الوصول الى صيغة للتفاهم يمكن بموجبها تأسيس فلسفة أكثر شمولاً وأشد اتساعاً لحقائق العصر .

وربما كانت الدعوة الى ايجاد صيغة للتفاهم بين الماركسية والوجودية والفرويدية من أكثر الدعوات التي تعبر عن هذا التحول في الفكر المعاصر . وعلى اتساع المسافة بين هذه التيارات الثلاثة ، فان محاولة « سارتر » اقحام الوجودية على الماركسية وجعلها جيباً من جيوبها ، كما يقول هو في كتابه « نقد العقل الجدلي » تشكل جهداً لادخال العنصر الذاتي الى قلب الماركسية المفتقرة إليه . ومعنى ذلك أن العالم يقبل أكثر فأكثر على الاعتراف بما لفعالية الانسان وحريته وإرادته من قيمة بالغة التأثير ، خصوصاً بعد مرحلة سجن فيها الانسان نفسه داخل أسوار التكنولوجيا والتطور العلمي الخارق ، وداخل أسوار الحقائق الجاهزة والقوالب المصنوعة من الجبس ، والنصوص المحرمة على أي نقاش .

على صعيد التطور التاريخي ، يمكن استخلاص حقيقة مفادها ان هذا التطور لا يتحقق بمعزل عن الانسان ، وأنه ليس سوى المحصلة النهائية لجهد انساني

=في الحياة العامة التي يعيش في جوها ويتفاعل تفاعلاً حياً مع مختلف مؤثراتها . ويحذر الدكتور طعمة في دراسة له عن « التاريخ والعلم » من مخاطر اعتبار التاريخ علماً ، وهو يقول إن التاريخ لا يستطيع أن يتوصل لأية علاقة رياضية ، وبالتالي لا يستطيع ان يضع اي قانون بالمعنى الدقيق للكلمة . أضف الى ذلك أن التجريب الذي تقوم عليه العلوم الفيزيائية والكيماوية ممتنع على التاريخ ، وكذلك الملاحظة المباشرة التي تقوم عليها العلوم الوضعية . والعلم هو العلم بالكليات ، والقوانين لا تنطبق الا على ما هو كلي ، والتاريخ يسجل على الاغلب الحوادث الفردية ، حوادث لا تتكرر أبداً ، وهي بأساسها محتملة الوقوع فقط ... كذلك لا يمكن التنبؤ في التاريخ . وانما جل ما يمكن العالم أن يتحدث عنه هو تيارات تتجه اتجاهاً معيناً .

لا يتوقف لحظة واحدة عن القيام بمبادرات جديدة . ومعنى ذلـك ان دراسة التاريخ بقدر ما تتيح من رؤية أثر العناصر المادية في عملية التطور التاريخيء فانها تتيح رؤية مماثلة لاثر الجهـد الانساني في هذه العملية . ولا يستطيع أي منهج في دراسة التاريخ أن ينكر أثر هذا الجهد ، أو أن يقلل من قيمته ، أو أن يجعل من التاريخ جملة وقائع صماء تتحقق من تلقاء ذاتها [١] . وكما أن الحضارة لا تقوم بفعل أسباب غير قابلة للاستكشاف ، ولا تنهار بفعل أسباب مشابهة ، فانه من غير الممكن عزل الانسان عن هذه الأسباب ووضعه خارج التاريخ . ولا تنكر الفلسفات المغرقة في رد كل تطور تاريخي الى سبب محدد ، دور الانسان في صنع هذا التطور .

لقد تأكد بالممارسة التي هي معيار الصواب والخطأ ، أن الانسان العربي لا يقف خارج دائرة التاريخ . ذلك أن الحقيقة بغير الانسان تصبح في نهاية المطاف شكلاً من أشكال الفعل التلقائي غير القابل للخضوع لأية صورة من صور السيطرة والتوجيه . والحتمية بهذا المعنى تمسي قوة خارقة تقع خارج دائرة النشاط الانساني ، وهي بهذا المعنى أيضاً تصبح قوة مطلقة لها من مقدرة التأثير ما للقوى الميتافيزيقية ذاتها (٢) .

(١) انظر دراستنا « هل يتحقق التاريخ من تلقاء ذاته ؟ » المنشورة في الكراس الصادر عن اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧١ تحت عنوان « آراء وأفكار على طريق العربية » . ص ٧٥ .

(٢) لم تسلم الجغرافيا من محاولات اخضاعها لمفهوم الحتمية . وقد أشار الدكتور جمال حمدان في كتابه « شخصية مصر . دراسة في عبقرية المكان » الى هذه المحاولات ، وأوضح بأن الخط الذي تسترشد به دراسته هو انه ليس هناك حتم ، وان ثمة فقط حتماً جغرافياً . وهو يقول ان قضية الحتمية صفحة حسبناها طويت من قديم بعد ان ماتت ميتة طبيعية ، حتى لتكاد اثارتها بغير مبرر عند كل منعطف ان تعد نوعاً من الافلاس الفكري ، سواء ذلك من جانب الكاتب او الناقد .

انظر الكتاب المذكور ص ١١ ـ وقد صدرت طبعة مختصرة من هـذه الدراسة في سلسلة « كتاب الهلال » العدد ١٩٦ .

وفيما يختص بالوحدة العربية ، فان من الواضح أن هناك تيارات فكرية تلتقي عند حقيقة مشتركة وهي أن الوحدة العربية تشكل الوعاء السياسي والاقتصادي والحضاري لأمة تحاول بقدر ما تملك وتستطيع أن يكون لها دور في عالمنا ، باعتبار أن الوحدة هي المدخل الوحيد الى العصر ، غير أن هذه التيارات تفترق عندما يصل الأمر الى الحديث عن الوسائل التي تفضي بالأمة العربية الى تحقيق وحدتها . أي ان الافتراق يتحقق عندما تطرح المسألة على اساس ما اذا كانت الوحدة العربية تدخل في دائرة الحتمية التاريخية ، ام انها تتصل اتصالاً وثيقاً بارادة الانسان العربي ودوره في صنع هذه الوحدة .

وبمعنى آخر ، فان الافتراق يبدأ عندما يأخذ أحد الفريقين بوجهة النظر القائلة ان الوحدة العربية حتمية تاريخية ، الأمر الذي يؤدي الى اسقاط دور الانسان في صنع هذه الوحدة ، وإلى إغفال أهمية النضال اليومي من أجل الوصول إلى هذا الهدف . . . وعندما يأخذ الفريق الآخر بوجهة النظر القائلة انه على الرغم من أن الوحدة العربية ضرورة تاريخية ، فان ترك أمرها للتاريخ لا ينتج عنه سوى تكريس التجزئة الراهنة وتثبيت الفكر الاقليمي وتغذية النزعات القطرية ، باعتبار أن التاريخ لا يتحرك من تلقاء ذاته وإنما هو يتحرك تحت تأثير الانسان الذي لا يمكن للتاريخ أن يتحرك بمعزل عنه وعن إرادته .

وفي الحقيقة فان الايمان بحتمية الوحدة العربية يمكن أن « يعطي المناضلين العرب المقدرة على التحرر من قيود الاقليمية ، والاستيعاب الشامل للقضايا العربية ، واعادة ترتيب أولوياتها ، كما أنه هو الذي يمنحهم الشجاعة اللازمة للنصر في المعارك الضارية التي يخوضونها ، إذ هو الذي يؤكد ثقتهم بأنهم يناضلون من أجل غاية منتصرة لأنها غاية حتمية » (١).

غير أن هذا الايمان يمكن ، من جهة أخرى ، أن يجعل المناضلين العرب يعيشون

---

(١) انظر مجلة الكاتب ــ حتمية الوحدة العربية ــ ص ٧٣ ــ اذار ١٩٦٧ ــ العدد ٨٤ .

في حالة استرخاء عقلي بانتظار أن يحمل لهم التاريخ وحدتهم على طبق من ذهب . أي ان هـذا الايمان يمكن أن يحول المناضلين العرب الى جيـاد معصوبة العينين ومفتونة بالدوران حول نفسها . وهذا الايمان الأعمى بالحتمية سوف يحول المناضلين الى قدريين يرون « أن كل حادث في الكون مكتوب أو مقدر منذ البـداية ، وذلك من حيث وقت حدوثه وطريقة حدوثه ايضاً » . وحين يتحول المناضلون الى قدريين ، فلا بد من أن يستسلموا للقوى الخفية التي يتوهمون أنهـا تحرك التاريخ ، وتسقط بذلك حريتهم في العمل من أجل الهدف الذي كانوا يناضلون لتحقيقه ، ذلك أنه لا يوجد وسط بين الحرية التامـة والقدرية ... لأننا اذا استخلصنا من الموقف الحتمي كل نتائجه التطبيقية ، لوجدناه ينكر تلك الحرية التي يزعم أنه يجعلها ممكنـة ، إذ لو كانت الذات قبل كل شيء حصيلة لتجاربها .. أي القوى الخارجية التي تؤثر فيها ، لكان من الواضح أن الاختيار، في لحظة القرار الفعلي ، سيكون نتيجة لهذه القوى ، لا لإرادة غير محتومة كتلك التي يقتضيها فرض الحرية . وفضلا عن ذلك ، فاذا كان الحتمي على حق ، ألن يكون السؤال عن القوى التي تكون شخصيتنا متوقفاً جزئياً على طبيعة الكائن العضوي التي نتوارثها؟. وهذا يكون اختيارنا محدوداً وخاضعاً للتأثير بمعنى مزدوج : إذ نكون ، من جانب ، ما صنعته منا بيئتنا ، ونكون من جانب آخر ، ما أتينا به الى العالم من مادة خام . فاذا أكد أي شخص بعد هذه الحقائق كلها أننا أحرار ، فانه ، بكل بساطة، لا يستخدم اللغة بطريقة استخدامها العادية ، ذلك لأنه ما لم تكن الذات عالية ، بمعنى كونها قادرة على الارتفاع فوق مستوى علاقة العلة والمعلول التي تقيد بقية الكون، لما كانت حرة . وما لم تكن ارادتنا مستقلة عن المنبهات والوراثة والتجارب السابقة – أي ما لم تكن قادرة في كل لحظة على القيام باختيار كان من الممكن أن يأتي بصورة مختلفة – لكانت الحرية البشرية وهماً (١) » . وأكثر من ذلك ، فان هذا الايمان بحتمية الوحدة العربية يمكن أن يجعل المناضلين العرب أسرى ذلك الوهم الماثل في الفكرة القائلة إن هدفهم سوف يتحقق لا محالة ، في الوقت الذي يحتاج فيه هذا الهدف الى من يناضل من أجل تحقيقه وانجازه . وفي مقابل ذلك ، فاننا عندما نصر على الاعتقاد بأننا نحن الذين نصنع تاريخنا ، فان الأمر كله يصبح عندئذ متوقفاً على ارادتنا ، وبقدر ما تكون

---

(١) ـ الفلسفة : انواعها وأشكالها ـ تأليف : هنترميد ـ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ـ ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

هذه الإرادة واعيــة ومصممة على تحقيق الهدف ، تكون امكانية تحقيق الهدف أشـد اتساعاً . ذلك أنه « اذا استطعت أن أؤمن ، بوصفي لا حتمياً ، بأن الســيادة الكاملة لقوانين العلة والمعلول تتوقف فجأة عندما نصل الى مجال الحكم الشخصي والقرار الأخلاقي، فاني أكون عندئذ محصناً ضد بعض من أسوأ ضربات الحياة . ففي استطاعة هذا الاعتقاد أن يزودني بدرع داخلية يمكن أن تظل فيها نفسي أو شخصيتي المتكاملة في سلام وهدوء مهما يحدث . وهكذا يتيسر لي هذا الايمان اللاحتمي الاحتفاظ بيقين راسخ بأنني حتى لو لم استطع التحكم في الظروف الخارجية ، فسيظل في استطاعتي ألا أدع هذه الظروف تسيطر عليّ سيطرة كاملة ، ذلك لأنني استطيع أن أقاوم تحكمها فيّ ، وحتى عندما تبلغ الأمور أسوأ مداها ، فسيظل في امكاني وضع إرادتي في مقابل كل قوتها الهدامة، متحدياً اياها أن تفعل أقصى ماتستطيع » (١) .

ويقترب هـذا الايمان بوجود قوى خفية تحرك التاريخ ، أو بأن التاريخ يتحقق من تلقاء ذاته، من أن يكون ايماناً قدرياً يستسلم لحركة التطور التلقائي وينتظر مترقباً هذا الذي سيأتي به التاريخ . وهذا الايمان هو في حقيقته النهائية أبعد مايكون عن التفكير العلمي . ذلك انه ليس علماً على الاطلاق أن نقول ان الوحدة العربية آتية لاريب فيها ، وليس علماً على الاطلاق ان ندعي امكانية الكشف عن المستقبل والتنبؤ بما هو آت ، وليس علماً على الاطلاق ان نستعير من التفكير القدري أدواته ، وليس علماً على الاطلاق أن نقيم بيننا وبين التاريخ حواجز تحول بيننا وبين مقدرة التأثير فيه ، وأكثر من ذلك ، فانه ليس علماً عـلى الاطلاق أن نجعل من الانسان مجرد محصلة لجملة عوامل ، وأن نجعل من الحضارة مجرد نتيجة لمجموعة من العناصر غير الانسانيه ، وأن ننفي عن الانسان مقدرة الخلق والفعل ، وأن نعزله عن حركة التاريخ (٢) .

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٣٢٥ .

(٢) ـ هناك مفكرون عرب يوقعون انفسهم في اشكالات بالغة التعقيد . ان ايمانهم بعقيدة معينة يلزمهم بنمط معين من التفكير ، وحين يتحركون مسافة قصيرة بعيداً عن هذا الايمان ، يوقعون انفسهم في هذه الاشكالات . وعلى سبيل المثال ، فان لطف الله سليمان في رده على محمود حسين «اسم مستعار ليهودي من مصر»مؤلف كتاب « صراع الطبقات في مصر » الذي كتب بالفرنسية وترجم الى العربية ، يوقع نفسه في واحد من هذه =

هذا النمط من التفكير هو أقرب الى النمط الميتافيزيقي الذي يفسر العالم بماهو فوق العالم ، والذي يعتقد بوجود قوة مطلقة وقادرة . حتى العـلم ، حين يتخذ سورة القوة المطلقة ، يخسر وجهه الحقيقي ويتحول من قوة في العالم الى قوة فوق العـالم ، ويمسي أداة من أدوات السحر والاعجاز بدل أن يكون أداة تطوير للانسان والعالم من حوله . وهذا ما تفعله بعض التيارات الفكرية حين تحول التاريخ الى قوة ميتافيزيقية بما تضفي عليه من قدرات بغير حدود ، وبما تمنحه من قوة فوق قوة البشر .

وأكثر من ذلك ، فان هذا الضرب من التفكير ليس مقصوراً عـلى المؤمنين بحتمية الوحدة العربية(١) ، « وهؤلاء يظلون برغم كل شيء وحدويين حقيقيين ، رغم ان ايمانهم يتحول في مواقف معينة الى ايمان غيبي يشل فعاليتهم ومقدرتهم على العمل» وانما هو يتجاوز هؤلاء الى فريق آخر لايؤمن أساساً بقضية الوحدة العربية ، ويتستر على تنكره لقضية الوحدة بالترويج لفكرة مفادها انه ما دامت الوحدة حتمية تاريخية،

=الاشكالات حين يقول : « ان أساليب التحول عديدة جداً . ليس هناك أسلوب معين . التاريخ يختار أسلحته وطرقه ،وفي بعض الأحيان تلعب الارادة الانسانية دوراً كبيراً » والسؤال هو : ماهي الحالات التي يختار فيها التاريخ أسلحته وطرقة ؟. وما هي الحالات التي تلعب فيها الارادة الانسانية دوراً كبيراً ؟. انظر مجلة «الثقافة العربية ٧١»ص٢٨- العدد الخاص بالوحدة والثورة العربية .

(١) - هناك محاولات جادة للتوفيق بين فكرة الحتمية التاريخية وبين دور الانسان في صنـع التاريـخ . وهي محاولات تنطلق من الاعتراف بما للانسان من دور بالـغ الأهمية في التأثير في العالم المحيط به دون أن تسقط من حسابها الاعتبارات الأخرى. مثال ذلك مايكتبه الياس مرقص : « لا يمكن أن تترك الوحدة العربية للتطور التلقائي. ولئن كانت الوحدة العربية تنبثق من ظروف موضوعية ، الا أن هذه الظروف تنعكس في وعي سياسي وحدوي وفي نضال سياسي وحـدوي » . راجـع كتاب الياس مرقص « موضوعات الى مؤتمر اشتراكي عربي » - ص ٥٦ .

وما دامت الوحدة آتية لاريب فيها، فان على العرب مضغ ألسنتهم ترقباً وانتظاراً(١)

وقد مارس هذا الفكر الاقليمي دوراً بالغ الخطورة على هذا الصعيد حين بث في العقل العربي خرافة تقول ان حتمية الوحدة العربية توجب على العرب الانصراف عن العمل من أجل هذا الهدف الى أهداف أخرى أجدر وأولى بالاهتمام. وقام الفكر الاقليمي بالترويج لهذه الخرافة تحت شعارات العلمية والموضوعية والحتمية التاريخية وما الى ذلك من كلمات جرى اقحامها في قاموس اللغة اليومية .

والغريب هو ان الفكر الاقليمي المتخفي وراء أقنعة تقدمية ، تناسى انه انما يغالط نفسه حين يدعو الى تجميد العمل الوحدوي ، والانصراف الى ما هو أجدى منه وأنفع ، تحت شعار ان الوحدة العربية سوف تتحقق من تلقاء ذاتها ، ويدعو في الوقت نفسه الى تحريك العمل الاجتماعي بهدف الوصول الى شكل أفضل من أشكال العلاقات الطبقية الأكثر عدلا . ذلك ان هذا العمل الاجتماعي ، كما تقول أبجدية الفكر الاقليمي المتخفي وراء أقنعة تقدمية ، يدخل هو الآخر في نطاق الحتمية التاريخية . والمفارقة واضحة ، وهي تبدو ماثلة في الدعوة الى تجميد هدف يوصف بالحتمية وتحريك هدف آخر يوصف هو بدوره بالحتمية .

وكان الفكر الاقليمي ، في محاولته تجميد قضية الوحدة ووضعها في الثلاجة ، يبرر الامر على انه مراعاة للظروف الموضوعية التي لاتسمح بتحقيق الوحدة لاعتبارات راح يعددها الواحدة تلو الاخرى، وعلى أنه سوف يأتي يوم تتغير فيه الظروف وتسقط

---

(١)ـ لعل أخطر ما في الفكر الصهيوني هو تلك النظرة المبثوثة في كل خلية من خلاياه ، والتي تقوم على فهم التاريخ من خلال الوقائع الملموسة . هذا الفكر الصهيوني لا يكف عن الاعلان بصوت خفيض أحياناً ، وبصوت عالي النبرات أحياناً آخرى ، بأن ارادة الانسان هي التي تصنع التاريخ وتحركه وتوجهه في الاتجاه الذي تريد . يكتب «بن غوريون» عام ١٩١٥ في مقالة له بعنوان : «اقامة الوطن» :« ليس القدر العابث هو الذي يحكم التاريخ ، والحياة أكثر من أن تكون مغامرة تلعبها قوى عمياء ... ما من أمة تحررت عفواً ودون جهد. بل وأكثر من ذلك ، ما من ارض بنيت بناء عفوياً او بقيت لأهلها دون عناء وارادة ، وبلا تعاليم مؤسسيها الأولين» . انظر دراسة محيي الدين صبحي «الأرض والغزو وبن غوريون» ـ مجلة المعرفة ـ ص ٣٧١ ـ العدد ٤٥ ـ آذار .

الاعتبارات التي تمنع تحقيق الوحدة ، وما دام الأمر يدخل في نطاق الحتمية التاريخية ، فلم الاستعجال وعدم التبصر ؟

وبطبيعة الحال ، فان هذا النوع من التحايل اللفظي بحاجة الى فرقة خاصة بالكشف عن الألغام لاماطة اللثام عن حقيقة هذا الفكر الاقليمي المتستر بعباءة التقدمية والمختبىء تحت مظلة الشعارات . غير أن هذا ليس مجاله الآن،وانما الحوار المطلوب الآن هو مع أولئك الذين يؤمنون ايماناً حقيقياً بالوحدة العربية وبضرورتها ليس فقط باعتبارها قضية ماض وتاريخ ، وانما أيضاً باعتبارها قضية مستقبل ومصير . . مع أولئك الذين يملكون هذا الايمان في الوقت الذي تقعدهم فكرة حتمية الوحدة عن العمل من أجلها ، وتقعدهم فكرة ان الوحدة آتية لا ريب فيها ، عن النضال من أجل الاسراع بتحقيقها . ولعل هذا الحوار المطلوب أن يشق قناة واحدة تصب فيها الأفكار ، بعد أن تعددت الاقنية وتنوعت (١) .

وباختصار، فان هناك من يعتقد بحتمية الوحدة العربية كمدخل وحيد الى العصر، غير ان هذه الحتمية يمكن أن تكون مجرد اسقاط على التاريخ ، بمعنى اننا نسقط على

---

(١) ــ من الامراض التي يشكو منها الفكر القومي ، تعدد الاجتهادات وتنوعها. المفكرون القوميون لايتكلمون في الغالب لغة مشتركة، وانما تتعدد لغاتهم بتعدد مصادر ثقافتهم وبتعدد انتماءاتهم،في حين أن الوحدات القومية الكبرى لم تتحقق الا لأن ايديولوجية واحدة كانت تقف وراءها ، وما كانت لتتحقق لولا ان ايديولوجية بعينها كانت الاساس الضابط للموجة القومية . ولعل أخطر مايمكن أن تتعرض له حركة قومية هو أن تتعدد فيها الاصوات الى الحد الذي تخفق معه هذه الحركة في الوصول الى صيغة مشتركة للتفكير والسلوك ، أي الى الحد الذي تفقد معه هذه الحركة هويتها وتضيع ملامحها الاساسية وسط طوفان الافكار ، وتفقد خصائصها التي تؤهلها لان تصنع الوحدة القومية للأمة ... وحركة القومية لاتستطيع أن تسمح بمثل هذا التعدد إلا حين تحقق دولتها وتجد نفسها في كيان سياسي وحضاري يقوى على امتصاص هذا التعدد والتنوع .أي ان التعدد يشكل خطراً حقيقياً حين لا يكون ثمة وعاء يستوعبه ، أو كيان يملك مقدرة امتصاص هذا التعدد وتحويله الى طاقة للتجديد والتغيير بدل أن يكون أداة للانقسام . انظر مقالنا « محنة الفكر القومي » في ملحق « الثورة » الصادر في أعقاب استفتاء ١٢ آذار على منصب رئاسة الجمهورية .

التاريخ رغباتنا الذاتية . وبطبيعة الحال ، فان الايمان بحتمية الوحدة يمكن أن يسهم في تكريسها كحقيقة لا مناص من أن تجد معادلهـا التطبيقي في دولة العرب القومية الواحدة ، غير ان هذا الايمان يمكن ، من جهة ثانية ، أن يستخدم لغير الهدف المتوخى، كأن يقال ، وهذا ما يحدث فعلاً ، انه ما دامت الوحـدة حتمية ، اذن فلنترك امرها للتاريخ . اي ان القول بالحتمية يستخدم عادة على احد وجهين ، وجه يريد تكريس هذا المفهوم بهدف تحويله الى ايمان ثابت بأن الوحدة آتية لا ريب فيها .. ووجه يريد ان يضع هدف الوحدة عند الدرجة الاخـيرة من سلم الاهداف المطلوب تحقيقها . اي انه يطالب بتأجيل النضال الوحدوي ما دامت الوحـدة حتمية ، وما دام التاريخ كفيلاً بتحقيقها . وبالطبع فان هذا المفهوم الاخير للحتمية يلغي دور الانسان الذي يؤثر في التاريخ بقدر ما يتأثر به .

واذا كانت الخبرة العملية قد أبانت عن أن الوحدة العربية لا تقع خارج دائرة النشاط الانساني ، وانما هي تقوم في صلب هذا النشاط ، ولا تتحقق الا به وعن طريقه ، وان التسليم بوجود حتمية تاريخية تخضع لها حركة الوحدة العربية سوف يؤدي في نهاية المطاف الى تجميد هذه الحركة ، وتقطيع أوصالها وشل فاعليتها وتأثيرها ، فلعل ذلك أن يكون بداية لفكر عربي جديد يخرج من جلده القديم ، ويحسم مشكلة تعتبر بحق واحدة من أخطر المشكلات التي يجابهها الفكر العربي المعاصر .

جورج جبور

اقتراح

مطلوب إنشاء مؤسسة لدراسات الوحدة العربية

إلى أنيس صايغ ومركز الأبحاث الفلسطينية :

حين يقترن العلم بالنضال يشق طريقه

آ — تمهيد :

لعلّ خير ما يوضح توجه مايلي من صفحات حادثتان — أو على وجه أدق ادراكان شخصيان لحادثتين — يفصل بينهما مايزيد على عشرين عاماً .

« الحادثة » الاولى هي تلك الدهشة التي استحوذت علي ـ وكنت إذ ذاك في اوائل مرحلة الدراسة الاعدادية ـ حين كنت اقرأ نبذة عن حياة طه حسين عميد الادب العربي لأكتشف انه نال الدكتوراه في الادب العربي من جامعة باريس. شعوري الأول كان شعوراً بعدم التصديق، وبالشك في صحة تلك النبذة التي كنت اقرؤها عن حياة العميد. فهل يعقل أن يكون ثمة في باريس أناس اعرف منا بالادب العربي، وهو منا مانعرف؟ ومنذ ان تحققت من صحة تلك النبذة التي قرأت، جثمت في ذهني اشارة استفهام كبرى، تصمت ولا تغيب: لماذا؟

أما « الحادثة » الثانية فلم تمض عليها الا اسابيع معدودة، يومها كنت قد فرغت، بعد مراجعة حوالي عشرين كتاباً او نحو ذلك ـ من تصنيف سجل متواضع الحجم (حوالي مائة صفحة) عن أهم الأحداث التي شهدها القطر العربي السوري أو اثرت فيه بين عامي ١٩١٨ وحتى نهاية عام ١٩٧١. في ذلك اليوم بالذات وقعت على نشرة دعائية حديثة من احدى دور النشر في أمريكا تعلن بها صدور سبعة مجلدات سجلت فيها اهم الأحداث الدبلوماسية للوطن العربي كله من عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٦٧. مصنّف هذه المجلدات السبعة استاذ امريكي، يوحي اسمه بأنه من أصل يهودي عربي، وقد اقام في اسرائيل لعدة سنوات موظفاً في السفارة البريطانية هناك.

دهشة التلميذ الذي كنته في اوائل الخمسينات من « حادثة » طه حسين أخذت فيما بعد بعداً حزيناً بلغ قمته في هذا الكتاب الجديد الذي وقعت على اعلان عنه: ان الذين « وضعوا يدهم » على أدبنا العربي قد وضعوا يدهم ايضاً على تاريخنا، ليس القديم أو الوسيط، بل الحديث والمعاصر ايضاً.

ان ما يعرفه ويكتبه غير العرب عن العرب هو أضعاف ما يعرفه ويكتبه العرب انفسهم عن انفسهم، وفي كثير من الاحيان يكون مصدر علم العرب عن العرب هو ما ورد ويرد فيما يكتبه غير العرب عنهم. ان الحاجة

ماسة لتعريب العلم بالعرب ، لتعريبه في بلاد العرب أولا وقبل كل شيء .

المؤسسة المقترح انشاؤها في هذه الصفحات ليست كلها وليدة رد فعل عاطفي او سريع لحادثة او حادثتين او عدة حوادث، وليست كلها انتقاماً لكرامة مهدورة يشعر بها كل دارس عربي حين يفاجئه الواقع العلمي المؤلم ، وهو ان عليه ان يعتمد على مصادر الغرب لكي يدرس بني قومه ، وان عليه ان يرتحل الى ديار الغرب لكي يجد مصادره ، ولكي يبحث مع اخصائيي الشرق الاوسط في جامعات الغرب المسائل الفكرية التي تشغل ذهنه ويحصل منهم أيضاً على درجته الجامعية المشهورة بتخصصه في الشرق الاوسط . المؤسسة المقترح انشاؤها لاتخلو بالطبع من الدوافع التي اوردت سابقاً ، ولكنها لاتقتصر على ذلك . ان لها « مداخل » كثيرة ، نذكر اهمها الآن لننتقل بعد ذلك الى تحديد مهمات المؤسسة والى تبيان الشكل التنظيمي والكيفية التي يمكن ان تبدأ وتطور بها عملها ، ثم لنخلص من كل ذلك الى تبيان المعوقات والتوقعات التي قد يثيرها الاقتراح .

ب — مداخل الى المؤسسة المقترحة :

كثيرة هي المداخل التي تقودنا الى التفكير بضرورة ايجاد مؤسسة لدراسات الوحدة العربية . والحق انه كما هي كثيرة — ويومية — المداخل التي تقودنا الى التفكير بضرورة انشاء المؤسسة المقترحة .

ولعل من المفيد — تبسيطاً واختصاراً — ان نتحدث عما يلوح لنا أنه أهم ثلاثة مداخل للموضوع، وسأطلق عليها اسم المدخل القومي، والمدخل الثقافي ، والمدخل القطري العملي المباشر .

١ — المدخل القومي :

من المسلم به في هذا القطر وفي عديد من الأقطار العربية الأخرى ، ولدى كل القوميين العرب اين كانوا ، ان الوحدة العربية ضرورة حياتية كبرى وان القومية العربية حقيقة شاخصة . وقد شغل الفكر السياسي العربي نفسه منذ منتصف القرن التاسع عشر والى الآن بدراسة ظاهرة القوميات وانتهى من بحثه — عموماً — الى الاستحقاق الحصري للقول بوجود قومية عربية والى ان العرب في كل أقطارهم أمة واحدة ،والى ان الشكل الطبيعي للأمة الواحدة هو أن نعيش في دولة واحدة . مشتقات هذه المهمة التي أخذ الفكر السياسي العربي نفسه بها هي البحث في مقومات القومية العربية (اللغة والتاريخ خاصة) وتبيان أثرها والالحاح على أهميتها في مقابل مقومات مضعوفة لقوميات أجمع على أنها مصطنعة (العامل الجغرافي والقوميات الاقليمية ، أو العامل

الديني والدعوات الاسلاميـة ، او عامل اللهجة المحلية والقوميات المحليـة) . واذا كان لنا ان نعلق على هذا النمط من البحث القومي فهو القول بانه انجاز تاريخي هـام ومفيد وضروري، وأنه من جهة أخرى قد استنفد مهامه أو كاد ، لاسيما في أقطار المشرق العربي . هذا القول لا يعني ضرورة « اغلاق » البحث في مقومات القوميـة العربية بقدر ما هو دعوة الى اتخـاذ انجازات البحث في المقومات كمنطلق ، منطلق ننطلق منه الى ريادة نوع من البحث جديد — أو أشبه بالجديد — نوع من البحث لابد منه اذا كنا نريد ان نتحرك في سبيل تحقيق الهدف المعلن وهو الوحدة العربية . هـذا النوع من البحث هو البحث في الكيفية التي تمكننـا من تحقيق الوحدة العربية ، أي الانتقال من مستوى الحكم الأخلاقي (المشتق من بحث مقومات القومية العربية وغير المتعلق بزمان ومكان) الى مستوى الامكانيـة العملية ، (المشتق من بحث الكيفية) .

من الحق الاعتراف بأن بحث الكيفية ليس جديداً بالكليـة من حيث الأساس . مفكرون قوميون كساطع الحصري وزكي الارسوزي وعدد من كتبة الرسائل الجامعية تخيلوا كيفية ما لتحقيق الوحدة العربية . كذلك بحث في هذه الكيفية رجال سياسة ، وبحثت فيها احزاب سياسية في معرض نشاط سياسي (كما في مباحثات الوحدة العربيـة التي أسفرت عن قيام الجامعة ، أو في معرض مشاريـع « وحدة » الهلال الخصيب ، أو في معرض المناقشات بـين عدد من الحركات الثورية المعاصرة) ، ولكن من الحق القول ان أكثر هذا البحث من قبل المفكرين كان قليل المنهجية العلمية من جهة وقليل التأثير على مجرى الاحداث من جهة ثانيـة . أما بحث السياسيين فقد كان في الاغلب — الى جانب افتقاده المنهجية أساساً — سلاحـاً سياسياً ، سهماً سياسياً من مجموعة سهـام تستعمل في ظرف معين ، ان لم يفتقر الى الاخلاص في المدى البعيد ، فقد افتقر اليه في المدى المباشر افتقاراً حرمه من الشرط الأول للبحث ، وهو الجدية .

لن نؤرخ هنا للفكر الوحدوي ولن نوجه اليه النقد التفصيلي؛ اذ ليس لنا هنا الى ذلك حاجة . فالمشكلة التي نطرحها بسيطة سهلة لا ينبغي ان تغيب عن الذهن في متاهـات التقويم واختلافات وجهات النظر .

اذا كنا دعاة وحدة عربية فعلينا ان نبحث الآن كيف يمكن تحقيقها ، علينا ان نركز جهدنا الآن على كيفية امكان اقامـة

الجسر الذي نصعد عليه من الواقع المرفوض الى المستقبل المنشود .

في الدعوة، من مدخل قومي، الى مثل هذا البحث تتوجب ملاحظة ما يلي :

ـ ان الوحـــدة كمهمة قومية يخص واجب وحق البحث في كيفية تحقيقها جميع الثوريين العرب ، ولا يخص فقط جمهرة الحكام وحدهم . هـــذا افتراض اجمعت عليه الأدبيات القوميـة واعتنقته انظمة الحكم الثورية .

ـ سواء كنا من انصار الثورة او الطفرة كأساوب لتحقيق الوحدة العربية ، أو كنا من انصار التدرج والوظيفـــة (Functionalism) فإن الاحاطة بالواقع الموضوعي العربي ـ بمـــا تعني الاحاطة من دراسة وما تعني الدراسة من تجميع وتقويم الوقائع وتقديم البدائل ـ تبقى دائماً متوجبة .

ـ مهما كانت تقويمـــاتنا لنظم الحكم فإن ثمة ظاهرة هامة في العصر الحديث هي اضطرار السياسة الى الارتكاز المتزايد على الدراسة . العصر الحديث قرّب المسافـة بين اجهزة الحكم وبين اجهزة العلم ، فلم يعد بامكان الأولى ان تتجاهل الثانيـة ، وصار من التراث الطوباني المتجاوز تمسك الثانية بما دعي بنظرية العلم للعلم . ان أحد مؤثمرات الحداثة والتطور في دولة ما في هذا العصر هو التعاون بين رجال الحكم ورجال العلم . ولعل هذه النقطة واضحة بما فيه الكفـاية فلا تحتاج الى مزيـد من الشرح .

ـ يتخذ بعض المثقفين من غياب تقاليد راسخة للحرية الفردية وحرية البحث في الوطن العربي حجة لتجنب البحث في القضايا المصيرية الهامة . لن ننفي هنا كل استحقاق هـذه الحجة ، ولكن متابعي مسألة « حرية البحث الاكاديمي » يعرفون دون شك الحدود الكبرى الفعليـة المفروضة على تلك الحرية حتى في اكثر الدول اعلاناً عن تمسكها بتلك الحرية ؛ وأعني بها الولايات المتحدة الامريكية . كذلك فان باحثي الدول الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي لا يرون في تمسكهم بالماركسية – اللينينية قيداً معوقاً للبحث ، بل بالطبع يرون عكس ذلك تماماً . وبوسعي ان اعـدد عشرات الدراسات الموضوعية والملتزمة معاً التي صدرت بالانجليزية والفرنسية عن دار التقدم بموسكو والتي يفاخر

بموضوعيتها – رغم أو بسبب التزامها – أي أكاديمي . ثمة في اعتقادي مجال واسع أمام الباحثين العرب لممارسة حرية البحث القومي بشكل يلوح به التمسك بهذه الحجة ذريعة للكسل غالباً ، اكثر منه شكوى من معوق جدي وسنعود الى مشتقات من هذه الذريعة فيما بعد .

وخلاصة القول في المدخل القومي انه من المحتم علينا قومياً – اذا كنا نؤمن حقاً بالقومية العربية وبضرورة انبثاق الوحدة عنها ، كما نردد ليل نهار – ان ندرس السبل المؤدية الى الوحدة وان نتقدم ببدائل الى الحكام والى الشعب ، بدائل تزداد جديتها بمقدار ما تزداد جدية البحث للوصول اليها .

٢ – المدخل الثقافي :

يجب أن يكون هذا المدخل واضحاً لكل مثقف سواء استوعب او عرف لماماً الاهتمام الدولي بدراسات الشرق الأوسط . ثمة في الولايات المتحدة الآن - حسبما تقول التقارير المتخصصة – حوالي سبعمائة جامعة تعطي كل منها مقررين على الأقل في كل فصل دراسي عن الشرق الأوسط في قسم العلوم السياسية وحده، هما مقرر « النظم السياسية والحكومية في الشرق الأوسط » ، ومقرر « العلاقات الدولية للشرق الأوسط » . من هذه المئات من الجامعات ثمة حوالي مائة تعطي شهادات في الدراسات العليا الشرق الأوسط ، اي درجتي الماجستير والدكتوراه . كذلك يبلغ عدد رسائل الدكتوراه المقدمة سنوياً الى الجامعات الأمريكية عن الشرق الاوسط ما يزيد على مائتي رسالة ، سواء قدمت الى أقسام الشرق الأوسط او الى أقسام العلوم السياسية او التاريخ أو علم الاجتماع او الانسانيات . أغلب هذه الرسائل يعالج مشاكل راهنة تشغل الشرق الاوسط، وأقلها يتجه اتجاهات الاستشراق الكلاسيكية ، اي يتجه الى التراث اللغوي او الأدبي او الديني .

ليس ثمة بين ايدينا تقارير مشابهة عن وضعية دراسات الشرق الأوسط في اقطار اوروبا المختلفة ، ولكن مراجعة تمت بها لفهرس مكتبة جامعة باريس عام ١٩٦٥ أظهرتني على عناوين مئات الدراسات عن القطر العربي السوري ، مقدمة على شكل مذكرات ورسائل جامعية ، اكثر من ثلثها كتبها عرب سوريون – أو غير سوريين . كذلك ثمة دراسات هامة عن الشرق الاوسط تصدر عن مراكز بحوث جدية في دول اوروبا الاشتراكية . ويمكن في هذا الصدد تعداد اكثر من عشرين كتاباً جدياً مكرساً الشؤون العربية صدرت في مدى السنوات العشر الماضية بالانجليزية او الفرنسية عن دول اوروبا الاشتراكية . واذا قلنا ان هذه الكتب صدرت بالانجليزية والفرنسية فذلك

يعني أن ثمة عدداً اكبر بكثير من هذه الدراسات صدر بالروسية او الالمانية او بغيرهما، اي باللغات المحلية في شرقي اوروبا . وليس لدى كاتب هذه الأسطر سبيل مباشر الى معرفتها(١) . ولعل من المفيد الاشارة الى أن أحد أهم الكتب التي صدرت عن التاريخ الاقتصادي للقطر العربي السوري وهو كتاب بدر الدين السباعي : اضواء على الرأسمال الأجنبي في القطر العربي السوري (دمشق ، دار الجماهير ، لا تاريخ النشر) كتب أساساً كرسالة للدكتوراه في جامعة موسكو . وقد ذكر عميد معهد العلوم السياسية في جامعة بودابست لصاحب هذه الأسطر في أيار ١٩٧١ أنه تقدم الى المعهد سنوياً ومنذ عدة سنوات اربع او خمس رسائل للماجستير عن ازمة الشرق الأوسط وعن الوطن العربي باللغة الهنغارية .

حتى في الهند ثمة اخصائيون في الدراسات عن الشرق الأوسط لهم مكانهم المرموق ، ويكفي ان نشير بهذا الصدد الى بحوث الاستاذ م .س. اغواني(٢) في المدرسة الهندية للعلاقات الدولية .

أليس من المدهش في هذا الاقبال العالمي الكبير على دراسات الشرق الاوسط ان يلعب القطر والوطن العربي عموماً دور المتلقي لبعض ماينشر ،وان لايُصَدِّر ، في الاغلب، الا مواد خاماً (بيانات سياسية، خطابات، الخ) تُصَنَّعُ (اي تدرس وتحلل وتقارن) على شكل كتب ودراسات في الخارج — خارج الوطن العربي عموماً — ثم يعاد تصديرها الينا فنكتفي في علمنا بأنفسنا على فضل الترجمة الأمينة أو غير الامينة ، المعلنة او المرتدية رداء التأليف ؟.

والحق ان هذا السؤال يطرح سؤالا من نوع آخر ، ما هي مراكز الثقافة السياسية في الوطن العربي عامة وفي القطر بنوع خاص؟

هذا سؤال صعبة الاجابة عنه ، ولكن الملاحظة تظهر ان معظم ما تتغذى منه الثقافة السياسية عندنا يصدر إما عن دار

---

(١) لم نقف على أي بحث عربي حول وضعية دراسات الشرق الأوسط في الاتحاد السوفييتي . وبالمقابل نشر جاكوب لاندو ، استاذ نظم الحكم العربية في الجامعة العبرية ، عدة مقالات عن ذلك الموضوع في مجلة Middle Eastren Studes اللندنية التي يرأس تحريرها الصهيوني ايلي خدوري (انظر الأعداد : تشرين أول ١٩٧٠ ، أيار ١٩٧١، تشرين اول ١٩٧١).

(٢) الاستاذ أغواني هو صاحب خير أول دراسة بالانجليزية عن حزب البعث صدرت في مجلة Iut'l Studies الهندية عام ١٩٥٩ . وله مؤلفات ممتازة عن أزمة لبنان عام ١٩٥٨ وعدوان حزيران ١٩٦٧ . كذلك له جولات موفقة في دراسة الفكر السياسي العربي التقدمي .

الاهرام – جريدة الاهرام ولا سيا العدد الاسبوعي ومجلتا الطليعة والسياسة الدولية – أو عن دار الطليعة ببيروت ، أو مركز الأبحاث الفلسطينية ببيروت أيضاً . في الدرجة الثانية تأتي دور صحافة اخرى ، كدور الهلال والصياد والنهار ، أو دور النشر الاخرى كدار الحقيقة ودار الآداب ودار المعارف ودار النهضة . في الدرجة الثالثة تأتي صحف ودور نشر محلية تمارس تأثيرها عموماً داخل قطر عربي بذاته ولا تتجاوزه بكثير الى اقطار عربية اخرى .

ويلاحظ مما سبق انه باستثناء مركز الابحاث الفلسطينية التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ليس ثمة بين ما ذكرنا من مراكز للثقافة السياسية أي مركز للبحوث . صحيح ان ثمة معهد الدراسات والبحوث العربية في القاهرة التابع لجامعة الدول العربية والذي انشأه بجد وجهد عظيمين المرحوم ساطع الحصري ، الا أن هذا المعهد من حيث هو تابع للجامعة – ولظروف أخرى ليست كلها خافية – لم ينتج عنه « تيار » في الثقافة السياسية ، وبالتأكيد لايشعر المثقف السياسي العربي أنه قد فاته الكثير فيما اذا لم يتابع نشاطات ذلك المعهد .

كذلك يلاحظ أن مراكز التأثير في الثقافة السياسية اغلبها اما دور نشر او دور صحافة من حيث الاساس بما يعنيه ذلك من نزعة « تجارية » من جهة ومن انعدام فرص المناقشة الكبرى في اجواء تلك الدور للنظر الهادىء فيما يصلح للنشر وما لا يصلح من جهة ثانية .

ويلاحظ اخيراً ان الجامعات العربية كلها تقريباً لم تصبح حتى الآن مراكز اشعاع في الثقافة السياسية العربية الراهنة ويعود ذلك خاصة الى افتقارها للبحوث – وهذا أمر يطول الحديث فيه .

نخلص مما سبق الى القول انه بينما تتدفق الكتب والدراسات الجدية في العالم عن الشرق الأوسط ، تشهد في الوطن العربي عموماً اما ترجمة لبعض ماينشر او تأليفاً سريعاً ليس على مستوى لائق . والحق ان جوهر المفارقة الكبرى هو انه بينما نقدّر ان ثمة في الولايات المتحدة الامريكية وحدها ما لا يقل عن الفي باحث متفرغ فقط لقضايا الشرق الاوسط الراهنة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) يعيشون منها وتعطى لهم الرواتب لتكريس وقتهم لها ، لا نرى نظراء لهؤلاء على اتساع الوطن العربي إلا عدداً محدوداً جداً قد لا يتجاوز عشر

ذلك الرقم في أحسن تقدير . بالاضافة ، لا يعرف هؤلاء الدارسون العرب بعضهم البعض ولا تضمهم رابطة ولا يجمعهم الى انفسهم مؤتمر دوري او ما اشبه .

اذن فان من الواضح، عن طريق المدخل الثقافي ، ضرورة قيام مؤسسة عربية للدراسات العربية ، لكي تثبت أفضليتنا في درس قضايانا ، على الصعيد العربي أولاً ثم على الصعيد العالمي . ولا أشك لحظة في ان كل باحث عربي جدي يشعر بكرامته الثقافية مهدورة حين يرى الاجانب يغيرون على ما يجب ان يكون حقله الاول ، تغذيهم دولهم ومؤسساتهم بينما هو يحارب وحيداً حتى يفل عزمه ، فيقنع بأن يصبح مترجماً لما ينشره نظراؤه في بلدان العالم الاخرى . هل علينا ان نعود الى ساق وفرياق الشدياق — في منتصف القرن التاسع عشر — كي نؤكد « أصالة » المشكلة ؟

٣ ـ المدخل القطري العملي المباشر :

يتمثل هذا المدخل في مشاكل يومية يعرفها المسؤولون : اذا احتاج عمل سياسي ما — فلنقل وضع دستور للقطر — الى النظر في مجموعة وثائق عربية — هي في مثالنا دساتير البلاد العربية ليس الراهنة فقط بل والسابقة أيضاً — فأين نجد هذه المجموعة من الوثائق ؟ ليس ثمة على حد علمي الا مجموعة ديفيس الانجليزية التي تضم دساتير الشرق الاوسط وتنقح دورياً . واذا احتجنا الى النظر في مجموعة وثائق حزب الاستقلال المغربي مثلاً فأين نذهب ؟ الى باريس حيث لا أشك ان حوليات المغرب العربي التي تصدر في فرنسا هي اول ما يتبادر الى الذهن — وتستطيع ان تستدل منها على طريق .

العمل اليومي للدولة في هذا القطر يستلزم معلومات كهذه بين وقت وآخر وليس ثمة من جهة في القطر تستطيع ان تلبي تلك الحاجة . لا نقول ان المؤسسات القائمة في القطر ليست كافية لتلبية تلك الحاجة حتى نخلق مؤسسة جديدة ، ولكنني أقول ان المؤسسات الموجودة لم تقم بذلك الأمر تاريخياً وتجريبياً ، وليس ثمة ما يشير الى انها ستقوم به . من الممكن ذكر عدد من الأجهزة الحكومية والحزبية يقع هذا الأمر في اختصاصها (الواسع) : وزارة الخارجية، الجامعات، الادارة السياسية ، المجلس الاعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وزارة الثقافة (الخ) ، ولكن لكل جهة من هذه الجهات عذراً تقدمه في عدم السير في اتجاه تجميع الوثائق العربية (أو حتى وثائق القطر) . هذا العذر يكتسب « حقيقته » في عدم توفر الميزانية والخبرة وفي أمور أخرى ليس هنا مجال تفصيل القول فيها . ويبقى ان الجامعة

الامريكية في بيروت تقوم الآن بهذه المهمة – على نحو ما ، وبحسب معاييرها الخاصة طبعاً – وذلك في نشرتها : الوثائق العربية السياسية . ولعلنا نذكر ايضاً وأيضاً ان البرنامج الاول لتقويم تطور الفكر العربي في مائة سنة – والذي انتج في هذا القطر ، من جملة ما أنتج ، ثبتاً نافعاً بالمراجع المتداولة عن اقتصاد القطر – انما كان جزءاً من احتفالات الجامعة الامريكية بعيد ميلادها المئوي .

المدخل القطري العملي المباشر – مدخل الاسهام في تسيير العمل اليومي للدولة – يقتضي منا اذن بدوره التفكير بانشاء مؤسسة للدراسات العربية .

ح – ماهي المهمات التي ستقوم بها المؤسسة المقترحة ؟

المهمات التي ستقوم بها المؤسسة المقترحة يمكن استنتاجها من الحاجات التي عبرت عنها المداخل السابقة . وهكذا فان «مهمة» هذا الجزء من المقال الحالي سهلة واوتوماتيكية .

الحد الأدنى من مهمات المؤسسة المقترحة ينبثق من المدخل القطري العملي المباشر ، انه تجميع الوثائق العربية وتصنيفها – ولا تحسبن ان مهمة التجميع والتصنيف مهمة سهلة وانه لايجدر بالاخصائيين في غير شؤون المكتبات القيام بها . فالعلم في أساسه هو التصنيف ، هو تصنيف ، اي ترتيب المعلومات حسب ناظم ما .

الحد الأعلى – وهو المنبثق عن المدخل القومي – يعني اسهاماً فعالاً في تحديد السياسة العربية للقطر او لمجموعة من الاقطار العربية ، بمقدار النفوذ الذي تستطيع المؤسسة تحصيله ، وذلك في مجال توجيه السياسة العربية باتجاه الوحدة . ليس من الضروري لمثل هذا الاسهام ان يكون مباشراً ، بل لعل مجاله الاضمن هو تفتيح الرأي العام على بدائل للعمل الوحدوي . ولا شك ان دراسة الحركات والتجارب التوحيدية في العالم (من البولفاريزمو ، الى لجنة مونيه ، الى الكوميكون) تساعدنا في هذا السبيل .

وثمة مجالات واسعة من المهمات تقع في حين بين الحدين الأدنى والأعلى :

– ثمة الحد الأوسط المنبثق عن المدخل الثقافي ، والمتمثل في أن نختار لأنفسنا مكان الصدارة في الدراسات العربية ، وهو الحقل العلمي المؤهلون لاجتياز مكان الصدارة فيه ، المؤهلون لأن نطور العلم العالمي به .

– ثمة مهمة الرد على التيارات الاعلامية والثقافية المعادية لنا . واليكم هذه الأمثلة :

– كتاب يقظة العرب لجورج انطونيوس

يخضع منذ اوائل الستينات لهجوم مركز يشنه عليه ايلي خدوري وزوجته سيلفيا حاييم (وكلاهما صهيونيان اخصائيان في القومية العربية ، مقيمان في لندن) . محاور الهجوم : عاطفية الكتاب وعدم علميته وجديته أكاديميا ، وبريطانية ولاء مؤلفه[٣] الخ ..

ـ غياب التميز العنصري في الاسلام يتعرض لعملية « اعادة تقييم » كبرى احد ابطالها برنارد لويس . في اختصاص من يدخل « برنامج» الحصول على كتابه الجديد بعنوان الاسلام والعنصر ، والرد عليه ليس بالعربية فقط ؟ [٤] .

ـ اعلانات في صحف الغرب يبدو فيها « بدو النفط » يتلألؤون اشعاعات ذهبية وهم يودعون اموالهم في حسابات سرية بمصارف سويسرا . ولنتذكر ان جهود اللجان المعروفة باسم « لجان مناهضة السامية » ، قد توصلت الى تحريم استعمال الانف الاقنى في الاعلانات للدلالة على الاهتمام بالمال .

ـ وثمة مهمة كتابتنا لتاريخنا ، وهي المهمة التي كتب فيها الكثير .

ـ وثمة مهمة زيادة معرفتنا بأنفسنا معرفة نقدية . واني لأعجب اذ افكر بالصدى الذي يتركه لدى الغرب نشر كتيب احصائي صغير يظهر منه ـ مثلاً ـ ان الأمة العربية أكثر أمم الأرض تمثيلا خارجياً ، فلدينا حالياً ـ تقديراً ـ مايقرب من ستمائة سفير . كذلك لدينا ما يقرب

(٣) في مجلات :

Die Welt de Islam
Middle Eastern Studies
The Muslim World

(ويمكن اعطاء عناوين وتواريخ المقالات لمن يود)

(٤) انظر مثلا ردا على لويس بالعربية نشره عبد الجليل حسن في مجلة الكاتب المصرية (نيسان ١٩٧٢) ، الموجه الى قراء نجزم أن قليلين منهم رأوا بأعينهم تهجمات لويس في مجلة انكاونتر. وانظر ملاحظات لنا على مقال حسن في الكاتب (حزيران ١٩٧) بعنوان« أساسيات من أجل ثقافة عربية منظمة » .

من / ٤٠٠ / وزير راهن وآلاف من الوزراء السابقين تعاقبوا في جيل واحد . ولا تقتصر المعرفة النقدية طبعاً على أمر هذه الاحصاءات الطريفة .

ـ وثمة مهمة الاعداد : مهمة إعداد أجيال من العرب يحيطون بالشؤون العربية ويكرسون انفسهم لها . وانني لأتساءل احياناً : لو كان ثمة في أية عاصمة عربية « كلية » للدراسات العربية ـ للدراسات المجتمع العربي الراهن ـ يتخرج منها مسؤولون عن الاعلام والخارجية والثقافة وغيرها ، أفما كان بامكان هؤلاء الخريجين أن يقوموا بأعباء مسؤولياتهم على نحو احسن مما يقوم به حالياً خريجو الحقوق والآداب ؟

تلك بعض مهمات ليست سهلة التحقيق ، وليس تحقيقها مرهوناً حصراً بانشاء المؤسسة ، ولكن انشاء المؤسسة المقترحة يساهم في تحقيقها على نحو لا شك فيه . يكفي أن نبدأ بالحد الأدنى ، ولن يكون الانجاز متواضعاً حتى لو لم نتجاوز ذلك الحد .

د ـ الشكل التنظيمي وكيفية بدء العمل :

من الممكن تصور أشكال تنظيمية كثيرة للمؤسسة المقترحة . كأن تكون مرتبطة مثلاً بجامعة او وزارة ما ، او كأن تقوم مستقلة عن غيرها ـ وهو الأفضل ـ حتى لا تتعرض لاحتمال أن تنعكس عليها تقاليدُ عملٍ (أو لا عمل) تطورت في مؤسسات اخرى ، تقاليد قد لا تكون المؤسسة المقترحة حاجة اليها .

ومن المهم ان تتصف المؤسسة بالمرونة الادارية والأكاديمية ، وان تولد متحررة من الضيق القطري .

ولعلّ من غير المفيد في البداية أن نحاول وضع صيغة قانونية للمؤسسة حتى لا يستنفد الجهد في « الحذلقات » القانونية . واذا كنا لن نقوم بعملية تقويم للمؤسسات الثقافية في القطر ، ولن نقارن بين ما انعقد عليها من آمال وما تحقق من أفعال ، فان هذا لا يمنع من ملاحظة أن التشريعات التي اوجدت كثيراً من المؤسسات كانت دائماً « اكبر » مما تمّ انجازه فعلاً من قبل المؤسسة المنشأة ، وهذه وضعية تساعد على خلق نوع من أزمة الثقة . أزمة نرجو أن تتجنبها المؤسسة المقترحة .

واذا كان من المسلم به ان إنشاء المؤسسة المقترحة بدعم حكومي سيكون أفضل من انشائها بدونه ، فان من الممكن

- في رأيي - قيام المؤسسة باعمال أولية دون دعم حكومي ، اعمال تثبت بها نفعها ، وتثبت ان لديها تصوراً واضحاً وبرنامجاً يومياً لما ستقوم به .

والحق ان المؤسسة يمكن ان تبتدىء عملها — سواء بدعم حكومي أو بدونه — كما يلي :

١ — وضع قوائم ببيلوغرافية موسعة ومشروحة بالكتب والدراسات الاجنبية والعربية التي صدرت عن الشرق الأوسط.

هذه المهمة ليست صعبة بالنسبة للكتب والدراسات الأجنبية بسبب تقدم نظم الفهرسة والتصنيف الأجنبية . مجلات كمجلة الشرق الأوسط الامريكية وتقارير الرابطة الدولية للعلوم السياسية والمجلة الفرنسية للعلوم السياسية ومجلدات ملخصات الرسائل الجامعية وما أشبه — وكثير منها متوفر في المكتبات الشخصية لعدد من باحثينا وغير متوفر في مكتبات المؤسسات الثقافية في القطر — يصح ان تكون بداية منظمة للعمل . أما الكتب والدراسات العربية فلا بد من القيام بجهد أصيل لتصنيفها . وضع مثل هذه القوائم ونشرها يساعد على توجيه سياسة مكتبة المؤسسة المقترحة في استحصال الكتب وفي وضع اسبقيات الكتب المنوي تحصيلها .

٢ - وضع قوائم ببيلوغرافية بالوثائق العربية المطلوب تحصيلها :

يتم وضع القوائم باستخراجها عموماً من القوائم الاولى . ثم يمكن بدء العمل في تحصيل هذه الوثائق عن طريق طلبها خطياً من مراجعها : كأن تطلب المؤسسة من الجبهة القومية في عدن برسالة بريدية عادية ارسال نسخ عن وثائقها (بياناتها السياسية ، برامجها الخ) . ولا نظن ان نسبة عدم الجواب على مثل هذه الرسائل — لاسيما حين تكتب مفصلة ومستوعبة وتطلب وثائق ومعلومات محددة — سوف تتجاوز النصف .

٣ - نشر دراسات متخصصة دقيقة حول وضعية دراسات الشرق الأوسط في بلدان العالم الكبرى :

وضعية الدراسات عن الشرق الاوسط في امريكا ، واخرى عن وضعية تلك الدراسات في الاتحاد السوفييتي ، وثالثة عن الوضعية في فرنسا وهكذا . مثل هذه الدرات يمكن توزيعها على نطاق واسع ، ويمكن ارسالها الى كل الجهات السياسية والثقافية في الوطن العربي لاذكاء حماستها من جهة ، وللتأكيد على جدية عمل المؤسسة من جهة ثانية .

٤ - وضع قوائم بيوغرافية باسماء اخصائي الشرق الاوسط في العالم مع لمحة عن كتاباتهم ووظائفهم ونشاطاتهم والجهات الممولة لهم واتجاهاتهم السياسية :

هذه ايضاً مهمة ليست صعبة التحقيق بسبب ان كثيراً من مؤسسات دراسات الشرق الاوسط تنشر مثل هذه المعلومات عن اعضائها والنشيطين في صفوفها . كذلك من الممكن بدء وضع قوائم بيوغرافية مشابهة باسماء اخصائي الشرق الاوسط من العرب ، وان كان هذا الأمر يحتاج طبعاً لجهد مضاعف اذ لم تقم اية مؤسسة ثقافية عربية بمثل هذه العملية من قبل .

٥ - تستطيع المؤسسة ان تنطلق في القيام ببحوث أصلية حالما تتوفر لها أول مجموعة كاملة أو شبه كاملة من الوثائق .

مثلاً حين تستطيع المؤسسة وضع يدها على كل أو معظم الدساتير العربية الراهنة يمكن لباحث متخصص أن يكتب - وينشر ويوزع - دراسة خاصة بكيفية تجلي مفهوم الوحدة العربية في هذه الدساتير ، وبالمقارنة بينها في هذا الصدد (١) .

كذلك يمكن ان يتم أمر شبيه بذلك يعتمد البيانات السياسية للاحزاب الحاكمة ، والاخرى غير الحاكمة في الوطن العربي .

٦ - ثم يستطاع التقدم نحو دراسة مقارنة للمفاهيم الكبرى التي تتبناها الأقطار والحركات السياسية العربية مثل مفاهيم الاشتراكية والديموقراطية والحرية والعلمية والعلمانية والعالمية وطبيعة المواجهة ضد الصهيونية والاستعمار . كل هذه الدراسات يمكن توزيعها على نطاق عام أو خاص ، حسب الحال .

٧ - كذلك يمكن التقدم نحو نشر تقارير حول كيفية تغطية القضايا العربية في برامج التعليم العربية :

(١) ما أظن ان كثيرين في المشرق العربي مثلاً يعرفون ان الدستور الجديد للمغرب يبدأ كما يلي :
« المملكة المغربية دولة اسلامية ذات سيادة كاملة ، لغتها الرسمية هي اللغة العربية ، وهي جزء من المغرب الكبير .
وبصفتها دولة افريقية ، فانها تجعل من بين أهدافها تحقيق الوحدة الافريقية » .

ماهو مفهوم القومية العربية الذي يخرج به طالب الدراسة الثانوية في الجزائر ؟ او في السعودية ؟

٨ — ويمكن بعد ذلك التقدم نحو دراسة التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لكل قطر واقليم (امارات الخليج) عربي بعد الاستقلال ، وعلى الاخص دراسة تطور القوى المنتجة في هذه الاقطار والاقاليم ، تلك القوى التي يراها الكثيرون صاحبة المصلحة في الوحدة والقادرة على تحقيقها .

مثل هذا البرنامج الاولي ليس بالسهل ، وتستغرق تغطية بنوده — حتى الانتهاء من الخامس منها — مالايقل عن السنة اذا مارس العمل حالا فريق لايقل مثلا عن خمسة اخصائيين . اما تغطية بقية ماذكرنا من البرنامج ، من البند السادس ومابعد ، فأمر مؤجل حالياً والى مابعد تحقيق البنود الأولى ، كما ان تطوير البرنامج بتغييره او تغيير اولوياته هو من حيث الاساس واجب وصلاحية المؤسسة بعد ان تقف على قدميها .

واذا قلنا ان تنفيذ البنود الخمسة الاولى من هذا البرنامج ليس بالامر السهل ، فان من الحق أيضاً ان نقول انه ليس بالامر المتعذر أو بالغ الصعوبة . وربما كان بامكاننا ان تزود صفحات هذه المجلة « المعرفة » بعد بضعة اشهر بقائمة بيبلوغرافية مفصلة عن الدراسات المنشورة باللغتين الانجليزية والفرنسية عن مفهوم القومية العربية .

ﻫ — معوقات وتوقعات :

المعوق الاول والاساسي هي تلك النظرة التي ترى انه ليس بالامكان ابدع مما كان . وتتفرع عن هذه النظرة جملة حجج كما يلي :

ـ ان ماستقوم به المؤسسة المقترحة متضمن في تشريعات منشئة لعدة مؤسسات . تجميع الوثائق مهمة عدد من المؤسسات في وزارات عديدة ، كذلك فان تنشيط الدراسات العربية والرد على الاتجاهات الثقافية المعادية للعرب مهمة لكل الوزارات الثقافية (بما فيها ايضاً الخارجية والاعلام) ومؤسساتها . اما العمل الوحدوي فهو مهمة المواطن والجماهير ومنظماتها .

الرد على هذه الحجة ليس صعباً ، فواقع الامر يشهد ان الجهود المبذولة في تجميع الوثائق — على الرغم من اهميتها — لم تعط ثمارها المرجوة ، وليس لها توجه عربي واضح وتقتصر في الغالب على ارشفة ماهو يسير التناول من مصادر ، كالصحف . أما الدراسات العربية فمن الواضح شبه انعدامها وانعدام متطلبها الاول وهو متابعتها من قبل

كل الوزارات الثقافية . أما ان العمل الوحدوي مهمة الجميع فهذا لايتنافى مع الوضع الخاص للدارسين ، والاسهام الخاص الذي يستطيع ان يأتي به هؤلاء ليس بالامر الذي يمكن المرور به سريعاً . وفي الحقيقة ان انصار هذه الحجة يصلون بالنتيجة الى « تأجيل » المؤسسة المقترحة عن طريق توجيه الاهتمام الى « اصلاح » الاجهزة الموجودة ، فتصبح القضية قضية القضاء على الروتين وقضية اعادة تنشيط الاجهزة الموجودة لتأخذ حجمها الذي كان مطلوبا منها في الاصل ، ولكن هذه القضية – كما هو معلوم – اصعب بكثير وتحتمل وقتاً اطول بكثير من انشاء مؤسسة جديدة بدم جديد.

— ان من المستحيل في قطر له توجه ثوري خاص تجميع وثائق و كتب ونشر دراسات تخالف ذلك التوجه من قريب أو بعيد .

هذه الحجة ترتدي عموماً طابع المبالغة . ولعلنا لانخطىء اذا قلنا ان المثقفين العرب – عموماً – كانوا اقسى في الرقابة على انفسهم مما كانته عليهم اجهزة الدولة . ليس مطلوبا من شخص ما – بالطبع – ان يكون غاليله جديداً ، ولكنه مطلوب من المثقف ان يكون واثقاً بثقافته الى الحد الذي يدافع به عن آرائه ، فلا يهجرها مجانا دون وقبل أن يعبر عنها ، لقاء مكاسب سريعة او اتقاء لشرور متوهمة أكثر الاحيان ، وليس مطلوبا منه ان يبارك دائماً ممارسات ثقافية يعلم هو في قرارة نفسه انها غير مجدية .

والحق ان كون المؤسسة المقترحة مؤسسة لدراسات الوحدة ، وهي الهدف المجمع عليه لدى الجميع ، يسهل اجتياز هذه العقبات التي يتذرع بها البعض .

— ثمة قناعة لدى كثيرين من مثقفينا – لاتقال جهاراً اكثر الاحيان – وهي اننا دون المستوى الثقافي لاخصائيي الشرق الاوسط في العالم ، واننا لايمكن ان نرتفع الى المستوى العالمي ، اي الى مستوى « اساتذتنا » في الغرب . الشق الاول من هذه القناعة صحيح كتعبير عن واقع ، اما الشق الثاني – وهو اكثر مايكون انتشاراً لدى اؤلئك الذين مضت على قدومهم من « ديار الغربة والعلم » مدة طويلة – فينبغي ان يقود الى العمل لا الى الاستكانة. أهم سبب لهذه القناعة – في رأيي – هو تضخم الشعور بالتلمذة على الغرب لدى كثير من المثقفين . ان كثيراً من مثقفينا قنعوا من اساتذتهم بنيل الشهادة ، ولم يمارسوا التدريس في الجامعات الاجنبية ، ولم يشتركوا في مؤتمرات علمية يثبتون بها كاندادلاساتذتهم

ويبرهنون بها لانفسهم – قبل أي احد – انهم تجاوزوا مرحلة التلمذة. وبمقدار مايقل احتكاكهم اليومي بمصادر شهاداتهم بعد عودتهم الى وطنهم بمقدار مايتأصل فيهم شعور بأنهم يستطيعون ان يكونوا اساتيذ هنا ، لاهناك ، وانهم بذلك لايمكن لهم ان يطمحوا الى ممارسة تأثير عالمي .

ومن الطريف ان هذا الشعور بالتلمذة يعبر عن نفسه اكثر الاحيان باسم «الموضوعية» أي التواضع لعلم الغرب . فاذا بحث استاذ اجنبي في الادب العربي ووجد في تعلق العرب به « سر » تخلفهم ، وصاغ تلك النتيجة في قالب « موضوعي » ، سادنا شعور غريب بأن الموضوعية تعني ادانة الادب العربي ، ادانة أثبتها « العلم ».

وتتفق عن هذا النوع من التفكير « نظريات » عالية الوقع من مثل ان العالم الاجتماعي همه العلم وليس السياسة (أي تغيير المجتمع) ، وان من الواجب ان نحافظ على اصالة العالم ، وتمسكه بالعلم لوجه العلم . ويغيب عن بالنا – في هذا النوع من التفكير – أن واقع الأمر في اكاديميات الغرب البورجوازي والشرق الاشتراكي هو خلاف ذلك ، وان مؤسسات دراسات الشرق الاوسط (وليس فقط تلك المؤسسات) في العالم نشأت ومازال في احضان الحكومات ولأغراض عملية وسياسية .

يكفينا هنا هذا القدر من تتبع الحجج المفترضة لاصحاب نظرة انه ليس بالامكان ابدع مما كان ، ومن الرد على تلك الحجج . وعلينا على كل حال ان نشير الى معوقين آخرين اكثر جدية مما ذكر وان كانا لايثاران جديا اكثر الاحيان .

ــ المعوق الاول هو اختلاف ثقافات الباحثين العرب باختلاف مصادر ثقافاتهم وعجز كل فريق من هؤلاء الباحثين حتى الآن عن استيعاب اهتمامات ووجهات نظر الفريق الآخر . بعض الباحثين العرب درسوا في امريكا وغيرهم في فرنسا وغيرهم في الاتحاد السوفييتي (الخ). لكل فريق من هؤلاء « ابطاله » العلميون وهو لايعرف شيئاً عن ابطال زملائه . في حقل دراسات التغيير الاجتماعي – الاقتصادي ثمة منا من تتلمذ على ريمون ارون أو على غالبريت وعلى كولمان ، وثمة من تتلمذ على اوليانوفسكي وعلى راتمان . في حقل القانون الدولي منا من يحارب بنظريات كلسن واوبنهايم وشارل روسو وماكدونال ، وثمة منا من يحارب بنظريات تونكين وبوربوف واوشاكوف . كل فريق لايعرف « ابطال » الفريق الآخر ولايعترف بهم ، فكيف يعترف «بتلاميذهم»، ثم كيف يمكن ان يتعاون مع هؤلاء التلاميذ؟

لن اقترح بالطبع حلولا لهذه المشكلة في في هذا المكان ، ولايغيب عن ذهني ان هذا

الاختلاف يمكن ان يصبح مجال غنى ثقافي. ما ألح عليه هو ان علينا – في هذه المرحلة من تطورنا الثقافي – ان نحاول جديا استيعاب التقاليد الثقافية لكل فريق ، والمجال المفضل لذلك هو اهتمامنا بالدراسات العربية اهتمام الواثق بقدرته لا اهتمام التلميذ بالبرهنة على صحة النظرية لاستاذه .

– المعوق الثاني هو معوق القطرية او البلقنة : ان واقع التجزئة المخيف قد انعكس على الثقافة – والثقافة السياسية خاصة – التي كانت دائماً احد أهم مقومات القومية العربية . ومن المؤلم ان المثقفين السياسيين العرب يلتقون اكثر الاحيان في بلاد اجنبية وعلى صفحات المجلات الاجنبية وفي الجامعات الاجنبية وعن طريق الهيئات المهنية الاجنبية حتى اذا عادوا الى بلادهم فقدوا اقنية الاتصال ، كلها او معظمها ، ولم تعوضهم عنها الا قليلا اقنية الاتصال العربية .

ومن هنا يصبح بالغ الأهمية استقطاب المثقفين السياسيين العرب في نطاق مؤسسة عربية لدراسة الوحدة . ايجاد بعد قومي للمؤسسة المقترحة ، وانماؤه ، يصبح هو نفسه عملا توحيديا من الطراز الأول .

ربما طال حديث المعوقات ، مع انه لم يستنفد . ولعل من المناسب موازنته بحديث التوقعات ذات المدى البعيد والقريب :

– ففي المدى البعيد ليس ثمة من شك في انه ستقوم لدينا مؤسسات للدراسات العربية على الاقل جريا على سنة التطور مها كان بطيئاً ومتردداً ، واستجابة لمشورات « الخبراء » العالميين (من الامم المتحدة) الذين نطلب مشورتهم والذين – فلنلاحظ بأسى او بدون عواطف – كانوا وراء انشاء كثير من المؤسسات العربية (الاقليمية) المهنية كمركز النظائر المشعة في القاهرة ، ومركز التدريب التربوي في مرس الليان .

– وفي المدى البعيد لابد الا ان نكتشف عدم امكان استمرارنا في أخذ علمنا بأنفسنا عن غيرنا ، وفي مناقشة قضايانا المصيرية خارج وطننا في ندوات تعقد باوروبا وامريكا .

– وفي المدى البعيد لابد الا ان ننتبه الى ضرورة تطبيق الشعار المطروح دائماً من ان العلم عليه واجب تبين سبل التنمية والتكامل العربيين ، أي واجب المشاركة في المصير ، وصنع القرار السياسي عن طريق تقديم عناصره .

أما على المدى القريب فلا أشك لحظة في أن مايجري تنفيذه ، بعد فشل مؤتمر الرباط من تقارب وحدوي (ميثاق طرابلس ، ثم اتحاد الجمهوريات العربية ، ثم اعلان الوحدة كاملة بين الجمهوريتين العربيتين المصرية والليبية) سوف يكشف – تجريبياً

على الاقل — الحاجة الى قيام مؤسسة ما تكرس وقتها لدراسات الوحدة العربية .

فهل يمكننا ان نسارع الآن بعقد ندوة عربية — عربية فعلا تضم دارسين من كل الاقطار العربية — موضوعها هو ذلك الموضوع الذي يشغل كل عربي مهما كان موقعه السياسي ، أي موضوع، سبل الوحدة العربية ؟

وفي الختام : لابد من التأكيد على اننا لانظن ان أحداً لايشاركنا في وجاهة المداخل التي رأينا فيها دعوة الى ضرورة انشاء مؤسسة لدراسات الوحدة العربية . قد يكون ثمة خلاف في تحديد المداخل بالشكل الذي حددت به ، وفي ترتيبها في سلم الاولويات ، كما انه ليس ثمة من شك في ان كثيرين ستكون لديهم تحفظات جدية — ورفض كلي — ازاء بعض ماورد اعلاه من افتراضات كبرى ، وتصورات مخالفة لاسلوب انشاء هذه المؤسسة المقترحة .

فاذا أثار هذا المقال شعوراً بجدية المبررات أمكن ، بالنقاش ، التوصل الى تصور عملي مشترك .

القومية العربية: إيديولوجية تقدمية

القومية العربية
ايديولوجية تقدمية ١

جلال فاروق الشريف

الوحدة العربية والتحديات الراهنة

ثمة مفارقة أساسية تكشف عنها الظروف الراهنة لمجمل النضال العربي وتكاد أن تكون تعبيراً عن مأزق تاريخي يمر بـه هذا النضال ، هذه المفارقة هي أنـه بمقدار ما تفرض الشروط الموضوعية الراهنة للتحديات الخطيرة التي يواجهها النضال العربي في هذه المرحلة ، أن تكون الوحدة العربية هي الرد الحاسم على هذه التحديات ، فان هذه الشروط الموضوعية نفسها ، تجعل الوحدة العربية في هذه المرحلة بالذات الهدف الأبعد عن التحقق من أهداف القضية العربية .

فلئن استطاعت حركة التحرر الوطني العربية بمختلف فصائلها خلال السنوات العشرين الأخيرة أن تحقق مكاسب هامة على طريق الاستقلال الوطني والتحرر من الاحتلال الأجنبي والنفوذ الاستعماري ، وأن تنجز تحولات لا تقل أهمية على طريق التقدم الاقتصادي – الاجتماعي في بعض الأقطار العربية ، فانها على طريق الوحدة العربية لم تحرز اي تقدم مماثل .

لقد كان من أبرز ما كشفت عنه الممارسات النضالية لحركة التحرر الوطني العربية هو تلك العلاقة الجدلية بين أهداف الوحدة العربية والحرية والاشتراكية . وكانت وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية محاولة لدفع هذه العلاقة الى مرحلة اكثر تقدماً . غير أن هذه العلاقة قد تعطلت منذ ذلك التاريخ . وفي ضوء هذه الواقعة الأساسية يمكن تفسير النكسة التي أصابت حركة التحرر الوطني العربية وأدت الى تشتتها الى نضالات متفرقة، وعجزها عن مواجهة التحديات الخطيرة المفروضة عليها ، فهذه التحديات مهما كانت كبيرة ، ليست موضوعياً أكبر حجماً من الامكانات الثورية للجماهير العربية وللوطن العربي . أو على الأقل ليست هذه الامكانات مجتمعة ، لجماهير العربية والوطن العربي ، بأقل من الامكانات النضالية للشعوب الاخرى الصامدة في وجه الامبريالية العالمية . وان واقعة تعطل العلاقة الجدلية بين أهداف الوحدة العربية والحرية والاشتراكية هي التي تجعل من هذه الامكانات أضعف من التحديات التي تواجهها .

ولئن كانت جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية تحمل بصورة مشتركة مسؤولية تعطل هذه العلاقة ، فان هذا لا ينفي الأسباب الموضوعية التي أدت الى ذلك. وبالمقابل ، فان جميع فصائل حركة التحرر الوطني اذا كانت مسؤولة عن إعادة العلاقة الجدلية بين أهداف القضية العربية الى حركتها، أي الى التقدم على طريق العمل الوحدوي، فان هذا يوجب في الوقت نفسه ممارسة النضال الجاد من أجل توفير ظروف موضوعية أكثر ملاءمة للعمل الوحدوي .

... ان هذا كله هو منطلق هذه الدراسة لأنه حصيلة محاولة استقراء الوضع الراهن للواقع العربي في ضوء مسيرته خلال السنوات العشرين الاخيرة .

- ١ -

تواجه حركة التحرر الوطني العربية منذ الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ تحديات خطيرة لم يسبق لها أن واجهت مثلها في تاريخ نضالها الطويل الذي يمتد الى اكثر

من نصف قرن . ومرور أكثر من خمس سنوات على حرب حزيران لم يخفف من حدة هذه التحديات ، بل ان الظواهر كلها تشير الى أن هذه التحديات ما برحت تتصاعد وتزداد حدة حتى بلغت في الفترة الراهنة أوجاً لم تبلغه من قبل . وتتمثل هذه التحديات بصورة رئيسية في شقين ، الأول هو تصميم المعتدين الاسرائيليين وحلفائهم الامبرياليين الاميركيين على تصفية القضية الفلسطينية نهائياً والاحتفاظ بالأراضي المحتلة بعد الخامس من حزيران . والثاني هو محاولة قمع حركة التحرر الوطني العربية بجميع طلائعها وفصائلها على امتداد الوطن العربي كله والبطش بها وتصفيتها بمختلف الأشكال والوسائل بما في ذلك المجازر الجماعية والتصفيات الجسدية الفردية. وتتحالف مع المعتدين الاسرائيليين والامبرياليين الاميركيين قوى الثورة المضادة التي برزت بعد الخامس من حزيران وأخذت تلعب دوراً متزايد الشراسة ضد حركة التحرر الوطني العربية بجميع فصائلها حتى ليمكن القول ان الامبرياليين الاميركيين والمعتدين الاسرائيليين المتحالفين مع قوى الثورة المضادة في الوطن العربي ، أخذوا ينقلون المعركة الى ارض حركة التحرر الوطني العربية نفسها في العديد من الأقطار العربية بدءاً من مجازر ايلول الأسود في الاردن عام ١٩٧٠. ان انتعاش قوى الثورة المضادة في الوطن العربي وانتقالها الى مرحلة الهجوم على قوى التحرر الوطني يمكن أن يعتبر من أبرز سمات المرحلة الراهنة .

على هذا الأساس يمكن القول ان حركة التحرر الوطني العربية التي نمت منذ عام ١٩٥٥ وخاضت سلسلة من المعارك الفاصلة الناجحة ضد الامبريالية الأميركية ومواقع النفوذ الاستعماري في أجزاء عديدة من الوطن العربي وبخاصة في سورية ومصر بدأت تواجه منذ الخامس من حزيران هجمة استعمارية شرسة مستمرة على جميع الجبهات ، أداتها الرئيسية في الشرق العربي هي اسرائيل وقوى الثورة المضادة في جميع أرجاء الوطن العربي ، وان حركة التحرر الوطني العربية انتقلت منذ انفصال ايلول عام ١٩٦١ وسقوط دولة الوحدة بين مصر وسورية الى مرحلة الدفاع وانها منذ حزيران ١٩٦٧ دخلت مرحلة التراجع .

ولا تنفرد حركة التحرر الوطني العربية بهذا الموقف. فهذه الهجمة الشرسة على وطننا جزء من مخطط اميركي عالمي يستهدف وقف حركة التحرر الوطني التي شملت معظم بلدان العالم الثالث وأخذت توجه تهديدات حاسمة لمصالح الامبريالية العالمية ومواقع

نفوذها . وقد استطاعت هذه الهجمة الامبريالية في السنوات العشر الأخيرة أن تصفي العديد من حركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية وسط حمامات دموية رهيبة ، مستخدمة في ذلك جميع الوسائل المتاحة بما في ذلك التدخل المسلح ضد الأنظمة الوطنية والتقدمية وتنظيم الثورات المضادة ودعم الأنظمة العميلة والرجعية واستخدامها كأداة ضد الأنظمة المتحررة .

وعلى الرغم من أن حركة التحرر الوطني العربية كانت في رأس اللائحة السوداء لحركات الوطنية التي وضعتها الامبريالية الاميركية برسم التصفية ، وعلى الرغم من أن هذه التصفية وضعت برسم التنفيذ منذ بضع سنوات ، وتم بالفعل الفتك بعدد من فصائلها ، فان حركة التحرر الوطني العربية رغم وقوفها موقف المدافع أمام هذه الهجمة الامبريالية الشرسة ، ورغم التراجعات التي أصابتها أمام ضغط هذه الهجمة في بعض المناطق العربية ، فانها في قطرين أساسيين من أقطارها التقدمية الواقعة على خط المواجهة العسكرية المباشرة مع الامبريالية الاميركية ممثلة في دولة المعتدين الاسرائيليين ، ماتزال صامدة تحاول مواجهة التحديات ، وانه على صمود هذين القطرين يتوقف الى حد بعيد مصير حركة التحرر الوطني العربية كلها . ذلك أنها بدرجة التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي حققاها ، وبالتاريخ النضالي لحركة التحرر الوطني فيها اللذي واجه تحديات شرسة ومؤامرات خطيرة واعتداءات مسلحة بخاصة في السنوات العشرين الأخيرة ، أي بما يمثلانه من ثقل كمي ونوعي في حركة التحرر الوطني العربية المعادية للاستعمار وذات الآفاق الاشتراكية ، هما بمثابة القلب من حركة التحرر الوطني العربية . وكما أن انتصاراتها في السنوات العشرين الأخيرة كانت بمثابة المفتاح لانتصارات فصائل التحرر الوطني في الأقطار العربية الأخرى على امتداد الوطن العربي كله ، في قلبه وأطرافه ، فان تزعزع صمودها سيكون بمثابة مفتاح لتشتت قوى حركة التحرر العربية وخروجها الى أمد طويل من ساحة الصراع ضد الامبريالية العالمية الذي تخوضه حركة التحرر العالمي . ان انتصار الامبريالية الاميركية على حركة التحرر العربية في هجمتها الشرسة الراهنة لن يكون ضربة لحق الشعب العربي في الحياة والتحرر والتقدم فحسب ، وإنما لحركة التحرر العالمية كلها ولجميع القوى المعادية للامبريالية العالمية .

— ٢ —

على الرغم من مرور أكثر من ٥ سنوات على حرب حزيران عام ١٩٦٧ وعلى كل ما عقد من آمال بعد ذلك التاريخ وخلال هذه السنوات الخمس على تحرير

الأرض المحتلة، فان أية نتائج ايجابية لم تتحقق . فالتحديات ما تزال قائمة ومستمرة وتزداد شراسة . والمعركة في بعض الاقطار العربية انتقلت الى ساحتها الداخلية بفعل الثورة المضادة. وليس ثمة أية مؤشرات على ان تصفية آثار العدوان وشيكة في مستقبل منظور . وان حالة «اللاسلم واللاحرب» التي أصبحت تطلق على المرحلة الراهنة تؤكد ان حركة التحرر الوطني العربية تكاد تكون في مأزق لا مخرج لها منه في الوقت الحاضر على الأقل .

كان المطلوب منذ حزيران عام ١٩٦٧ على الأقل ، أن تجري على ضوء نتائجه مراجعة شاملة جادة لميزان حسابات النضال العربي لا لمعرفة من هو المخاطب في حزيران وتحديد المسؤوليات فحسب بالنسبة الى جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية كل على أساس الموقع الذي هو فيه ، وانما أيضاً لاعادة تقييم الموقف كله ومن الأساس . ولقد جرت بالفعل أكثر من مراجعة واحدة ، وعلى الرغم من أن هذه المراجعات تمت في السر وفي العلن وكانت لها نتائجها الملموسة على أصعدة مختلفة ، الا أن استمرار مناخ حزيران الذي تعبّر عنه صيغة «لا سلم ولا حرب» وبقاء نتائج العدوان قائمة رغم مرور أكثر من خمس سنوات ، يقدم دليلاً لا يدحض على أن هذه المراجعات لم تعط أية نتائج عملية . وما لم تجر مراجعة جذرية في مناخ من الشعور الكامل بالمسؤولية التاريخية عن وجود حركة التحرر الوطني العربية ومصيرها الى أجيال عديدة، لن يتاح للنضال العربي أن يدخل مرحلة تحول حاسمة تضعه على مستوى التحديات التي تواجهه .

ان جوهر هذه المراجعة يجب أن يتم في ضوء ادراك كامل مسؤول للعلاقة الجدلية بين الأهداف الأساسية المتلاحمة لهذا النضال المتمثلة في الوحدة والحرية والاشتراكية وبين المعطيات الرئيسية للظروف الموضوعية التي يجري ضمنها هذا النضال . وهذه المعطيات هي :

— الوضع الراهن للنضال العالمي ضد الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية .

— الظروف الموضوعيـــة للتطور الاقتصادي ـ الاجتماعي للمجتمعات العربية التي يمارس من خلالها النضال العربي .

ـ واقع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وممارساتها وآفاقها النضالية.

ان استعراض هذه المعطيات ليس مسألة يسيرة فضلا عن أنه ليس هدف هذه الدراسة . الا أنه لابد مع ذلك من محاولة القاء بعض الأضواء عليها .

-٣-

تواجه حركة النضال العالمي ، من أجل التحرر والتقدم منذ مطلع الستينيات ، كما سبقت الاشارة الى ذلك هجمة امبريالية شرسة بقيادة الولايات المتحدة الاميركية تستهدف تصفية حركات التحرر الوطني التي نمت وتعاظم نضالها في الخمسينيات في بلدان العالم الثالث . ويمكن التاريخ لبدء هذه الهجمة بمعركة خليج الخنازير التي استهدفت تصفية الثورة الكوبية وبحادثة خليج « تونكين » التي كانت بداية التدخل الاميركي ضد جمهورية فيتنام الديموقراطية . أما بالنسبة الى حركة التحرر الوطني العربية فيمكن اعتبار انفصال وحدة مصر وسورية في أيلول ١٩٦١ بداية لهذه الهجمة .

لقد ظهرت الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب العالمية الثانية كوريث للنظام الاستعماري القديم وكقائد لمعسكر الامبريالية العالمية . وعلى الرغم من مرور أكثر من خمسين عاما على قيام ثورة اكتوبر وتأسيس أول دولة اشتراكية في العالم ، ومن مرور أكثر من خمسة وعشرين عاماً على ظهور الأسرة الاشتراكية ، وعلى الرغم من تعاظم النضال العالمي من أجل التحرر والتقدم . .على الرغم من هذا كله فان الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ما تزال تسيطر على أكثر من نصف الكرة الأرضية وتنهب موارده لاسيما بلدان العالم الثالث . ومن أجل المحافظة على سيطرتها ترتكب الامبريالية العالمية أبشع الجرائم ضد الشعوب المكافحة للتحرر والتقدم ولا تتورع عن العدوان المسلح على هذه الشعوب والتآمر عليها بمختلف الوسائل والأساليب وتقدم حرب فيتنام صورة صارخة لهذا كله . وتضع الامبريالية العالمية وبخاصة الولايات المتحدة الاميركية تقدمها التكنولوجي في خدمة أهدافها العدوانية وتزداد مخططاتها شراسة حتى لتكاد لا تجد قوة رادعة تقف في وجهها . واستناداً الى الاحصاءات العالمية الموثوقة فان النهب الاميركي للعالم كله وفي مقدمته بلدان العالم الثالث لم يتناقص بل هو في تزايد مستمر وان هوة كبرى قد لا تعبر أبداً تقوم بين الدول الامبريالية المتقدمة الغنيةودول العالم المتخلفة الفقيرة . ان كل مظاهر الاستقلال السياسي وظهور الدول الجديدةالناشئة

وتعاظم نضال الشعوب لم يؤثر في جوهر علاقات النهب والاستغلال التي تمارسها الامبريالية العالمية .

ان هذا يعني أن الخصم الرئيسي لحرية الشعوب وتقدمها الحقيقي ما يزال هو الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية.وأن أية استراتيجية للتحرر الوطني والتقدم لأي شعب من الشعوب وعند أية حركة من حركات التحرر الوطني لا تضع نصب عينيها أن التناقض الرئيسي في عالمنا المعاصر هو بين الامبريالية العالمية والولايات المتحدة الامريكية من جهة ، وبين جميع الشعوب المتطلعة الى التحرر والمعادية للامبريالية من جهة أخرى ، لا يمكن أن تكون الا مصابة بالعمى السياسي .

ويترتب على تقرير هذه المعطاة الأساسية في الاستراتيجية النضالية لأية حركة من حركات التحرر الوطني نتائج بالغة الخطورة يمكن اجمالها في الضرورات التالية :

١ ــ تحالف جميع حركات التحرر الوطني في العالم كله للوقوف في وجه الامبريالية العالمية ، تحالفاً فعالاً على أسس استراتيجية ثابتة .

٢ ــ تضامن حركات التحرر الوطني مع الدول المعادية للامبريالية وفي مقدمتها دول الاسرة الاشتراكية .

٣ ــ اعطاء التحرر الذي حققته البلدان الحديثة الاستقلال مضمونه الاقتصادي وانهاء علاقات النهب الامبريالي بالخروج من السوق الرأسمالية ، وبناء اقتصاد وطني والتطلع الى آفاق اشتراكية .

٤ ــ تعزيز روح التضامن الاممي بين الشعوب المضطهدة والدول المعادية للامبريالية وعزل جميع القوى في الداخل المرتبطة بالامبريالية العالمية وتصفية هذه القوى نهائياً .

ان هذه المعطاة الأساسية كانت وستظل الى أمد طويل حجر الزاوية في استراتيجية أية حركة من حركات التحرر الوطني في العالم كله . والانتصارات الهامة التي حققتها حركة التحرر الوطني العربية في الخمسينيات ترجع الى انها اكتشفت هذه الحقيقة من خلال ممارسة النضال الوطني ضد الاستعمار والامبريالية العالمية ، ووضعها موضع التنفيذ بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية وبقيادة ثورة ٢٣ يوليو في

مصر . وقد جسد مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ تحالف حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا،ومثل التعاون الاقتصادي والسياسي والعسكري مع الاتحاد السوفياتي التضامن بين هذه الحركات وبلدان الأسرة الاشتراكية . وأعطى هذا كله حركة التحرر الوطني العربية انطلاقتها في الخمسينيات ورفعها الى مصاف حركات التحرر الكبرى المعاصرة وأتاح لها أن تحبط حلف بغداد عام ١٩٥٥ وتحبط العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وتلحق الفشل بمبدأ ايزنهاور عام ١٩٥٧ وان تحقق أول خطوة وحدوية في تاريخ النضال العربي المعاصر عام ١٩٥٨ باقامة وحدة مصر وسورية، وان تصفي من الداخل القوى السياسية المرتبطة بالامبريالية وان تقضي في ١٩٦١ على مرتكزاتها الاقتصادية بانجاز الاصلاح الزراعي وبتأميم المنشآت الصناعية . ان هذا كله حوّل حركة التحرر الوطني العربية في مصر وسورية الى ركيزة أساسية للتحرر في جميع الاقطار العربية ومهد لانتصارات لاحقة حققتها على الرجعية والاستعمار والامبريالية بخاصة في العراق والجزائر واليمن .

ان الدرس الأساسي الذي تعطيه التجربة النضالية في الخمسينيات لحركة التحرر الوطني العربية ولجميع حركات التحرر الوطني في العالم هو انه مالم تصفَّ المرتكزات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الداخل للرجعية والاستعمار والامبريالية ، ومالم تتحالف مع حركات التحرر الوطني في العالم، وما لم تتضامن مع الدول المعادية للاستعمار والامبريالية وفي مقدمتها البلدان الاشتراكية ، فانه لا يتوقع لحركات التحرر الوطني عمراً مديداً وانتصارات أساسية على اعدائها . وهذا الدرس لم يستخلص من ظروف تجربة نضالية مرحلية وانما هو معطاة أساسية في صلب الاستراتيجية العامة للنضال الوطني لحركات التحرر في العالم كله. انه توكيد على علاقة جدلية موضوعية بين النضال الوطني وبين النضال العام العالمي ضد الرجعية والاستعمار والامبريالية العالمية وكل ما يمثله تحالف هذه القوى المعادية لتحرر الشعوب وتقدمها. فالنضال الوطني يتعزز بمقدار ارتباطه بالنضال العالمي، والنضال العالمي بدوره يترسخ بمقدار انتصار النضال الوطني، وان قطع هذه العلاقة الجدلية بين النضالين كان وما زال هدف جميع القوى المعادية للشعوب.

يعتبر انفصال ايلول عام ١٩٦١ بداية للهجمة الامبريالية الراهنة على حركة التحرر الوطني العربية . وحرب حزيران ١٩٦٧ تمثل مرحلة عليا من مراحل هذه الهجمة الامبريالية . ان أي تقييم لأهداف الانفصال على غير هذا الأساس خطأ فادح . فقد كان من العسير ان يتوصل الامبرياليون وحلفاؤهم الاسرائيليون الى تحقيق ما حققوه في حزيران ١٩٦٧ لو كانت دولة الوحدة قائمة تضم القطرين الأساسيين الواقعين

على خطوط المواجهة مع العدو وبكل امكاناتها البشرية والإستراتيجية والعسكرية . كما كان من العسير على الرجعية العميلة في الاردن أن تنفرد بشعبه وبقوى المقاومة فيه وتفتك بها ، وتعطي الأمان والاستقرار للعدو علىأوسع خطوط المواجهة العسكريةمعه. ان استقرار دولة الوحدة وتوطدها وتطورها بعد تصفية المرتكزات الاقتصادية للرجعية المحلية في يوليو عام ١٩٦١ بواسطة التأميمات كان كفيلاً بايجاد قاعدة وطنية صلبة لحركة التحرر الوطنيالعربية كلها تفتقدها اليوم أشد الافتقاد.ان الذين قبلوا الانفصال، كانوا اما وطنيين عجزوا عن ادراك ما سيجره الانفصال من آثار سلبية خطيرة على حركة التحرر العربي كلها ، واما رجعيين وعملاء وجدوا في الانفصال وسيلة لاستعادة مواقعهم المنهارة المعادية لمصالح الجماهير العربية وقضيتها ، كما يجدون ذلك اليوم ايضاً في نتائج حرب حزيران ، هذه الحرب التي يريد الامبرياليون وحلفاؤهم الاسرائيليون تكريس نتائجها كأعلى أشكال الانفصال وكهزيمة نهائية ساحقة لحركة التحرر الوطني العربية ولآفاقها التقدمية الاشتراكية .

ومهما تكن فداحة الاخطاء الداخلية ودرجة السلبيات التي ساعدت على تقويض وحدة عام ١٩٥٨ ، فانها لا يمكن ان تكون من منظور عربي وطني تقدمي مساوية للنتائج الخطيرة التي أدى اليها الانفصال بالنسبة الى حركة التحرر العربي . ان النظر الى هذه الاخطاء والسلبيات من منظور عربي وطني تقدمي يتناقض كلياً مع النظر اليها من منظور رجعي لا وطني. ولا يمكن لهذين المنظورين ان يلتقيا . ولئن التقيا في وثيقة واحدة تعترف بالانفصال وتبرره ، فقد كان هذا من المنظور العربي الوطني التقدمي خطأ تاريخيـــاً فادحاً ، ومن المنظور الرجعي اللاوطني تمهيداً للخامس من حزيران .

لقد كان للانفصال في مخططات الامبرياليين والاسرائيليين والرجعيين أهمية تعدل أهمية الوحدة بالنسبة الى حركة التحرر الوطني العربية . أي انه كان منعطفاً رئيسياً ونقطة تحول حاسمة ، تتجلى اليوم ابعادها كلها بوضوح تام . انه من منظور استراتيجية النضال العربي قد عطل تماماً العلاقة الجدلية بين أهداف التضية العربية عندما فصلهدف التحرر والتقدم عن هدف الوحدة العربية وخلق الوهم بامكانية متابعة السير على طريق التحرر والتقدم من دون مسيرة مماثلة لها وملتحمة معها على طريق

الوحدة . وانه لوهم مماثل ايضاً الاعتقاد بانه من الممكن متابعة السير على طريق الوحدة العربية مع وقف الكفاح ضد الامبرياليين والاسرائيليين والرجعيين، هذا الكفاح الذي هو المضمون الحقيقي للتحرر والتقدم. ان الدرس الحاسم الذي يمكن ان يستخلص من تجربة الوحدة والانفصال بين عـامي ١٩٥٨ و ١٩٦١ هو انه من أجل ممارسة نضال جـاد وحاسم ضد هذه الهجمة الامبريالية الاسرائيلية الرجعية الراهنة لابد من اعادة العلاقة الجدلية بـين أهداف القضية العربية الى حركتها ؛ أي الى التقدم على طريق العمـل الوحدوي . والمنطلق الى ذلك لا يمكن ان يكون الا" بتوفير الظروف الموضوعية الملائمة لذلك ، وفي مقدمتها يجيء توحيد النضال العربي . وتوحيد هذا النضال لا يمكن ان يتم الا" اذا اعترف سلفاً بوحـدة مصير حركة التحرر الوطني العربية بجميع فصائلها ، وبأن الامبرياليين والاسرائيليين والرجعيين هم الأعداء الرئيسيون لهذه الحركة ، وانه لا مهادنة لهم ولا مساومة معهم ، وان الخروج من واقع نتائج حرب حزيران لا يمكن ان يتم الا" بمواصلة الكفاح ضد المخططين لهذه الحرب وصانعي نتائجها والمستفيدين منها وتحمل جميع التضحيات التي تترتب على هذا الكفاح .

- ٥ -

اذا كانت الامبريالية العالميـة هي الخصم الرئيسي لحـركة التحرر الوطني العربي ولجميع حركة التحرر الوطني في العالم بأسره ، فانه لمتابعة خوض المعركة ضدها على المستوى نفسه من الشدة التي تتحدى بـه حركات العالم ، لا بد من اعادة تقييم الوضع الراهن للنضال العالمي ضد الامبريالية .

تميزت الخمسينات بنمو حركات التحرر الوطني وتعاظم نضالها وتحقيقها انتصارات عديدة وأساسية على الاستعمار والامبرياليـــة في آسيا وافريقيا بخاصة انطلاقاً من مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ وظهور كتلة دول عدم الانحياز . وشهدت الستينات هجوماً شاملاً شنته الامبريالية الاميركية على هذه الدول يمكن ان يعتبر ثورة مضادة على نطاق عالمي . ان هـذه الهجمة تمثل المحاولة التي قام بها الاستعمار الجديد لوقف نضال شعوب هـــذه الدول من أجل استكمال تحررها وبخاصة الحيلولة دون ان يأخذ هذا التحرر أبعاده الاجتماعية والاقتصادية ، أي ان يتحول

الى نضال لتصفية المصالح الاقتصادية للامبريالية العالمية ووقف نهبها لثرواتها من المواد الاولية . ان الامبريالية الاميركية تمثل امبراطورية اقتصادية ـ عسكرية يقوم كيانها بالاساس على نهب المواد الاولية من بلدان العالم الثالث . وتدل الاحصاءات على أن تحرر هذه البلدان السياسي والاقتصادي من سيطرة الامبريالية الاميركية ومن النهب الاقتصادي الذي تمارسه ضدها هو بمثابة ضربة قاصمة الى هذه الامبراطورية الاقتصادية ـ العسكرية التي تعيش من نهب المواد الاولية . والئن استطاعت الامبريالية الاميركية ان تحقق معظم أهدافها في هذه الهجمة فان هذا لا يرجع الى شراسة الامبريالية وضراوتها فحسب وانما الى مجمل الشروط الاجتماعية والاقتصادية التي نمت من خلالها حركات التحرر الوطني وتطورت ، هذه الشروط التي تتميز بالتخلف الشديد .

ان التباس البنية الطبقية لهذه الحركات وعدم ارتكازها الى قواعد جماهيرية واسعة منظمة وغموض منطلقاتها الايديولوجية وعدم التزامها باستراتيجية ثابتة معادية للامبريالية مكمن الامبريالية الاميركية مستعينة بقوى الثورة المضادة من توجيه ضربة قاصمة الى هذه الحركات. يضاف الى ذلك ان ماطرأ من انقسام داخل صفوف المعسكر الاشتراكي منذ مطلع الستينيات وتخلخل بعض مواقعه وضعفها الى درجة التعرض لامكانية ثورة مضادة ، اعطى الامبريالية الاميركية فرصة حاسمة لتوجيه ضرباتها الى حركات التحرر الوطني خارج نطاق المعسكر الاشتراكي حتى ليمكن القول ان هذه الحركات واجهت الهجمة الامبريالية وهي شبه عزلاء من أية مساندة خارجية . لقد تحول العالم الثالث الى شبه مزرعة للامبريالية الاميركية تتصرف فيها نهباً وبطشاً وارهاباً دون رادع جدي .

ان هذا الوضع طرح سؤالاً خطيراً حول مستقبل النضال العالمي ضد الامبريالية. وهذا السؤال اثار في وقت واحد مسائل ايديولوجية واستراتيجية تتعلق بالثورة العالمية، ليست جديدة بالتأكيد ، ولكنها في هذه المرحلة اكثر الحاحاً لانه على طريقة طرحها والاجابة عنها تتوقف مصائر شعوب وقارات . ولئن لم يكن لطرح هذه المسائل موضع في هذه الدرسة الا انه من الواجب التأكيد على جدلية العلاقة بين حركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث من جهة ، وبين المعسكر الاشتراكي من جهة اخرى . وانه بمقدار

ما تتحول هـذه الحركات الى ثورات حقيقية ضد الامبريالية قادرة على هز هاوتفجير تناقضاتها الداخلية ، فان هذا يدعم نضال المعسكر الاشتراكي في صراعه مع الامبريالية. كما انه بمقدار ما يتوحـد المعسكر الاشتراكي وتتعزز مواقعه ويصبح في مركز اقوى في صراعه مع الامبريالية، فان هذا يدعم مواقع حركات التحرر الوطني ويوفر لها المساندة والدعم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، كما حدث بالفعل في اكثر من حركة حاسمة خاضتها هذه الحركات ضد الامبريالية العالمية في كوبا وفيتنام والمشرق العربي .

ان سقوط الامبريالية ، اعلى مرحل الرأسمالية ، اذا كان حتمية يقود اليها التطور الموضوعي لحركة التاريخ ، فان تحقق الحتمية ايضاً رهن وحـدة المعسكر الاشتراكي وتنامي قواه الاقتصادية والعسكرية وتضامنه الوثيق مع سائر القوى الوطنية والتقدمية المعادية للامبريالية وان الاعتراف بهذه الحقيقة ووضعها في صلب استراتيجية النضال كمعطاة اساسية والكفاح انطلاقاً منها كفيل بتحقيق انتصار هذا النضال على اعدائه الامبرياليين . ان الصراع مع الامبريالية العالمية مازال معركة طويلة الأمد .فالامبريالية مازال قوية شرسة قادرة على التحدي الكبير وتوجيه ضربات حاسمة ، والانتصار عليها لايمكن ان يتم الا عبر معارك دائمة وسلسلة من المواجهات الفاصلة لاتوقف فيها ولا هوادة .

– ٦ –

سبق ان ذكرنا ان المطلوب من جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية مراجعة شاملة جادة لحسابات النضال العربي كي تستطيع هذه الفصائل الدخول في مرحلة تحول حاسمة تضعها على مستوى التحديات التي تواجهها . وأشرنا الى أن جوهر هذه المراجعة يجب أن يتم في ضوء ادراك كامل مسؤول للعلاقة الجدلية بين الاهداف الاساسية المتلاحمة للقضية العربية وهي الوحـدة والحرية والاشتراكية وبين المعطيات الرئيسية للظروف الموضوعية التي يجري ضمنها هذا النضال وأوضحنا المعطاة الاولى وهي الوضع الراهن للنضال العالمي ضد الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية . أما المعطـاة الثانية فهي الظروف الموضوعية للتطور الاقتصادي الاجتماعي للمجتمعات العربية، هذه الظروف التي يمارس من خلالها النضال العربي .

تعتبر البلدان العربية جزءاً من العالم الثالث. ويقصد بالعالم الثالث البلدان المتخلفة

إقتصادياً واجتماعياً والواقعة خارج نطاق المعسكر الاشتراكي وكذلك خارج نطاق العالم الرأسمالي المتقدم ولكنها خاضعة للسوق الرأسمالية ولنهب ثرواتها التي تتألف من المواد الاولية من قبل هذا العالم الرأسمالي . ويقاس التخلف عادة بمتوسط دخل الفرد بالنسبة الى متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة الاميركية واوربا الغربية والشمالية. والبلدان العربية الى جانب اشتراكها جميعاً بصفة التخلف الا أنها متفاوتة أيضاً في درجة تطورها الاقتصادي ـ الاجتماعي . وتلعب البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمعات العربية دوراً حاسماً في تحديد البنية الطبقية لفصائل حركة التحرر الوطني العربية .

ويمكن تصنيف هذه المجتمعات على النحو التالي :

١ ـ مجتمعات اقطاعية عشائرية ذات أنظمة اوتوقراطية .

٢ ـ مجتمعات بورجوازية اقطاعية ذات أنظمة ليبرالية .

٣ ـ مجتمعات زراعية ذات أنظمة وطنية .

٤ ـ مجتمعات زراعية نامية ذات أنظمة وطنية تقدمية .

ان هذا التصنيف التقريبي للمجتمعات العربية يؤكد عدة وقائع أساسية :

١ ـ غياب الطبقة العاملة الصناعية الحديثة بوجه الاجمال في معظم المجتمعات العربية

٢ ـ القاعدة الاجتماعية الاساسية هي الجماهير الفلاحية المسحوقة المنتشرة في الارياف .

٣ ـ البورجوازية المحلية هي بورجوازية ذات مصالح مرتبطة بالسوق الرأسمالية العالمية .

تضاف اليها بورجوازية مالية ثرية في الاقطار المنتجة للمواد الاولية (النفط) .

٤ ـ جماهير المدن تتألف من طبقة عاملة صناعية ناشئة وفئات من الحرفيين وصغار الكسبة والموظفين والمثقفين بالإضافة الى شرائح من البيروقراطية العليا والبورجوازية الوسطى والصغيرة .

ان هذه الوقائع تؤكد أن النضال الوطني تقوده على العموم في معظم هذه المجتمعات البورجوازيات الوسطى والصغيرة وشرائح من المثقفين والموظفين والحرفيين والجنود والضباط . وهذه الطبقات والفئات هي المؤهلة تاريخياً من خلال هذا الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي للقيادة السياسية ومنها يتألف معظم القيادات إن لم نقل كلها .

ان أهمية التوكيد على البنية الاقتصادية – الاجتماعية بالنسبة الى النضال الوطني ناشئة عن ان هذه البنية هي العامل الموضوعي في تطور هذا النضال . ومـا لم تكن هذه البنية متطورة الى درجة تسمح بظهور الطبقة الاجتماعية الثورية وهي الطبقة العاملة الصناعية فان الجماهير المسحوقة تظل غير قادرة على فرز حزبها السياسي الثوري المعبر عن مصالحها والقادر على قيادتها .

ان القيادات الراهنة تمثل مرحليـاً الحركات الوطنية ذات الآفـاق التقدمية والاشتراكية المطالبة بان تكون بالفعل حركات وطنية تقدمية وان تقود التطور لخلق الشروط الاقتصادية – الاجتماعية للانتقال الى الاشتراكية . ولكن الى أي مدى يمكن ان تفعل ذلك ؟.

– ٧ –

ان هذه البنية الاقتصادية – الاجتماعية للمجتمعات العربية التي اشرنا اليها آنفاً تقود الى محاولة تحديد واقع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وممارستها وآفاقها النضالية . وهذا التحديد يغدو اكثر يسراً في ضوء معرفتنا لواقع هذه البنية

يثبت التطور الموضوعي لواقـع المجتمعـات العربية ان البرجوازيات العربية المحلية لم تعجز فحسب عـن اداء مهمتها في تصفية الاقطـاع والانتقال الى العلاقـات الرأسمالية وانما ظلت بورجوازيات محلية متخلفة ومرتبطة بالسوق الرأسمالية العالمية . لقد كان المفروض في حـال تصفية الاقطاع ونشوء علاقات رأسمالية عربية ان تصفى التجزئة سياسياً واقتصادياً لحساب سوق رأسمالية عربية موحدة. غير ان انعدام الصفة « الوطنية » عند هذه البرجوازيات المحلية وارتباط مصالحهـا الاقتصادية بالتجزئة وبالسوق الرأسمالية ، جعل حركات التحرر الوطني العربية تتصدى للقيام بالدور الذي لم تلعبه البورجوازية الوطنية ، أي انجـاز الاستقلال السياسي والشروع في التنمية الاقتصادية . وهذان الهدفان ما زال يتصدران برامج حركات التحرر الوطني العربية، ويعبر عنها بشعاري الحرية والاشتراكية اللذين يرمزان الى تطلعات أوسع وأكثر جذرية . وظل شعار الوحدة العربية غائباً عن معظم هذه الحركات . ويعتبر حزب البعث العربي الاشتراكي الفصيلة الأهم مـن فصائل حركة التحرر الوطـني العربية التي طرحت منذ نشوئها في مطلع الأربعينيات شعار الوحدة العربية وربطته بشعاري الحرية والاشتراكية

واعتبرت هذه الشعارات الثلاثة وحدة متلاحمة. بل ان الحزب في البدايات الأولى لنضاله أكد على أولوية الوحدة العربية في محاولة لمواجهة جميع التحديات الداخلية والخارجية المعادية للوحدة العربية والقومية العربية كتعبير عن هوية واحدة لجماهير العربية من المحيط الى الخليج.

ويمكن أن تقرر كواقعة تاريخية أن الوحدة العربية ظلت غائبة كهدف من أفق حركات التحرر الوطني باستثناء حزب البعث العربي الاشتراكي في السنوات العشر التي أعقبت الحرب العالمية الثانية أي حتى عام ١٩٥٥.

أما بالنسبة الى البنية الاجتماعية – الاقتصادية لهذه الحركات فيمكن القول على وجه العموم أنها غير محددة طبقياً فهي تضم جماهير فلاحية فقيرة وملاكين صغاراً ومتوسطين في الأرياف وشرائح محدودة من العمال والحرفيين وصغار الموظفين واصحاب المهن الحرة والطلاب والمثقفين في المدن. وقد دخلت حركات التحرر الوطني هذه في صراع ضد تحالف الاقطاع والبورجوازية من أجل الاستقلال والتقدم الاجتماعي والاقتصادي في المشرق العربي، في حين اتخذ هذا الصراع في الاقطار العربية الأخرى طابع كفاح مباشر ضد الاحتلال الاجنبي وعملائه من الحكام المحليين.

ويمكن اعتبار قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر بقيادة جمال عبد الناصر وطرحها لشعارات الاستقلال الوطني والحياد الايجابي والتقدم الاجتماعي والاقتصادي وتلاقيها منذ عام ١٩٥٥ مع النضال الوطني والتقدمي الذي كان يقوده حزب البعث العربي الاشتراكي في القطر العربي السوري خاصة نقطة الانطلاق الكبيرة لحركة التحرر الوطني العربية في الوطن العربي كله. لقد أدت هذه الانطلاقة الى مواقف جريئة وحاسمة ضد الاستعمار والامبريالية واسرائيل وضد تحالف الاقطاع والبورجوازية في الداخل، توجت بوحدة عام ١٩٥٨. كما أدت الى انتصارات مماثلة في عدد من الاقطار العربية ضد الاحتلال وأنظمة العمالة والرجعية والى قيام أنظمة وطنية ذات آفاق تقدمية اشتراكية (العراق، اليمن، الجزائر).

ويتميز الوضع العام لنضال حركات التحرر الوطني العربية منذ ايلول ١٩٦١ وحتى عام ١٩٧١ بالسمات التالية:

– انعزال نضال هذه الحركات داخل اقطارها وعدم دخولها في جبهة نضال موحدة ايديولوجياً وسياسياً ضد اعدائها الداخليين والخارجيين .

– تركيزها على هدفي التحرر السياسي والتقدم الاقتصادي دون تركيز بمقدار مماثل على الوحدة العربية كمطلب مباشر وفوري .

– تعرضها لهجمة شرسة من قبل الامبريالية الاميركية تستهدف اسقاطها واعادة أنظمة العمالة والرجعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية الى السلطة واستخدام اسرائيل كأداة رئيسية في هذا المخطط .

– عدم قيام جبهات وطنية في الداخل قادرة على اعطاء السلطة الوطنية التقدمية أوسع قاعدة جماهيرية ممكنة لمواجهة اعدائها .

– انتقال هذه الحركات الى موقف المدافع أمام الامبريالية والصهيونية والرجعية بدءاً من عدوان حزيران ١٩٦٧ .

– ٨ –

من هذا الاستعراض السريع لواقع حركات التحرر الوطني العربية ومعطياته الأساسية يمكن أن نتوصل الى الملاحظات الهامة التالية :

١ – تتعرض حركة التحرر الوطني العربية بمعظم فصائلها الى هجمة امبريالية تستهدف اخضاعها وتصفيتها كحركات وطنية وتقدمية . وهذه الهجمة جزء من الهجمة الامبريالية الاميركية ضد حركات التحرر الوطني في العالم الثالث .

٢ – لاتؤلف فصائل حركة التحرر الوطني العربية جبهة موحدة ايديولوجياً وسياسياً ونضالياً .

٣ – ليس عند معظم هذه الحركات برنامج محدد وشامل من أجل تحقيق خطوات وحدوية على صعيد الاقطار العربية .

٤ – البنية الطبقية لهذه الحركات لاتستند الى قواعد جماهيرية عمالية فلاحية واسعة ومنظمة .

٥ – لم تحدد هذه الحركات علاقتها بصورة واضحة ونهائية مع جبهة النضال العالمي ضد الامبريالية .

٦ - تواجه هذه الحركات نشاطات متزايدة للرجعيات المحلية متساندة مع الهجمة الامبريالية .

٧ - يتعرض ابرز قطرين عربيين ممثلين لحركة التحرر الوطني العربية وهما مصر وسورية لتحد بالغ الخطورة يتمثل في نتائج حرب حزيران ومحاولة الامبريالية الاميركية واسرائيل فرض واقع الوجود الاسرائيلي العدواني على الارض العربية .

فاذا كانت هذه هي الخطوط العامة لواقع حركات التحرر الوطني العربية ، فان السؤال الذي يفرض نفسه ويكاد مستقبل النضال العربي كله يتقرر في ضوء الاجابة عنه هو :

— ماهي الشروط الذاتية والموضوعية المطلوب توافرها (نظرياً على الأقل) كي تستطيع فصائل حركة التحرر الوطني العربية مواجهة التحديات الخطيرة المفروضة عليها والتي تستهدف وجودها بالأساس ؟

١ - المعركة التي تخوضها فصائل حركات التحرر الوطني العربيـــة ضد الامبريالية العالمية واسرائيل معركة طويلة الأمد ذات أبعاد تاريخية مرتبطة بالنضال العالمي ضد الامبريالية ولا يمكن حسمها في معركة واحدة أو سلسلة معارك خلال مرحلة تاريخية قابلة للتحديد . وان فقدان هذا المنظور العالمي ببعده التاريخي يوقع القضية العربية في مأزق تاريخية تهددها بالنكسات والهزائم الخطيرة .

٢ - العلاقة بين أهداف القضية العربية علاقة جدلية وأي فصم لهذه العلاقة يحول النضال العربي في افضل الظروف الى حركات تحرر وطني محلية غير قـادرة على مواجهة حاسمة مع الأعداء الامبرياليين والاسرائيليين ، وبصورة خاصة هدف الوحـــدة العربية الذي يجب أن يدفع الى الأمام وينظر الى النضال العربي كله من خـلاله .

٣ - تصفية علاقات الاستغلال في المجتمعات العربيـة وتعميق التحولات الاقتصادية - الاجتماعية باتجاه اقامة علاقات اشتراكية هو الشرط الموضوعي الذي يعطي النضال العربي مضمونه الجماهيري وزخمه الثوري .

٤ ـ تنظيم الجماهير العربية وتعبئتها واعطاؤها دورها الأساسي في قيادة المجتمع من خلال جبهات وطنية تضم العناصر الأكثر وعياً وجرأة وقدرة على النضال .

٥ ـ وضع ميثاق وطني عربي يضم جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وتشكيل قيادة سياسية موحدة لهذه الفصائل ، كل ذلك من خلال حوار إيجابي بينها يضع في المقام الأول من الاعتبار خطورة التحديات الراهنة وما يتهدد قضية التحرر العربي من نكسات .

٦ ـ اعتبار القضية الفلسطينية نقطة التناقض الرئيسية الحاسمة في الصراع بين حركة التحرر الوطني العربية بجميع فصائلها وبين الامبرياليين الاميركيين وحلفائهم الاسرائيليين ، وانه بمقدار انتصار حركة التحرر الوطني العربية في صراعها مع الاسرائيليين وحلفائهم الاميركيين ، تقاس تقدم القضية العربية كلها ، لأن القضية الفلسطينية تجسد التحدي الامبريالي بأقوى أشكاله وأعنفها ، ولا مجال لتحقيق انتصار جدي وحاسم على التحديات الامبريالية إلا في نطاق القضية الفلسطينية .

٧ ـ ان تعميق الصراع العربي الاسرائيلي والنظر اليه من خلال المعركة ضد الامبريالية العالمية ووضع جميع الامكانات العربية بشرياً واقتصادياً وعسكرياً في خدمة هذا الصراع محلياً وعربياً ، يؤدي الى فرز طبقي للقوى الاجتماعية والاقتصادية . فالسلم هو في مصلحة الطبقات التي تريد الغاء الصراع ضد الامبريالية وتحقيق « ازدهار » اقتصادي تستطيع في ظله مواصلة الاستغلال وتكديس الثروات والتمتع بالرفاهية والاستهلاك ولو على حساب الوجود العربي كله ، في حين ان مواصلة الصراع هو هدف الجماهير العربية الفقيرة التي لا يفقدها التقشف والعيش في ظل الكفاح أية امتيازات بل يدفعها الى الأمام لتلعب دورها الأساسي في التحرر والتقدم اللذين تتركز حولها مصالحها الأساسية .

- ٩ -

لقد كان القطر العربي السوري أول دولة عربية حققت استقلالها السياسي وتحررها من الاحتلال الاجنبي (١٩٤٦) . وفي هذا القطر ظهرت أبرز فصائل حركة التحرر الوطني العربية التي جسدت في منطلقاتها النظرية وفي ممارساتها النضالية قضية الثورة العربية بشعاراتها الأساسية في الوحدة والحرية والاشتراكية ، ألا وهي حزب البعث العربي الاشتراكي . ولم يكد ينقضي عامان على هذا الاستقلال حتى فوجئت القضية العربية بالمؤامرة الاستعمارية الكبرى ألا وهي اقامة دولة اسرائيل ، وكان القطر العربي السوري أول فصائل حركة التحرر الوطني العربية المخاطبة بهذا التحدي . وقد كان هذا التحدي وما يزال محور نضاله . وقد أتاح قيام ثورة ٢٣ يوليو الوطنية في مصر بقيادة جمال عبد الناصر وتحولاتها العربية والتقدمية ان يصبح القطران مصر وسورية الركيزتين الاساسيتين لا للكفاح ضد اسرائيل فحسب وانما لجميع قوى التحرر الوطني في الوطن العربي كله . وعلى الرغم من الانتصارات الوطنية والتقدمية التي تحققت في اقطار عربية أخرى ، ما يزال هذان القطران بما يمتلكانه من امكانات بشرية واقتصادية وعسكرية ومن تجسيد لمنطلقات القضية العربية وأهدافها ، الركيزتين الاساسيتين اللتين يتوقف عليهما مواجهة التحديات الكبرى المفروضة على الجماهير العربية كلها . وأية اقطار عربية اخرى أو حركات تحرر وطنية عربية لا يمكن ان تلعب في المعركة الرئيسية التي تمثلها القضية الفلسطينية غير دور المساند لنضالها . وان اية استراتيجية عربية للتحرر الوطني والتقدم في ظل الكفاح ضد الامبريالية لا تضع هذين القطرين كحجر زاوية في هذا الكفاح لا بد وان تسقط في الانفصالية وتخرج عن سياق النضال العربي العام من أجل اهداف القضية العربية ، وان تصبح بالتالي عاجزة في التحليل الاخير عن بناء قضية الحرية والاشتراكية . ان وقائع النضال العربي قد أثبت من خلال تاريخ اكثر من ربع قرن ان تحرر هذين القطرين مصر وسورية كان منطلق تحرر الاقطار العربية الاخرى ، وما تزال الوقائع تؤكد هذه الحقيقة . ان هذين القطرين يؤلفان القاعدة الاستراتيجية التي تربط بين جناحي الوطن العربي في المشرق والمغرب ، والمؤهلة لكي تقوم من حولها لا وحدة النضال العربي فحسب وانما الوحدة العربية نفسها . ان حركات التحرر الوطني العربية مرتبطة موضوعياً وتاريخياً اذا كانت حركات تحرر وطني عربية حقيقية ، بهذه القاعدة الاستراتيجية الضخمة . وجميع المخططات الامبريالية والامرائيلية كانت

وما تزال ترمي الى فصم هذا الارتباط الاستراتيجي بين اقطار القوى الوطنية العربية وبين هذين القطرين . وبمقدار ما كان هذا الارتباط يتعزز كانت المخططات الامبريالية تستميت في محاولات فصمه بمختلف الأشكال والأساليب مستغلة جميع الظروف المتاحة .

واذا كان هذا صحيحاً بالنسبة الى الاقطار العربية من جهة وهذين القطرين سورية ومصر من جهة اخرى ، فانه صحيح ايضاً بالنسبة الى وحدة هذين القطرين بالذات . ان وحدة عام ١٩٥٨ الاندماجية بينهما تمثل قفزة نوعية في النضال العربي قد لا يسمح التاريخ بتحقيق مثيل لها في مستقبل منظور بين قطرين عربيين . ولهذا تركزت ضراوة المخططات الاستعمارية لفصمها بانفصال ايلول عام ١٩٦١ . انها تجربة رائدة حقيقية تؤلف خطوة متقدمة كبرى على طريق انتصار النضال العربي ، رغم كل ما حملته من سلبيات داخلية ، واستيعاب هذه التجربة لا يمكن ان يتم بالقفز من فوقها بخطوات مقصرة عنها وانما بخطوات اكثر رسوخاً وصلابة على طريقها . ان اهمية وحدة عام ١٩٥٨ لا تتحدد فقط في انها أقامت دولة عربية واحدة بين قطرين عربيين وانما أيضاً من خلال الظروف التاريخية التي قامت فيها . فقد جاءت تتويجاً لنضال عربي جماهيري كاسح ضد الاحلاف الاستعمارية والعدوان الثلاثي خاصة القطران ومن ورائها الجماهير العربية كلها . كما جاءت في الداخل نتيجة لانتصارات حاسمة على الرجعية المحلية وقوى التآمر والخيانة . هكذا كانت تعبيراً عن التلاحم العميق بين اهداف القضية العربية الثلاثة في الوحدة والحرية والاشتراكية ، وليست مجرد خطوة وحدوية معزولة عن النضال التحرري ضد الامبريالية واسرائيل وعن النضال الداخلي ضد اعداء التحرر والتقدم . ومن هنا فان اية خطوة وحدوية لا تستمد اهميتها من كونها مجرد انجاز وحدوي فحسب وانما من خلال الأفق التاريخي الذي تتحقق ضمنه ومن خلال الادوات التي تحققها ألا وهي الجماهير العربية وطلائعها العقائدية المنظمة الملتزمة باهداف القضية العربية . وانها لدلالة كبيرة ان يكون سقوط وحدة عام ١٩٥٨ في ايلول ١٩٦١ بداية الهجمة الامبريالية التي بلغت أوجها في حرب حزيران عام ١٩٦٧ والتي ما تزال مستمرة حتى هذا التاريخ .

ويمكن أن نقسم المخطط الامبريالي الصهيوني ضد حركة التحرر الوطني العربية في الفترة بين عامي ١٩٦١ - ١٩٧١ الى مرحلتين : مرحلة ١٩٦١ - ١٩٦٧ وفيها جرى التركيز على عزل الأقطار العربية التي انتصرت فيها قوى التحرر الوطني بعضها

عن بعض ، تحت شعار تحقيق تطور داخلي – سياسي – اجتماعي – اقتصادي مستقل، أي اسقاط شعار الوحدة العربية كهدف مرتبط جدلياً بهدفي التحرر والتقدم . ومرحلة ١٩٦٧ – ١٩٧١ وفيها انتقلت الامبريالية الى مرحلة الهجوم السياسي تحت ضغط واقع الاحتلال الاسرائيلي لتصفية التجرر الوطني وذلك بعزله عن النضال العالمي من جهة ، وفرض الاستسلام عليه للامبريالية الاميركية باسم حل « مشكلة الشرق الاوسط » . وكانت تصفية قوى المقاومة الفلسطينية في ايلول الاسود ١٩٦٩ وتحويل الاردن الى نظام سايغوني عميل يقف مع العدو في خط المواجهة ويشكل مخافره الأمامية ، بداية هذه المرحلة الثانية .

ان الحقيقة التي تفرض نفسها اليوم أكثر من أي وقت مضى هي ان اية مواجهة جادة للتحديات الامبريالية الاسرائيلية الراهنة تقوم بها فصائل حركة التحرر الوطني العربية في جميع أقطارها ، لايمكن ان تتم الا من خلال الركيزتين الاساسيتين للنضال العربي وهما مصر وسورية . وليس ثمة أي خيار آخر ، سوى اختيار الهزيمة . انقوى التحرر الوطني العربية مطالبة بان تقف وراءها كقوى دافعة الى الامام للالتحام مساندة لكفاحها ، وليس كقوى جاذبة الى الوراء ، فهذا التلاحم مشككة في هذا الكفاح . ان مواجهة التحديات الراهنة اذا كانت مباشرة مسؤولية القطرين مصر وسورية فانها بالأساس مسؤولية جميع قوى التحرر الوطني العربية . ولا يمكن ان تتم هذه المواجهة على المستوى المطلوب إلا في ضوء المعطيات الأساسية للوضع الراهن التي سبق ان أشرنا اليها التي تفرض الاستراتيجية التالية :

١ – اعتبار مصر وسورية حجر الزاوية في الكفاح ضد الامبريالية والصهيونية .

٢ – تلاحم القطرين على أعمق المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

٣ – مساندة قوى التحرر العربي لهما مساندة مطلقة فعالة وتعزيز صمودهما على جميع المستويات .

٤ ـ متابعة التحولات الاقتصادية ـ الاجتماعية في القطرين وتعميقها بما يكفل تحرير الجماهير من الاستغلال وشروط التخلف.

٥ ـ تعبئة القوى الوطنية في الداخل في إطار جبهة وطنية تقدمية صلبة وتصفية التحركات الرجعية.

٦ ـ التضامن الفعال مع النضال العالمي ضد الامبريالية واعتبار التحديات الراهنة جزءاً من المعركة التاريخية الطويلة الأمد ضد الامبريالية وحليفتها الصهيونية.

٧ ـ اعتبار الصمود السياسي والعسكري والاقتصادي مهما كان طويل المدى نقطة البداية الحاسمة في مواجهة التحديات والانتصار عليها ورفض جميع الحلول والسياسات والاجراءات التي تضعف هذا الصمود وتقدم له حلولاً زائفة مهما كان مصدرها.

ـ ١٠ ـ

ان الحديث عن أية استراتيجية للصمود والكفاح، مهما كان جاداً وموضوعياً ومنطلقاً من تحليلات علمية، يظل ثرثرة وتطلعات ذاتية، اذا لم يكن صادراً عن قوى قائمة في قلب الواقع الراهن قادرة على الفعل فيه. وبهذا المعنى فان أية مراجعات لحسابات النضال العربي يجب ان تصدر بالأساس عن القوى الوطنية المعنية التي تحمل مسؤوليات قيادية طليعية في الوطن العربي كله. ان الهزائم التي يمكن ان تمنى بها القضايا الكبرى ليست دوماً نتيجة لنقص في الوعي وعدم القدرة على تحليل الأوضاع الراهنة واستشراف المستقبل بقدر ماهي نتيجة لعدم التطابق بين الوعي وبين الأدوات الموضوعية للكفاح. الأدوات الموضوعية هي تاريخياً الجماهير الواسعة الفقيرة المضطهدة التي تمثل طلائعها الثورية قمة وعيها لقضيتها. والمطلوب دوماً هو التطابق في الوعي والنضال بين الجماهير وبين طلائعها. والمأزق التاريخي الحقيقي الذي يمكن ان تمر به قضية ثورية ليس ضخامة التحديات التي تواجهها، فلكل قضية كبرى تحديات على

مستواها ، وانما انفصال وعي الطلائع عن وعي الجماهير ، هذا الوعي الذي هو بالأساس وعي لمصالح طبقية معينة . ان المراجعة المطلوبة لحسابات النضال العربي هي مراجعة داخلية من قبل جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية لوعيها ولبنيتها الطبقية ولمقدار التطابق بين هذا الوعي وبين هذه البنية أو البنى . وبمقدار ماتكون هذه المراجعة جادة وموضوعية يمكن وضع استراتيجية الكفاح موضع التنفيذ . ان المطلوب الحقيقي هو اعادة بناء وحدة الطلائع الثورية العربية ووحده هذه الطلائع مع الجماهير . وبدون هذا لايمكن ان تتوافر الأدوات الموضوعية لمواجهة التحديات على المستوى الذي تتطلبه هذه المواجهة التي تأخذ في المرحلة الراهنة أخطر أشكالها .

الدكتور عبد الكريم أحمد

القوميّة العربيّة : ٢ ايديولوجيّة تقدميّة

لا ريب في أن القومية من أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل العالم الذي نعيش فيه اليوم ، ان لم تكن أهمها جميعاً . ومنذ أن ظهرت اول حركة قومية وأضحة المعالم في التاريخ ، وهي الثورة الفرنسية الكبرى في آخر القرن الثامن عشر ، اختلف الباحثون

حول ماهية هذه الظاهرة . فذهب فريق الى أنها علامة العصر الحديث والعنصر المميز له عن العصور السابقة ، وأن الشعوب تدخل في ظل المدنية الحديثة عندما تتشرب بروح القومية . ومن هذا المنطلق ظل معظم المفكرين طوال القرن التاسع عشر يدعون الى الاعتراف بها ، في صورة حق تقرير المصير القومي ، كمبدأ اساسي في التنظيم الدولي . (وفي اعقاب الحرب العالمية الأولى في الربع الاول من القرن الحالي تحقق هذا المطلب باعتباره احد الأسس التي تقوم عليها تسويات الصلح) .

وهاجم فريق آخر من المفكرين القومية باعتبارها ظاهرة لا عقلانيــة تغلّب المشاعر الوطنية الضيقة على مصلحة الجنس البشري ككل ـ الذي يتطلب تقدمه وازدهاره تجاوز هذه المشاعر والتخلص من « الدولة القومية »كأساس للتنظيم الدولي لأنها بطبيعتها تؤدي الى استمرار العنف في العلاقات الدولية . ويمثل هذا الفريق تيار « العالمية » الذي ترجع جذوره في الفكر الغربي الحديث الى القرن الثامن عشر ، قبل انتشار موجة النزوع القومي في اوروبا ، وحمل لواءه مفكرون اعتبروا أنفسهم « مواطنين عالميين » ، مثل كانت وجوته وشيلر . وما زال هذا التيار حتى اليوم أنصاره ودعاته الذين يعزون الحروب والكوارث التي اصابت العالم الى « السيادة القومية» ويحلمون باليوم الذي تتحقق فيه الحكومة العالمية .

وهناك فريق ثالث هاجم القومية من زاوية اخرى ، هو الفريق الذي يمثل تيار الفكر الاشتراكي بمدارسه المختلفــة ، وبخاصة الاشتراكيين الذين رأوا في الصراع الطبقي القوة الدافعة الرئيسية في التغيير الاجتماعي ، ودعا العمال في جميع البلاد الى الاتحاد على أساس أن « العامــل لا وطن له » ، وإن كان الاشتراكيون الذين لم يؤمنوا بالصراع الطبقي ذهبوا ايضاً الى أن القومية قد أصبحت « غير ذات موضوع في القرن العشرين ، ويجب على الناس أن يوجهوا عنايتهم الى اقامة نظــام عالمي يقوم على المبادىء الاشتراكية » كما قال برنارد شو أشهر دعاة الاشتراكية الفابية الانجليزية .

والذي يهمنا في هذا البحث هو الفريق الثالث الذي يقيم حججه على أن القومية ظاهرة غير تقدمية لم يعد لها مكان في المرحلة الحالية التي تفرض فيها أساليب الانتاج تنظيما مختلفاً للبشر .

ويقيم الاشتراكيون الأول دعواهم على أن القومية ظاهرة بورجوازية ، خلقتهـا

الطبقة الرأسمالية لتحقيق سيطرتها على السوق القومي، ويجب أن تزول بزوال هذه الطبقة باعتبارها (أي القومية) جزءاً من البناء الفوقي للمجتمع الرأسمالي .

إلا أنه ، برغم هذا الهجوم من جانب الاشتراكيين الاول على القومية ، فان لهم الفضل في توجيه أنظار الباحثين الى نقطة هامة في الدراسات القومية : هي أن الحركات القومية في المرحلة الأولى من ظهورها ارتبطت فعلاً بالأفكار والمذاهب السياسية الديمقراطية التي اعتنقتها البورجوازية الناهضة في ذلك الوقت ، وان قياداتها كانت تتألف دائماً تقريباً من أبناء هذه الطبقة. ولكن البورجوازية كانت في ذلك الوقت - باعتراف الاشتراكيين أنفسهم - حركة تقدمية قامت لتقضي على اوضاع متخلفة يسودها الاقطاع والحكم المطلق. كما يثبت تاريخياً في المراحل التاليـــة بما لا يدع مجالاً لشك أن القومية ممكن أن ترتبط بأفكار ومذاهب أخرى وأن تجد قياداتها من أية فئة تقدمية أخرى في المجتمعات التي ظهرت فيها .

والواقع أن كل الحركات القوميـة بلا استثناء ارتبطت بصورة او أخرى بالأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في البـلاد التي ظهرت فيها ، وكانت من العناصر الأساسية في تشكيل هذه الأوضاع وتطورها، وتولتها في الغالب قيادات تدعو الى أفكار محددة في التنظيم الاجتماعي والسياسي تعتبر أفكاراً تقدمية بالنسبة لهـذه البلاد . ولدينا على ذلك أوضح الأمثلة فيما حدث ، وما زال يحدث ، في البلاد الحديثة الاستقلال ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين . فقد ارتبطت معظم حركاتها القومية باتجاهات اشتراكية وشبه اشتراكية ، كما رأينا في الصين من سان يات صن الى ماوتسي تونج ، وفي اندونيسيا بقيادة سوكارنو ، وفي الهنـد بقيادة نهرو ، وفي غانا بقياده نكروما .

وقد استرعى هذا الارتباط بين الحركات القومية والأفكار الاشتراكية وشبه الاشتراكية في العالم المعاصر انتباه بعض كبار المفكرين ، مثل لارو بوركناو، وأطلقوا على هذه الظاهرة مصطلح « تأميم الاشتراكية » او «تشريك القومية » .

ولعل ماسبق فيه الكفاية لتأكيد حقيقة ارتباط الحركات القومية بالافكار والمفاهيم التقدمية . فهي قد ارتبطت في البداية بالديمقراطية الليبرالية التي كانت تمثل أفكاراً تقدمية على مايسبقها ، ثم نبذتها - في المجتمعات التي نضجت لمرحلة أكثر تقدمية ، وارتبطت بالافكار الاشتراكية . فكيف نفسر هذه الظاهرة ؟

ان التفسير الوحيد الممكن لها هو ان القومية في ذاتها مفهوم تقدمي ينبذ التخلف والرجعية . فهي تعبير عن « يقظة » جماعة من البشر تربطها أواصر مختلفة تجعلها تتطلع الى تكوين دولة خاصة بها ذات سيادة كاملة . وهذه اليقظة علامة بلوغ مرحلة معينة من نضج الوعي الاجتماعي لدى هذه الجماعة ودليل تحرير إرادتها . فوعي الانسان بانه فرد في جماعة كبيرة يشترك مع بقية افرادها في السيادة على اقليم معين يعتبرونه جميعاً وطناً لهم ويعتقدون ان من حقهم ان ينظموا بارادتهم ، ودون تدخل خارجي ، الحياة الاجتماعية والسياسية فيه على أسس يحددونها بانفسهم ، إن هذا الوعي هو حجر الزاوية في مفهوم « الايديولوجية » الذي تميز به العصر الحديث .

فالقومية بهذا المعنى ليست مجرد خطوة تقدمية بالنسبة الى ما سبقها ، بل انها أهم وثبة حققها الجنس البشري في تاريخ نضاله الطويل لتحرير إرادته من السلبية الكاملة والتسليم المطلق للقوى الغيبية في تحديد مصائره ، الى وعي ناضج بذاته وبقدرة إرادته على تحقيق نوع المستقبل الذي يقرره لنفسه .

ان جوهر القومية هو هذا الوعي وهذه الارادة ، هو تحول الانسان من مخلوق مسلوب الارادة حيال قوى تحكمه وتوجهه ، الى كائن ذي وعي يسير ارادة تتحكم في التنظيم الاجتماعي بصورة ما كانت لتخطر على بال قبل العصر الحديث . وبدون هذه الوثبة الكبرى في التقدم البشري ، لما تحقق أي تقدم آخر في أي مجال اجتماعي أو حضاري ، او حتى علمي . لأن هذه الوثبة هي التي اطلقت قدرات الانسان من عقالها وحطمت قيوداً استمرت آلاف السنين تكبل ارادته .

وكان من الطبيعي ان الجماهير التي بلغت هذه المرحلة من نضج الوعي وبدأت تمارس ارادتها ، اتجهت الى اولئك الذين يمثلون تطلعها نحو المستقبل ويستطيعون ان يقدموا لها افضل صورة لهذا المستقبل ، ووضعتهم على رأس مسيرتها القومية . وكانت الطبقة الوسطى الرأسمالية في مطلع العصر الحديث هي اكثر قطاعات السكان في المجتمعات الاوروبية نشاطاً ووعياً وتقدمية ، فكانت وحدها دون بقية الفئات تستطيع بوعيها النامي ان تتمثل مجتمع المستقبل المزدهر الذي يقوم على التوسع الاقتصادي والتصنيع ، ويسير نحو « التقدم » بصفة عامة ، في مواجهة قوى الظلام الاقطاعي والرجعية والاستبداد والفقر . اذ ان هذه الطبقة حملت لواء الصراع ضد الملكية المتألهة والاقطاع

بكل مفاسده واسرافه وبذخه ، وبرغم انها فعلت ذلك مدفوعة بمصلحتها الخاصة اولا ، فانها كانت في الواقع تمثل تطلعات المجتمعات الاوروبية ككل عندما حملت لواء النضال ضد النظام القديم .

ولذلك ، ولأن المشاعر الوطنية التي تمخضت عنها القرون الوسطى والحروب الدينية وما تلاها من تطورات اجتماعية كانت خالية — بعد ان تراجعت الافكار الدينية امام موجة العقلانية الجارفة — من المضمون الاجتماعي الذي تتطلبه موجة الوعي الصاعدة ، استطاعت الطبقة الوسطى ان تتولى قيادة الحركات القومية الوليدة وفرضت على المجتمعات الجديدة تصورها الخاص للتنظيم الاجتماعي في صورة المذهب الليبرالي والفلسفة الفردية اللذين يتلاءمان تماماً مع طبيعتها وأهدافها كطبقة . وبذلك صارت المشاعر الوطنية وعاء للديمقراطية البورجوازية في اولى مراحلها .

ولكن الطبقة الوسطى الرأسمالية ، وقد تولت الحركات القومية الاولى واستطاعت ان تجتذب اليها بقية فئات الشعب في صراعها ضد الاوضاع القديمة ، اضطرت من ناحية أخرى الى العمل داخل الاطار القومي . اذ برغم انها تجنح بطبيعتها أصلاً الى توسيع نشاطها على نطاق السوق العالمي بحيث يصبح العالم كله وحدة اقتصادية واحدة ، فانها نفسها اسيرة المفاهيم القومية والمشاعر الوطنية لدى الجماهير التي وضعت حدوداً للوحدة الاقتصادية الجديدة Unit لا تستطيع الطبقة الناهضة ان تتخطاها ، فاضطرت الى تركيز نشاطها داخل هذه الوحدة ، بل وان تجعل تعاملها مع العالم باسمها . ان الطبقة البورجوازية « تعلمت القومية في السوق القومي » فعلا كما قال ستالين ، ولكن السوق القومية نفسها وجدت كنتيجة مباشرة لنمو الوعي القومي .

لقد تألفت من المشاعر الوطنية والمضمون الليبرالي مركبة جديدة هي القومية ، مرتبطة بالفلسفة السياسية للطبقة الوسطى وتحت قيادتها ، مما دفع كثيرين من المفكرين — الذين لم يكونوا قد شاهدوا التطورات التالية في الحركات القومية — مجرد ظاهرة تنتمي الى مرحلة معينة من تطور المجتمعات وانها ستزول بانتهاء هذه المرحلة .

إلا ان ماحدث بعد ذلك من تطورات ، دل بصورة حاسمة على ان هذا التصور خطأ من اساسه . اذ مع الوقت ، ومع النمو السريع في الوعي لدى الجماهير ، صار « التقدم » بالنسبة لها شيئاً مختلفاً غير الديمقراطية البورجوازية والازدهار الاقتصادي الذي يفوز بثماره فئات قليلة العدد من ابناء المجتمع . ولم يعد التنظيم الاجتماعي الذي

يتفق مع اهداف الطبقة الرأسمالية « تقدميا » . فهل تبنت الجماهير « القومية » بمضمونها الديمقراطي البورجوازي في تطلعها نحو « التقدم » ؟

ان الذي حدث تاريخياً ان القومية بقيت وبلغت ذروة تأثيرها في النصف الثاني في القرن العشرين ، الا ان مضمونها – حيثما صار غير تقدمي – تغير وحلت محله مضامين تقدمية ، بل وثورية بالنسبة للمجتمعات التي اشتعلت فيها الحركات القومية الجديدة . كما تبنت الجماهير ، في مثل هذه الحالات ، القيادة البورجوازية السابقة ووضعت على رأس مسيرتها القومية قادة جدد يمثلون في نظرها « التقدم » ويستطيعون أن يحملوا لواء الشعارات الجديدة ويقودوا مجتمعاتهم في طريق تنفيذها .

فالقومية باعتبارها اصلا ظاهرة تقدمية ما كانت لتسمح بأن يظل مضمونها غير تقدمي والا فقدت جوهرها كتجسيد لنمو الوعي البشري ولقدرة الارادة البشرية على تحقيق التقدم .

* * *

وقبل ان نستطرد في تطبيق المبادىء السابقة على القومية العربية لتحديد مدى تقدميتها ، علينا ان نضع بعض المعايير لما يقصد عادة بمفهوم « التقدم » .

ان التقدم هو تصور معين لمسار التاريخ يقوم على أن الانسان يسير نحو الأفضل في اتجاه الكمال . ولما كانت هناك تصورات مختلفة لسير التاريخ ، فان مفهوم التقدم لابد ان يختلف بالتبعية .

فمثلا هناك مدرسة في التاريخ تؤمن بما يسمى « بالدورة التاريخية » ، أي ان المجتمعات البشرية تمر بفترات متتالية من الانحدار والازدهار . ويرى انصار التقدم من ابناء هذه المدرسة ان التقدم هو في الواقع عودة الى حالة معينة من الازدهار مرت بها المجتمعات ، أي عودة الى «العصر الذهبي» . الا اننا قلما نجد هذا الاتجاه الآن في دوائر الفكر التاريخي الا كاديمي .

وهناك كذلك من ينظرون الى التاريخ باعتباره قصة سيطرة الانسان المتزايدة على قوى الطبيعة وتسخيرها في أغراضه ، والتقدم في نظر هؤلاء هو ما اصطلح على

تسميته بالتقدم التكنولوجي . الا ان هذا المفهوم للتقدم يغفل أهم جوانب التطور الانساني ، بحيث يرى الكثيرون ان مثل هذا التقدم قد يكون ضاراً اذا لم يصاحبه تطورات اخرى .

وتنقسم غالبية المفكرين المعاصرين حيال مفهوم التقدم الى مدرستين رئيسيتين احداهما ترى التقدم في صورة خطوات او مراحل في اتجاه التطور الحتمي للمجتمع ، والاخرى ترى التقدم في صورة مجموعة من المعايير والقيم والظروف المادية التي يعتبر تحقيقها ، او تحقيق بعضها ، خطوات الى الامام في تحسين احوال البشر .

وتنقسم هذه المدرسة الاخيرة بدورها الى فريقين ؛ فريق يعتقد ان هناك قوى خارجية تحرك البشر في اتجاه التقدم دائماً (او ماهو انفع للناس) الى ان تصل بهم الى « السعادة الكبرى » — التي غالباً ماتكون في غير هذه الدنيا — وفريق آخر يعزو الى البشر انفسهم الدور الاكبر في تصور هذه القيم، كما يعزو الى الارادة البشرية الواعية دوراً فعالا في تحقيقها .

ولما كانت القومية اصلا هي استخدام ارادة الانسان في تحقيق اهداف تعتبرها جماعة من البشر أفضل من غيرها ، فان معظم الدعاة القوميين في القرن التاسع عشر والقرن الحالي ينتمون الى هذا الاتجاه الاخير .

ومن الجلي ان القيم والاوضاع المادية التي تمثل التقدم في تصور هؤلاء الدعاة ، تتلاقى عند ضرورة اقامة الدولة القومية المستقلة الخاصة بالامة التي يمثلونها ، ولكنها قد تختلف فيما عدا ذلك . فالاهداف القومية في اوربا في القرن الماضي كانت تتضمن فكرة تحقيق « حقوق الانسان والمواطن » المتمثلة في نوع معين من الحريات والازدهار للفرد . اما في البلاد النامية فان اهم أهداف الحركات القومية — بعد تحقيق الاستقلال والتخلص من السيطرة الاجنبية — هو ضمان نصيب عادل للمواطن في الثروة الوطنية . وحتى هذا التصور الأخير للتقدم يختلف الى حد كبير عند دعاة القومية المختلفين .

ولكن برغم هذا الاختلاف في الاهداف التي يتألف منها معنى التقدم ، تظل هناك مجموعة من القيم والاوضاع يعتبر العالم المعاصر تحقيقها خطوات نحو الحياة الأفضل للبشر ، وأهم هذه القيم هي القضاء على انواع التمييز العنصري والاستغلال ، والدعوة الى الحرية في كل مكان ، والعمل الايجابي من أجل تحقيق السلام والعدل . ويوصف

اصحاب هذه الدعوات عادة بأنهم « تقدميون » يدعمون نضال الانسانية من أجل حياة أفضل طليقة من قيود الاستغلال والعبودية في جميع صورها المادية والمعنوية . الا ان تحقيق هذه الاهداف يصطدم دائماً بعقبات كبرى يقيمها اعداء التقدم في كل مكان، الذين يكسبون من بقاء الحال على ماهو عليه ويستميتون في الدفاع عن امتيازاتهم ومكاسبهم . ولا يحطم مقاومة مثل هذه الفئات للتقدم الا العنف الثوري ، وفي هذه الحالة لا يوصف بالتقدمية الا « الثوريون » .

* * *

ونستطيع مما سبق ان نحدد بعض المعايير التي نحكم على أساسها على القومية العربية ، وهل هي ايديولوجية تقدمية ام لا .

فأولاً ليس هناك شك في ان الحركة العربية اتخذت ، بحكم ظروفها ، صورة ثورية في معظم مواطن تركيزها : في سورية ومصر وليبيا والعراق وجنوب الخليج العربي واليمن بشقيه والسودان والجزائر ، والثورة ، باعتبارها محاولة لتغيير جذري سريع في الاوضاع القديمة المختلفة ، هي طريق « التقدم » الوحيد بالنسبة للعرب . وكنتيجة لاختلاف درجات النضج والوعي بين اجزاء الوطن العربي – بحيث ان مايعتبر تقدمياً في بعضها لايمكن ان يعتبر الا متخلفاً في غيرها – كانت الثورة في بعض الاقطار ثورة سياسية ، وتوقفت عند ذلك بعض الوقت ، كما حدث في تونس واليمن الشمالي ، ولكنها في اقطار أخرى سرعان ماتطورت الى ثورة اجتماعية شاملة ، كما حدث في مصر وليبيا وسورية مثلا ، وبذلك اكتسبت الحركة القومية العربية ايديولوجية تقدمية ثورية .

والواقع ان اليقظة العربية حتى في بداياتها الأولى – وكانت هذه البدايات تتمثل في نوع من الانتفاضات التلقائية ضد السيطرة الأجنبية تكاد تكون خالية من المضمون الاجتماعي باستثناء بعض الاتجاهات السلفية والاحياء الديني والثقافي – برغم ذلك كانت هذه البدايات تمثل تقدماً واضحاً بالنسبة لحالة الجمود السابقة . فهذه الانتفاضات كانت تعبر عن درجة معينة من نضج الوعي لدى الشعوب العربية التي

قامت بها ، ولذلك استقطبت الرعيل الأول التقدمي من العرب ، وتسربت اليها شيئاً العقلانية والأفكار الليبرالية والديمقراطية التقليدية في صورة المطالبة بالدستور والحكم النيابي وسيادة الشعب والدعوة الى محاربة الخرافات الدينية والتقاليد العتيقة الضارة . ومن الجلي ان هذه الأفكار كانت متقدمة جداً على الحكم المطلق شبه الديني الذي كانت ترزح تحته جماهير العرب كرعايا للامبراطورية العثمانية .

ومنذ أن دخلت هذه المفاهيم في تيار الوعي العربي - بدرجات متفاوتة - بدأت الحركات الوطنية المختلفة في المشرق العربي ومغربه تتلاقى ، روافد تصب كلها في الحركة القومية العربية . وكان ذلك بمثابة خطوة تقدمية كبيرة أخرى في اتجاه النضوج القومي لدى العرب ، وإن ظل الطابع الغالب فيها ديمقراطياً تقليدياً الى حد كبير .

ولكن التقدم استمر بمعدل أسرع ، فلم يلبث المضمون الديمقراطي التقليدي ان تحول الى مضمون اجتماعي ، وبدأت الثورة الثانية - الاجتماعية - تضفي على المسيرة العربية طابعاً جديداً أكثر تقدمية في عدد غير قليل من الأقطار العربية .

وهناك ظاهرة تسترعي الانتباه في هذا التطور لمسيرة العربية ، ظاهرة تؤكد جوهرها التقدمي والامكانيات غير المحدودة التي تنطوي عليها في تطلعها الى مستقبل أفضل . فالمشاهد أنه عندما تحول النضال الوطني في أقطار الوطن العربي من مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار الى مرحلة الثورة الاجتماعية ، تأكد على الفور الطابع القومي العربي لهذه الأقطار ، واتسع نطاق فعالية الارادة العربيـة في القضاء على التخلف والرجعية وزادت معاركها ضد الاستعمار ضراوة . ولعل أوضح نموذج لهـذه الظاهرة هو اشتعال الروح العربية بين الجماهير المصرية بمجرد ان ظهرت بوادر الثورة الاجتماعية في مصر في الخمسينات الماضية .

ان هذه الظاهرة وغيرها مما نشاهده في ساحة النضال العربي تـدل على ان المسيرة العربية ، بوصفها حركة قومية ، حركة تقدمية بطبيعتها وبعضويتها . ولكن القوميـة تحمل ايضاً سمات تقدمية اخرى خاصة بها لا نجدها بالضرورة في الحركات القومية المعاصرة الاخرى ، وهي سمات تستكمل بها حقها في أن تعتبر على رأس الحركات التقدميـة التي يعرفها العالم في الوقت الحاضر .

وهنا يجب أن نعود الى تلك المجموعة من الاوضاع المادية والقيم والمعايير التي تعتبر خلاصة التراث البشري التقدمي وعنوان « التقدمية » ، للسترشد بها فيما نصدره من أحكام .

لقد أشرنا في موضع سابق الى ان احد التيارات الرئيسية في الفكر المعاصر يرى التقدم في صورة خطوات تتخذ للسير بالمجتمعات في اتجاه مراحل حتمية متتالية يحكمها سير التاريخ . ويعتبر اصحاب هذا الرأي ان المرحلة المعاصرة التي يجب أن يعمل من اجلها التقدميون حيثما توفرت الظروف الموضوعية الموائية هي الاشتراكية . فاذا طبقنا هذا المعيار على الحركة القومية العربية نجد انها تعمل – حيثما توفرت لها الظروف الموضوعية – على تحقيق الاشتراكية وانها اعتبرت الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، وصولاً ثورياً الى « التقدم » ، هو الحل الحتمي الذي لا بديل له ، وجعلت تحرير الانسان العربي من كل ضروب الاستغلال ، هدفها الاسمى . ومن فاننا اذا أخذنا بهذا المعيار للتقدمية ، فان القومية العربية تمثل ايديولوجية تقدمية الى أبعد ما تصل اليه التقدمية .

واذا كانت التقدمية تقاس بموقف معين من « الحرية » فان قادة الحركة العربية كانوا ، بحكم الهدف الأسمى للمسيرة التي يقودونها ، اول المدافعين عن الحرية في كل مكان، وعن حق الشعوب كلها في التحرر من الاستغلال بكل أنواعه ، ولعل هذا الموقف الايديولوجي من « الحرية » ، باعتبارها قيمة انسانية غير قابلة للتجزئة ويجب النضال من أجلها أينما تطلب الأمر دفاعاً عنها ، هو السبب الرئيسي الذي جعل القومية العربية هدف العداء الشديد من جانب قوى الامبريالية والاستغلال .

ويفرض هذا الجانب من الفكر القومي العربي مواقف محددة على المفكرين العرب من ظواهر متفشية في العالم المعاصر ، مثل ظاهرة التمييز العنصري التي تشوه وجه الانسانية في أماكن كثيرة تعيش فيها جماهير البشر بلا حقوق ولا حريات ، ترسف في أغلال العبودية .

ولعل القومية العربية ذاتها من أبعد القوميات التي عرفها التاريخ الحديث عن التعصب واكثرها نقاء من ضروب التمييز ، بل انها وقفت باستمرار بمشاعرها وامكانياتها الى جانب من كرسوا حياتهم لإزالة هذه الوصمة من جبين البشرية .

واذا كان الكفاح من اجل السلام بين البشر والحرص على تجنيب العالم ويلات الحروب وفظائعها هما مقياس التقدمية ، فقد اسهمت الحركة العربية في كل دعوة

للسلام ، بل ان « السلام » يعتبر هدفاً قائماً بذاته من أهداف المسيرة العربيـة لأنها في حاجة اليه لبناء المجتمع القومي التقدمي والدولة العصرية .

وحتى عندما فرضت قوى العدوان الحرب على العرب ، لم ينسوا قط ان السلام هو الهدف النهائي الذي يجب ان يعملوا من اجله بعـد ان يستردوا حقوقهم ويزيلوا آثار العدوان عليهم ، وتشهد الاحداث ان شهوة الحرب من أجل الحرب لم تستبد بهم في أيّ لحظة من اللحظات .

وقد كانت أول دولة قومية استطاع العرب اقامتها ، وهي الجمهورية العربيـة المتحدة ، احد عمد السلام في العالم ، واسهمت في تكوين مفهوم الحياد الايجابي يهدف تحقيقه وضمانه ، وشاركت ايجابياً بكل امكانياتها في الجهود التي بذلت من اجـل نزع السلاح .

ان هذه المواقف جميعها لايمكن ان تنبثق الا من ايديولوجية تقدمية بأي معيار نحكم به . فالقومية العربية تمثل احدى تلك الظواهر النادرة في التاريخ ، ظاهرة الامة التي تصارع من اجل بقائها ووحدتها ، وتناضل في نفس الوقت من اجل تحقيق عالم افضل ، وتتحمل تبعات هذا النضال ومسؤولياته وما يجلبه عليها من أعدوان لتؤكد ذاتها بالاسهام في تراث البشرية مرة اخرى بنصيبها الذي لايستطيع احد انكاره .

لقد تـكالبت على الأمة العربية ومسيرتها القومية قوى الرجعية والتخلف، وقوى الامبريالية والعدوان ، وكل اعداء التقدم في الداخل والخارج وناصبوهـا عداء وحشياً ووقفوا لها دائماً بالمرصاد . ألا يكفي ذلك لـكي نحكم على القوميـة العربية بأنها ايديولوجية تقدمية ؟ ان الأمة العربية الصامدة في الكفاح من أجل ما تؤمن به لايعوزها دليل آخر على تقدميتها . وهي لا بـد أن تكون كذلك ، فمسيرتها صورة من الصور النبيلة لنضال الانسان الحر عبر التاريخ من اجل حياة افضل، حياة طليقة منقيود الاستغلال والتخلف بجميع اشكالها المادية والمعنوية. والثورة العربية ليست تقدمية بطبيعتهـا فحسب ، بل ان غايتها هي التقـدم ، وجوهرها الأصيل هو إيمان الإنسان العربي بنفسه ، ورغبته في تغيير عالمه الى الأفضل ، وادراكه انه يستطيع أن يحقق هذا التغيير بارادته .

القـاهرة

الدكتور نور الدين حاطوم

القومية العربية : ايديولوجية تقدمية ٣

الاصول التاريخية :

الأمة العربية في عصرنا الحاضر سليلة ماض تاريخي مديد ، وحضارات عريقة مبدعة . والشعب العربي شعب أصيل ، قديم ، عرف بنشاطه ، وتوقد ذكائه ، وقابليته للتجديد والتقدم وتمثل الحضارة واغنائها بعناصر جديدة . والتاريخ العربي حافل بما قدم العرب من مآتي . فقد استطاع العرب أن يحملوا مشعل الحضارة وينيروا به ظلمات الأمم الأخرى فترة طويلة من الزمن . وكان من الممكن ان يظلوا رسل التجديد والنهضة والتقدم ، ، لولا ان قدرهم التاريخي والجغرافي جار عليهم ، وعكر صفاءهم ، وجعل بلادهم عرضة لغزو الامم الشرقية والغربية التي انهالت تقوض مابنوه من تراث حضاري . وكانت الضربات متوالية احياناً ، واحياناً أليمة ولكنها غير قاضية .

ورغم عوادي الزمان ، عاش العرب ، وانجزوا ، وحافظوا على ما ابدعوا ، وما بقي يدل على الانتاج الاصيل . وهذا الانتاج الذي سلم من الضياع كان بمثابة النار تحت

الرماد ، ما ان ينفخ فيه حتى يتقد . وهو في الوقت نفسه تراث الامة العربيــة الى الأجيال الحاضرة والمستقبلة . ولولاه لما كان للعرب شيء يباهون به بين الامم . فمنه العزة ، واليه العودة كلما ألم بالعرب خطب أو داهمهم خطر . وان من حق كل عربي ان يفخر بهذا التراث العربي الخالد على الدوام ؛ وان يعمل على انمائه والحفاظ عليه ليزيد في ثروته الفكرية وقوته المعنوية واصالته الابداعية . ومهما حاول الاعداء كيل الضربات للعرب ، فسيجد العرب لأنفسهم في هــذا التراث الحضاري معيناً لا ينضب من الدفـاع والصمود والخلق وقوة الغلاب .

لقد فتح العرب العالم ، ونشروا الاسلام في ربوعه ، واوجدوا شعباً عربياً لغته العربية الفصحى ودينه الاسلام ، وشادوا دولة بل امبراطورية واسعة الارجاء مترامية الأطراف . ثم تراجعت الحدود وانطوت على الرقعة الارضية التي انتشر فيها العرب قبل الاسلام وبعده ، وهي هذه البلاد الممتدة من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي التي كونها التاريخ العربي عبر القرون ، وأوجد للعرب جغرافية عربية حددت معالم الوطن العربي وجعلته يمتاز بصفات مشتركة، مهما تناءى المكان بين مشارق العرب ومغاربهم ، واهمها هــــذه اللغة العربية العظمى التي يتكلمها العرب جميعاً ويفكر بها العرب جميعاً .

والملاحظ في التاريخ العربي ان شمس الحضارة العربية ، بعد أن لمعت بسناهـا الوضاء وأعطت العالم أفضل ما عندها من نشاط وحيوية وفكر ، أخذت تميل الى الغروب وتعاني دور انحطاط وركود دام طويلاً . ورافق هذا الأفول العربي تقدم أوربة . فما أن انحسرت عنهـا الغارات البربرية إلا وأخذت تجمع قواها ببطء ، وتحقق تقدمهـا ، وتحصل في كل يوم على مكاسب جديدة ، يدعمها في ذلك طرق علمية متينة ، وفكر حر ، وعمل دائب دائم لا يمل الاختراع ، ونقد مجرد بنـّاء .

وفي الحقيقة أن الأفول العربي كان له أثره العميق في حياة المجتمع والفكر الحر. وبالرغم مما يقال أن العمل الفكري بنجوة عن العمل السياسي ، وأن ضياع المجد السياسي لا يعني توقف الفكر عن الانتاج ، فان من المقبول أن فقد المجد السياسي ظل عميقاً في حياة العرب ، وأنهم أصبحوا دون دولة جامعة ، ودون حام ، ودون أم رؤوم يركنون اليهـا . لأن التفتت الذي ألم بالعرب فتح أعـين الأعداء عليهم وزاد في ضعفهم ثقافياً

وفكرياً ، كما كان سياسياً ، حتى زالت الأصالة ، وانطفأ حب الاطلاع ، وساد التقليد والعقم . وعندما تم الاتصال بين الغرب الحديث وبلادنا العربية كان الغرب قد حصل على شيء من التقنية الصناعية والتقدم العلمي مما يكفي للتغلب على قوى التقليد في بلادنا .

وتجلى الانحطاط الذي منيت به البلاد العربية منذ أن خرجت أوربه بعد الاكتشافات الجغرافية الكبرى وتوسعت في العالم . ودل الصدام الأول مع البرتغاليين والاسبان على ضعف الامكانات العربية سواء في شواطىء المحيط الأطلسي والبحر المتوسط أو البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي. وكان هذا الاحتكاك بمثابة المنذر الأول، لولا أن العثمانيين حاولوا أن ينجدوا العرب ، طمعاً في بلادهم ، ووقفوا حيال البرتغاليين والاسبان . ثم ما لبثت البلاد العربية أن وقعت في معظمها بيد الأتراك العثمانيين ، وعامل هؤلاء العرب كما عاملوا غيرهم . ولم يكن همهم قبل كل شيء إلا أن يجبوا الضرائب المفروضة ويغتنوا على حساب البلاد وأهلها، دون أن يقدموا لها من الخدمات إلا ما قل وندر . وزاد تأخر البلاد العربية مع الزمن ، واجتاحتها موجة الدول الاستعمارية ، وكانت الصدمة الثانية في مدافع بونابرت عندما غزا مصر ، ولا يخفى أن هذه الصدمة كانت على كل حال منبهة ، ورب ضارة نافعة .

ثم تجمعت للعرب عوامل متعددة أحدثت النهضة العربية . وليس بالضروري أن تكون هذه العوامل خارجية من الغرب الأوربي، بل كانت في بعضها داخلية ومن العرب أنفسهم ايضاً . ومنذ انطلقت الحركة الثقافية في بلادنا العربية وهي آخذة بالنمو عن عن طريق فتح المدارس على اختلاف أنواعها وارتياد الجامعات العربية والأجنبية والايفادات والبعوث الى البلاد الأجنبية . وتكونت على هذا النحو أجيال عربية مستنيرة بالحضارة الحديثة ، مؤمنة بتقدم العلم سبب كل نهضة . وهذا ما أثار ضميرهم الحي ، ودفعهم الى توعية أبناء قومهم، والمطالبة بحريتهم وخلاص بلادهم من الاستعمار. وأنتجت اليقظة الفكرية يقظة سياسية عاصرت يقظة الشعور القومي والحركات القومية في أوربه ، ولكنها اختلفت عنها في أنها كانت ثقيلة الخطا ، وئيدة الحركة ، مترددة ومتشعبة ، ومختلفة الألوان والآراء والاتجاهات زماناً ومكاناً . ومهما تكن هذه المظاهر المختلفة ، فقد تمكن العرب بعد يقظة الوجدان القومي أن يناضلوا ويتخلصوا من حكم الأتراك العثمانيين والدول الاستعمارية ويحققوا استقلال أقطارهم وانشاء دول عربية مستقلة.

واليوم تعاني الأمة العربية جمعاء ازمة حادة في مقوم من مقوماتها الأساسية

في وحدة أرضها ووحدة شعبها ، بعد ان تألبت عليها الامبريالية الاستعمارية والقوى الصهيونية العالمية الغازية لتعود بها الى عهود الاستعمار الاولى بعد ان تغير الزمان وصحت الشعوب . والعـــرب مهددون لا بضياع اراضيهم ونهب خيراتهم فحسب ، بل بإبادة ارواحهم وفناء حضارتهم ايضاً ، ودحر من تبقى الى رمال الصحراء ليعودوا الى حياة ماقبل التاريخ . فهل هم راضون عن هذا المصير ؟ !

ان الدارس لتاريخ العرب يرى أن العرب قوم كسائر الأقوام مروا بظروف تاريخية جمعت قواهم وألفت بين قلوبهم ، كما مروا بظروف أخرى طاغية بددت هذه القوى وأخرت تقدمهم . وهذه هي حال الشعوب تمر بفترات قوة ، كما تمر بفترات خمود وضعف . وليس التاريخ العربي الا هذا التسلسل من الأحداث التي مر بها العرب أو خضعوا لها أو صنعوها بأنفسهم ، أو كانوا ثائرين عليها ، متطلعين الى الحياة الأفضل الى أن انتهى بهم المطاف الى مرحلتنا الحاضرة .

لقد صنع التاريخ العربي في الماضي تلقائياً وعفوياً وبشكل غير مراع على الأغلب ، أي أن الحوادث كانت تسير الجماعة العربية بشكل يختلف عن الحاضر . وفي أيامنا انتقلت البشرية العربية من مرحلة اللاوعي الى مرحلة الوعي ، ولم تصل بعد الى درجة عليا من التكامل . وعليها أن تقطع مرحلة قد تطول أو تقصر حتى يتم فيها الوعي ويغلب على الجماهير والسواد الأعظم من الناس . وذلك لأن الشعب العربي ، بالرغم من التقدم الثقافي الذي حققه ، ما زال يشكو التخلف . وهذه الشكوى ثمرة من ثمرات الوعي الفكري الذي بلغه بعد طول الجهد .

والشعب العربي ، بوجه الاجمال ، صحا من رقاده ، وأخذ يتذكر ذاته العربية ، وعرف الروابط التي تربط أفراده بعضهم ببعض ، وشعر بروح التضامن العربي الذي يدفعه الى التحرر من القيود التي كبلته بها ظروفه التاريخية . وصنع تاريخه العربي الحديث على أسس عقلانية جديدة . واذا كان تاريخ العرب الماضي قد صاغته الظروف التقليدية والتلقائية والعفوية ، فان التاريخ العربي المعاصر يريده الفكر العربي الواعي أن يصنع بقوى فكرية واعية تنمو أفقياً وتمتد عمقاً ، وتغامر الجماهير العربية بعد أن كانت هذه القوى مقتصرة على بعض العقول النيرة . وهذه المرحلة الجديدة في تاريخ العرب الحديث هي مرحلة القومية العربية المبنية على الوعي بمختلف مظاهره الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى العزم والارادة والتصميم والتنفيذ والتحقيق .

منظور الحاضر والمستقبل :

واليوم، وقد كثرت الطبقة المثقفة الواعية في البلاد العربية. هذه الطبقة المستنيرة التي يراد منها أصالة الرأي وتوجيه الجماهير لما فيه خيرها وخير الشعب العربي كله، ووصلت البلاد العربية الى ما وصلت اليه من تحقيق الذات والنمو والاستقلال بعد الكفاح المرير، فان من حق كل مثقف عربي مؤمن بعروبته وبمستقبل أمته العربية ان يعرب عن رأيه دونما لبس أو غموض، لتلتقي الآراء وتتعانق الأفكار وتصل بالامة العربية الى ما تصبو اليه من عزة وكرامة وسؤدد .

وقبل أن نبدي رأينا في مفهومنا لقوميتنا العربية، نريد أن نبين أن الدراسات والمؤلفات التي تناولت موضوع القومية العربية كثيرة ومختلفة ومتضاربة، وما ذلك الا لاختلاف نزعات الكتاب وآرائهم . والمهم هنا ان نبدي هذين التحفظين :

الأول: ان كثيراً من المؤلفين يخلطون بين التاريخ العربي ومفهوم القومية العربية الحديث، وان كانت الصلة وثيقة بين الأثنين، ولكن لكل منها ظروفه الخاصة المميزة . والتاريخ العربي شيء، والقومية العربية شيء آخر . كما تحاول بعض المؤلفات ان تثبت ان القومية العربية عريقة وقديمة في حياة العرب وتاريخهم وكأن احداثاً لم تحدث بين غابر العرب وحاضرهم، او بتعبير آخر، وكأن العرب لم يتطوروا خلال تاريخهم المـــديد، وكأن القومية العربية ولدت معهم بالفطرة ونشأوا معها ومازلت هذه حالهم . فاذن لاشيء جديداً في حياة العرب .

والثاني : ان الوحدة العربية قديمة في تاريخ العرب، وعلى هذا الأساس يحاول بعض الناشرين خلال كتاباتهم، ان يظهروا الظروف والعهود والأدوار التي يكشفون فيها عن وجود الوحدة العربية، متناسين عهود الظلام التي فرقت شمل العرب وبعثرت قواهم، لينتهوا الى القول بقدوم الوحدة العربية كوحدة سياسية . ونتساءل ماذا يضر العرب اذا كانوا في الماضي مشتتين اومجموعين ويريدون اليوم ان يجمعوا شملهم ويلموا شعثهم ويشكلوا وحدتهم القومية بأرادتهم المشتركة . وسواء نشأ ام لم نشأ، مر العرب بظروف الوحدة، كما مروا بظروف الفرقة، وان

مايشرف تاريخهم الحديث هو انهم يفكرون بوحدتهم العربية ويسعون الى تحقيقها سياسياً .

ان تاريخ النهضات القومية وتأسيس الدول القومية الحديثة يتميز بمرحلتين أساسيتين :

في المرحلة الاولى ، تم تأسيس الدول الحديثة على ايدي الملوك والسادة ، لأن هؤلاء عرفوا كيف يجمعون القوى الشعبية حولهم ويوجهوا جهودها المشتركة وينموا بين افرادها الروح القومية ، كما جرى في مطالع العصور الحديثة عندما تأسست دولة فرنسا وانكلترا واسبانيا وغيرها من الدول الاوربية الغربية منها والشرقية . وهذا يعني ان ارادة السادة كانت غالبة ولها اليد الطولى في تأسيس الدولة القومية .

وفي المرحلة الثانية ، تأسست الدول الحديثة القومية على يد الشعوب والارادة الجماعية التي وعت نفسها وارادت عن عزم وتصميم ان تحقق ذاتها ، فناضلت وجاهدت ،واستطاعت ، بعد لأي ،ان تتغلب على القوى القاهرة وتؤلف دولها القومية .وهذه حال معظم الدول التي تشكلت حديثاً في غضون القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وهذا مادعابعض المؤرخين ، من وجهة نظر مقبولة لحد ، ان يسمي هذه الفترة بتاريخ القوميات والحركات القومية .

وما من شك في أن العرب في تاريخهم الحديث قد تأثروا بالنهضات القومية التي تحققت في القرن الفائت وفي هذا القرن ، ويريدون الآن ، أو تريد الطبقة المؤمنة الواعية لمستقبل العرب والوحدة العربية أن يحققوا وحدة العرب السياسية على مسرح التاريخ المعاصر أسوة ببقية الأمم الناهضة التي سبقتهم في هذا المضمار وشكلت دولها القومية . وتاريخ القومية العربية هو تاريخ الارادة الجماعية العربية المتطلعة دوماً الى غد الوحدة القومية العربية ، دولة العرب الواحدة من المحيط الى الخليج .

هذا وتضع القومية العربية في عصرنا الحاضر عدة قضايا أهمها :

١ – العناصر المقومة :

لا شك أن الارض واللغة العربية الفصحى مقومان أساسيان في القومية العربية واذا اتفقت آراء الكتاب عليها ، فان الاختلاف يظهر في الدين كعنصر مقوم . في البلاد العربية تنوعت المذاهب والأديان ، ولكن الاكثرية الغالبة فيها تدين بالاسلام وتأتي بعده المسيحية ولقد عاش أتباع هذين الدينين معاً متجاورين في أمن وسلام وطمأنينة لا يعكر صفوهم معكر ، ولم يشهد تاريخ البلاد العربية اضطهاداً دينياً بسبب التفرقة الدينية ، كما شهدت اوربة مثلاً ، واذا حدث بعض اضطهاد في بعض الأحيـــان ، فلم يحدث الا تحت تأثير التدخل الاجنبي أو الغزو الخارجي الذي يريد الايقاع باتباع الدينين بضربهم ببعض ليبقى سيداً وحكماً ، هذا فضلاً عن أن بلادنا العربية لم تعرف التعصب الديني الذي عرفتـــه البلاد الاخرى . لقد كان الدينان الاسلامي والمسيحي ، بما فيها من قيم روحية مثلى وتعاليم خلقية سامية ، يقربان ما تنامى بين أبنـــاء العرب ويأمران بالمعروف وحسن التفاهم والوفاق ، لا سيما وان الأرض العربية مهد الأديان ، وفيها نشأ الاسلام والمسيحية ، واذا اخذ الدين بمفهومه الروحي السامي اعتبر عامل توحيد بين العرب لا عامل تفريق .

والأمر الموضوع للقومية العربية كفكرة يراد منها انشاء الدولة العربية الواحدة هو هل يجب ان يكون لهذه الدولة دين أو ان تكون دولة علمانية ؟ الجواب هو اننا اذا فهمنا الدين بمعناه الخلقي والروحي السامي ، زال اللبس والخوف وسوء الظن وامكن بناء الدولة على أساس علماني ، لأن الوطن للجميع والدين للديان جل جلاله . وان بناء الدولة على هذا الاساس يزيل الفوارق الدينية التي يشكى منها احياناً ، وهذا لا يمنع من البقاء مسلمين أو مسيحيين على دين آبائنا وأجدادنا وان نحب بعضنا ونتضامن ونحن أبناء وطن واحد وقوم واحد ودولة واحدة ؛ وان القوانين التي تسن تفرض على الجميـــع ويخضع لها الجميع دون استثناء او تمييز . وهكذا تذوب الأديان في بوتقـــة الدولة كما تذوب العنصرية والتعصب والاقليات القديمة ، لان الدولة الحديثة ام للجميع وحام لهم وتضمهم معاً وهي لهم كلهم وهم لها . ولا شك في أن هذا المفهوم الوطني العلوي يحتاج الى معيار خلقي رفيــع مجرد عن المنفعة الخاصة ، والى طيب ارادة وحسن نية . والقومية العربية في مفهومها الحديث تتطلب هذا من كل عربي . وفي الحقيقة ان فرقتنا سياسية أو مصلحية وليس الدين مسؤولاً ، بل وكثيراً ما استغل الدين لتغطية خلفيات تافهة .

٢ – الحرية .

لقد قامت القومية العربية ، كسائر القوميات ، منذ نشأتها الأولى على أساس التحرر من القيود التي يرسف بها العرب والوطن العربي الكبير فهناك قيود وبدع واباطيل وضلالات وتعاملات عفى عليها الزمن ، ولم تعد صالحة لزماننا . وكان ضرورياً لنهضة العرب التحرر من هـذه القيود ؛ أياً كانت ، والعودة الى نقاوة الشعب العربي في لغته واخلاقه وسجاياه ، والى تغيير عقليته ليحكم على الأمور بصفاء ، وعلى أساس منطقي صحيح ، لا ان يفرض عليه الأمور فرضاً . أو بسائق التقليد والعادة دون اعمال فكر .

ومن جهة أخرى ، ان القومية العربية ، ككل قومية ، تهدف في نموها وتكاملها الى جمع شمل العرب وتعبئة جهودهم للتحرر من السيطرة الأجنبية التي رانت على قلوبهم حقبة غير قصيرة من الزمن ، وكان هدفها الأول تحرير الوطن العربي من كل قيد يربطه بالاستعمار ويقيد حريته ونشاطه . وكان من الممكن ان تكون حركة التحرر العربي من الاستعمار حركة جماعية يقوم بها الشعب العربي قاطبة ، لو ظلت الأرض العربية دون حدود سياسية . ولكن الأوضاع التي احاقت بالعرب فتتت قواهم وجزأت وطنهم وجعلتهم يناضلون الاستعمار على الصعيد الاقليمي في البدء ، ولكن هذا النضال ما لبث ان اخذ طابعاً جماعياً منذ ان تحرر القسم الأكبر من الوطن العربي ، وحملت قضية فلسطين العرب ، اثر الاحتلال الصهيوني ، على التفكير الجماعي والعمل الجماعي .

ولاشك في ان الحركة التحررية في البلاد العربية قامت على ايدي المثقفين من العرب الاحرار الذين تأثروا بالفكر الحر وبالحركات التحررية ، وكانوا في اكثريتهم من ابناء الطبقات الموسرة ، من الاستقراطية صاحبة الأطيان ، ومن البرجوازية الرأسمالية . وكان هذا طبيعياً ، لانها كانت الطبقة المثقفة الوحيدة في البلاد . واستطاعت هـذه الطبقات على اختلاف منافعها وبما اوتيت من ثقـافة ، وما بذلتـه من جهد وتضحيات ، ان تجمع الطبقات الشعبية حولها وتقاوم الاستعمار في فترة مـا بين الحربين وبعدها وتحقق الاستقلال تباعاً . غير أن مـا يؤخذ على هذه الطبقة هو ان عملهـا في الغالب كان سلبياً وارتجاليـاً دون تخطيط ، وأحياناً عشوائياً ، ولم توجد الاجهزة المنظمة لتعويد الاجيال على النظام وحب النظام واحترام الحرية وحقوق المواطن . ومن جهة أخرى ، ان هذه الطبقة ما ان استلمت الحكم الا وأرادت ان تبقى فيه محافظة على امتيازاتها والتوسع فيها، والبقاء على رأس السلطة الى الابد ، كأن على الوطن ضريبة يجب ان يؤديها في إبقاء هؤلاء

السادة في مراكزهم القيادية ، رغم تبدل الظروف ، مما ادى الى الكثير من اعمال الشغب والفوضى والاضطراب ، في وقت نمت فيه الطبقات الواعية من ابنـاء الشعب ، وكان طبيعياً ان تزول الطبقة الحاكمة التقليدية المستأثرة وتحل محلها طبقات جديدة اكثر تحرراً وتقدماً واوسع افقاً وتطلعاً الى المصير العربي الواحد .

وكما حررت قوميتنا العربية البلاد من كل سيطرة أجنبية لتعود لها حريتها وارادتها الخاصة ، كذلك تريد ان تحرر المواطن داخلياً ليعرب عن آرائه بحرية ويشعر بأن لاضغط عليه يرهقه فيمنعه من استغلال مواهبه وابداعه . وهذه الحرية التي تمنحها للمواطن تجعله يشعر بكرامته كانسان ، وبأنه عزيز في وطنه ، وبين ابناء قومه ،وتحمله مسؤولية حريته . ولقد دلت التجربة السياسية ، التي تمت في بلاد غير بلادنا ، ان حرمان المواطن والشعب من حرياته الأساسية معناه تقييد طـاقاته وقدراته وتسخيره للدولة تفعل به ما تشاء . وما لبثت الحال الا وفقد الشعب روحه المعنوية، وكانت العاقبة وبالاً على الشعب والدولة .

ويقدم تاريخ الدول امثلة حية من هذا النوع : فقديماً كان الملوك يدعون بأن سلطتهم من الله ، ولذا فهم مسؤولون امام الله لا أمام الشعب ؛ ولكن الشعب ثار عليهم وأزال سلطتهم المطلقة . وفي تاريخنـا المعاصر قـامت الأنظمة الدكتاتورية الحديثة ، واستعملت كل امكانياتها لتسخير الفرد والشعب لسلطة الدولة، ولم تأل جهداً في استخدام القوة والخداع والمكر وتأليه الدولة واحتقار الشعب وجعله آلة طيعة . ولكن ماذا أفاد كل ذلك ؟ لقد أدى الى الأنهيار السريع ، وهذه خاتمة كل حكم تسلطي . وربما يقال ان الدولة في ظل هذا النوع من الحكم تستطيع ان توجه الرأي توجيهاً شاملاً وتحشد طاقاته وتوجد الانسجام بين الفرد والدولة . ولكن الذي حصل ويحصل دوماً ان هـذه الأنظمة تسخر الشعب لخدمـة طبقة جديدة ، طبقة الزعمـاء والموجهين والبورقراطيين الذين يستبدون بالشعب باسم الشعب . وينتج عن ذلك استبدادية جديدة ، واباطرة جـدد ، وتسلطات غير معروفة من قبل ، الى ما في ذلك من قيود وكم افواه ، واعتداءات تزيل الثقة بين الحاكمين والمحكومين ، وتضعف السياسة الخارجية لأنها لا تطمئن الى تأييد شعبي مخلص . وهكذا يعيش الشعب والحكم والنظام في جو الخوف والارهاب والمداجاة والرياء الى ان تهب العاصفة فتطيح بالنظام وأهله بعد الخراب والدمار، وتقع البلاد في صعوبات جديدة ، وقد يطول الزمن لتعود وتبني نفسها من جديد .

وقد يحرص البعض على التمسك بالنظام الجمعي وتطبيقه في البلاد المتخلفة ويرون ضرورة وجود طليعة قيادية موجهة للشعب لتدله على مافيه خيره ، بعد أن ثبت عدم صلاحية الحكم الديموقراطي للشعوب المتخلفة الذي يسوقها الى الفوضى . وهنا أيضاً يرد للخاطر سؤال وهو : هل عودت هذه الشعوب المتخلفة على الديموقراطية الحق واستعمال الحرية بحق وتربيّت عليها حتى نحكم بفشل النظام الديموقراطي ؟! ولاشك في أن الاختلاف بين النظرية والتطبيق كثيراً ما يحصل في شتى الانظمة ، مهما كانت ، ولكن في النظام الديموقراطي أقل ضرراً وآمن عاقبة ، وأن ماتستطيع الدكتاتورية عمله ، بأساليبها المعروفة ينتهي بها أخيراً الى تهديم النفوس وتوليد الكراهية والملل والقرف واليأس والعزلة والجمود والاستغلال البشع ، واحلال القوة محل القانون ، والظلم مكان العدل ، والى أبعاد الشعب عنها وعن رجالها منتظراً الخلاص بأي سبيل . وقوميتنا العربية تريد أن تكون براء من كل هذا لتبعد عن نفسها المزالق التي وقعت بها القوميات الاخرى . وبهذا المعنى تعلق القومية العربية أهمية خاصة على العنصر الانساني وتفتحه وعطائه ، ولذا تتيح الحرية في مجال الفكر والقول والعقيدة ، وتأخذ بيد المواطنين . أياً كان وضعهم الاجتماعي ، ليعطوا أحسن ما عندهم من خير ، وتحول دون تسلط أي فرد أو أي طبقة أو جماعة ـ أو فئة ـ وتعتبرهم سواسية في الحقوق والواجبات ، وتسهر على أمنهم وسلامتهم .

كما توفق القومية العربية بين نزعتها القومية ونزعتها الانسانية : فهي تؤمن باخاء الشعوب واحترامها بعضها لبعض ، وإشاعة روح التفاهم والوفاق والتآلف فيما بينها ، وحريتها في أوطانها ، كحرية الشعب العربي في وطنه ، وتقاوم كل عدوان على شعبها وأرضها . ولها ، من تراثها العتيق وقيمها الروحية ، ما يجعلها منزهة عن كل عصبية جنسية أو دينية أو نعرة قومية أو نزعة تسلطية أو عدوانية . انها تعز الانسان وتقاوم العدوان . وهي بهذا الاعتبار حرة ، قومية ، انسانية ، وليس بالضرورة أن تكون أممية ، لأن قيمة الانسان أو قيمة المواطن تكون بانتمائه وبشرف هذا الانتماء الى وطنه وقومه ، أي الى كل مايميز ذاته القومية عن ذات القوميات الأخرى . وهذا لايعني مطلقاً التعصب وضيق الفكر أو الانحطاط أو الانطواء ، بل ، على العكس ، ان من يحب وطنه ويعتز بالانتماء اليه يقدر عواطف الآخرين واحترامهم لأوطانهم ، ومن هذه العاطفة الانسانية يصدر الاحترام المتبادل ، والتفاهم والمساواة بين الشعوب ، مادامت الشعوب لم تصل الى درجة الانبياء والرسل والمصلحين والملائكة ، واذا وصلت البشرية في مستقبل

آت الى هذا المستوى الرفيع أمكنها أن تشكل مجتمعها الطوباني ، وما دمنا لم نصل فلا بد لنا من التقيد باعتبارات زماننا ومكاننا خشية ضياعنا .

٢ – الاشتركية :

عالمنا المعاصر عالم تغير وتحول ، كما هو عالم لقاء مستمر بين الشعوب . لقد قصرت وسائل النقل والاتصال الحديثة المسافات ، بل حذفتها ، وجعلت بني الانسان يعيشون وكأنهم في بلد واحد ، في مدينة واحدة ، وما يوجد في بلد لا يلبث ان يوجد في البلد الآخر . وهكذا تكاثر الأخذ والعطاء بين الشعوب ، وامتدت التيارات العالمية . وموقع الوطن العربي وسط القارات يجعله أهلاً للتأثر بهذه التيارات بقصد او عن غير قصد . وقد شهد تاريخ القرن العشرين ثورة ١٩١٧ الاشتراكية في روسيا ونشاط الشيوعية الدولية (الكومنترن) ، وقيام عدة دول اشتراكية في اوربة ، وانتصار الثورة الشعبية في الصين ، وانشاء دول اشتراكية جديدة في آسيا . وأصبح تقدم الثورة الاشتراكية العالمية تحت لواء الماركسية وتوجيه ودعاية الاحزاب الشيوعية والعالمية وتشكيل كتلة الدول الاشتراكية أمراً واقعاً في العالم . ولا شك في ان كل هذه الحوادث كان لها انعكاسات كبرى على الارض العربية التي تفتحت حديثاً للوجود ، وأخذت تتطور وتلاحق ركب الحضارة . هذا فضلاً عن ان الاستقلال الذي حققته البلاد العربية حدا بالمفكرين والمسؤولين الى القول بأن التحرر السياسي لا يكفي ، لان القضية ليست فقط بالتحرر من الاحتلال الاجنبي ، بل التحرر من الاسباب الداعية اليه ايضاً ، اي من التخلف في شتى اشكاله وصوره . وهكذا وضعت قضية الاشتراكية امام الاستقلال التام الناجز وتشكيل الدول العربية الحديثة ، وأمام الرأي . كما ان انتشار الثقافة بين ابناء الطبقات الشعبية نبه الرأي الى الاستغلال والتفاوت الاجتماعي وتحكم الاقطاع ورأس المال والثورة عليها وخلق مجتمع عربي حديث سليم معافى من آفات الجهل والفقر والمرض . مجتمع يخيم عليه الرفاهية والعدل والمساواة ، مجتمع لا تتملك بعض مواطنيه عقدة نقص يعيشون فيها على هامش الحياة . وهنا كانت الضرورة في تبني القومية العربية للاشتراكية فكراً وتطبيقاً للنهوض بالمجتمع العربي وتفتحه وازدهاره . وليس ضرورياً ان تكون اشتراكية القومية العربية مستوردة أو دخيلة او نسخة طبق الاصل عن اشتراكية البلاد الاخرى ، لان اشتراكيتنا يجب ان تنبع من صميم حياتنا القومية وحاجاتنا ورغباتنا وتصوراتنا

لمجتمعنا في الحاضر والمستقبل وهذا لا يمنع من ان نفيد من تجارب غيرنا و ممن سبقنا في المضمار. فعلى ضوء هذه التجارب نستطيع ان نغني انفسنا وبلادنا عن الزلل في كثير من الاخطاء التي ارتكبها غيرنا ، هذا مع العلم ان الاشتراكية وان كانت مذهباً فكرياً عقائدياً عاماً ، فلا بد وان تأخذ عند التطبيق كثيراً من الاعتبارات الزمانية التي تستهدف نجاح التجربة الاشتراكيــة .

وما يمكن أن يخشى في الحرية يمكن ان يخشى أيضاً في الاشتراكية ، لأن اساءة التطبيق أدت في بعض الحالات ، في بعض البلاد ، الى ظهور مليكات وعمالقة وفهارير، والكلمة من فوهرر الألمانية ، أي الزعيم ، ذهبت بهم الحال الى اعتبار أنفسهم رواداً وقادة وآلهة ، كما اعتبروا انفسهم كل شيء والشعب لاشيء .

والقومية العربية بعيدة عـن هذا العنف الذي ركب مـتن الطيش والشطط في البلاد الأخرى . انهـا تريد ان تحقق اشتراكية انسانية ، وتعز الانسان العربي وتكرمه وتكفل له أسباب عيشه بيسر وعزة وكرامة من المهد الى اللحد ، وفي ثورة بيضاء هادئة دون دماء لا كما وقع في بلاد الآخرين . وتريد القومية العربية من الاشتراكيين الاقحاح أو من مدعي الاشتراكية أن يكونوا مخلصين لأبناء قومهم ومنسجمين مع الاشتراكية الحقيقية . فكما أنه لاحرية بدون أحرار ، وكذلك لا اشتراكية بدون اشتراكيين . اما أن تكون الاشتراكية وسيلة للتسلط ، وايجاد فئة متسلطة ، فما الفرق اذن بين التسلط الفردي القديم والتسلط الجماعي الحديث، مع العلم ان هذا الأخير اكثر ارهاقاً وظلماً للشعب من الحكم المطلق الذي مارسته الملوك والأباطرة الأقدمون .

٤ – الوحـدة،

عصرنا الذي نعيشه ونعايشه عصر التقارب والتكتل والتجمـع والتألب ، عصر المجموعات الكبرى، عصر الترابط والتداخل والنفوذ ، عصر الاسر الدولية ، عصر العمالقة. والمصلحة القومية تقتضي التكتل والتجمـع في وحدة قوية ، ان لم يكن بالامكان في وحدة عملاقة . وبعد أن كانت القومية تتضمن معنى سلبياً ، أي رفض الغير والانطواء على الذات ، ونفي العالمية ، أخذت في هذا العصر معنى ايجابياً نشيطاً . وأخذت الدول المختلفة تتقارب ويلتف بعضها حول بعض ، في سبيل مصلحتها العامة المشتركة . وفي هذا العصر الذي تتشكل فيه الاسر الدولية وهي من شعوب مختلفة جمعتها المصالح المشتركة، لا يصح للعرب وهم أبناء قوم واحد أن يكونوا في معزل عما يجري في العالم حولهم . متقوقعين على

أقاليمهم – بل لا بد لهم من الانفتاح على اخوانهم في الاقاليم الاخرى والتكيف مع متطلبات العصر الجماعية . واذا كانت القومية ترمي الى لم شعث أبناء القوم الواحد ودفعهم لتحقيق استقلالهم القومي ، فان لهذه القومية هدفاً آخر وهو بناء الوحدة القومية في وحدة سياسية واحدة ، في دولة قومية واحدة . والقومية العربية بما فيها من آيات التجديد تريد أن تخرج على الاوضاع الناتئة المصطنعة التي أوجدتها ظروف مختلفة قديمة ومنافع غير عربية واحتلال أجنبي وتجزئة سياسية ، ومستفيدون من هذه الاوضاع على علاتها ، وتتحرر من قيود الماضي ، وتبني الدولة العربية الواحدة عن فكر وعاطفة وعزم وارادة وتصميم ووعي أكيد وخلق قويم . والقومية العربية اليوم انتهت من مرحلة الاستقلال ودخلت في مرحلة بناء الوحدة ، وقد تطول هذه المرحلة ، ولكن القومية العربية لا ترضى عن الوحدة بديلاً. فهي تريد أن تجمع شتات العرب وتجعل منهم كتلة سياسية قوية واحدة متماسكة متلاحمة ينضم فيها البلد العربي الآخر عن رضى وقناعة وضرورة دونما اكراه أو عدوان ، ليعيش بأمن وسلام ويؤدي واجبه نحو بلده الاكبر ، وطنه الاكبر ، في ظل العمل المشترك الموحد ، في خدمة المجتمع العربي الحديث ويسهم في بنائه وتحقيقه على الوجه الاكمل .

والشيء الذي يقفز للعيان هو أن عناصر الوحدة العربية المشتركة قد توافرت لبناء الدولة العربية الواحدة تاريخياً وجغرافياً وعاطفياً ، وبقيت الارادة الصادقة المشتركة. ولا نعتقد أن الأمر خلو من الصعوبات الجدية والقوى المناهضة داخلاً وخارجاً ، ولكن الوحدة العربية ، بالرغم من كل هذه المعوقات تبقى هدفاً أسمى للقومية العربية ومناطاً لآمال العرب . ومجهود القومية العربية سيكون في اذابة الكيانات المستقلة في دولة عربية قومية واحدة. واذا كان الوعي القومي في مرحلة النضال وتحقيق الاستقلال قد وحد بين قلوب مواطني القطر العربي الواحد ، وأزال فروقهم في وحدة النضال في سبيل الاستقلال ، وانتفع بهذا الاستقلال أفراد وفئات وأسر وحكام وأحزاب ، فان هذا الوعي القومي نفسه سيتكامل بقوة الدفع الداخلي ورد الفعل الخارجي وضغط الظروف الزمانية والمكانية ويخلق ارادة الوحدة الصادقة ويطرد الغاصب الصهيوني المحتل وينشىء الدولة العربية الواحدة التي تأتي تتويجاً لوحدة الشعب العربي ووحدة الأرض العربية ووحدة الآمال العربية ، حيث لا شعب الا الشعب العربي الواحد من خليجه الى محيطه ، ولا دولة إلا دولة العرب الواحدة. وفي أزمة اليأس الحاضر تبقى الوحدة العربية معقد الرجاء وسبيل الخلاص وأمل المستقبل .

ولتحقيق ذلك لابد من ان يهيأ المناخ اللازم والعمل على الانجاز ، وقد يطول الزمن ويطول ، ولكن المتابعة قمينة بالوصول ، والامر متروك للشعب العربي والعرب القوميين الذين يؤمنون بعروبتهم وحتمية بلوغ الوحدة العربية طال الزمن أو قصر ، ان يوجدوا هذا الجو الاخوي الودي ، والسير فيه قدماً الى الامام للحاق بالركب الحضاري بعد ان تسارع التاريخ دون رجعة الى الوراء .

★ ★ ★

وبعد ، فالتقدمية في القاموس تعني تبني الأفكار السياسية والاجتماعية الجذرية الجديدة والعمل على تحقيقها لخلق المجتمع المتطور السليم المعافى الجدير بالبقاء والعيش والمتكيف مع ظروف الحاجة ومقتضيات العصر . وللقارىء ان يحكم ما إذا كانت القومية العربية ايديولوجية تقدمية وتتضمن كل معاني التقدم .

محمد حافظ يعقوب

القوميّة العربيّة هي ايديولوجيّة تقدميّة

وحدة الأمة العربية وعصر الامبريالية

١ – **مناقشة الوحدة العربية وبحثها بعيداً عن التاريخ ، مناقشة عقيمة وتعطي نتائج عكسية .**

فالاحداث ، عظيمها وصغيرها ، لا يتم تحققها خارج التاريخ ، بـل في قلبه وبسببه . بمعنى ، التحدث عـن الوحدة العربية بمعزل عن العصر وعـن ظروفه وآفاق تطوره ، يظل في إطار التمنيات والتعبيرات الجمالية ، ولا يدخل حيز السياسة والبحث الموضوعي ، ويخرجه من إطـار الممكن التحقق (الموضوعي) إلى إطـار المستحيل . أقول ، إذا كنا نريد انجاز عملية الوحدة العربية ، وهي عملية ثورية من ألفها إلى يائها ، علينا بدءاً أن ندرس الظروف والشروط التي ستتحقق خلالها . فهـل ستحدث الوحدة ضمن العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعصر برمته؟ أم ستكون حدثاً محلياً جداً

بمعنى ان التأثيرات والعوامل التي أسهمت في تحقيقه لاتخرج عن إطار المنطقة وظروفها.

٢ ـ عصرنا الراهن هو عصر الامبريالية .

والتناقض الرئيسي الذي يحكم العصر برمته : بين هـذه الامبريالية وما تمثله من تشويه واستلابات وتأثيرات مختلفة في كل مكان من العالم ، كطرف ، وبين جبهة عريضة ، بالمقابل ، من الانظمة والأحزاب والقوى والحركات الاشتراكية والتحررية في كل أنحاء العالم . التناقض الرئيسي من ثمة ، يكمن بين عمليـة النهب الامبريالي ، سرقة خيرات الشعوب وثرواتها القوميـة وانتقالها وتمركزها الى أوروبا الغربية والولايات المتحدة ؛ وكذلك الوجه الآخر لعملة هذه العملية ، تخلف ثلاثة أرباع المعمورة واتساع الهوة بينها وبين الأقطار الغنية المتقدمة ، كنتيجة لترتيب الامبريالية للعـالم (المناطق والأنظمة وحتى التوزع الطبقي لكل بلد) . نقول : يكمن التناقض الرئيسي بـين الامبريالية (عملية التشويه وسياسة الافقـار الامبريالي) وبين حركات التحرر لشعوب هـذه الأقطار المتخلفة .

سياسات النهب والتشويه الامبريالي ، وترتيب العالم برمته كسوق واسعة وكمناطق نفوذ : جعلت جدوى كل أشكال النضال ومحاولات التحرر وتجـاوز التخلف (التقدم الاقتصادي والتنمية) مرهوناً بحل المعضلة ذاتها : مقارعة الامبريالية . لذلك يجب وضع الوحدة العربية وفهمها في اطارها الصحيح ، وهو إطار مقارعـة الامبريالية وسحق تأثيراتها ومحو بصماتها من وطننا : التجزئة والتخلف (بالمعنى الاجتماعي — الاقتصادي بل والحضاري) . الإطار الصحيح للوحدة العربية هو إطار العصر ، عصر الامبريالية ، على حد التعبير الشهير لهاري ماجدوف .

فهم الامبريالية ، وادراك كنهها وطبيعتها الحقيقية ، ثم فهم تأثيراتها في الوطن العربي إذن ، شرط أول لكل سياسة تستهدف التصدي للواقع العربي الراهن بمجموعه ، شرط أول لكل ثورة تحررية من العشائرية والبطوركية ، من بصمات الامبرياليـة ، وترتيبها لهذا الواقع العربي كجزء من ترتيباتها للخارطة الكونية برمتها .

٣ ـ الامبريالية من الناحية السياسية :

هي بوجه عام نزوع الى العنف والرجعية . وهي اقتصادياً الرأسماليـة في مرحلة

الاحتكار »(١) ، لأن الامبريالية نشأت باعتبارها مرحلة ارقى (نظام اقتصادي اجتماعي اعلى) من الرأسمالية : حلول الاحتكارات الرأسمالية محل المزاحمة الحرة الرأسمالية ، والاحتكار ، بالتعبير الماركسي ، هو أعمق اساس اقتصادي للامبريالية » (٢). بيد ان الامبريالية، في حقيقة أمرها، تتجاوز المباشرة لهذا المستثمر او ذاك، لهذه الدولة الامبريالية أو تلك؛ اذ من الخطأ النظر اليها تلك النظرة الساذجة، الدائمة ، من حيث الربح والخسارة الماديين فقط » . ان مرحلة الامبريالية اكثر تعقيداً بكثير من أن تفسر بواسطة أية صيغة مبسطة . فالنزوع الى اقتناء المستعمرات ليس اقتصادياً فحسب، بل ينطوي أيضاً على اعتبارات سياسية عسكرية في عالم من الدول الامبريالية المتنافسة »(٣) ، لذلك كان الصراع بين الدول الصناعية للسيطرة على المناطق المتخلفة اقتصادياً ، ليس سوى جانب واحد، ولا يمثل الا احدى سمات الامبريالية الجديدة المعاصرة. من هنا ، كانت التقنية من مميزات هذه الامبريالية الجديدة ؛ « التكنولوجيا، التي تطلبت كقاعدة عامة استثمار مقادير كبيرة من رأس المال ووحدات انتاجية ضخمة »(٤) ، وكذلك اسواقاً كبيرة لا يمكن توفرها في العالم الرأسمالي المصنع فحسب ؛ كما كان النزوع الى السيطرة جزء لا يتجزأ من « عالم الأعمال »، وكان الاحتكار جوهر هذا العالم البربري، والوجه الاخر ، « الأكثر نضجاً» لقانون المزاحمة الحرة فيه .

لقد تمكنت الامبريالية ، من ثمة ، ونجحت في تحويل العالم برمته الى مطعم لاشباع جوعها ، الى سوق عظيمة لسلعها المتجددة المتطورة باستمرار . « ولم ينج ركن في العالم من تأثير هذا الاندفاع الامبريالي الجديد. فالعالم بأكمله تحول وتكيف طبقاً لحاجات الصناعة الجديدة المسيطرة في كل من الدول الصناعية ولمقتضيات التنافس بين هذه الدول تحت ضغط

---

(١) لينين ، الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية . الطبعة العربية ، دار التقدم . ص ١١٩ . ويجب الكاتب أن يلاحظ أن الترجمة الشائعة لكلمة Imperialism بالاستعمار هي ترجمة خاطئة .

(٢) لينين ، المرجع نفسه . ص ١٣٤ .

(٣) هاري ماجدوف ، عصر الامبريالية . ترجمة د . عبد الكريم أحمد . وزارة الثقافة بدمشق . ص ٥٤ — ٥٥ .

(٤) ماجدوف ، نفس المرجع السابق . ص ٣٤ .

هذه الحاجات »(١) .

٤ ـ هذه الاندفاعة الكبرى ، حققت في حقيقة الامر جوهر عصر الامبرياليـة ، تشويه « العالم الثالث » وربطه بالغرب الرأسمالي المصنّع ، افقار اقطار « العالم الثالث » وغصب ثرواته وانتقالها الى الدول الامبريالية الكبرى(٢) . وبرغم ان الاستعمار لم ينسحب بسهولة ، وبسرور من هـذه البلدان ، فان الفرض الرئيسي من الاستعمار قد تحقق قبـل الاستقلال السياسي الجديد . فالمستعمرات كانت قد ربطت بالأسواق الرأسماليـة العالمية ربطاً لافكاك منه ، وصارت مواردها واقتصادياتهـا ومجتمعاتها متكيفة مع حاجات المراكز الحضارية الكبرى(٣) . هذا استتبع بطبيعة الحال رسماً جديداً للخارطة الاجتماعية ـ الاقتصادية (والطبقية ـ السياسية) يتحقق من خلاله ميكانيزم العلاقة الغاشمة ، تحويل المناطق المتخلفة الى اسواق لاستهلاك البضائع الناجزة ، والى مصدر اكبر للمواد الخام أو الاولية والزراعية ،من جهة اخرى ،بفائض قيمة لصالح الطرف الأقوى : الامبريالية .

في هذا العصر ، بسمات الامبريالية بارزة حتى على التوزع الطبقي في المناطق المتخلفة ، الأنظمة الكولونيالية التي تسودها طبقات الكومبرادور المتخمة بفتات المائدة التي لايخرج منهـا بنصيب الأسد غير الامبرياليـة ، وبنصيب الضحيـة ، شعوب « العالم الثالث » .

وليس بصحيح صحة مطلقة ما يقوله بعضهم من ان « العالم الثالث » يشـكل بمجموعه بروليتاريا عصر الامبريالية ، وان الاقطار الغنية كافة تمثل دور بورجوازية هذا العصر ، اذ ان ذلك يعني بلغة اخرى ، زوال الصراع الطبقي وانتهاؤه وتحوله الى صراع « طبقي » دولي بل وحتى قاري وكوني ، واذا كان في هذا الرأي صحة ، لكنها

(١) ماجدوف ، نفس المرجع السابق . ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) راجع : بيير جاليه ، نهب العالم الثالث . ترجمة ومراجعة أديب اللجمي ويوسف شقرا . وزارة الثقافة بدمشق . وكذلك ، الامبريالية عام ١٩٧٠ ،لنفس المؤلف ومنشورات دار الحقيقة بيروت .

(٣) هاري ماجدوف : نفس المرجع السابق . ص ٥٦ .

صحة نسبية، لأن التناقضات الاجتماعية والصراعات الطبقية لم تخفف أو تزل (من حيث ان أسبابها ومكوناتها لم تزل كذلك)، ولكنها اصبحت اكثر تعقداً وأشد تكثيفاً، وغدت عملية كشفها اكثر اثارة وتشويقاً، والعمل على ازالتها اكثر صعوبة وحرارة. وإلا أين نستطيع ان نضع، وكيف نصنف، الصراعات الطبقية التي تكتنف كلاً من أقطار العالم الثالث وكذلك كلاً من اقطار العالم الامبريالي المصنّع؟

لقد خربت الإمبريالية العلاقات الانسانية وشوهت جوهرها، فاستلبتها وشيأتها وحولتها الى سلعة. فكما حول الملك ميداس كل شيء كان يلمسه الى ذهب، كذلك حولت الامبريالية (والرأسمالية) الانسان من جذوره الى بضاعة معروضة في السوق، على حد تعبير ارنست فيشر في ضرورة الفن. وهذا انطبق الى حد بعيد على الوطن العربي.

من هنا، الامبريالية ليست وصفاً اقتصادياً أو مرحلة من التطور الانساني؛ كما هي ليست درجة عالية من التقدم التقني، وليست أعلى مراحل الرأسمالية وشكلاً جديداً منها فحسب، بل هي كذلك جملة استقطابات لنشاطات العالم والانسانية. انها عملية تخريب كبرى للعلاقات الانسانية، وكذلك تشويه شامل لعمليات التطور الاجتماعي — السياسي. مستلبا منها أي شيء، ومحولا اياه الى سلعة رخيصة في سوق الأشياء.

٥ - في الوطن العربي، بصمات الامبريالية بارزة وواضحة بشكل كبير.

منذ أواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر والعشرين، رسمت الامبريالية وحددت الخط العام للتطور الاجتماعي — الاقتصادي السياسي، وحفرت له قنوات خاصة لا تريده أن يحيد عنها (حملة نابليون على مصر والشام. موقف الدول الأوروبية من حملة محمد علي على الشام وحربه مع الدولة العثمانية. احتلال مصر. الجزائر. عدن، مؤتمر لندن وتقرير كامبل — بانرمان. اتفاقية سايكس — بيكو. وعد بلفور. انشاء اسرائيل .. الخ).

نتيجة تجزئة الوطن العربي(٨)، والهيمنة الاقتصادية — السياسية الرأسمالية،

(٨) قبل السيطرة الاستعمارية «كانت التجزئة العربية تتصل بأسلوب الانتاج المحلي الشرقي البدائي، شبه الاقطاعي الخ.. (فواصل البيئة الجغرافية وضعف المواصلات ضعف كثافة السكان، اقتصاد الاكتفاء الذاتي، ضعف العلاقات التجارية، التناثر الاقتصادي والتفتت الاجتماعي المتنوع الأشكال». الياس مرقص، الوحدة والماركسية الغالبة في الوطن العربي مجلة «الثقافة العربية ٧١». العدد ٦ ١٩٧١. ص ١٦.

والإشراف الفعلي من قبل المؤسسات الرأسمالية — الامبريالية على البنى الاجتماعية والعلاقات الانتاجية ، تشويه المسار المحلي في التطور (البنى قبل الرأسمالية) ، لجمه وايقافه ، والعمل على جعل البنى الاجتماعية التقليدية ، المجتمع التقليدي نفسه ، يتقبل العلاقة الجديدة ويتمثلها : التبعية الاقتصادية والكدح لمصلحة الامبريالي . تحويل الانتاج القومي كله الى انتاج تستوعبه الآلة الصناعية للامبريالية ، وقيمته الزائدة تذهب الى جيوب المحتل وخزائنه ، وما يرافق ذلك من اعادة ترتيب وتوزيع للمجتمع وللمهمات الانتاجية ، تحويل النظام الاقتصادي الى اقتصاد كولونيالي ، اقتصاد متمم لاقتصاديات البلدان المستعمرة من حيث قيامه بمهمات تصدير المواد الأولية والخام وباستيراد استهلاك البضائع المصنعة والناجزة .

نقول ، حافظت الامبريالية ، على عكس ما يبدو للوهلة الأولى ، على البنيات الاقتصادي الاجتماعي السابق (البنى الاجتماعية التقليدية المنسجمة مع مصالح الدولة العثمانية) لتحقيق مهمات اقتصادية جديدة ومن طبيعة خاصة ومغايرة ، فغدا التركيب الاجتماعي متناقضاً ، ومعقداً ، والتطور بطيئاً ، لقسريته بعثرات العوائق والكوابح .

٦ ـ على أرضية هذه «البنى كما» ، «البورجوازية» العربيـــة وترعرعت كامتداد للاقطاعية وكجزء من الاقتصاد الكولونيالي وترتيب الامبريالية للوطن العربي ، غدت مرتبطة بألف خيط من خيوط الامبريالية . على أرضية تجزئـة الوطن العربي وتفتيت وحدته وتقسيمه الى « أنظمـة » متمايزة ، وبالتالي متعارضـة ، نشأت البورجوازية العربية . لقد كانت نشأتها حالة نشازاً وغير تقليدية — اذا كنا نعتبر نشأة البورجوازية الاوروبيـة هي النشأة النموذجية — في اوروبا الغربية ، حققت البورجوازية الصاعدة مهمات الثورة الديمقراطية (الليبرالية ، الوحدة القومية ، القضاء على الاقطاعية وعلى السيطرة الكنسية ، الثورة الصناعية) في غربي اوروبا ، صعود البورجوازية والرأسمالية كان صعود القومية وتبلور اتجاهاتها الوحدوية . كان تحقيق الأهداف القومية مشروطاً بالسوق الطبيعية للبورجوازية ، السوق القومية . في الوطن العربي ، على العكس ، كان صعود البورجوازية مرتبطاً بالتواجد الامبريالي وجزءاً من ترتيبها لواقعنا ، التجزئة والتخلف ، حيث غدا نموها وصعودها مشروطاً بتعميق حالة التجزئة وبثبات الأوضاع الامبريالية ، بثبات الكولونيالية ، وغدت معركتها الحقيقيـة هي تحقيق الارتباط وتوثيق الأواصر بالسوق الامبرياليـة ، وليس بالسوق القوميـة ،

تجددت مهمتها، من ثمة، بمهات الرأسمال العالمي، وغدت ازمته ازمتها، ورضيت أن تكون شريكا صغيراً في لعبته الاحتكارية وكومبرساً يأكل من فتات المائدة. البورجوازية الأوروبية الصاعدة كانت معركة التصنيع والتنمية معركتها الحقيقية الكبرى. البورجوازية العربية التخلف والتجزئة والاذلال القومي هي جوها ومتنفسها.

هل يعني ما تقدم ان البورجوازية والقومية متلازمتان؟ بالتأكيد لا. القول بذلك يماثل القول ان العالم هو أوروبا وتاريخه تاريخها.

الثورة البورجوازية: الوحدة القومية، التصنيع والترشيد والتنمية. الليبرالية والعلمانية والقضاء على كل ما هو أثري وبطريركي، غير مرتبط أساساً بنمو الاتجاهات الرأسمالية وصعود الرأسمالية، لأن نموها كان في الاتجاه المعاكس، ترسيخ الاتجاهات الرجعية والعشائرية واللا عقلانية وتعميق الانفصالية والقطرية واللا قومية، ان طريق البورجوازية العربية هو طريق الثورة المضادة، هو الطريق المسدود (١).

٧ ـ الحركة القومية العربية إذن، ليست جزءاً من صعود البورجوازية العربية، كما أنها ليست كذلك نتيجة لتطور البورجوازية العربية الذاتي المناهض للاقطاعية.

« انها أولاً حركة تولدت وتتولد من غزو الرأسمالية، من الرأسمالية والامبريالية وكرد عليها. وهي تدخل في اطار الثورة العالمية الموجهة ضد هذا الغزو، ضد الرأسمالية العالمية »(٢). إنها لا تعني بحال، ان نشأة حركة التحرر العربي القومية مرتبطة أساساً بنمو البورجوازية العربية الباحثة عن مجالها الحيوي، السوق القومية. إن مسألة التجزئة العربية والوحدة العربية حاصلة في إطار تاريخي مختلف جوهرياً، إطار التحرر من الامبريالية (والرأسمالية المحلية كشريك واستطالة لها).

(١) راجع بصدد هذه الموضوعة، والموضوعة التي سبقتها، مقالة لي كتبتها أواخر العام ١٩٧٠ ونشرتها في مجلة « دراسات عربية »، العدد ١٠ آب ١٩٧٢ تحت عنوان « موضوعات تمهيدية عن الثورة العربية والثورة الفلسطينية ».

(٢) الياس مرقص، ماركس ـ انجلز ـ لينين والمسألة القومية. مجلة «دراسات عربية». عدد ٣ ١٩٦٩، ص ١١٧.

تعريف ستالين للأمة بأنها « واقع تاريخي يظهر في فترة معينة ، هي فترة نمو الرأسمالية » (١) ، ليس تعريفاً جامعاً مانعاً لكل زمان ومكان ، لأن التأكيد ان البورجوازية هي قائدة التوحيد القومي في أوروبا ، لا يعني ان القومية دائماً ذات صفة بورجوازية . ففي بلدان « العالم الثالث » ، القومية تعني مناهضة الامبريالية (ومحاربة الاتجاهات العربية القومية : التطرفية والكوالمولوتية) والفكر العربي جعل من القومية عنصراً من عناصر التحرر من الامبريالية ومن تشويهاتها في الوطن العربي . وهدف الثورة العربية ليس بعث امبراطورية عربية ، على غرار الامبراطورية البسماركية أو النابوليونية ، بل التقدم باتجاه القرن العشرين ، وبناء أرضية صالحة لمواكبة العصر .

هل ستتحقق وحدة الأمة العربية نتيجة لتطور موضوعي « ذاتي »: نضج الظروف والعوامل الاقتصادية وتطور الصناعة ؟ أي هل تشكل البنى الاقتصادية (الانظمة والتشكيلات ونوعية الصناعة وحجم المبادلات ، وكل ما نستطيع تسميته بالعوامل الاقتصادية) أرضية صالحة حالياً لتطور ميكانيكي يسير باتجاه التوحيد وتقريب أقطار الوطن العربي من بعضها ؟

في اعتقادي ، كاجابة على هذا السؤال ، ان جذور التجزئة راسخة الآن في البنى الاقتصادية القائمة ، في الانتاج وعلاقات الانتاج ، في طبيعة تبلور المصالح لاقتصادية القائمة ، في الانتاج وعلاقات الانتاج ، في طبيعة تبلور المصالح الاقتصادية وتركزها ، وان الوحدة العربية لن تتحقق ، موضوعياً ، نتيجة تبلور العامل الاقتصادي ، ذلك لأن الارضية الاقتصادية الراهنة لمجموع اقطار الوطن العربي هي ارضية اقتصادية للتجزئة ولتعميقها ، وليست ارضية اقتصادية تصلح كأساس لتطور موضوعي باتجاه الوحدة . ان اقتصاديات الاقطار العربية ، بمجموعها ، هي اقتصاديات متنافسة بالرغم من تكاملية المصالح ، فالمنتوجات العربية ، لكونها متشابهة (الصناعة استهلاكية وخفيفة : اسمنت نسيج ، سكر ، حلويات .. الخ . والزراعات متشابهة : قطن ، حبوب.. الخ . والمواد الخام متشابهة : البترول .. الخ) فهي متنافسة . وكذلك ، فان حجم التجارة والمبادلات بين اقطار الوطن العربي لا تشكل اكثر من ٧ ٪ من حجم تجارتها العالمية في احسن حالاتها (تجارة مصر مع الدول العربية تؤلف ٧٪ من تجارتها العالمية ، وتجارة العراق تؤلف

---

(١) ستالين ، الماركسية والمسألة القومية . دار الفارابي — بيروت .

٤ ٪ فقط ، ونسبة المبادلات التجارية بين اقطار المغرب العربي شبه معدومة اذا قيست بحجم تجارتها الخارجية ، بل ان هذه النسبة سائرة الى التناقص والتضاؤل . ان الطبيعة الكومبرادورية للبورجوازية العربية ، كما تبينا من قبل ، وتسمح لها ان تكون اكثر من مبادل تجاري ، بالاضافة الى ميلها الشديد نحو الصناعات السريعة الربح (البناء مثلاً) . ونفورها من المشاريع الصناعية الآجلة الربح [من جملة اسباب هـذا النفور ، كذلك ؛ الحجم الصغير جداً لهذه البورجوازية بالقياس الى المؤسسات الاحتكارية العالمية ، وانتفاء التقاليد الثورية ـ العلمية ـ التقنية] .

أنا شخصياً مع القائلين ان التطور الاقتصادي يسير باتجاه تعميق التجزئة والقطرية . وأن الأوضاع الحالية لا تسمح بتنفيذ أي تخطيط لتكامل اقتصادي في المستقبل ، بل على العكس من ذلك ، هي تسعى لاعطاء التجزئة قواعد مادية متينة حتى تحفظ مصالح النافذين في كل بلد . وان الوحدة العربية لا تتحقق عبر التطور الموضوعي : استقلت أقطار المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي ، وما زالت الوحدة بينها ، على الاقل ، بعيدة الاحتمال ، وتزداد بعداً كل يوم . الأمر نفسه بالنسبة لسوريا ولبنان . مصر والسودان .. الخ .

٨ ـ المحرك الوحدوي ليس هو العامل الاقتصادي بالدرجة الاولى .

بل هو العامل السياسي الذي تكمن خلفه المصالح الاقتصادية للأمة العربية بأسرها . شعار الوحدة هو المحور الاستراتيجي للعمل الثوري العربي في هذه المرحلة التاريخية ، مرحلة التحرر من التخلف والاستعمار واسرائيل . « والاطار الوحدوي هو الاطار الوحيد الصالح لانضاج ثورة عربية ، والدفع باتجاه تراكم رأسمالي منفتح على سوق واسعة ، واعطاء التحولات والصراعات السياسية والاجتماعية كل مداها »(١٢) . إن طريق الوحدة هو السبيل الوحيد لتجاوز التخلف وصولاً الى القرن العشرين ، القضاء على الاستعمار وصولاً الى التحرر ، تحطيم البطريركية واللاعقلانية وصولاً الى العلاقة الانسانية ، الموضوعية والحرة . الوحدة هي الطريق الوحيد لبناء الاشتراكية ، حتى لنستطيع القول ، ان الثورة ليست عربية الا لأنها لا تستطيع تحقيق مهامها الا في اطار العالم العربي الموحد .

---

(١) جودت الرامي ، بيان وحدوي . مجلة « الثقافة العربية ٧١ ع. العدد ٦.

في عصرنا الراهن ، عصر الامبريالية « المنفلتـة من عقالها » ، عصر المجمعات الاقتصادية الهائلة الضخامة ، عصر الامكانيات الاسطورية القوة ، والكونية السوق ؛ في هذا العصر ، لا مكان للمنشآت الانتاجية الصغيرة الا اذا عززتها حماية جمركية متينة ، ولا قدرة على التصنيع الثقيـل ، والتطور التقني ، الا بفضل الامكانات الاقتصادية الكبرى والسوق الواسعة ؛ في هذا العصر ؛ لا قدرة لبلد متخلف على اللحـاق بالعصر وبالتطور ، دون التخطيط والبرمجة للثروات القومية بمجموعها (تقييد الاقتصاد) ؛ دون ضرب الرأسمالية ، وبناء الاشتراكية .

في هذا العصر ، القدر الحتمي لحركة تحرر الامة العربية، لتجاوزالتخلف(التخلف ليس من ناحية استهلاكية [والكويت ؟] ، بل من حيث مدى تطابق قوى الانتاج مع علاقات الانتاج) ، واللحاق بالعصر وبالقرن العشرين ؛ ان تكون اشتراكية ، ان تكون محاربة (مسلحة) ، ومناهضة لكل اشكال التشويهات الامبريالية ، والاستغلالالطبقي كشكل من أشكال هذا التشويه . إن بلوغ المرحلة الحضارية المطلوبة ، لايمكن تحقيقه دون توفر شروط أربعة أساسية :

١ ــ سوق قومية واسعة تستطيع استيعاب كميات كبيرة جداً من الانتاج القومي .

٢ ــ في شروط التخلف ، الامكانات البشرية تمثلعاملا اساسياً في عمليةالانتقال الى الحضارة .

٣ ــ عملية الدفع الثوري لقوى الانتاج ، التي تنتقل ببلد ما من زراعي أو مصدر للمواد الخام (كمرتبط بالمتروبول) الى بلد فائق التصنيـع(١) .

٤ ــ ان هذه الشروط الثلاث السابقة ، لايمكن حتى التفكير بها بدون التحررمن كماشة الاستعمار الجديد ، بدون الوحدة العربية . ان المهمتين المطروحتين أمام الأمة العربية اليوم (الثورة العربية) ، وهما الوحـدة والتحرر ؛ لايمكن تحقيقهما بغير الوحدة .

---

(١) التوسع في موضوع الدور التعويضي للامكانات البشرية في البلدان المتخلفة . انظر ريجار شايامل ، بناء الاشتراكية في الصين . دار الطليعة ــ بيروت .

ان الوحدة ، كعملية ثورية ، كل خطوة في سبيلها هي خطوة صدامية هجومية لأنها قادرة على تغيير نمط العلاقات الاجتماعية ، واقتلاع جذور التخلف (والتجزئة) من علاقات الانتاج،ولكونها قادرة على اجتثاث بصمات الامبريالية ومحوهامن المنطقة . ان الوحدة بالتالي ، ليست ترفا بورجوازياً كما هي ليست تحقيقاً لمطالب شوفينية ، رجعية ، مغايرة للعصر(١) . انها ضرورة استراتيجية ، حيوية ،فالوطن العربي،الممزق المتداعي ، أمام الهجمة الامبريالية ، لايستطيع حتى ايقاف هذه الهجمة ، دون حد أدنى من العلاقات الوحدوية الجادة والحقيقية على مختلف الاصعدة .

النضال الثوري العربي اما ان يكون وحدويا أو لايكون . ذلك ان مخططات الامبرياليه تتركز جميعها في منع الوحدة ، الابقاء على الوضع الراهن . المهم ، ان نصوب على الدرينة ذاتها : الامبريالية ، بالبندقية ذاتها : الوحدة العربية .

وليس من الصدفة أن تتبدد طاقات الثورة العربية وأن تضيع جهودها ، حتى الآن ، مادامت مركزة اهتماماتها على البناء الداخلي، على تعميق القطروية. وليس صدفة أن سيمحا فلابان (الصهيوني ـــ عضو حزب المابام) يركز على القول ان نظرية الالتفات الى بناء كل قطر عربي على حدة (تعميق القطروية الانفصالية) تمتاز « بأنها اكثر واقعية » ، و « بأنها تعطي الأولوية للتحولات الاجتماعية وللنمو الاقتصادي على حساب الرومنطيقية العربية الشاملة (أي تجربة الوحدة) التي ظهر فشلها »(٢) . كما يقول القول نفسه د. موشيه سنيه (زعيم حزب الما كي - الشيوعي الصهيوني) في مقالتـه « الخروج من دوامة البغضاء » ، ناصحاً بالاهتمام فقط بالبناء الداخلي دون محاربة اسرائيل

---

(١) العفيف الأخضر ، محاولة لاستخلاص الدروس من النكبة . مجلة « دراسات عربية » . العدد ١٢ سنة ١٩٦٨ .

(٢) الذين يتحدثون عن التفوق الحضـاري العربي (والانساني) ، بشيء من العنجهية والعزة القومية ، إلى جانبهم قسط كبير من الحقيقة ، إذا كان الهدف من هذا ، الحديث تأكيد الذات ــ في قضية التصدي للصدمة « الحضارية » الأوروبية ــ تأكيـد « التحدي التاريخي » بين « الشرق والغرب » ، كمقابل للشعور العنصري الغربي بالتفوق المشوب بالازدراء وبالاحتقار لشعوب المستعمرات والتي سميت فيما بعد أقطار « العالم الثالث » .

و بناء الوحدة » وفي اعتقادي شخصياً أن هذه التجربة ينبغي أن تحمل المسؤولين الحاليين عن الحركة القومية العربية على البقاء في أرض المعركة ضد الامبريالية تحاشياً للغرق في سديم عدواتهم لاسرائيل »(١) .

أليس غريباً أننا مازلنا حتى الآن نضع انشوطة العدو حول رقبتنا بأيدينا ؟

٩ ــ من الخطأ الاسهام في تلك المناقشة العقيمة والبلهاء ، والمتركزة حول هل الأمــة العربيــــة موجودة ؟ ذلك لان الأمة العربية في أذهان الجماهير حقيقة موجودة بشكل أكيد ، حقيقة عميقة الجذور في وجدانها ، والعمل على بناء الدولة العربية الواحدة تعني في أعماقها تجاوز الهزائم المتكررة ، والرد على الاذلال والمهانة الامبريالية .

وحدة الأمة العربية ، ثورة أيضاً ، لأنها ستؤدي الى تحذير وبلورة الاتجاهات العقلانية : العلمية الموضوعية من تراثنا (ثورة ثقافية) ، لأنها ستؤدي الى ثقافــة عصرية ، انها ضد فكر العصر الوسيط ، ضد الفكر الرجعي ، تنفي لاعقلانية العشائرية والبطريركية ، وبربرية العلاقات ماقبل الرأسمالية ولاموضوعيتها .

مايكسب الثورة العربية محتوى جديداً (جذرياً) ليس في الصفات والمميزات الشخصية للقادة ، بل في الطبقات الاجتماعية التي تعتمد عليها هذه الثورة ، وهي فقراء الفلاحين ، عمال المدن ، والبورجوازيون الصغار . وان مايجعل حركة التحرر العربي القومية اشتراكية ، كونها مناهضة للامبريالية العالمية . ومايجعل الوحدة اشتراكية ، كامن في القوى الأساسية التي تستطيع وحدها (ووحدها فقط) انجاز مهات الترشيد والتحديث وهي القوى ذات المصلحة الحقيقية في مواصلة الثورة حتى النهاية ، قوى العمال والفلاحين الفقراء وجماهير البورجوازية الصغيرة .

---

(١) سميحا فلابان : مقالة « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليــين ضرورة تاريخية » . من كتاب « الفكر الصهيوني المعاصر » . مركز الأبحاث بيروت .

(١) موشيه سنيه ، مقالة «الخروج من دوامة البغضاء» من نفس المرجع السابق هامش ص ٢٥١ .

عبد الوهاب البياتي

الرحيل إلى مُدن العشق

- ١ -

الله والقيثار في لهفتي　　إليها أوقدت نار الدليل
برّح بي العشق ، وها انني　　أموت في بوابة المستحيل
أدرج بالأكفان ، لكنني　　أقوم بعد الموت في كل جيل
أحمل أوراقي مع الريح والـ ..... عشب إلى مدائن العاشقين
أوقظ مولاتيَ من نومها　　وعندليب قمر الياسمين
أصرخ بالموتى وأعدو على　　ظهر جواد ساحرات الأصيل

أصنع من غدائر الليل لـ ..... أطفال أقماراً وللبحرين
أموت في طائرةٍ فوق مـد ..... ريدَ وفوق قمم المستحيل
محترقاً في طرق المُنتهى وحاملاً نار عصور الجليد
وفي فؤادي حسرة انني سوف أعود عاشقاً من جديد
أختار نفس الدرب، نفس الظلى ونفس حبي الرافض المستريب
عنواني البحر ويبقى على مشارف الصحراء عبر النخيل
رسائلي الطيور في بحثها عبر مدار الأرض عن أرخبيل
وكتبي الجبال في عريها إذ تكتسي عباءة من جليد
ووطني الحرف ومنفايَ لا أبرح في حضرته أستعيد
كل حبيباتي على سوره انطفأن أو مُتن كضوء بعيد
غرقن في البحر وعفّت على قبورهن الريح بعد الرحيل
يامشعل الليل بأوجاعه ومالِىءِ العالم قالاً وقيل
العاشق الأعمى بقيثاره يرسل خلف الليل هذا العويل
ومدن الطاعون في صيفها تحاصر العاشق وابن السبيل
كل حبيباتي على بابها يُولدن أو يمتن مثل الربيع
محاصراً مستلباً ضائعاً يرنو الى البحر بقلبٍ وجيع
قالت ، أخاف ، فأنا هاهنا جارية لسيدي -- لا أريد
أخاف ، قلبي كاد من خوفه يسقط تحت قدم العابرين
فلنغلق الباب ! ومدت يداً وفتحت بوابة المستحيل
أهواك ! قالت وانتهى الـ ..... شهد الأول والثالث بعد المئين
من أين يأتي النور ؟ والليل في كل الدروب يرصد العاشقين
برح بي العشق ، وها انني تحت السماوات وحيد طريد
محترقاً في طرق المُنتهى وحاملاً ناري لعصرٍ جديد

-٢-

رحلت عين الشمس
رحلت مولاتي
رحل البحر الأبيض
رحلت بيروت
رحل الشارع والمقهى
رحل الفجريُّ – المطر – السحب – الكلمات – الضحك – النور – النار
عادوا للوطن – المنفى
كي يُولد طفل الأرق – الحزن – الوحشة – راقصة العاصفة – الشعر – القيثار
رحلت مولاتي
فلترحل ياديك الجن – أمير المنفى وصديق الشعراء – الفقراء

-٣-

بيكاسو في المنفى
يشعل باللون البحر وقصر الكاهنة العذراء
يتسول فوق القمة ضوء الشمس الزرقاء
يجلد ظهر المتسول ، يبكي في نهر الغربة أزمان الغرباء

-٤-

رحلت سيدتي تاركةً مُدني عاريةً في العاصفة
وأنا فوق جوادي جالد صمتها بالكلمات العاشقة

-٥-

يتساقط الشعراء ، تتبع موتها مدنُ العذاب
وتمد فوق ضريحها قوساً الى الصحراء في زمن الذي يأتي ولا يأتي وفي عصر القضاء

-٦-

في نهر الموت
يبكي حكمت – لوركا – ايلوار
يبكي المتنبي وأبوتمام
تبكي ليلى المجنونَ وعائشةُ تبكي الخيّام
وأنا أبكي وخزامى تبكي في المنفى الأطفال – الشهداء
في عصر الارهاب
والعشق – الموت – الثورة – عائشة تبكي وخزامى – رحلت مولاتي –
رحل البحر الى الصحراء

-٧-

يتساقط الشعراء والعشاق والثوار في زمن السقوط ويكْبرون
يتعفنون ويذبلون ويهرمون ويُهزمون
لكنهم بعد السقوط على الخرائط يتركون
بصماتهم كشهادة للقادمين

-٨-

المتهم الأول
يتهم المتهم الثاني

-٩-

رحلت مولاتي
وأنا تابعها
أتبع موتي
من باريس الى بغداد

أحمل في جيبي صورتها وشهادة ميلادي
عشقي – ناري – عشبي – تاريخي – رائحة الأمطار
وجواز السفر المُلغى
أتبع مولاتي كالكلب الى المنفى
ينزف قلبي في كل مطارات العالم ، يستجدي ، شحاذاً ، قطرات المطر – الرؤيا
في مدن العشق – الحلم – الثلج – الشمس – الكلمات
رحل البدو – الغجر – الطقس – الأم – الربة – عشتار
رحلت تونس – بغداد .
وأنا ألعق جرحي وخزامى تضحك ، مولاتي رحل البحر الى الصحراء
مَنْ قال بأن القيثار
كان دليلي ؟ من قال ؟
السحر الأسود كان دليلي وأبي كان مجوسياً – تبكي ليلى المجنون وعائشة
تبكي الخيام
وخزامى الربة – عشتار
تبكي عند مغيب النجم طفولة حب ضاع
رحلت مولاتي
وأنا البحر على شاطئها ضاجعت المحار
أفتض بكارة هذا الليل المُلقى كالشال على الاشجار
أحصي دقات قلوب الأعداء – الأبواق – الأحجار
أتربص في سكيني ، من قال بأن القيثار
كان دليلي ؟ من قال ؟
فأنا غاليلو – سقراط – الحلاج
وأنا الحسن الصباح – الخيام
في عصر المدن الأرضية ، عصر السفن – الأقمار
أبكي في نهر الغربة أزمان الغرباء .
رحلت مولاتي ، وخزامى تضحك في عصر الارهاب
سأظل أحبك ، أنت النار – العشق – المنفى – تونس – بغداد
سأظل أحبك ، أنت النار الابدية في عُري الصحراء

- ١٠ -

رحلت مولاتي
رحل البحر الأبيض
رحلت بيروت
رحل الشارع والمقهى
رحل الفجريُّ – المطر – السحب – الضحك – النور – النار
عادوا للوطن – المنفى

- ١١ -

يسائلني العرّاف عن نار بابل   وما خبأت في باطن الغيب بابلُ
وكان على اقدامها النجم ساجداً   وكان على الأسوار حبي يقاتل
فصليت للنيران في عرساتها   وقال مغني الشمس ما أنا قائل

كتبت ما بين تونس – بيروت – بغداد
١٧ – ٦ – ١٩٧٢
٢٥ – ٦ – ١٩٧٢

ندوة الشهر

الوحدة العربية ١٩٧٢

المشاركون في الندوة :

جمال أتاسي * أديب ملحم * جورج صدقني * ظهير عبد الصمد * أدهم مصطفى * فوزي كيالي * أحمد طربين * يوسف فيصل * صدقي اسماعيل

- قضية الوحدة العربية هي قضية وجود أو لا وجود.
- القوى المعادية للوحدة ماتزال في الواقع أقوى من القوى الوحدوية.

جورج صدقني

- الوحدة العربية ليست فكرة نظرية، وإنما هي بنت الواقع العربي.
- ضربوا بالانفصال شكل الوحدة العربية، لكن التجربة الوحدوية ازدادت عمقاً.

أديب ملحم

- نظمنا التقدمية ليست ثورية بالقدر الكافي، لذلك فهي ليست وحدوية بالقدر الكافي.
- نحن الآن لسنا أمام خط لتوحيد القوى، بل مازلنا أمام تبعثر وتشرذم في القوى يتسع ويتمادى

د. جمال الأتاسي

- الولاء الوحيد الذي يجب أن يدين بـه المواطن العربي هو الولاء للأمة والقومية.
- القرار السياسي أولاً، ثم القرار الاقتصادي.

فوزي كيالي

- الوحدة ثورة، ومن طبيعة الثورات أن تكون ذات نزعة هجومية.
- نحن الآن أمام عمل مصيري، وعلينا أن نقبل على العمل الوحدوي أخذاً من تجارب الماضي وانطلاقاً نحو تصور معقول للمستقبل.

أدهم مصطفى

- التجزئة التي يعيشها الوطن العربي ليس لها مستقبل.
- تجربة الوحدة المصرية ـ السورية كانت عامل دفع للجماهير العربية على طريق الوحدة.

ظهير عبد الصمد

- لايمكن لمفهوم الوحدة إلا أن يكون تقدميًا ومعاديًا للاستعمار ومعتمدًا على الجماهير الشعبية والقوى التقدمية.
- التدابير التي اتخذت في ظل الوحدة المصرية ـ السورية أغنت مفهوم الوحدة وأعطته محتوى أعمق وربطته بالمصالح العميقة للجماهير.

يوسف فيصل

- كلما استغرقنا في حوارنا الداخلي من أجل التوصل إلى صيغة علمية للوحدة المرتقبة، كلما زادت تحديات حوارنا الخارجي مع البيئة الدولية، وضاع الأمل في مقدرتنا على التصدي لتحدياتها.

د. أحمد طربين

- لا أعرف صيغة سياسية معينة يمكن أن تحل محل الحركة العربية الواحدة أو الفكر العربي الواحد.
- نقطة البداية هي تكوين المواطن العربي كمواطن من أجل دولة كبيرة

صدقي اسماعيل



فـوزي كيالي :

أرى من واجبي أن أبدأ هذه الندوة بتقديم شكر وزارة الثقافة وأسرة مجلة المعرفة السادة الحاضرين الذين لبوا دعوتنا ووافقوا على الاشتراك في هذه الندوة .

ولقد رأت مجلة المعرفة أن تساهم ، في هذا الظرف بالذات – وكلنا يعرف طبيعة المرحلة الصعبة التي تمر بها أمتنا العربية – في التوعية الفكرية للمواطن العربي ، في موضوع يعتبر من أخطر الموضوعات وأهمها فيما يتعلق بحاضر الأمة العربية ومستقبلها. لذلك قررت إصدار عدد خاص من أعدادها الممتازة عن الوحدة العربية .

ولا شك أن قيمة هذا العدد ومدى تأثير ما سيرد فيه من آراء ستتضاعف كثيراً نتيجة لإقبال هذه النخبة من المفكرين والعاملين في الحقل السياسي على المساهمة في هذه



الندوة بآرائهم فيما يتعلق بموضوع يعتبر بحق حجر الزاوية في أي عقيدة سياسية جماهيرية في الوطن العربي ، وهو موضوع « الوحدة العربية » .

ولقد توجهت مجلة المعرفة الى كل من السادة الحضور « بكتاب دعوة » وبقائمة بالموضوعات التي يمكن أن يتطرق اليها البحث خلال هذه الندوة .

هذه الموضوعات هي :

أولاً : الحديث عن المراحل التي مر بها مفهوم الوحدة العربية منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن .

ثانياً : ماذا يعني هذا المفهوم عام ١٩٧٢ ؟

ثالثاً : أين تقف المنظمات الوحدوية الآن من النضال الوحدوي ومن مفهوم الوحدة ؟

رابعاً : لماذا لم يتحول هذا المفهوم النظري الى واقع عملي حتى الآن ؟

خامساً : ما هو التصور بالنسبة للمستقبل فيما يتعلق بموضوع الوحدة ، وهل أثبتت الحوادث أن هذا المفهوم ، أو أن هذا الأمل الجماهيري ، قابل للتحقيق ولديه في أرض الواقع كل الامكانات والمقومات اللازمة لتحقيقه ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟ ...

إذا رأيتم ، بدأنا بهذه الموضوعات تباعاً ، الواحد بعد الآخر ، يتحدث في كل منها ، من يريد أن يتحدث ، نجري بعض الحوار ، ثم ننتقل الى موضوع آخر حتى نأتي على الموضوعات الخمسة . كما أن لكل أخ من الاخوان أن يقترح علينا ما يراه من الموضوعات المثبتة منذ الآن ولنتناوله في الحديث بدوره .



جورج صدقني :

في الحقيقة إذا استطعنا أن نلم بهذه الموضوعات كلها ، نكون قد أنجزنا عملا كبيراً . يمكن أن نبدأ الآن مثلاً بالموضوع الأول ، (وهو الموضوع المتعلق بتطور مفهوم الوحدة منذ أن طرح هذا الموضوع في مطلع الثورة العربية ، في مطلع القرن العشرين أو في أخريات القرن التاسع عشر) .

في رأيي أن مفهوم الوحدة العربية قد تطور تطوراً أساسياً منذ مطلع القرن العشرين الى يومنا هذا .

الوحدة العربية هدف من أهداف القومية العربية . من هذه الناحية لم يتغير شيء ، فما زالت الوحدة هدفاً من أهداف القومية العربية . لكن القومية العربية كانت منذ الحقلة الأولى ، أي من مطلع القرن العشرين مع بدايات اليقظة العربية ، حركة تحرر قومي معادية لسيطرة الأجنبية والنفوذ الأجنبي ، اللذين تمثلا في ذلك الحين بالسلطنة العثمانية والاستعمار التركي .

الوحدة العربية كانت المطلب أو المظهر الذي تمثلت به القومية العربية ، لكن هذا المطلب تطور تطوراً أساسياً منذ بداية القرن العشرين حتى اليوم ، فالثورةالعربية

— على سبيل المثال — التي تفجرت في عام ١٩١٦ لا يمكن بحال من الأحوال أن تمثل مطامح الجماهير العربية في يومنا هـذا . بكلام آخر ، يمكن أن أقول ان الذين تصدوا لقيادة العرب في سبيل تحقيق مطامحهم وآمالهم القومية ، كانوا فئـة قليلة من المثقفين وأبناء الذوات اذا صح التعبير . ولم تنزل الدعوة الى الوحدة العربية الى صفوف الجماهير الشعبية بالقدر الكافي . وكما نعلم جميعاً ، أخفقت الثورة العربية (ثورة عام ١٩١٦) في تحقيق أي هدف من أهدافها .

في الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين ، شهد الوطن العربي ، من أقصى مشرقه الى أقصى مغربه ، ثورات شعبية جاءت نتيجة لتمرد الجماهير الشعبية على الاستعمار والسيطرة الأجنبية ، لكن هذه الثورات جميعاً عانت من عيب أساسي ، يتلخص في أن هذه الثورات كلها كانت ثورات قطرية . صحيح أن هذه الثورات كلها كانت موصولة على نحو أو آخر بجماهير الشعب العربي في كل مكان ، فمثلاً الشعب في سورية كان يتبرع لثورة فلسطين في عام ١٩٣٦ بالمال وبالسلاح وبالرجال أحياناً ، وكذلك فان ثورة عام ١٩١٩ في مصر لم تكن منعزلة انعزالاً كاملاً عن جسم الأمة العربية ، ففكر الشعب العربي كان يؤثر فيها ويتأثر . ولكن بوجه عام يمكن أن نقول ان الثورات العربية فيما بين الحربين العالميتين كانت ثورات قطرية منعزلة ومجزأة .

مع بداية الأربعينات بدأ تطور جديد ، هـذا التطور الجديد ، تمثل في رفض قيادة المثقفين وأبناء الذوات (أو البورجوازيين بحسب التعبير المستخدم حالياً) للثورة القطرية ، وفي رفض تبعثر الأمة العربية وتجزئتها وبالتالي تجزئة ثوراتها، وبدأت الدعوة الى قلب المجتمع العربي بكامله ، وتنظيم مجتمع عربي جديد قائم على أساس أن تكون الجماهير العربية الكادحة ـ صاحبة المصلحة في الثورة العربية، وفي التحرر من الاستعمار والامبريالية ـ هي قائدة هذه الثورة، ومن هنا بدأ تلازم جديد بين هدف الوحدة العربية وبين الحرية والاشتراكية . لكن ، اذا أردنا مزيداً من الدقة ، لابد من الإشارة الى أن هدف الوحدة العربية في الأربعينات كانت له مرتبة خاصة في أذهان المناضلين. كانت الوحدة العربية مرتبة ممتازة ، واذا كان لي أن أدلي بتفسير لهذه الناحية أقول ان الشعب العربي في ذلك الحين كان كمن يحاول أن يثبت اسمه . تصوروا شخصاً يطلب منه أن يثبت هويته ، فيرتبك ويشعر أنه مطالب باثبات البديهيات . في ذلك الحين كان الجدال يطول ويطول ويطول حتى بين المثقفين ، هـل نحن سوريون أم نحن عرب ؟ وكانت هناك

دعوات اقليميه تبنت التجزئة التي فرضها الاستعمار ، وبدأت تنطلق من الكيانات الإقليمية التي فرضها المستعمر . في تلك الظروف ، كان المناضلون العرب مضطرين ـ لكي يكسروا زخم هذا الهجوم الاستعماري المتمثل بالاقليمية ـ لإعطاء هدف الوحدة العربية مرتبة ممتازة بمنحها نوعاً من الأولوية على الحرية والاشتراكية . ولكن بعد أن بلـغ النضال العربي مرحلة أعتقد أنه يصعب فيها على أي مواطن في الوطن العربي ، في أي قطر من الأقطار ، أن ينكر هوية الأمة العربية .. بعد أن وصلنا الى هـذه المرحلة ، لم تعد هناك حاجة الى تمييز الوحـدة العربية بمرتبة خاصة بين أهـداف الامة العربية التي هي الوحدة والحرية والاشتراكية ، وانما أصبحت العلاقة بين هذه الاهداف علاقة تلاحم عضوي أو بكلام آخر علاقة جدلية ، فكل نضال في سبيل الوحدة هو في الوقت نفسه نضال للتحرر من الاستعمار والامبريالية ، وكل نضال في سبيل الحـرية أو التحرر من الاستعمار والامبرياليه هو خطوة هامة على طريق الوحدة ،وكل نضال في سبيل التحرر من الاستعمار والامبريالية هـو نضال في الوقت نفسه لبناء المجتمع الاشتراكي ، وكل انجازعلى طريق بناء الاشتراكية هو خدمة للوحدة العربية وهكذا ، العلاقة بين الاهداف الثلاثة أصبحت علاقة عضوية او بكلمة أخرى علاقة جدلية ، ولكن هذا لايمنع من القول بأن هدف الوحدة العربية يبقى هدفاً من نوع خـاص بالنسبة الى جماهير الشعب العربي في كل مكان .

ان قضية الاشتراكية مثلاً ، قضية وان كانت قضية مسلماً بها من الناحية المبدئية والمناقشة في تفاصيلها ، وفي طرق تطبيقها ، وفي التمييز بين التطبيقات التي تنسجم مع هذا الظرف أو ذاك والتطبيقات التي لايمكن أن تنسجم . أما هدف الوحدة فهو من طبيعة خاصة لان الوحدة تمثل قضية حياة أو موت بالنسبة للأمة العربية ، تمثل قضية وجود أو لاوجود . معركة الشعب العربي في سبيل الوحدة هي معركة فناء أو بقاء .



يوسف فيصل :

لا بد قبل البدء بالحديث ، من توجيه الشكر إلى وزارة الثقافة على هذه الندوة التي تعالج موضوعاً يهم جميع الوطنيين العرب ، وجميع التقدميين العرب . ان قضية الوحدة ، قضية كبرى ، تثار حولها نقاشات عديدة ، ولابد من توضيح المفاهيم والالتقاء حولها للوصول الى وحدة رأي وتوحيد جميع الجهود في هذه القضية الهامة الأساسية .

حول السؤال الأول ، ما هي المراحل التي مر بها مفهوم الوحدة العربية منذ الحرب الثانية حتى الآن ؟ ..

بتصوري يمكن الحديث عن مرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى التي بدأت مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية مع استقلال سوريا ، وتتميز هذه المرحلة بأن النضال من أجل الوحدة كان يكتسي طابع نضال ضد الاضطهاد القومي ، طابع نضال ضد الاحتلال الاستعماري ، طابع نضال لأجل التحرر الوطني . كان هذا هو الطابع الأساسي للوحدة العربية في هذه المرحلة بالدرجة الأولى ، واذا لم تستطع القوى السياسية المناضلة لأجل الوحدة ، وأنظمة الحكم الوطنية التي نشأت ، أن تحقق الوحدة مباشرة في ذلك الحين ، فلأسباب ذاتية في أنظمة الحكم أو في القائمين

عليها ، ولبعض النقص في التكتيك السياسي أو في تركيب القوى السياسية . وفي هـذه المرحـلة كان الطابـع الجماهيري النضالي الشعبي حول الوحدة العربية هو الأساسي في هـذا المجال .

المرحلة الثانية بتقديري هي المرحلة التي بدأت ، مع الوحدة السورية المصرية وفي هذه المرحلة، يمكن القول إن المفهوم الأول للوحدة، النضال ضد الاضطهاد القومي في سبيل الاستقلال الوطني ، في سبيل التحرر الوطني ، اكتسب أيضاً محتوى آخر وجديد هو المحتوى الاجتماعي ، وأخذت الوحدة تكتسي محتوى آخر ، اقترنت الشعارات الاجتماعية الى جانب الشعارات الوطنية في هذه المرحلة بالذات. والتدابير التي اتخذت في ظل الوحدة السورية المصرية سواء ما يتعلق منها بالاصلاح الزراعي أو التأميمات ، قد أغنت مفهوم الوحدة العربية ، وأعطته محتوى أعمق ، وربطته أكثر بمصالح الجماهير العميقة . ويمكن القول ان الاتحاد الثلاثي ، يمكن أن يشكل مرحلة ثالثة حالياً فيما يتعلق بشكل بناء الوحدة، بالاضافة الى محتواها الوطني المعادي للاستعمار ، والى محتواها الاجتماعي ذي الاتجاه الاشتراكي أيضاً. بمعنى أن بناء الوحدة ، في الاتحاد الثلاثي حالياً يتخذ صفة الواقعية أكثر ، ويتخذ صفة التدرج أكثر ، ومن هذه الناحية ، يمكن القول ان فكرة الوحدة العربية من حيث التطبيق ، قد أخذت تكتسي طابعاً جديداً . بتقديري أن هذه المراحل يمكن أن تعتبر المراحل بعد الحرب العالمية الثانية حتى الآن فيما يتعلق بموضوع الوحدة العربية .



أديب ملحم :

لبحث مراحل تطور الوحدة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، لا بد من أن تربط ما بين الحاضر وبين الماضي .

فكرة الوحدة العربية ليست بالفكرة النظرية التي وُجدت من قبل مفكر أو مفكرين، بل كانت بنت الواقع العربي ، لأن مفهوم الوحدة العربية وُجد في فترات متعاقبة من الزمن ، واستطاع العرب أن يحققوا وحدة لهم في مراحل طويلة من خلال نضالهم العربي ، ومن خلال وجود الاستعمار ، سواء كان الاستعمار العثماني أو الاستعمار الغربي الأوربي ، حيث تمت تجزئة الأمة العربية الى أجزاء ، فكان لا بد للمفكرين العرب من أن يعملوا ويناضلوا لتحقيق الوحدة العربية .

وكما تفضل الأستاذ جورج صدقني ، حول هذا الموضوع ، كانت دعوة الوحدة العربية في البداية ، أي بعد الحرب العالمية الأولى ، دعوة لبعض المفكرين البورجوازيين ، وكانت دعوة نظرية لا تعدو الكتابة في الكتب والصحف ، وبقيت هذه الدعوة تحتل موقعاً نظرياً ، ومن خلال المحافل السياسية ، وبصراحة نستطيع أن نقول بأن هذه الدعوة استطاعت أن تنزل من برجها الارستقراطي البورجوازي الى الجماهير بعد الحرب العالمية الثانية .

الدعوة العربية ، الدعوة للوحدة العربية كانت أملاً من آمال الجماهير العربية منذ البداية، وكان المفكرون في الوطن العربي، في مشرقه وفي مغربه، يتنادون للدعوة العربية. وكانت هنالك بعض الدعوات الاقليمية التي وُجدت بمساعدة الاستعمار أو بعض الظروف الاقليمية التي أرادت أن تعرقل المد القومي ، ففي البداية كانت المرحلة مرحلة تثبيت المفاهيم القومية فلذلك انطلقت الدعوة القومية الى الوحدة العربية كأمل من الآمال للمفكرين العرب، ومن خلال المفكرين العرب بدأت الجماهير العربية تتحرك في هذا المجال. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية ، أصبح هنالك محتوى أساسي لهذه الدعوة للوحدة العربية ، وبدأ المفكرون ، وبدأت الحركات الثورية الوحدوية تنادي بالوحدة العربية كأمل من آمال الجماهير ، ولا بد من العمل لتحقيقه .

جاءت بعض الظروف التي هيأت ونبهت، وأخذت هذه الدعوة مداها على أوسع مدى من خلال النضال ضد الاستعمار ، وكذلك من خلال القضية الفلسطينية في عام ١٩٤٧ . كثير من الحركات الثورية والتقدمية في الوطن العربي أعطت الأولوية للوحدة العربية ، من ناحية الشكل ، وكذلك من ناحية المضمون ، وهي ردة فعل لواقع التجزئة الذي عانت منه الأمة العربية ، فكان لابد من النضال الوحدوي والعمل الوحدوي ، ولكن بعد هذا النضال لتحقيق الوحدة العربية كان لابد من تحرير المجتمع العربي من الاستعمار ، وتحرير الجماهير العربية من الواقع الفاسد أو الظلم الاجتماعي الموجود ، فكانت هناك دعوات موجودة في المشرق العربي وفي المغرب العربي ، وبدأت الدعوة لربط النضال القومي بالنضال الاشتراكي ، وأصبحت هذه الدعوة بعد أن اعطت الأولوية للوحدة العربية تربط بين النضال القومي والنضال الاشتراكي سواء من حيث تحرير الأجزاء العربية ، أو من حيث تحقيق العدالة الاجتماعية .

جاءت وحدة ١٩٥٨ تلبية لآمال الجماهير العربية ، في مصر وفي سورية وفي بقية الأقطار العربية ، وقد تمثلت فعلاً في سورية ومصر ، من خلال النضال المستمر الذي برز في هذين القطرين ، ولكن الجماهير العربية في كل الوطن العربي مشرقه ومغربه كانت تتطلع إلى هذه الوحدة على أنها أمل من الآمال أو نواة لتحقيق الوحدة العربية الشاملة .

للأسف فان الاستعمار لعب دوراً أساسياً مع بعض الحركات الاقليمية، مع بعض الدعوات ضد الوحدة العربية التي أرادت لهذه الوحدة أن تتحطم وتُضرب، وفعلاً ضربوا الشكل بالنسبة للوحدة العربية ، أما المضمون الحقيقي فلم يتأثر ، ومن المؤكد أن هذا

الصراع أدى إلى تعميق التجربة ما بين سورية ومصر ، ومنذ اللحظات الأولى للوحدة ما بين سورية ومصر ، ووجود الانفصال ، تعمق مفهوم الوحدة العربية ، وارتبط ارتباطاً كاملاً بمفهوم الحرية ومفهوم الاشتراكية، وأصبح لابد لأية دعوة للوحدةالعربية أن ترتبط ارتباطاً كاملاً بالمفهوم الاشتراكي ، أي لابد لأي دعوة للوحدة العربية أن يكون لها محتوى اشتراكي ، ومضمون اجتماعي حقيقي .

من خلال نضال الجماهير العربية في المشرق وفي المغرب ، تحقق في النهاية قيام الاتحاد مابين الدول العربية الثلاث سورية ومصر وليبيا ، هذه الدولة الاتحادية التيتأمل الجماهير العربية أن تكون نواة لتحقيق الوحدة العربية ، ويحتمل أن تكون التجربة ، التي مرّ بها الشعب العربيفي سورية ومصر من خلال وحدة ١٩٥٨، قد أدت إلى تقارب بعض الظروف ووجود الظروف الموضوعية ما بين هذه الأقطار للوصول في المستقبل إلى الوحدة العربية الكاملة .

هذا يتطلب النضال المشترك ضد الاستعمار ، والنضال ضد الرجعية ، ووجود المحتوى التقدمي لهذه الدعوة القومية، وتلازم النضال الوحدوي مع النضال الاشتراكي، كل هذه الأمور لابد أن تتضافر لتحقيق الوحدة العربية .

الوحدة العربية لاتأتي عن طريق عملية لصق ، لأن عملية اللصق ، قد يجوز وجدت دعوات استعمارية في السابق ، أو بتهيئة من الدول الاستعمارية للصق بعض الدول العربية ، ولكن من السهل فصل هذه الدول عن بعضها البعض ، فلابد من عملية صهر وتلاحم، وهذا دور الحركات الثورية في أي قطر من أقطار الأمة العربية عندماينادون أو ينطلقون لتحقيق الوحدة العربية .

أصبح مفهوم الوحدة العربية ، مفهوماً واقعياً ، بعد أن كان قبل الأربعينات أو حتى قبل الخمسينات ، كان الذي ينادي بالوحدة العربية في بعض الأحيان ، أو بتحقيق الوحدة العربية ، كان يقابل بنوع من الاستهجان لهذا الطرح وبالأخص في الواقع العملي .

أما الآن فقد أصبح مفهوم الوحدة العربية مفهوماً واقعياً ، ومقراً ، من قبل كل القوى العربية ، ومن قبل كل الجماهير العربية،فلذلك لابد من التفكير،في ناحيةالشكل وناحية المضمون ولتحقيق الوحدة العربية . في رأيي يجب أن ننطلق من وجود هذا الاتحاد ، فاذا عمّق في المستقبل من الممكن أن نصل إلى وحدة عربية ما بين هذه

الدول الثلاث ، ثم من الممكن لهـذه التجربة أن تنطلق عـلى بقية الأقطار العربية ، وتتحقق الوحدة العربية .

لابد كذلك من شيء أساسي وهو أن الحركات الثورية ، أو القوى التقدمية في الوطن العربي، يجب أن يكون لها الدور الأساسي في هذه الوحدة ، عن طريق قيام الحركة العربية الواحده ، هذه القوى التقدمية لابد أن تناضل مع بعضها البعض وأن تنصهر قدر الامكان مع بعضها البعض كي نتوصل إلى حركة ثورية واحدة ليسهل تحقيق الوحدة العربية ما بين الأقطار العربية ، وتحقيق الوحدة العربية ليس بالأمل البعيد ، أو مـن الأمور النظرية التي لا يمكن تحقيقها ، هنالك في التاريخ كثير من الحوادث ثبت تحقيق الوحـدة العربية إن كان في المشرق أو المغرب ، وفي التاريخ الحديث ثبت من خـلال الوحدة ما بين سورية ومصر أن الشعب العربي فعلا متلاحم ليس في سورية ومصر بالعكس في بقية الأقطار العربية ، وعندما تمت عملية الانفصال وُجدت ردة الفعل عند الشعب العربي على هذه الحركة الانفصالية وهي دليـل الروح الوحدوية الموجودة لدى الشعب العربي . إذاً وجود الحركات الثورية أو القوى التقدمية الحكومـات الثورية إذ فعـلاً استطاعت من خلال عملية النضال المستمر وعملية الصهر أن تتوصل في المستقبـل إلى الوحدة العربية التي هي الأمـل المنشود للجماهير الكادحة ، وهذه الوحدة المبنية عـلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، أو تحقيق الاشتراكية الشعب العربي .



د . أحمد طربين

فيما يتعلق بموضوع المراحل التي مر بها مفهوم الوحدة العربية منذ الحرب الثانية وحتى الآن ، لا بد من العودة الى شيء من تاريخ الأمس القريب لعرض بعض تطورات أحداثه التي ارتبطت بها مفاهيم الوحدة وظهرت كردود فعل وحصيلة لها . وهنا يمكن التمييز بين فترتين ، أولاً الفترة السابقة للخمسينات ، وتبدأ عشية الحرب العالمية الأولى ، حين اتصف مفهوم الدعوة للوحدة العربية بمضمون جمهوري ، ولم يشمل بنظرته سوى المشرق العربي ، أي لم يدخل في حسابه وادي النيل أو شمال افريقية العربي . ولعل ميثاق دمشق لعام ١٩١٥ يعكس تماماً مفهوم الوحدة العربية وحصيلة الفكر القومي الوحدوي لغاية هذا التاريخ . وحين عجزت الجمعيات السرية العربية عن القيام بدور ثوري حاسم في أقطار الهلال الخصيب بفضل شدة القبضة العثمانية عليها ، وعلى اثر اقرار الحسين والهاشميين لميثاق دمشق الذي وضعته الجمعيات ، دخل العنصر السلالي في الدعوة الوحدوية المشرقية .

وفي الفترة ما بين الحربين ، وبالتحديد في الثلاثينات ،يطرأ تحول على مفهوم الوحدة العربية ويتجلى بردود الفعل العربية على مأساة فلسطين التي هزت ضمير العرب بعمق وشاركت فيها مصر الشعبية اضافة الى الاقطار العربية الأخرى ، وبدأنا نشهد

نصب الجسور بين وادي النيل وديار المشرق العربي مجدداً . فمن المعلوم أن مصر هي جزء من المشرق العربي ، وتاريخ الأمس القريب والبعيد يشهدبذلك ، ولا حاجة بي الى التفصيل ، وانما أريد أن أقول ان وادي النيل صار يلتفت الى المشرق العربي ويعبر عن نفسه بهذه المظاهرات التعاطفية الشعبية ضد المأساة التي كانت تمثل على أديم فلسطين، هذه المأساة التي بدا جلياً أنها تستقطب أنظار العرب كلهم في شتى أقطار الوطن العربي وتدعوهم ليوحدوا أنفسهم من أجل الوقوف أمام هـذا المد الصهيوني الامبريالي الذي ارتبط بعضه ببعض ارتباطاً عضوياً .

وقد ظهر التجاوب الشعبي جلياً بين المشرق ووادي النيل عن طريق فلسطين، في الخطب الكثيرة التي نقرؤها ابان مؤتمر بلودان (١٩٣٧) والتي كانت تحض على أن فلسطين هي الأساس الذي يجب أن تقوم وحدة العرب عليـه وبسببه ان لم يكن لسبب آخر .

وحصيلة ردود الفعل العربية على مأساة فلسطين من ناحية أخرى ، في الفترة ما بـين الحربين كانت عودة الشكل الجمهوري للدعوة الوحدوية العربيـة نتيجة وفاة فيصل وابنه غازي وانهيار مركز عبد الله المعنوي خصوصاً عقب موافقته على مشروع التقسيم الذي أريد لفلسطين عام ١٩٣٧ . وابتدأ الشكل الجمهوري يبرز ويطغى ليحل محل الشكل الملكي كنظام وحدوي يمكن أن ينتظم الدول العربية في المشرق . وفي فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة ، كان يسود المفهوم التقليدي الذي كان شائعاً في الفترة السابقة ، حين كان التقاء الحكام يفرض صورة التضامن بين الحكومات ، وكان الشكل الذي اتخذه هذا المفهوم قبل الأربعينات يعبر عن نفسه بمعاهدات الأخوة العربية والصداقة والتحالف بين دولتين او اكثر من دول السلالات الحاكمة في المشرق العربي . وكانت خاتمتها المنطقية انشاء جامعة الدول العربيـة التي لم تكن في الواقع خطوة نحو تحقيق الوحدة بقدر ما كانت مشروعاً مضاداً لابطال مفعول المبادرة الهاشمية الرامية الى ايجاد الوحدة الجزئية التي أبرزتها خلال المشاورات والمحادثات التي دعت اليها الحكومة المصرية في أواسط الاربعينات . هذه الجامعة في الواقع لم تكن وعـاء لوحـدة العربية سياسياً ولكنها كانت وعاء لوحدات سياسية ، وهذا ما كان يضاعف من ايلام الجرح الذي كان يحس به العرب . فبعد أن كانت بلادهم موحدة في أيام الحكم العثماني – من الوجهة التاريخية على أقل تقدير – ولم يكن بينها حواجز أو عوائق تحول دون انتقال الناس من قطر الى آخر ، اذا بها تمزّق الى الوحدات الخمس والعشرين التي ذكرت ، واذا بميثاق

الجامعة يكرس قدسية الحدود التي أقامها الاستعمار بيننا بعد أن قطعوا أوصالها وفرضوها علينا .

ثم تجلى عجز الجامعة في معالجتها لمشكلة فلسطين ، وعجزها في الواقع يعكس عجز أعضائها لان أعضاءها باعتبارهم متمسكين بالنزعة الفردية والسيادة الفردية الاقليمية وبوجوب الحفاظ على الامر الراهن ، وعدم الثورة عليه ، كانوا يفسدون المهمة القومية المنوطة بالجامعة ، وبذلك خرجت الجامعة مهزومة من معركة فلسطين . وهذا أدى الى ارهاصات شعبية بين جيل الشبان ، فتكتون منذ هذا الحين في اوائل الخمسينات تيار جديد يطالب بضرورة الثورة والتغيير ، وبخاصة بعد ان طرح هذا الجيل السؤال : ما أسباب ضياع فلسطين؟ ولقد أعطيت اجابات كثيرة حملت المبررات والمعاذير ، ولكنها كلها لم تشف غلة التحرق والتشوق الشديدين اللذين كانا يعتلجان في صدور جيل الشبان الذين عاشوا النكبة ، وشاهدوا فشل الأسرات الحاكمة العربية في تعاملها مع الجماهير ، وفي ايجاد الاصلاح الأساسي الثوري الواعي الى التغيير وشجب الاصلاح القومي القائم على العطاء والتبرع . وكان لا بد أن يقف أنصار الثورة والتغيير مقابل أنصار الوضع الراهن من المحافظين واحتدم الصراع بين الطرفين عقب نكبة ١٩٤٨ التي تجلى فيها نجاح خطة الاستفراد الصهيونية المستندة الى التجزئة المسيطرة على العرب والرامية الى ضرب كل دولة عربية على حدة ، على أساس استراتيجية محسوبة تضمن أن أحداً لن يحرك ساكناً في بقية الجبهات العربية . ولم تخف حصيلة الجامعة عام ١٩٤٨ على أحد من أنصار الثورة والتغيير ، فمضوا يطالبون بتغييرات أساسية وجذرية في بنية المجتمع ونظام الحكم ، وقالوا ان الذين يحكموننا ينتمون الى طبقة معينة ويجمعون مصالح معينة ولذا فهم لا يصلحون لحكم البلاد والجماهير في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وما بعد النكبة . وهنا بدأ المضمون الاجتماعي يلتحم مع المضمون القومي لتتكون منها صورة المفهوم الجديد للفكر السياسي الوحدوي في الخمسينات ، وبخاصة بعد أن استطاع اليسار المحايد في سورية أن يسجل انتصاراً في [٢]الانتخابات ، وبعد الانعطاف نحو المعسكر الاشتراكي [٣]الذي كسر العرب بواسطته طوق احتكار السلاح العربي، وماكان من ظهور معسكر الحياد الايجابي [٤]وانضمام العرب الى هذا المعسكر . وهكذا ابتدأ مفهوم ما بعد الخمسينات يتبلور ليأخذ شكل تلاحم المضمون الاجتماعي بالمضمون القومي ليكون هو مفهوم الوحدة السياسية المرتقبة .

وأتت وحدة القطرين ، القطر المصري والقطر السوري .وأعقبتها طعنة الانفصال وفجعت الجماهير بأغلى أمانيها ، وتبين أكثر فأكثر للجماهير العريضة بأنه اذا لم يكن هنالك تلاحم أساسي وحقيقي بين المضمون الاجتماعي والمضمون القومي فلن يكون هنالك وحدة ودولة قومية جديدة بالامم .ولانزال نحن نعيش هذه المرحلة حتى يومنا هذا.وطبعاً في مطلع ايلول قامت دولة الاتحاد الثلاثي وهي معبرة عن بعض احتياجات الوحدة . ولكني أتمنى ان تكون الروابط في المستقبل بين هـذه الاقطار الثلاثة سورية ومصر وليبية أوثق وأقوى لان عجلة التاريخ يجب ان تتقدم الى الامام ،



صدقي اسماعيل :

— اعتقد ان البحث في تطور مفهوم الوحدة العربية يلزمنا بان نربط بين مفهوم الوحدة كشعار سياسي أو مبدأ قومي أو منطلق للكفاح التحرري ، وبين الواقع الاجتماعي خلال المراحل التاريخية المتعاقبة لهذه الفترة .

ان مفهوم الوحدة قد نبت من وجود قوى اجتماعية في الواقع العربي بدأت تتمثل صيغة سياسية واجتماعية جديدة للمجتمع العربي كله . ولا بد من معرفة هذه القوى أولاً ، ومن تتبع التطور الذي طرأ عليها في الواقع وانعكس على المضمون الحقيقي لمفهوم الوحدة . لا نستطيع ان نقول بان هناك تطوراً بالمعنى الصحيح من ناحية الاتساع والعمق الآن ونحن نلتفت الى ظاهرة مناقضة في هذا المجال : هناك نوع من التقهقر في منجزات الوحدة ، وهو يحتم علينا ان نتبين الكثير من التناقضات التي يبرزها الواقع الاجتماعي في هذا الصدد ولا نستطيع فهمها الآن من خلال ما يمكن ان ندعوه بالمراحل الطارئة أو « التغيرات الصغيرة » — اذا صح التعبير — في تفكيرنا بمعنى الوحدة العربية ، امكان تحقيقها أو تراجعها ومعوقاتها .. الخ .

أفهم التغير الذي طرأ على مفهوم الوحدة في هذه الحقبة ، من خلال ما هو نقيض الوحدة ، أو ما يبرزه الواقع الاجتماعي من مواقف فكرية تجعل الوحدة العربية

شعاراً صعب التحقيق ، ولا سيما ان هذا الشعار رغم ارتباطه بالتطور الطبيعي لليقظة القومية لدى الجمهور الأوسع في الأقطار العربية، ورغم ان طابعه الجماهيري أضفى عليه صفة الحماسة العاطفية .. الخ ، ورغم تباين الشروط الموضوعية التي ا قترنت به (التحدي الاستعماري ، النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، حافز الاستقلال الوطني ، الارتباط بالتراث العربي .. الخ) . رغم هذا كله استطاع مفهوم الوحدة العربية ان يتخطى تناقضات كثيرة .

أولاً — القول بأن الوحدة العربية تناقض الاستقلال الوطني وتهدده . لقد كان التخلص من الاحتلال الأجنبي بداية لنشوء « دول » عربية لها رصيد من النضال التحرري من أجل الاستقلال القطري . وكان يظن بأن هذا الاستقلال يمكن أن يتعرض للضياع اذا اعتبر ظاهرة « تجزئة » أو « انفصال » بالقياس الى كيان سياسي أوسع هو « الدولة العربية » . وقد تجاوزنا الآن هذا التناقض على الصعيد النظري على الأقل ، فيوماً بعد يوم تبدو لنا الوحدة العربية شرطاً أساسيا لحماية كل استقلال حقيقي ، وان الحرية الوطنية لن تتحقق الا في اطار الكيان العربي الواحد . قد يكون هذا نوعاً من المغالاة في التفاؤل ولكنه الواقع . اننا نعيش مرحلة القوى« القومية » الكبرى. والمسلمة الأولى في الصيغ السياسية المعاصرة هي أن حماية أمة ما لن تكون الا بقوة هذه الأمة .

ثانياً — ما يقال عن التناقض بين الوحدة العربية والحضارة . نعرف جميعاً أن شعار الوحدة خلال السنوات الأولى من الخمسينات أي مرحلة اليقظة القومية الثانية كما تسمى كان يتعرض ليوضع دائماً في اطار التخلف . أي ان أي انجاز وحدوي بين قطر وآخر يمكن أن يعرض أحد القطرين للتنازل عن مستواه الحضاري . كما أن وجهة النظر الاستعمارية تركز دائماً على الربط بين المجتمع العربي بصورة عامة والتخلف مما يشكك في جدوى قيام الوحدة من ناحية التقدم الاجتماعي . ولا أظن أن هناك من يتمسك الآن بمثل هذا الموقف ، فالأقطار العربية على تباين مستوياتها الحضارية تتعرض لتحديات مصيرية تتناول الجميع .

تناقض ثالث تخطته المرحلة الراهنة هو علاقة المنظمات التقدمية أو الثورية بالوحدة العربية أو الحركات التي تنادي بها . كانت الدعوة العربية تقوم على شيء من

الاندفاع العاطفي لايخلو من التحدي القومي أو التصور بان وراء الدعوة موقفاً متعصباً للقومية العربية ضد كل اتجاه آخر وقد يبرر اضطهاد القوميات الاخرى ، وقد تجاوز مفهوم الوحدة هذا التناقض ونرى الآن كيف ان النزعة الثورية لدى أية حركة تقدمية حقة ، تجد في القومية العربية منطلقاً لموقف سياسي تحرري لايمكن ان يلتقي مع أي خط رجعي أويكون أداة للاستعمار والرجعية . ان باستطاعة « الحركةالعربية » ان تحتوي كل منظمة طليعية تؤمن بالكفاح الانساني العادل ضد الاستعمار .

ثمة التباس آخر قلما ننتبه اليه لسوء الحظ أو نتناوله بالبحث إلا نادراً وهو التباين الشديد بين الدعوة للوحدة العربية أو فكرة الوحدة العربية ومفهومها وبين دراسة المنجزات الوحدوية التي تتم في الواقع العربي الذي نسميه واقع التجزئة أو واقع التقهقر القومي على الصعيد السياسي .. هناك اعمال وحدوية تمليها القوى الاجتماعية وتمارس بالفعل في أرضية قومية لايمكن اغفالها ، ولا سيا في المرحلة التاريخية التي نحياها . تفتح الوعي القومي مثلاً لدى الجماهير وكيف ينمو باستمرار أمام التحدي الاستعماري والصهيوني ويدعم لدى الجميع فكرة المصير العربي الواحد . هذا في المشرق العربي حيث تجابه الجماعات العربية في أقطارها المختلفة ككل وترد عفوياً على هذه الجابهة في موقف واحد ، بغض النظر عن المنجزات الوحدوية على الصعيد السياسي الرسمي . وهناك عملية التعريب في المغرب العربي أيضاً : انها من اكبر المنجزات الوحدوية التي تمارس فعلياً : شعب ضائع يبحث عن شخصيته القومية ويفرض على النظام الاجتماعي والسياسي ان يستجيب لهذا المطلب الجماهيري . ولا نستطيع الآن ان ندرجه في أي اطار سياسي . وعلى هذا النحو نستطيع ان نفسر كل مظاهر التلاقي بين الحركات التقدمية أمام التغيرات السياسية . وسواء كان هذا التلاقي عاطفياً أو فكرياً فانه استجابة لمناخ وحدوي يعبر اكثر عن الارضية السياسية لوعي الجماهير .

الشيء الأساسي في هذا كله هو ان ماطرأ على مفهوم الوحدة خلال هذه الفترة ، ان القوى الاجتماعية التي تتمسك بالوحدة قد نمت ، ولكن لسوء الحظ هناك الظروف العالمية والشروط الداخلية للبلاد العربية والعوامل الذاتية في المجتمع العربي نفسه .. كلها تتضافر للحيلولة دون ان تصبح تطلعات الجماهير الى الوحدة قوة تاريخية قادرة على تحريك الواقع في منجزات سياسية مباشرة . المهم اننا لانستطيع وينبغي الا

نبحث عن مفهوم الوحدة العربية كفكرة أو شعار دون البحث في التغيرات الاجتماعية التي تعكس مضمونات جديدة في هذا المفهوم . وباعتقادي ان هـذه التغيرات تطرح أمامنا شكلا آخر التساؤل هو البحث في ارضية صلبة (اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً) يمكن ان ننطلق منها والا نقتصر على صيغة عملية واحدة هي الصيغة السياسية ، لأن البنية الاجتماعية - كما قلت - في هذه المرحلة التاريخية تتماثل يوماً بعد يوم في هـذه الناحية في مختلف اقطار الوطن العربي . وهو مايجعل التطلعات الوحدوية تختمر على صعيد الواقع اكثر مما تنضج من الناحية الفكرية .



أدهم مصطفى :

بالنسبة للوحدة العربية نحن أمام مفهوم ثورة ، والوحدة العربية مرتبطة طبعاً بالثورة العربية ؛ سواء عنينا بها نهضة أواخر القرن التاسع عشر أو المعاناة التي يعيشها الشعب العربي في الوقت الحاضر ، فهي ثورة على كل الاحوال . ومن طبيعة الثورات أن تكون ذات نزعة هجومية لتعمل على تغيير الواقع وتجاوز التجزئة للضرورات التي عبر عنها بعض الاخوة ؛ منها التطور الاجتماعي ، والتماس مع الحضارة الحديثة ، الامر الذي يقوي الشعور بضرورة التطور باتجاه ما . بالنسبة للعرب فان التطور المطلوب والملحهو التطور الوحدوي .

المفهوم الوحدوي ، وان كان قد بدأ بشكل غائم ، وغير محدد ، وغير مقنن ، إلا أن الأحداث التي مرت على الامة العربية أظهرت أن هناك أفكاراً أكثر عمقاً، وأكثر اتساعاً ، بحيث أن الربط بين مفهوم الوحدة ، ومفهوم الاشتراكية أصبح متلازماً فعلاً تلازماً عضوياً .

غير أن العمل الوحدوي مايزال الى الآن في رأيي يشكل عمليات رد فعل تأتي في أعقاب بعضها البعض ضد المحاولات الامبريالية لمنع هذه الأمة من تحقيق الوحدة ، ولابقائها في هذه الحالة من التخلف والتجزئة ، بحيث أن هناك شعوراً لدى الآخرين ، لدى القوى العالمية الكبرى ، بأن العرب عندما يتوحدون ، يمكن أن يخلوا بموازين العصر ، ومن هذا المنطق أقول ان الوحدة عمل يومي ملح ، وما هذه الندوة الا احدى هذه الظواهر ، وأنا أؤيد ماقاله الأستاذ صدقي اسماعيل من أن هناك انجازات وحدوية يومية ، ولكنها — للأسف — ذات طابع ارتجالي . هناك ضغط من الجماهير من أجل الوحدة ، ونحن على اختلاف هذه الأنظمة نحاول أن نداري هذا الضغط بين حساب القوى الكبرى ، وبين القوى المحلية ، وبين حساب المصالح الذاتية ، وبين حساب مصالح الحركات السياسية .

أصيبت وحـدة ١٩٥٨ بنكسة ، لكن الشعب العربي بقي يضغط ، جماهيرياً وبحركات سياسية مختلفة ، وجاءت التغييرات في سورية لتعبر عن مصالح الجماهير في الوحدة .

التطور الذي حصل هو أننا كنا نتكلم عن وحدة سياسية ، ثم تطورت الى وحدة سياسية ذات مضمون اجتماعي معين وهو الاشتراكية ، والآن نحن إزاء معركة مع اسرائيل يمكن أن يضاف اليها ضرورات المعركة ، وما يقتضي ذلك من توحيد القيادات العسكرية ، كل هذا بالتالي سيساعد على ايجاد عملية تفاعل كبرى يمكن أن تتمخض عنها عملية وحدوية كبيرة جداً . إننا إزاء الضغط الاستعماري والضغط الصهيوني ، لم نتبين طريقاً معيناً للعمل ، وهذه مسؤوليتنا جميعاً ، مسؤولية هذا القطر بالدرجة الأولى لما يتميز به من تقدم في الوعي القومي ، وهذا ما يحمل القطر مسؤوليات أكثر من أي قطر آخر . هذا هو الوضع التاريخي ، ولكن نحن أمام مستقبل ، وعلينا أن نعين عملنا وبسرعة من أجل انجاز وحدوي أعمق .

أريد أن اقول ان الزمن يتجاوز كثيراً من التساؤلات ، كيف؟ . لماذا؟ ولكن نحن الآن أمام عمل مصيري وجدي ، وعلينا أن نقبل على العمل الوحدوي

أخذاً من التجارب الماضية ، وانطلاقاً نحو تصور معقول للمستقبل ، وأعتقد أن الاتحاد الثلاثي يشكل تطوراً كبيراً في هذا الاتجاه .

مفهوم الوحدة العربية تحول الآن الى واقع ملموس تعبر عنه دولة الاتحاد والمحاولات المبذولة لتعميق هذا الاتحاد وتطويره. ومعنى ذلك ان الوحدة العربية لم تعد مجرد مفهوم نظري ، وانما هي الآن واقع عملي يتجسد في مؤسسات وتشريعات وحدوية .

هذا المفهوم الذي كان يحمل طابع التبشير ، بدأ يتحول شيئاً فشيئاً من مجرد شعار الى حقيقة قائمة . والمطلوب الآن هو ترسيخ هذه الحقيقة وتكريسها بحيث يستقطب العمل الوحدوي كل الجهود المتوفرة والمتاحة ، وبحيث يتعمق مفهوم الوحدة ويصبح جزءاً من حياتنا وممارستنا وعملنا السياسي واليومي .



جمال أتاسي :

ان الوحدة العربية هي التطبيق الفعلي لفكرة القومية العربية ، أي لإرادة الأمة العربية الواحدة في أن تشكل دولة واحدة ، وهي استراتيجية تحقيق هذه الفكرة . ولقد تطور الفكر القومي العربي واغتنى كثيراً من تجارب نضال أمتنا ومن تجارب نضال الشعوب في العالم وثوراتها . كذلك فان مفهوم الوحدة العربية كطريق في العمل والنضال وكصيغ في التطبيق والتحقيق ، قد مر بتجارب كثيرة ، بعضها سلبي وبعضها ايجابي ، وقد أنضجته هذه التجارب وأعطته ملامح واضحة . لقد تحدث الاخوان عن المراحل التاريخية التي مر بها مفهوم الوحدة وأكدوا على عدد من جوانبه المتطورة ، ولا أريد أن اقف عند منا قشتها ، بل اريد أن انتقل الى تصور مفهوم الوحدة من حيث تطوره الواقعي والمسائل التي يطرحها هذا التطور . واحصر المسألة في وجهها المباشر كارادة للأمة ، وبالأحرى للجماهير العربية العريضة ولقوى النضال العربي ، في تشكيل كيان سياسي موحد . انني أنطلق بالطبع من مسلمة وجود الأمة ومن مسلمة القومية العربية

وكونها الاطار الطبيعي لفكرنا ونضالنا ، تلك حقائق لم تعد بحاجة للتأكيد . اننا لم نعد بحاجة للتبشير بوجود الأمة العربية ولتأكيد هذا الوجود ومقومات هذا الوجود التاريخية والحضارية والجغرافية والاقتصادية والبشرية ، ولا التأكيد على ضرورة وحدة هذه الأمة وأهمية هذه الوحدة في تحقيق تحررنا وبناء تقدمنا ، تلك مسائل تجاوزها النضال العربي في أكثر الاقطار العربية ، بل المسألة الملحة اليوم ، كيف نستخلص طريقاً للوصول الى الوحدة ، والى بناء دولة الوحدة .

لقد طرحت قضية الوحدة في نضال شعبنا كنزوع لاستكمال وجوده القومي ، ولكنها طرحت من المعاناة المباشرة لعقبات التي وضعتها عن طريق تحررنا الوطني وتقدمنا الانساني أجيال طويلة من التجزئة والتخلف ، ومن خلال النضال ضد التسلط الاستعماري وضد التابعية ، كما صعدت قضية الوحدة تدريجياً لتأخذ ابعادها كاستراتيجية في التحرر الشامل وفي التصدي للامبريالية ، وفي التصدي لمواجهة الأخطار التي تهدد امتنا ، قطرياً وقومياً ، فالمضمون الاول والاساسي اليوم لمفهوم الوحدة العربية أنها استراتيجية التصدي لأعداء امتنا ، ولأعداء تحررنا وتقدمنا ، الذين هم أعداء التحرر في العالم ، فالقومية العربية اليوم في تصادم مطلق مع الامبريالية .

لقد مرت مرحلة حاولت فيها الأنظمة العربية التقليدية والرجعية ، وحاولت فيها القيادات الاقطاعية والبورجوازية أن ترفع شعار الوحدة العربية وان تبشر بها ، ويمكن القول ان أقصى ما أمكن أن تعطيه تلك النظم من امكانيات لتحقيق هذا الشعار ، هو كيان الجامعة العربية . لقد كانت محاولة لتجميع الدول العربية التي لها كيان معترف به دولياً من خلال رابطة محدودة والتزامات محدودة ، تكرس الظروف الاقليمية وواقع تباين النظم وتناقضها ، انها الصيغة التي سمحت بها وتسامحت معها الامبريالية ولم تعترض طريقها ، وهي الصيغة التي ترتضيها النظم التقليدية والرجعية ، ولا تعمل على التقدم بها أو تجاوزها في شيء لأن ذلك يعني انهاء تلك النظم وتجاوزها .

إن هذه الصيغة في الوحدة وفي العمل القومي العربي ، قد ثبت فشلها وعدم جدواها من خلال فشلها في التصدي للمشكلات التي تواجهها أمتنا وللمخاطر التي تهددها ، ولقد تكشف ذلك بشكل فاضح عام ١٩٤٨ ، فأمام « نكبة فلسطين » وقيام اسرائيل ، سقطت تلك الصيغة في العمل القومي ، وكشفت عن نفسها في انها عاجزة عن التصدي لهذا الخطر الجديد الذي يهدد أمتنا ، وعن النهوض بهذه الأمة وعن تجاوز ظروف التجزئة

والتخلف ، وعن التصدي لهذا السرطان الذي زرع في جسد أمتنا معززاً بقوة الصهيونية العالمية والامبريالية . ولو أن تلك الصيغة ، أي الجامعة العربية ، لم تجسد في يوم من الأيام ارادة لجماهير أمتنا ، أو أي مطمح من مطامح شعبنا .

من قبل عام ١٩٤٨ ، طرحت مفاهيم أخرى للوحدة العربية ، هناك احزاب قومية بورجوازية طرحت بالأسلوب القومي التقليدي فكرة الوحدة ، كما تقدمت أحزاب قومية تقدمية وثورية رافعة شعار الوحدة كمطلب جماهيري وثوري ، وطرحت مضامين تقدمية لمفهوم الوحدة واستراتيجية تحقيقها . الا ان نكسة عام ٤٨ أسقطت في نظر الجماهير المنطق التقليدي والبورجوازي في معالجة قضية التحرر والوحدة معاً ، وأصبح الطرح الجديد من القوى الجماهيرية ومن الأحزاب والقوى التقدمية لمطلب الوحدة ، في أنه يأتي عبر تغيير أساسي في بيئة المجتمع ، وعبر اسقاط للنظم المحافظة التي تتغذى من عوامل التجزئة والتخلف وتتناقض مصالحها مع التقدم ، والتي لا تستطيع أن تتحرر من التابعية والاقليمية ولا أن تناضل نضالاً جدياً ضد الامبريالية ، بحكم عقليتها المحافظة ، وبحكم مرتكزاتها الاجتماعية والاستغلالية والمعادية للجماهير ، وبحكم مصالحها ، فأصبح الدفع على طريق الوحدة ، يعني الدفع على طريق التحرر الاجتماعي والسياسي معاً ، وتغيير تلك النظم . ولقد سقطت نظم وحصلت تغييرات كثيرة وفي الخمسينات كانت الاندفاعة الوحدوية للجماهير عارمة ، وبخاصة في المشرق العربي ، وتقدم مطلب الوحدة كمطلب جماهيري ثوري يتجاوز النظم والحكام ، ويتطلع الى دولة حقيقية للوحدة ، ومقابل ذلك تحركت النظم الرجعية الموالية في مصالحها واقليميتها للقوى الاستعمارية ، وتحركت مشاريع وحدوية مصطنعة لصد التيار الجماهيري الوحدوي ، ولتفريغ مطلب الوحدة من مضمونه التحرري الثوري ، مثل مشروع الهلال الخصيب وسورية الكبرى ... كمشاريع تغذيها القوى الامبريالية وتقوم تحت وصاية النظم التقليدية ومن خلال التابعية المطلقة للدول الغربية .

فالحقيقة أن التطورات السياسية والاجتماعية والتغييرات التي حصلت في اقطار المشرق العربي ، يقابلها ذلك الصعود التاريخي لثورة ٢٣ تموز في مصر ، أعطت وجهاً جديداً للنضال العربي ، وابعاداً جديدة للعمل الوحدوي . فعدا اليقظة القومية الكبرى التي نهضت بها ثورة ٢٣ تموز في مصر ، فان لقاء هذه الثورة مع حركة الجماهير الوحدوية في المشرق العربي ومع قواه التقدمية ، من خلال النضال الوطني التحرري في كل قطر

ومن خلال النظال ضد التابعية وضد محاولات الاحتواء والسيطرة الامبريالية ، ومن خلال النضال ضد قوى الرجعية والردة ، أعطت دفعاً جديداً للمفهوم الوحدوي ، الذي اخذ ينضج بمضمونه الأساسي كاستراتيجية في التصدي للاستعمار الاسرائيلي وللامبريالية العالمية. وكانت تجربة العدوان الثلاثي على مصر عام ٩٥٦ وما اعقب ذلك اغناءاً كبيراً للنضال العربي ، وعلى هذا الطريق الاستراتيجي العريض وبارادة الجماهير الواسعة، قامت أول تجربة رائدة للوحدة عام ١٩٥٨ ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة .

إن وحدة عام ٥٨ كانت تجربة وحدوية ثنائية ، بين القطرين اللذين بلغا شوطاً معيناً من التقدم وشوطاً كبيراً من التحرر ووقفا موقفاً واحداً في الصدام مع الامبريالية ومحاولات الاحتواء وفرض النفوذ ، ولكن تلك الوحدة أعطت مرتكزاً أساسياً للاستراتيجية الوحدوية ، مازال أساسياً وكبيراً ، هي بناء ذلك الجسر الوحدوي الذي يربط المشرق بالمغرب ويحيط باسرائيل ويتخطاها ، الجسر الذي يربط مصر بسورية ليكون الدعامة الكبرى للنضال العربي والوحدة العربية .

ان وحدة عام ٩٥٨ كانت طوراً جديداً في تطور العمل الوحدوي وتجربة ثمينة في الاستراتيجية الوحدوية . لقد قلنا الكثير عن هذه الوحدة وكتبنا الكثير ، وكل ما أريد قوله الآن أن تلك التجربة اعطت تأكيداً لامكانية التحقيق المباشر لدولة الوحدة ، وأعطت ذلك النموذج والمثل ، امام قوى التقدم والثورة العربية والنظم العربية الجديدة ، في طريق تجاوزها لنفسها لتقيم الكيان السياسي لدولة الوحدة .

عند الحديث عن الوحدة يذهب الكثيرون الى التركيز على الظروف الموضوعية لكل قطر وعن الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .. بين الأقطار . تلك امور لها وزنها ولا شك واثرها في تطور مفهوم الوحدة ، وكما ذكر بعض الاخوة ، ان تلك الظروف تتقدم وتنضج وهي اليوم اكثر نضجاً من ذي قبل بفعل عوامل عديدة ؛ ولكن المسألة التي أردت التركيز عليها هي تطور المفهوم السياسي للوحدة ، والارادة الأساسية التي برزت ، إرادة الجماهير وارادة القوى النضالية الفاعلة ، في أن تصنع ذلك الكيان السياسي وأن تتجاوز جميع المعوقات التي تعترض سبيل اقامة دولة للوحدة .

قلت إن ثمة بعداً للعمل الوحدوي تجاوزناه بعد عام ٩٤٨ ، وان ثمة مرحلة جديدة قامت بين عام ٩٥٤ وعام ٩٥٨ أعطت تلك التجربة في الوحدة الثنائية واعطت أفقاً جديداً للعمل الوحدوي ، كما اعطتنا ايضاً من خلال ضربة الانفصال التي تلقتها درساً

كبيراً . فالانفصال الذي وقع كشف من عوامل الخلل والضعف في جسد تلك الوحدة ، والتي تركت لقوى التآمر والردة أن تضرب تلك الوحـدة . كان من الطبيعي لتلك التجربة الأولى في الوحدة أن تمر في أزمات وحساسيات وأن تواجه مصاعب ومتاعب ، ولكن قيادة دولة الوحـدة عندما أرادت ان تتصدى وان تقوم بالتحويلات الاجتماعية والاقتصادية التي تعزز تقدمية دولة الوحدة، تحركت القوى الرجعية معززة بالدعم الامبريالي والتآمر الكبير . ان وحدة عام ١٩٥٨ ولو انها جاءت تحت قيادة تقدمية ثورية ، فانها في بنائها السياسي وتنظيمها لم تستكشف ابعـاد الخطر عليها ومن هم اعداءها ، ولم تبن قوتها وقاعدتها الجماهيرية التقدمية المنظمة التي تضمن حمايتها .

لقد جاءت وحدة ٥٨ بالارادة العامة للشعب ، وأرادت أن تبني نظاما من خلال تلك الارادة العامة من غير تمييز بين القوى الصاعدة فيها والمنسجمة معها ومع تقدميتها ومن هي القوى التي تتجاوزها بالضرورة تلك الوحدة وتتجاوز عقليتها ومصالحها ، والتي تصبح بالضرورة قوى معوقة أو معادية تتآمر عليها . انها صنعت الوحدة وكان ذلك تحدياً كبيراً لجميع القوى المعادية لتحرر أمتنا وتقدمها، ولكنها لم تصنع الأداة الصلبة التي تحمي الوحدة وتحمي تقدميتها .

تلك أيضاً تجربة ، فالمضمون الأساسي الذي أعطي لمفهوم الوحـدة بعد ضربة الانفصال هو البعد الاشتراكي للوحدة ، والمرتكز الطبقي الذي يعزز الهوية الاشتراكية للعمل الوحدوي . قبل تلك التجربة لم يكن هناك من اشتراط للوحدة بالطريق الاشتراكي ولا بالنظام السياسي الذي يرتكز الى تحالف طبقي محدد ، وبعدها أصبح ذلك الاشتراط . كما أن مفهوم الوحدة تعزز أكثر من ذي قبل أيضاً في الموقف القاطع ضد الامبريالية .

لقد مرت بعد ذلك مرحلة وقفت فيها مصر وهي تحمل اسم الجمهورية العربية المتحدة، لوحدها ، تستقطب من حولها التطلع الوحدوي والنضال العربي التحرري ، وعززت تقدمية نظامها ووضعت ميثاق عملها الوطني ، لتضع معالم استراتيجية عريضة في النضال العربي وفي العمل الوحدوي .

لقد حصل بعد ذلك تغيرات كثيرة في الوطن العربي وقامت ثورات ونظم جديدة . تحررت الجزائر وانتصرت ثورتها الوطنية ، وحصلت تغيرات بعده في المشرق العربي ، فقامت حركة ٨ شباط في العراق وحركة ٨ آذار في سورية ، وتعددت النظم التقدمية التي ترفع رايات الحرية والاشتراكية والوحدة ، وأخذ التطلع للوحدة يغتني بأبعـاد

وامكانيات أعمق وأشمل ، ولم يعد النضال العربي التقدمي في أبعاده الاشتراكية يتمركز في قطر واحد ، واذا ماظلت مصر في تطورها وتقدمها ، وفي وزنها البشري والنضالي المحور الأساسي للاستقطاب الوحدوي ، فلقد تعددت بؤر الثورة العربية وتعددت النظم التقدمية وما زالت تتعدد ، وطرح على صعيد العمل الوحدوي ، تعدد الأقطار التي تضمها بدءاً دولة الوحدة ، وتقدمت صيغ للوحدة من خلال استيعاب تجربة الوحدة والانفصال ، أبرزها صيغة الوحدة الاتحادية التي طرحها حزب البعث العربي الاشتراكي عام ٦٢ ، والتي كانت محور النقاش في محادثات الوحدة بين القيادة السياسية في المتحدة وسورية والعراق عام ٦٣ . ان المناقشات التي دارت في محادثات الوحدة والتي أثمرت ميثاق ١٧ نيسان الذي لم يكتب له التحقيق لعوامل معروفة ، قد أغنت مفهوم الوحدة من خلال الطرح المتعدد الجوانب لمسائلها ، فعند التأكيد على المنطلق التحرري الجذري والمنطلق الاشتراكي ، كانت هناك مواجهة لمسألة الأساسية في بناء دولة الوحدة ، وهي مسألة التنظيم السياسي الذي ترتكز عليه دولة الوحدة ، أي الأداة السياسية لتحقيقها وحمايتها ، أي موضوع التنظيم السياسي الموحد وطريق الوصول اليه . وهنا كانت العثرة ، فبدل السير نحو وحدة القوى ووحدة النظم ، كان التصادم والتباعد ، وقامت معوقات جديدة على طريق الوحدة .

ونحن اليوم اذ نفتش عن السبل التي تدفع نحو الوحدة ، لابد أن نواجه المسائل المتجددة التي تربك العمل الوحدوي ، لا من النظم التقليدية التي مازالت قائمة ومن القوى الرجعية ، بل من النظم التقدمية ذاتها ، فلقد تأقلمت هذه النظم وأخذ كل واحد منها يبني تجربته الخاصة ، وهي ولو أنها تبنيها من خلال شعارات وحدوية ولو أنها تلتقي في الأهداف ، فان ارادة تجاوز النظم لذاتها قد ضعفت ، ارادة تجاوز النظم لاطارها الخاص في سبيل بناء النظام السياسي المشترك أو الموحد الذي تبنى عليه دولة الوحدة .

وبعد هذا كله فنحن أمام مرحلة جديدة ، هي تلك التي خلفتها هزيمة حزيران ، والتي تطرح مأساة أمتنا كلها وعثراتها والسؤال الكبير الذي يطرحه كل مواطن عربي : الى أين نسير ؟.

بعد الهزيمة برز مطلب الوحدة كمطلب ملح وكحاجة أساسية لابد منها للتصدي لظروف الهزيمة وكعامل أساسي في استراتيجية التحرير ، فالدفع على طريق الوحدة أصبح يأخذ شكل دفع من خلال حاجات المعركة وفي سبيلها ، واصبح يتوجه بصورة مباشرة للقوى والنظم التقدمية التي تحمل على عاتقها مهمة التحرير .

وعبر مخاض طويل ولد اتحاد الجمهوريات العربية ليحمل نفسه مسؤولية تحرير الأرض وإزالة العدوان . ولقد سبقت قيام ذلك الاتحاد تغيرات في عدد من الاقطار العربية وفي مواقع النظم والقوى ، وقامت تلاقيات ومواثيق واتفاقيات سياسية وعسكرية واقتصادية . قام ميثاق طرابلس وقام التلاقي بين القيادات السياسية في مصر وسورية وليبيا ، وأعطى ذلك التلاقي هذا الهيكل لاتحاد الجمهوريات . هذا الهيكل يعطي أملا كبيراً بأن يمتلىء بمضامين وحدوية أوثق وأقوى ، ولكنه مازال محاصراً بواقع معين للنظم والقوى . إنه صيغة لقاء والتطور وما زالت في بدايتها ، ولكنها صيغة تحتاج لدفع متواصل نحو بناء سياسي موحد .



- ظهير عبد الصمد :

بالنسبة لقضية الوحدة العربية ومفهومها، من المفيد باعتقادي العودة الى الفترة الاولى التي برز فيها شعار الوحدة العربية . ففي اواخر القرن التاسع عشر برز هذا الشعار وكانت البلدان العربية خاضعة اما للسلطة العثمانية او لاحدى الدول الاستعمارية ، وكان هذا الشعار بمفهومه الاولي يعني اللامركزية عند البعض او اقامة حكومة عربية تضم بعض الاقاليم العربية او كلها عند البعض الآخر . ان شعار الوحدةالعربية كان منذ بروزه شعاراً معادياً للتبعية للسلطة العثمانية وموجهاً ضد الاستعمار ، اي أنه كان يعني التحرر والاستقلال واقامة حكومة عربية مستقلة .

خلال الحرب العالمية الاولى ، شعار الوحدة العربية برز بصورة عملية من خلال الشريف حسين ومن خلال بعض العناصر السياسية والهيئات التي تبنت شعار الوحدة في سورية والعراق ولبنان وفلسطين والاردن . وقد صدمت العناصر الوطنية بالواقع المؤلم الذي فرضته عليها الدوائر الامبريالية ، صدمت بواقع قيام الاستعمار بتجزئة البلدان

العربية ، واقتسامها فيما بين دوله واحتكاراته . ان عملية التجزئة هذه كانت عملية مدبرة ومهيأة من قبل . ان الاستعمار كان يخطط لها منذ زمن بعيد ، وهدفه الاساسي هو الحؤول دون انشاء حكومة عربية كبيرة او صغيرة مستقلة ، تشكل كيانا كبيراً في هذه المنطقة .

بعد الحرب العالمية الاولى ، ونشوء حكومات وأقاليم ومراكز عديدة مرتبطة بهذه الدولة الاستعمارية او تلك ، بدأت تتكون بكل دولة او امارة عناصر من مصلحتها حماية هذه الكينونات الصغيرة ، هذه الدويلات الصغيرة ، وأخذت هذه العناصر تعرقل وتعوق اي تقارب عربي ، واخذت تشكل عوائق في طريق النضال من اجل الوحدة .

والجماهير الوطنية في البلدان العربية ، والقوى الوطنية المختلفة ، كانت ترى في مرحلة الاحتلال والانتداب ، ان المهمة الاساسية الموضوعة أمامها هي التحرير ، تحرير اوطانها من الانتداب والاستعمار ، ومن الناحية العملية فقد حل شعار التحرر من الاستعمار محل شعار الوحدة ، ولكن هذا الشعار لم يرتفع كليا ، فقد ظلت بعض الاحزاب وبعض الهيئات ترفع شعار الوحدة العربية ، وكان لها حوله مفاهيم عديدة ، وكان البعض يفهمه بشكل طوباوي والبعض يرى أن امكانية تحقيقه ستكون فقط بعد تحرر البلدان العربية من الاستعمار . ان شعار الوحدة العربيـة كان يعكس مطامح الجماهير الشعبية وكان يرتبط بنضالاتها الوطنية في سنوات ما قبل الحرب العالمية .

بعد الحرب العالمية الثانية تغيرت الامور جذرياً ، وبسبب عوامل دولية وانهيار النظام النازي ، وانتصار الاتحاد السوفييتي ، توفرت الامكانيات لتحرير شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينيـة ، وفي عدادها البلدان العربيـة ، وعملياً تحررت اقسام واسعة من بلدان آسيا وافريقيا كما تحررت اكثرية البلدان العربية من الاستعمار ، وهذا هيأ التربة المناسبة النضال من اجل الوحدة ، لرفع شعار الوحدة العربية من جديد ، وفي ظروف جديدة ، في ظروف التحرر السياسي والنضال من أجل التحرر الاقتصادي ، في ظروف النضال ضد الاقطاعية .

وأخذت البلدان العربية المستقلة تدرك أهمية تعاونها وتقاربها من بعضها البعض في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية ، وبعـد تأميم المؤسسات الاستعمارية في العديد من البلدان العربية المستقلة ، أخذ مفهوم الوحدة العربية يغتني تدريجياً بمفاهيم اجتماعية تقدمية ، واخذت التطورات المتلاحقة العاصفة التي تتم في البلدان العربية المختلفة تؤثر

وتغني مفهوم الوحدة العربية ، وتلاحم حركة التحرر العربيـة بالمفاهيم الاجتماعية التقدمية اغنى مفهوم الوحدة العربية ، وربطه بالقوة التقدمية .

وبعد الهزيمة التي لحقت بالبلدان العربية عام ١٩٤٨ وتكون دولة إسرائيل بهذه المنطقة ، ازداد شعور الجماهير العربية بالحاجة الى الوحدة ، ورص صفوفها أكثر فأكثر للوقوف بوجه الأخطار الأمبريالية والصهيونية التي تهددها . وكانت التجربـة الأولى ، تجربة الوحدة السورية المصرية ، بشكل عام ، هي تعبير عن حاجة الجماهير العربية نحو الوحدة ، ورغم الأخطار التي ارتكبت فيها ، الا انهـا كانت بحكم الانجازات الاجتماعية التي تمت فيها ، انجازات الاصلاح الزراعي والتأميم والتنمية والسير في طريق التصنيع .. الخ ، كانت عامل دفع ، دفعت البلدان العربيـة والجماهير العربية باتجاه السير نحو الوحدة اكثر فأكثر .

ومن الواضح ايضاً ، انه خلال الوحدة السورية المصرية ، كانت العناصر والفئات والطبقات التي كانت مصالحها مرتبطة بزوال الوحدة ، مصالحها الاقتصادية مرتبطـة بالحفاظ على الكينونات الصغيرة ، كانت تعمل داخل نظام الوحـدة من اجل تفريغ الوحدة من محتواها الاجتماعي والتقدمي ودفعها في طريق الأخطاء وفي طريق الارهاب، والتعثر ، وكانت في الوقت نفسه تعمل لاستغلال هذه الأخطاء ، واستطاعت هذه القوى الرجعية ان تفصم الوحدة ، وخلال فترة الانفصال كانت هذه القوى تعمل بشتى الأشكال من أجل حماية مصالحها الطبقية ، وضد منجزات التأميم والإصلاح الزراعي ، والتعاون مع الاتحاد السـوفيتي وبلدان المنظومـة الاشتراكية الأخرى ، الا ان القوى الوطنية التقدمية ، القوى العاملة من اجل الوحدة العربية ، والمعبرة عن مصالح الجماهير الشعبية ، كانت أقوى من قوى الردة الرجعية من قوى الانفصال ، واستطاعت هذه القوى ان تقلب الحركة الانفصالية وان تواصل المسيرة التقدمية .

ومن الملحوظ ان شعار الوحدة العربيـة لم يكن يرفع عملياً إلا من قبل القوى التقدمية المناضلة من جهة من اجل التحرر الوطني ، والمناضلة من جهة ثانية من أجل التحولات الاجتماعية . ان التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي هما لحمة وسدى شعـار الوحدة العربية الذي كانت ترفعه الجماهير الشعبية والقوى الوطنية التقدمية ، سواء طبّق هذا الشعار في الحياة ، أم ظل شعاراً تردده الأفواه . ان القوى الوطنية التقدمية كانت تدرك من خلال دراستها لآفاق التطور في البلدان العربية ، ومن خلال دراستها للحركة

الثورية في العالم ، ان التلاحم بين حركة الوحدة ، وبين الحركة التقدمية والاشتراكية في العالم العربي ، هو تلاحم عضوي ، واذا برزت بعض مظاهر التناقض بين هاتين الحركتين، فهي ظاهرة عابرة ويمكن ان تتكرر الا انها سرعان ما تزول بفعل التطور والتجربة ، والوعي والتخطيط. وتجربة البلدان العربية التقدمية ، تعكس هذه الحقيقة بشكل واضح سواء فيما يتعلق بسورية والعراق أو بمصر او الجزائر ومؤخراً ليبيا واليمن الجنوبي .

وشعار الوحدة العربية يبرز بصورة جلية واضحة في بلدان المشرق العربي اكثر من بروزه في بلدان المغرب العربي ، وهذا يعود لاسباب تاريخية موضوعية من جهة ، وربما يعود في الوقت نفسه لارتباط بلدان المشرق العربي بالمناطق العربية الأصيلة، ويعجز الاستعمار عن تحقيق اهدافه كاملة كما فعل في بلدان المغرب العربي .

ان المستعمرين تمكنوا في شمالي افريقيا بعد احتلالهم الطويل لمراكش والجزائر وتونس وموريتانيا ، من اضعاف مواقع اللغة العربية ، واحلال اللغة الفرنسية محلها ، كما تمكنوا من ربط اقتصاد هذه البلدان باقتصاد فرنسا واوربا الغربية وادى ذلك كله الى خلق تربة ومناخ القوى المعادية للوحدة أو غير المتحمسة لها في بعض المجالات ، أما في المشرق العربي فالقوى الذاتية العامة من اجل الوحدة كانت متوفرة اكثر ، وما اقصده بالمشرق العربي ليس فقط سورية ولبنان ، والعراق والاردن وفلسطين والجزيرة العربية وانما ايضاً مصر وليبيا .

بعد الحرب العالمية الثانية ، شعار الوحدة العربية ، لم يعد شعاراً عاطفياً فقط ، وانما اصبح شعاراً مرتبطاً بالواقع ، وتوفرت القوى الداعية له والمؤمنة به ، وارتبط واندمج بالتحولات الاجتماعية . ومن خلال تجربة الحياة نفسها نرى ان عملية الوحدة اخذت تتكرر وتأخذ اكثر من مظهر ، وعملية التكرار هذه تبين ان عملية الوحدة هي عملية تاريخية، هي انعكاس لحاجة طبيعية ، حاجة موضوعية ، وهي ليست فقط عبارة عن شعور عاطفي او موقف حزب . وهــذه العملية التاريخيــة لاتزال حتى الآن تسير بشكلها العفوي ، لاتزال تصطدم بمقاومة احياناً ، وتحتضنها عواطف التأييد الجماهيري أحياناً اخرى ، ولكن العمل المدروس الجاد من اجلهـا لايزال احدى المهـام الكبرى الموضوعة امام القوى الوطنية التقدمية ، وباستطاعة هذه القوى ان تتوصل الى فهم متبادل مدروس لهذه القضية ، مستفيدة من التجارب الملموسة . ولا يكفي الحديث فقط .

عن الوحدة ، وانما ينبغي اخذ الدروس ، وفهم الواقع الملموس ومعرفة سير التطور وآفاقه ، وفي اعتقادي ان الآفاق بالنسبة للبلدان العربية هي الوحدة ، وامكانية تحقيقها قائمة فيما اذا توفر المفهوم المشترك أو النظرة الواحدة لها ، فيما اذا توفرت اعمال تنسيق بين مختلف القوى الوطنية التقدمية على النطاق العربي في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ان التجارب العملية في مجال الوحدة والتقارب العربي ، كانت تجربة الجامعة العربية تجربة فاشلة ، الا انه بسبب الظروف التي تكونت فيها الجامعة لم يكن ممكنا القيام بأية خطوة أخرى افضل ، اما في الظروف الحالية فان الامكانيات متوفرة اكثر بين العديد من البلدان العربية التي تسير في طريق التقدم الاجتماعي . ان العديد من مسؤولي البلدان العربية التقدمية يتحدثون عن الوحدة العربية ، والتربة متوفرة ، والعنصر الذاتي يلعب دوراً أساسياً وكبيراً في قضية السير نحو الوحدة ، والعمل للوحدة ينبغي ان لا يكون فقط بأيدي القادة ، وانما ينبغي ان يكون ايضاً بأيدي الجماهير الشعبية، جماهير العمال والفلاحين، جماهير المثقفين الثوريين، ورغم تباين الحماس الجماهيري لقضية الوحدة ، فان القوى الطليعية مدعوة بصورة عامة من أجل القيام بعمل موحد على النطاق العربي من أجل تهيئة كل الظروف للتوصل لمفهوم علمي لقضية الوحدة ، ومن أجل السير بخطى مدروسة ، بأسلوب علمي لتحقيق الوحدة .

ان التجربة الأخيرة ، تجربة الوحدة بين مصر وسورية وليبيا ، في اعتقادي يمكن ان تكون مثالاً ، نموذجاً ، فلا بد من أجل السير بطريق تدعيم الوحدة بين البلدان الثلاثة من التنسيق وتبادل وجهات النظر ، للوصول الى قناعات مشتركة ، ولكن مع ذلك ، فوجود خلافات بين هذا القطر او ذاك ينبغي ان لا يكون عائقاً من أجل استمرار مسيرة الوحدة . ان القناعات الموحدة ستتوفر مع الزمن ، والقضايا المختلف عليها كذلك يمكن مع الزمن الوصول الى اتفاق حولها .

جورج صدقني :

يبدو لي أننا متفقون على كثير من النقاط ، وهذا جيد طبعاً ، ولكن لي بعض الملاحظات حول الزاوية التي بحث منها الموضوع .

السؤال في الحقيقة يتعلق بمفهوم الوحدة العربية وليس بالتطبيقات التاريخية لهذه الفكرة . وفي رأيي أن بعض الزملاء بحثوا الموضوع من زاوية التجارب الوحدوية التي مرت تاريخياً ، من زاوية الأحداث التاريخية التي وقعت . هذه الأحداث هامة جداً ، ولكن التطور الذي يجب أن نصب اهتمامنا عليه في الحقيقة هو تطور الفكرة ، تطور المفهوم ، التطور الذي لحق بالمبدأ . صحيح أنه يصعب جداً أن نفصل بين مفهوم الوحدة العربية وبين أثر الأحداث التاريخية الهامة في هذا المفهوم . وعلى سبيل المثال أنا اوافق موافقة تامة على ماتفضل به الأخ الدكتور جمال الاتاسي حول الدرس الهام الذي استوعبته جماهير الامة العربية من نكسة الانفصال المشؤوم . لقد علمتنا نكسة الانفصال أنه لا يدافع عن الوحدة إلا جماهيرها ، إلا أصحاب المصلحة الحقيقية في قيامها . ولا أوافق مثلاً على أن الجامعة العربية كانت مرحلة من المراحل التي مر بها تطور مفهوم الوحدة العربية ، فما الجامعة العربية إلا حيلة استعمارية لجأ اليها الاستعمار لتزييف فكرة الوحدة العربية والالتفاف حول مفهوم الوحدة كما تريدها الجماهير العربية . فإذا قصرنا اهتمامنا على الوحدة العربية من حيث هي مفهوم أو فكرة أو مبدأ ، بغض النظر عن المد والجزر في الأحداث التاريخية والتجارب السياسية ، فانني أرى أن الوحدة العربية كانت منذ أن ظهرت وما تزال (وكما قال الأخ الدكتور جمال الاتاسي) فكرة تصدير وإثبات وجود . كانت الأمة العربية ، عن طريق رفعها شعار الوحدة العربية ، تريد في مطلع القرن العشرين وحتى قبل الحرب العالمية الثانية أن تثبت وجودها ، ومن هنا كان نضالها للتحرر من السيطرة الاجنبية والتبعية ، ولاستعادة

وضعها الطبيعي السليم بالقضاء على التجزئة وإعادة الوضع السوي . أمة تبحث عن مكان لها تحت الشمس : هذا هو مفهوم الوحدة العربية .

لكن هذا المفهوم لحقه بعض التطور في اعقاب الحرب العالمية الثانية . طبعاً تفضل كثيرون من الزملاء وعددوا الاسباب التي ادت إلى مثل هذا التطور المتمثل في أنه اصبح للوحدة العربية مضمون اجتماعي، ولا اريد ان اعود الى الكلام في هذه الاسباب . ولكن لي ملاحظة هنا لا بد من طرحها . في الحقيقة ان نضال الشعب العربي في سبيل العدالة الاجتماعية وفي سبيل الاشتراكية قديم ايضاً لا يقل قدماً عن النضال في سبيل الوحدة . ولكن الناحية الجديدة هي الوصل بين الوحدة والاشتراكية والربط بينهما كهدفين متلازمين. لقد كانت هناك منظمات سياسية كثيرة تناضل في سبيل تحقيق الاشتراكية ولكنها كانت تناضل في سبيل هذا الهدف نضالاً قطرياً أو نضالاً مستقلاً عن النضال في سبيل الوحدة. لم يكن في منظورها فكرة الوحدة العربية ، وبمرور الزمن، أصبح مفهوم الوحدة العربية مفهوماً متلازماً مع النضال الاشتراكي . صار هناك تلازم بين النضال في سبيل قيام الوحدة العربية وفي سبيل بناء المجتمع الاشتراكي .

اذا عدنا الى مثال الجامعة العربية ، نجد ان مثل هذه المشروعات لم تعد تطرح، لاتزال قائمة ، ولكن لم يعد هناك أحد يقتنع بأنها مؤسسة وحدة عربية او اي شيء من هذا القبيل . صحيح انه في مرحلة الأربعينات وبعيد الحرب العالمية الثانية طرحت مشروعات وحدوية كثيرة ، ولكنها كانت من قبيل محاولة الأوساط الاستعمارية ان تلم الأفراخ الصغار الذين هم تحت قبضتها ، تحت قبضة واحدة بدلاً من ان يكونوا متفرقين. ولكن بعد ان تسلمت الجماهير الكادحة مقاليد الأمور ، واصبحت سيدة نضالها ،واصبحت واعية ومتشبثة بأهدافها ، لم يعد بوسع الاوساط الاستعمارية ان تطرح اي مشروع وحدوي الا كرد فعل لمحاربة الوحدة ، فعلى سبيل المثال عند قيام الوحدة بين القطرين السوري والمصري قامت وحدة من هذا القبيل هي الوحدة التي عرفت باسم الاتحاد الهاشمي . ومن الواضح اننا اذا اردنا ان نغوص نحو جوهر الموضوع ، لايحق لنا ان نسمي الاتحاد الهاشمي وحدة ، اريد ان اقول ان مفهوم الوحدة في الوقت الحاضر اصبح مفهوماً تقدمياً ، ولا يمكن ان يكون الا كذلك . وبكلمة اخرى اذا قلنا وحدة عربية رجعية ، فكأننا نقول دائرة مربعة ، لان هناك تناقضاً بين الرجعية العربية

وبين قيام الوحدة العربية ، واذا كان لنكسة الانفصال من فضل (وانه لمن الصعب على الانسان ان ينسب اي فضل لهذه النكسة) فهو انه فرز الى الابد اعداء الوحدة عن انصارها ، وصار من الواضح تماماً ان الاستعمار والامبريالية ، واسرائيل والرجعية العربية ، والملوك المتشبثين بكراسيهم ، واصحاب المصالح الاقتصادية الاحتكارية كلهم اعداء للوحدة واعداء مستميتون في سبيل القضاء عليها ، ولا يمكن ان يسمحوا بقيام وحدة عربية ، ومن هنا لا يجوز قطعاً ان ننخدع بكلام بعض الملوك حين يدعون الى الوحدة العربية من طرف اللسان ، فنتحدث عن مفهوم « رجعي » للوحدة العربية . انهم لا يريدون الوحدة ، وبالتالي ليس لديهم اي مفهوم عن الوحدة ، الا المفهوم التقدمي الذي يوقع الرعب في نفوسهم . انهم يريدون ان يطمئنوا شعوبهم وان يخففوا من الحماسة الشعبية او الغليان الشعبي ضدهم وضد وجودهم .

اذن اذا نظرنا الى الوحدة العربية من حيث هي مفهوم وحسب ، بغض النظر عن تسلسل الاحداث التاريخية ، يمكن أن نقول إن الوحدة العربية كانت فكرة تدعو الى تحرير الأمة العربية من قيود التبعية الاجنبية ، والى اعادة وضعها الطبيعي في دولة قومية واحدة . وفي الوقت الحاضر لا زال شعار الوحدة تعبيراً عن محاولة لإعادة الوضع الطبيعي السليم ، ولإثبات الوجود ، وللتحرر من السيطرة الاجنبية ومن الاستعمار والامبريالية ، ولكنه في الوقت نفسه اصبح ملكاً للجماهير الشعبية ، ولم يعد شعاراً يكتب عنه بعض المفكرين او بعض المثقفين المنعزلين عن الجماهير الشعبية .

اذا سمح الاستاذ صدقي اسماعيل بملاحظة — في الحقيقة ارجو أن أكون قد فهمت منه فهماً خاطئاً — فهمت من كلامه أنه يرى أن هناك انجازات وحدوية يومية غير الانجازات السياسية المعروفة على طريق الوحدة، فكأن التجزئة تتلاشى تدريجياً وتلقائياً . في الحقيقة في هذه النقطة أنا أخالفه الرأي ، وأعتقد بأن التجزئة عندما وضعت ، فانها وضعت لكي تكرس ولكي ترسخ ، وهذا يعني أن واجب كل مناضل عربي أن يضع نصب عينيه دائماً أن التجزئة لا يمكن أن تزول بمرور الزمن . العكس هو الصحيح، فلا بد من ممارسة النضال الوحدوي يومياً وباستمرار لان قضية التجزئة ليست مجرد حدود مصطنعة بين الاقطار العربية، إنما مصالح وعروش واوضاع اقتصادية ، وأوضاع اجتماعية ، ولا اعتقد بأن هذه الامور تتجه بطبيعتها نحو الوحدة اذا لم نضع نصب أعيننا أن نناضل نضالاً سياسياً وحدوياً يومياً في سبيل تحطيم التجزئة القائمة . ان مرور الزمن وحده ليس كافياً لازالة هذه الحواجز .

صدقي اسماعيل :

أعتقد ان الأخ جورج يشاركني الرأي الذي قلته ، ان هناك عملاً نستطيع أن نسميه عملاً وحدوياً في الواقع ، وهناك عمل انفصالي ايضاً ، أو مرتبط بما ندعوه واقع التجزئة .

الحقيقة ان صيرورة الحياة العربية في واقعها اليومي هي وحدوية ، الثقافة تتوجه اتجاهاً وحدوياً بشكل عفوي ، طبعاً هناك شروط اجتماعية ، وشروط اقتصادية ، وشروط ثقافية ، ولكن من جميع هذه الشروط نرى ان البنية الوحدوية ، اي التفكير الوحدوي هو الذي ينتصر ، بمعنى ان واقع التجزئة يصد بواقع اقوى وأعمق هو الحياة اليومية . مثال بسيط عن الارتباط الثقافي ... لبنان البلد المنعزل ، أكثر البلاد العربية تبشيراً بالتجزئة بسبب واقعه السياسي ومصالح الفئات ذات الامتيازات فيه ومع هذا فانه يقوم بدور وحدوي من ناحية النشر ، انه ملتقى للثقافة العربية من خلال توزيع الكتب العربية . على هذا النحو يمكن أن نفهم الممارسة المتعلقة بالوحدة الاقتصادية ، الآن كل المؤتمرات الاقتصادية التي تعقد على الصعيد الرسمي قد لا تجدي نظرياً أمام شعور العرب بحاجتهم الى نوع من التكامل في اي موضوع اقتصادي ، كالبترول مثلاً ، او ارتباط الريف بالمدينة .. الخ ، هذا ماعنيت . هناك واقع تجزئة ، وهناك عمل تجزئة ، مفروض علينا ، ولكن في اعتقادي ان هذا ليس مظهر تفاؤل وحسب ولكن تعبير عن الواقع ان الذي يحفظ الخط الوحدوي ويبقيه خلال هذه المرحلة ويزيده قوة لدى الجماهير هو منجزات وحدوية يومية بمستويات قد لا ترتفع الى المستويات السياسية الكبرى ، تجعل دولة تندمج بدولة ثانية او تجعل برامج التعليم واحدة بين عدة اقطار مثلاً.. الخ. ولكن هناك مانسميه ممارسة وحدوية جماهيرية وبفضلها يستمر مفهوم الوحدة في الحياة .

فوزي كيالي:

لاشك في ان مفهوم الوحدة العربية قد تطور خلال الفترة الماضية — كما هو شأن كل المفاهيم التي لايمكن ان تبقى ثابتة على حال واحدة — وذلك نتيجة لتطور الاوضاع والظروف من ناحية ونتيجة لتطور وعي الانسان لهذه الظروف والاوضاع من ناحية اخرى .

وعلى هذا يمكن لي أن احدد التطور الذي مر به مفهوم الوحدة العربية بثلاث مراحل .

الاولى : وتبدأ من ظهور البوادر الاولى لنهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٤٨ تاريخ قيام اسرائيل .

الثانية : من عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ عام النكسة وهزيمة ٥ حزيران .

الثالثة : مابعد عام ١٩٦٧ .

وبرغم ان هذا التقسيم اصطلاحي بسبب مايقوم بين هذه المراحل من تداخل فيما يتعلق بالخصائص المميزة لكل منها ، فان مثل هذا التقسيم — في اعتقادي — يبقى ضروريا لأنه يساعدنا على ادراك خط التطور بالنسبة لمفهوم الوحدة العربية ، والعوامل الموضوعية والذاتية التي قادت اليه ودفعت على طريقه .

واذا رجعنا الى المرحلة الاولى ، مرحلة ماقبل عام ١٩٤٨ رأينا :

ان النزوع الى تحقيق الوحدة العربية جاء وليد جملة عوامل موضوعية وذاتية . وكان أهم هذه العوامل هو الدفاع عن الوجود ضد الاخطار التي كانت تهدد الامة العربية في مقومات ذلك الوجود .

فمن المعروف ان البلدان العربية خضعت خلال فترة طويلة لحكم السلطنة العثمانية التي كان يجمع رئيسها بين الصفة الدينية والصفة الزمنية ، وكان العرب ، ومعظمهم من المسلمين ، يعتبرون السلطان العثماني « الخليفة » وليّ أمرهم بحكم مركزه الديني ، وعاشوا ضمن الدولة العثمانية في ظل الاخاء الديني مع الشعوب الاسلامية الاخرى التي كانت تشكل الامبراطورية العثمانية ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب الاخرى التي خضعت — خلال القرون الوسطى لامبراطوريات وحكومات دخيلة تحت شعار الدين .

ونتيجة للتطور الصناعي في اوربا ، وللنزاع الذي قام بين البرجوازيات الاوربية على الاسواق ، نشأت الفكرة القومية ، وبدأ تشكيل الدولة الحديثة يقوم على اساس الوحدة القومية لا الوحدة الدينية .. هذا التطور فرض نفسه بدرجة أو أخرى على العالم ، ومن الطبيعي أن يفرض نفسه على الاتراك من ناحية وعلى العرب من ناحية أخرى .

ونتيجة لقيام الاتراك بقيادة « جمعية الاتحاد والترقي » التي اسقطت «الخليفة» واستولت على الحكم ، بالغاء الصفة الدينية للدولة ، وفرضها برنامجاً « قومياً » تركيا حاولت ان تخضع له شعوب السلطنة العثمانية الاخرى وان تطمس هويتها ، بما في ذلك تعميم اللغة التركية كلغة رسمية وحيدة في المدارس ، والغاء التعليم باللغة العربية ، كل ذلك جعل العرب يتحللون من آخر رباط يربطهم بهذه الدولة وفرض عليهم ان يواجهوا البرنامج القومي التركي ، ببرنامج قومي عربي يهدف الى النضال من اجل تحررهم من حكم الغرباء ، لينشئوا دولتهم الخاصة ، التي تكفل لهم حريتهم ، وتحفظ لهم لغتهم ، وتعيدهم الى مسرح التاريخ ليلعبوا عليه دورهم الخاص .

كان النشاط السياسي العربي قد سبق استيلاء جمعية الاتحاد والترقي الطورانية على الحكم في تركيا ، وكان هذا النشاط يهدف الى استخلاص نوع من الحكم الذاتي للولايات العربية في اطار الدولة العثمانية ، ولكن انقلاب طبيعة السلطة في الدولة العثمانية وتحولها الى زعامة قومية طورانية ، ساعد على تطور برنامج العمل السياسي العربي باتجاه برنامج قومي عربي ايضاً ، واخذت حركة القومية العربية شكلا اكثر وضوحاً واكثر جذرية في تحديد مطالبها ورسم اهدافها متخلصة بالتدريج من العواطف الدينية .

واذا كان ظهور الحركات القومية في اوربا مرتبطاً الى حد كبير بالثورة الصناعية ونمو الطبقة البرجوازية فيها ، فان ظهور حركة القومية العربية في بادىء عهدها كان مرتبطاً الى حد كبير بغريزة الدفاع عن النفس وبالحرص على البقاء بالاستقلال والتحرر بالنسبة لأمة تقوم بين افرادها أوسع وأعمق علاقات الوحدة منذ اقدم العصور ، وكان لها دور حضاري بارز لاتزال اصداؤه تتردد في ضمائر ابنائها برغم ما اصابها من تخلف .

واذا لاحظنا ان الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى وجميعها في المشرق العربي والتي تحركت من خلال ثورة عام ١٩١٦ بقيادة

شريف مكة « الشريف حسين » مطالبة بالاستقلال ، انما كانت تمثل وطناً واحداً بلغته وعاداته وتاريخه واقتصاده موزعاً الى ولايات لاتقوم فيما بينها اية حواجز ادارية او قيود اقتصادية او جمركية ، ادركنا كيف ان فكرة الاستقلال كانت متطابقة مع فكرة الوحدة ضمن اقاليم المشرق العربي على الاقل ، حيث لم يكن احد يتصور ، في ذلك الوقت استقلال سورية ، او العراق ، او الحجاز ، فضلا عن الاردن ، ولبنان ، وفلسطين ، خارج اطار الدولة العربية الواحدة .

ولاشك انه كان للثقافة الاوربية ، وللافكار القومية المتنقلة من ديار الغرب الى البلاد العربية ، عن طريق ابنائها الذين درسوا في مدارس الغرب ، تأثير كبير على هذه الحركة لا من حيث شكلها فقط وانما من حيث مضمونها والاتجاهات التي سادتها خلال المرحلة الاولى من مراحل نشوئها وحتى عام ١٩٤٨ تقريباً. وهذا ماجعل للفكر القومي الالماني ، وللنموذج الالماني في تحقيق الوحدة، سحره وتأثيره على مفهوم الوحدة العربية خلال المرحلة الأولى التي مر بها هذا المفهوم .

ولذلك رأينا القوميين الاوائل يبحثون عن تكوين « امبراطورية عربية » ويتصورون الوصول اليها عن طريق قيام « بروسيا عربية » تأخذ على عاتقها توحيد الوطن العربي « بحد السيف » وعن طريق اقامة تحالفات،ضمن اطار النظام الاستعماري الامبريالي ، يساعد على تحقيق هذا الهدف ، تماماً كما فعلت بروسيا ، وكما فعل بسمارك ، عندما حقق الوحدة الالمانية .

ولقد فشلت هذه المخططات جميعها لجملة اسباب :

اولا : لقد كانت قيادة حركة القومية العربية باتجاه الوحدة في خلال هذه المرحلة مختلفة جذرياً عن قيادة حركة القومية الالمانية والحركات القومية الاخرى في اوربا خلال القرن التاسع عشر . وذلك بسبب انخفاض مستوى التطور الاقتصادي في البلدان العربية عنه في البلدان الاوربية ، ولعدم وجود طبقة بورجوازية وطنية جدية تستطيع ان تقود النضال القومي الوحدوي ، مما جعل قيادة هذه الحركة تنحصر في بادىء الأمر بالطبقة الاقطاعية ، وجعل دور البورجوازية محدوداً وضعيفاً حتى في الايام الاخيرة من المرحلة . بينما كان النضال الوحدوي بطبيعته نضالاً ضد الاقطاع والاقطاعيين بالدرجة الأولى وفي سبيل تجاوز هذه المرحلة من مراحل التطور وإنهائها .

ثانياً : وحتى بالنسبة للبرجوازية الوطنية التي شاركت ، بدرجة أو بأخرى ،

الطبقة الاقطاعية في قيادة حركة التحرر الوطني العربي باتجاه الوحدة خلال هذه المرحلة، فانها كانت ضعيفة من ناحية ، وذات طبيعة مزدوجة – برجوازية اقطاعيــة – من ناحية اخرى . وكانت تعمل في الوقت نفسه ضمن ظروف مختلفة عن تلك التي عملت في ظلها البرجوازيات الاوربية ، وخصوصاً الالمانية في خلال القرن التاسع عشر .

ومن هذه الاختلافات الاساسية أن النظام الرأسمالي قد تحول منذ أوائــل القرن التاسع عشر الى نظام امبريالي ذي طبيعة مختلفة الى حد ما عن تلك التي كانت له من قبل ، مما ادى الى اضعاف الدور الوطني للبورجوازيات المحلية بالتدريــج ، الى ان اصبــح هذا الدور ضعيفاً جداً في منتصف القرن العشرين بحيث اصبحت البورجوازية الوطنية ، شاءت أم ابت ، جزءاً من النظام الامبريالي العالمي،وبذلك فقدت استقلاليتها عن البورجوازيات الاكبر والأقوى ، واصبحت تدور في فلكها .

وكانت الامبريالية خلال هذا القرن ضـــد كل شكل من أشكال التوحيد بين ابناء القومية الواحدة خلافاً لما كانت عليه سياسة الاستعمار في مراحل سابقة . فمثلا نجد أن فرنسا حين حكمت سورية بعد الحرب العالمية الاولى ، جزأت سورية الى عـدد من الدويلات واتفقت مع بريطانيا على سلخ فلسطين وشرق الاردن من سورية الطبيعية ، وأقامت دولة خاصة في لبنان . كذلــك فعلت انكلترا بالنسبة للجزء الجنوبي من سورية حيث شطرته الى قسمين : فلسطين وشرق الاردن ، ولم تفكر مثلا بأن توحد الاردن مع العراق ، وكلاهما كان خاضعا لسلطانها ، بينما نجد ان الاستعمار البريطاني لم يلجأ الى شيء من ذلك في الهند عندما حكمها ابتداء من القرن السابع عشر ، برغم ان الهند قــارة كاملة وتقوم فيما بين ابنائهـا فروق عرقية ولغوية ودينية تصلح لان تتخـذ ذريعة لمثل هذا التقسيم . ولكن مصلحة الاستعمار البريطاني نفسه كانت تقتضي في ذلــك العصر توحيد الادارة الاستعمارية في اكبر رقعة ممكنة ، مما أدى الى اضافة اراض جديـــدة الى الهند استولت عليها بريطانيا ولم تكن في الاصل جزءاً من الهند نفسها .

ثالثاً – ان الفكرة القومية لم تكن قومية خالصة وإنما كانت في كثير من الاحيان مشوبة بتأثيرات دينية ، وهذا ماينطبق على البلدان العربية وعلى دعاة القومية العربية خلال فترة ماقبل ١٩٤٨ بدرجة او بأخرى . وهو مايؤكد التأثير الذي تركته القيادات ذات المنشأ الاقطاعي على فــكرة القومية العربية . وهو يظهر في الوقت نفسه ضعف التطور الاقتصادي في الوطن العربي وانعكاس ذلك على الفكرة القومية ذاتها .

ونتيجة لهذا ، فاننا نرى مثلا ان دعاة القومية العربية عام ١٩١٦ لم يجدوا من يمثل هذه الحركة ويتزعمها أفضل من الشريف حسين « شريف مكة » ، بسبب ماله من مركز ديني بالدرجة الاولى وبقيت مشروعات التوحيد العربية خلال فترة طويلة قبل عام ١٩٤٨ تدور حول مشروعات ملكية ضمن محورين ، محور العائلة السعودية ،ومحور الاسرة الهاشمية . وكانت الوحدةفي مفاهيم البعض عبارة عن توسيع رقعة مملكة هذاالعاهل أو ذاك ، عن طريق الضم أوعن طريقالمصاهرة او عن طريق التآمر الدخلي والخارجي بمباركة هذهالدولة الاستعمارية أو تلك ، بينما كانت هذهالدول الاستعمارية فيحقيقة أمرها ضد التوحيد بين أي قطرين عربيين من حيث الاصل ، لأن التجزئة ذاتها ما كانت لتقوم بين دول المشرق العربي خاصة ، لولاهذه الدول الاستعمارية نفسها . وبصورة عامة ، ونتيجة للظروف والملابسات التي اشرت اليها ، فانني استطيع القول ان مفهوم الوحدة العربية كان خلال ماقبل عام ١٩٤٨ مفهوماً رومانسيا متخلفا بعض الشيء عن العصر الذي يتحرك في اطاره ، متأثراً الى حد كبير بالفكر القومي الاوربي خلال القرن التاسع عشر ، وخاصة الفكر القومي الالماني،بنفوذه الاقطاعي والبورجوازية،مشوبا الى درجة كبيرة بمؤثرات دينية وباتجاهات عرقية تعتمد على فكرة التفوق العرقي احيانا ، ولا تخلو من نزعات شوفينية. وكان دعاة الوحدة يعتمدون الى حد كبير في تحقيق هذه الوحدة على الاسر المالكة وعلى التناقضات الاستعمارية وعلى الصفقات السياسية التي يمكن ان تتم بينهم وبين القوى الكبرى التي لها نفوذها في المنطقة وجاءت هزيمة العرب في عام ١٩٤٨ التي ادت الى قيام دولة اسرائيل لتنهي هذه المرحلة ، ولتسقط القيادة الاقطاعية البرجوازية .

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة ما بعد ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٧ ، عام النكسة وهزيمة ٥ حزيران . لا شك ان تطورا كبيراً قد طرأ على مفهوم الوحدة العربية خلال هذه المرحلة من حيث المضمون ومن حيث الشكل ايضا . وهذا التطور في مفهوم الوحدة العربية لم يبدأ بالضبط في عام ١٩٤٨ ، وانما كانت له مقدماته الفكرية والفلسفية والسياسية والاقتصادية فيماقبل ذلك ، اذ كان التطور الاقتصادي قد بدأ يتجه نحو إبراز دور وتأثير الجماهير العربية بقيادة الطبقة الوسطى ، وبدأ الوعي الفكري يزداد لدى الجماهير العربية بحيث ادركت ان تحقيق الوحدة العربيـــة لا يمكن ان يتم بالتحالف مع الاستعمار ولا بقيادة الطبقة الاقطاعية والبرجوازية ، بل على العكس من ذلك تماماً ، لا بد ، كشرط أساسي وضروري

لتحقيق الوحدة العربية، من طرد الاستعمار والقضاء على نفوذه وانجاز التحرر السياسي « التحرير » والقضاء أيضاً على النظامين الاقطاعي والبرجوازي وتحقيق التحرر الاجتماعي « الاشتراكية » ، ولذلك اكتسب مفهوم الوحدة العربية مضموناً نضالياً جديداً ، وأبعاداً سياسية واجتماعية واقتصادية لم تكن الجماهير قد وعتها بشكل جيد من قبل . وأصبح طريق الوحدة العربية يمر بالضرورة عبر معارك الجماهير العربية ضد الاستعمار وعبر معاركها ضد الطبقات المستغلة والأسر الحاكمة ، لا كما كان يتصور البعض من قبل ان هذا الطريق يمر عبر شهوات ومطامع الأسر الحاكمة ، ومن خلال صفقات البيع والشراء التي تتم مع الدول الاستعمارية . وهذا ما أدى الى انقلاب جذري في مفهوم الوحدة العربية من حيث قيادتها ومن حيث مضمونها ومن حيث اسلوب عملها ومن حيث تصنيف أصدقائها وأعدائها .

وبعد ان كان مفهوم الوحدة العربية مملوءاً بمضمون رومانسي عاطفي ينطلق من النزوع الى الماضي وينطوي على مؤثرات دينية ونزعات عرقية ، تطور هذا المفهوم باتجاه جماهيري انساني تقدمي نضالي ، ينطلق من التطلع نحو المستقبل . وبدلاً من أن تكون الوحدة سبيلاً لاقامة الامبراطورية بصورتها التاريخية ، أصبحت سبيلاً لبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد في صورته الاكثر تقدماً والاكثر عصرية .

والتحم النضال الوحدوي بالنضال التحرري على الصعيدين الخارجي «الحرية» والداخلي « الاشتراكية » وبقي موضوع الوحدة العربية الموضوع المركزي والمهمة الأساسية بين مهات النضال العربي .

ولذلك كان من أول نتائج تطور هذا المفهوم هو اتجاه النضال الوحدوي لاسقاط الانظمة الرجعية في الاقطار العربية وتشديد النضال ضد الدول الاستعمارية ونفوذها في المنطقة ، باعتبار ان هذه الانظمة الرجعية وتلك الدول الاستعمارية هي العقبة الرئيسية في طريق الوحدة، وفي طريق انتصار ارادة الجماهير العربية ، على أمل ان تتمكن الانظمة الجديدة « التقدمية » من تحقيق ما عجزت عن تحقيقه الانظمة الرجعية .

وتمكنت الجماهير العربية فعلاً من اسقاط عدد من هذه الانظمة في عدد من الأقطار العربية ، وكانت أكبر ضربة وجهت الى هذه الانظمة ، قيام ثورة ٢٣ يوليو بقيادة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في مصر . وكذلك استلام الجبهة التقدمية السلطة في سورية وازاحتها لتحالف الاقطاع ورأس المال عن الحكم فيها . وكان من نتيجة هذين الحدثين

الماضين اقامة وحدة عام ١٩٥٨ بين سورية ومصر كأول تجسيد واقعي لآمال الجماهير العربية في الوحدة . وبذلك استطاعت هذه التجربة ان تبرهن لاصدقاء الأمة العربيـة ولأعدائها في الوقت نفسه على ان مطلب الوحدة العربية ليس مطلباً ضرورياً ومصيرياً فقط ، وانما هو مطلب ممكن التحقيق وعملي ايضاً .

ولا بد أن نؤكد هنا انه لولا وجود عبد الناصر ونظامه في مصر ، ووجود حكم شعبي تقدمي في سورية يسيطر عليه ويوجهه حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية لما قامت وحدة عام ١٩٥٨ كأول تجربة وحدوية رائدة في تاريخ العرب الحديث .

واذا كانت وحدة عام ١٩٥٨ قد انتكست وانتهت بحادثة الانفصال المشؤومة عام ١٩٦١ ، فان لذلك أسباباً كثيرة أهمها :

أولاً — ان المسؤولين من هذه الوحدة لم يدركوا ، الا بعد وقوع الانفصال ، مدى ما يمكن ان يثيره قيام الوحدة من عداء القوى الاستعمارية والرجعية ، لذلك فان اجراءات حمايتها والدفاع عنها لم تكن في مستوى الخطر الذي كان يحيط بها ويترصدها .

ثانياً — ان طبيعة الوحدة كثورة جذرية يمكن ، فيما لو بلغت مداها ، ان تقلب الاوضاع الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية في المنطقة ، لم تفهم على حقيقتها . ولذلك فقد عهد بحماية الثورة وقيادتها للكوادر البيروقراطية بدلاً من أن يعهد بهذه الحماية للجماهير والقيادات الثورية ، وبذلك قيدت حركة الجماهير وخنقت مبادرتها وافرغت الوحدة من مضمونها الشعبي الجماهيري .

ثالثاً — الخلاف الذي وقع بين الأطراف القومية التي ساهمت في قيام دولة الوحدة وافتراقها عن بعضها ، مما يعتبر بين جميع حوادث التاريخ العربي المعاصر أشدها ضرراً وأبلغها أثراً في اضعاف شوكة النضال العربي ضد الاستعمار والرجعية وفي سبيل اقامـة الوحدة العربية

ولعل هذا الخلاف بالذات وما تبعه من تصادم بين قوى الثورة العربية على مـدى سنوات طويلة قاد الى الكثير من الكوارث التي أصيب بها النضال العربي بما في ذلـك الانفصال الذي وقـع عام ١٩٦١ وتبديد الطاقات الثورية والجهود العربية في اطـار الخلافات الداخلية مما شغل العرب عن الاستعداد الجدي ليوم المعركة الفاصلة .

رابعاً — ولا بد لنا هنا من أن نذكر — للعبرة والتاريخ — بانه كان لمواقف بعض

المنظات التقدمية العربية وخصوصاً في العراق ، في عهد عبد الكريم قاسم ، أثره الكبير في لجم مد الثورة العربية الوحدوية ، وفي تبديد طاقات النضال العربي .

ويجدر بنا هنا أن نسجل أنما أسفرت عنه تجربة الانفصال بالنسبة لتطورمفهوم الوحدة العربية هو :

آ — ان الوحدة لا يمكن أن تقوم الا بنضال الجماهير ذاتها ،وان الأنظمةالبوليسية مها حسنت نواياها ، هي أنظمة عاجزة عن تحقيق أية حماية مجدية ضد الأعداء الحقيقيين للوحدة ودولتها .

ب — ان جبهة أعداء الوحدة العربية جبهة عريضة تضم الامبريالية والاستعمار والصهيونية والرجعية ، وان هذه القوى الأساسية لها احتياطياتها التي لا غنى لهـا عن مساعدتها ... البيروقراطية ، والتخلف ، والانقسامات الداخلية ، مها كانت أسبابها ومها كانت مظاهرها .

ج — ان ثورة الوحدة تحتاج الى أداة ثورية واحدة ، وان أخطر ما يمكن أن يهدد النضال الوحدوي هو الانقسام بين فصائل الثورة العربية خصوصاً اذا وصل الانقسام الى مرحلة الصدام ، ولذلك كان مما أعلنه الرئيس الخالد جمال عبد الناصر بعد تجربة حادثة الانفصال وبعد فشل ميثاق ١٧ نيسان هو ضرورة اقامة الحركة العربية الواحـدة أداة وحيدة للثورة العربية في سبيل انجاز مهامها في الحرية والاشتراكية والوحدة .

المرحلة الثالثة :

لقد كشف عدوان ٥ حزيران عام ١٩٦٧ وما انتهى اليه من هزيمة نكراء لقوى الأمة العربية أمام قوى الصهيونية المدعمة بقوى الامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية ، أن لا سبيل أمام الأمة العربية للخلاص ، ولاستمرار الوجود، ولفتح أبواب المستقبل على التقدم ، والمشاركة في بقاء حضارة العصر ، بغير الوحدة .

ولقد وعت الجماهير العربية هذه الحقيقة كرد على النكسة في عام ١٩٦٧، كما كانت تعيها دائماً عندما تجد أن مصيرها مهدد ، وأن وجودها تحف به الأخطار من كل جانب . ولذلك رأينا كيف أن النضال الوحدوي ازداد حدة على أثر هزيمة حزيران مما أدى الى قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية كخطوة أولى في طريق وحدة حقيقية بين الأقطار الثلاثة وفي طريق الوحدة الشاملة .

وفي التصور الاخير فان الوحدة هي مركب النجاة الوحيد بالنسبة لامة مهددة بأن تغرق في الطوفان . . طوفان العداء والمطامع التي تتكالب عليها من كل جانب ، وطوفان المشاكل الذاتيــة والعجز والتخلف . . . وما لم تبدأ بالاستفادة من الدروس المستفادة من الماضي بشكل جدي ، وتحول هذه الفوائد التي دفعنا ثمنها غالياً الى واقــع عملي في حياتنا ، فان الطريق لن يمضي بنا أبداً الى حيث نريد .

وان أخطر ما يمكن أن يتحول اليه مفهوم الوحدة في وقت من الاوقات هو أن يتحول الى مجرد أمنية أو مجرد شعار ، دون أن توضع في خدمته ، وعلى طريق تحقيقه كل الامكانيات ، وتحشد من أجله كل الطاقات ، وتسقط في سبيله كل الاعتبارات .

ولعل ما هو أخطر من ذلك أن يتحول هــذا المطلب الحيوي الى شعار سياسي تكتيكي لتملق الجماهير تارة ، أو لاستخدامه كطعم في سنارة صيد مسمومه تارةأخرى.

ولا سبيل الى طرح قضية الوحدة العربية طرحاً جدياً ، الا بطرح موضوع الوحدة الوطنية ، سبيلا وحيداً وخطوة أساسية في سبيل اقامة الحركة العربية الواحدة، طرحاً جدياً وملحاً ، واتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لذلك .

أديب ملحم :

من المفيد فعلا من خلال الجلسة مناقشة طرح آراء الاخوان ، وأن هنالك فعلا قاسماً مشتركاً بين الأراء التي طرحت ـ ولو أن هنالك بعض التناقضات بين‌بعض الاراء التي طرحت ـ ومن المفيد كذلك بحث هذه الأمور .

الشيء الذي اتفقنا عليه ـ وهــذه أهم نقطة برأيي ـ هو ان الوحدة العربية بطبيعتها ذات‌مضمون تقدمي.أريد أنارد على النقطةالتي اثارها الاستاذ ظهيرعبدالصمد إذا سمح لي ، قال ان الشعور الوحدوي بالمشرق أقوى منه في المغرب لطبيعة المشرق العربي ، وقربه من منابع الدعوة لوحدة العربية ، هــذه النتيجة لابد من تحليلها ، ولو انني كنت أود أن نعرض ناحية وهو انه حــدثت مناقشات وتحليلات ، كان من الممكن أن نطرح السؤال الأولي ،وهو تحليل مفهوم الوحدة العربية قبل طرح المراحل لمفهوم الوحدة العربية .

انا برأيي ليس الشعور القومي في المشرق اكثر من المغرب لقربه من منابع الجزيرة

العربية أو الوحدة العربية فقط . انطلق من منطلق أساسي وهو أن الوحـدة العربية ذات مضمون تقدمي بطبيعتها ، والدليل ان كل اللقاءات التي تمت ، والحركات الوحدوية والتطبيقات الوحـدوية تمت ما بين قوى تقدمية وما بين دول تقدمية . ان وجود حكومات رجعية في المغرب هـو الذي يعيق عملية الوحـدة ، والدعوة الى الوحدة . والتطبيق الوحدوي يكون متخلفاً عن المشرق العربي ، فالوحـدة التي تمت بين سورية ومصر بوجود نظامين تقدميين سهّل على أساس طرح موضوع الوحدة وحقق الوحدة كذلك الآن بين سورية ومصر وليبيا ؛ لأن دولاً تقدمية كذلك سهّلت قيام الاتحاد أو الوحدة بينما نجد في تونس ومراكش والجزائر ان الذي يعيق عملية الوحـدة مابين هذه الدول وجود نظام الحكم الرجعي . قد يقال في الجزائر نظام تقدمي فلماذا لم تحقق فيه الوحدة مع الأقطار العربية ؟ . . قد يكون مردّ ذلك لوجود عوامل جغرافية ما بين تونس والجزائر والمغرب أو ليبيا وهذا يلعب دوراً ، ولكن اقول بأن مفهوم الوحدة والمفهوم الوحدوي بالجزائر أو المغرب أو تونس كان متلائماً وانه لعب دوراً كبيراً . وهناك حركات أيام الاستعمار ، وجدت حركات وحدوية بطبيعتها ، والدليل هجرة المناضلين من أيام المقراني أو من أيام عبد القادر الجزائري وما بعدها الى المشرق ، وهناك أمثلة في تونس وفي الجزائر ومراكش عن الدعوة الوحدوية ، ولكن لم تتهيأ للحكومات هنالك في تلك المناطق في المغرب ، الظروف المناسبة لقيام دولة وحدوية ، ان كان في المغرب أو المشرق لانه لم يتوفر المناخ التقدمي كما توفر في المشرق العربي .

هناك ملاحظة حول التقسيم الذي تحدث عنه الأستاذ فوزي الكيالي ، أرجو ألا يكون تقسيماً تاريخياً ، لأنه لانستطيع فعلاً أن نعطي تقسيماً تاريخياً دقيقاً في هذه الناحية . مثلاً ماقبل الـ ٤٨ مرحلة ومن الـ ٤٨ الى ٦٧ مرحلة ، ومن الـ٦٧ الى الحاضر ، لأنه قد يجوز ان ينطبق هذا التقسيم على منطقة من المناطق أو على قطر من الأقطار أو قطرين ، ولا نستطيع ان نطلق على الوطن العربي ولاكذلك من خلال صراعه مع التيارات الأخرى ان كان بالمشرق أو المغرب ، فأنا برأيي بالنسبة للتقسيم لانستطيع أن نعطيه فعلاً واقعاً حقيقياً لانه قـد يجوز أن يعيق لنا عملية مفهومنا بالنسبة للوحدة العربية حول البورجوازية بدعوتها للوحدة العربية لماذا قامت مثلاً قبل الحرب العالمية؟ برأيي أن البورجوازية عندما قامت بدعوتها الى الوحدة العربية كانت فقط لارضاء الجماهير ، لان الجماهير هي صاحبة المصلحة الحقيقية في الوحدة ، وهي التي كانت تنادي

وتناضل في سبيل تحقيق الوحـدة ؛ فالبورجوازيون ، والمفكرون البورجوازيون عندما طرحوا مفهوم الوحـدة فقط كان ذلك لارضاء الجماهير العربية ، ولكن عندما وصلوا لتحقيق الوحدة مباشرة نلاحظ بأن كل هؤلاء المفكرين البورجوازيين أو الحكام البورجوازيين قد وقفوا ضد هذه الوحدة . أريد أن أنطلق بأن أي وحدة لاتكون الا ضمن مفهوم تقدمي ، ولذلك من خلال منطلقنا لتحقيق الوحـدة العربية مابين قطر وآخر أو أقطار أخرى اذا لم تكن هذه الاقطار ذات مضمون تقدمي ، فمن غير الممكن تحقيق الوحدة العربية بينها .

د. جمـال أتاسي :

لقد أخذ الموضوع أبعاده في هـذا النقاش ، وأود التركيز على بعض النقاط وأن أوضح مقصدي من استعراض المراحل ...

إن السؤال المطروح علينا ، يتناول تطور مفهوم الوحدة ، والواقع أن هـذا المفهوم قد تكامل ونضج من خلال تجارب ومن خلال مراحل صعد بها نضالنا القومي . مطلب الوحــدة جاء مرادفاً لمطلب التحرير ، واستراتيجية في التصدي للاستعمار والامبريالية ، وهي اليوم مطلب جماهيري لمواجهة ظروف معركة التحرير . وعلى هـذا المسار تقدمت صيغ لبناء الوحدة ، واشتراطات لها . فلو أن الفكر العربي القومي كان واضح التصور لطريقه وأهدافه منذ البداية لأخذت الوحدة العربية مفهومهـا الحالي منذ زمان طويل . فحركة النضال العربي ذاتهـا مرت بتجارب وتحددت أهدافها ونضجت تطلعاتها من معاناة تلك التجارب . وأنا عندما تحدثت عن مرحلة ما قبل عـام ٩٤٨ من مراحل نضالنا الوطني القومي ، تلك المرحلة التي قادتها البورجوازية والتي لم تستطع أن تعطي على صعيد العمل الوحدوي أكثر من صيغة « الجامعة العربية » ، لم أقصد أن تلك الجامعة صيغة للوحدة كما كانت تريدها وتطالب بها الجماهير العربية ، فهي حتى في مرحلة قيامها لم تحظ بأي تأييـد جماهيري وإنما بالشك ، واعتبرت ضرباً من الاجهاض للدفـع الوحدوي للجماهير . إن ما قصدته هو أن تلك الطبقة التي كانت سـائدة في تلك المرحـلة وحاكمة ، ما كان بمقدورها من خلال مصالحها وارتباطاتها أن تعطي أكثر من تلك الأبعاد لصيغة الوحدة ، التي تقف عند حدود التعاون بين نظم اقليمية وذات مصالح متباينة . إن الجامعة العربية تأخذ اليوم دورها كمنظمة اقليمية شأن مثيلاتها من المؤسسات الدولية .

وهي ولو أنها قامت في البداية بإرادة النظم التقليدية وبتقبل من الامبريالية ، فلقد جرت جهود بعد ذلك من قبل بعض النظم التقدمية لتدعيمها والإفادة منها وكانت تعود اليها وتحركها في بعض ظروف تأزم النضال العربي . وناحية أخرى تجدر الإشارة اليها ، فنحن إذا ما تركنا مرحلة المد الوحدوي الذي صعد بين عام ٥٦ وعام ٥٨ وما يجري الآن من محاولات لتجديد المسيرة الوحدوية . وإذا ما تركنا المضمون وتطلعنا الى الصيغ، نجد أن العلاقات بين النظم التقدمية التي ترفع راية الوحدة ، لم تتجاوز بعد في كثير صيغة « الجامعة العربية » .

ومن هنا ومن خلال التركيز على المضمون كأساس لصيغة متقدمة للوحدة ، كان تأكيدي على مرحلة الانفصال التي أعقبت تجربة وحدة ٥٨ ، فبعد مؤامرة الانفصال طرح المضمون الطبقي والتقدمي لطريق الوحدة وصيغتها بشكل قاطع ، ورفعت أهداف الحرية والاشتراكية والوحدة كأهداف متلازمة واشترطت الوحدة نهائياً بالتحرر والتقدم والسير في طريق التحويل الاشتراكي . فقبل وحدة عام ٥٨ كنا ننادي بهذه الأهداف وتلازمها ، ولكنها لم تكن تأخذ طابع الاشتراط القاطع . كنا نقول : لنقم الوحدة أولاً ونحن نناضل في أطارها لتطبيق التحويل الاشتراكي ولتحقيق نظام تقدمي... أما بعد تجربة الانفصال وبعد الموقف الذي أخذته القوى والطبقات الرجعية والاقليمية، فان تلك الشروط أصبحت ملازمة لأي تحرك أو إنجاز وحدوي .

وكذلك إن المرحلة التي دخلنا بها منذهزيمة حزيران ، قد وضعت مطلب الوحدة على أرض المعركة من حيث جدواها في معركة تحرير الأرض وجدواها في توحيد استراتيجية الكفاح العربي وحشد الطاقات . فصيغة الوحدة من حيث الاطار والمضمون وقفت أمام شروط جديدة ، لتحيط أولاً بالنظم والقوى التي تتقدم لحمل مسؤولية التحرير . إن الوحدة هي المطلب المباشر اليوم للقوى الجماهيرية التقدمية ، للطبقات الشعبية العريضة ذات المصلحة الحقيقية في التحرر والاشتراكية والوحدة ، ولكن تلازم هذه الأهداف في المسيرة الوحدوية للجماهير يواكبه أيضاً مطلب كبير هو أن تكون الانجازات الوحدوية إنجازات تتقدم بنا على طريق المعركة في صدامنا المصيري مع اسرائيل ومن وراء اسرائيل، أي مع ذلك الحلف الامبريالي الصهيوني المعادي لأمتنا ووحدة أمتنا .

ظهير عبد الصمد :

فيا يتعلق بقضية ان شعار الوحدة العربية قد انبثق في المشرق قبل انبثاقه في المغرب، انا انطلق من الناحية التاريخية ، فالمشاعر الوحدوية والنضال من أجل الوحدة العربية برز في أواخر القرن التاسع عشر في المنطقة السورية بمعناها الطبيعي – سورية الطبيعيه – وفي العراق . ولم يكن هـذا صدفة ، وانما كان انعكاساً لمستوى التطور الذي كان سائداً في هذه المنطقة ، تطور علاقات الانتاج ، التطور الثقافي ، بينما في المغرب العربي الوضع يختلف . ان التجزئة التي أقامها الاستعمار قد كونت في داخل كل دويلة أو كل أقليم فئات وجماعات لها مصالح في الحفاظ على التجزئة ، لذلك في شمالي افريقيا ، وبسبب الاحتلال الفرنسي الطويل ، وتوطد الكيانات المجزأة نسبياً والتشار ثقافة من نوع معين ، والترابط الاقتصادي مع أوربا ، بسبب ذلك كله لاتزال المشاعر الوحدوية من الناحية الواقعية ، وعلى النطاق الجماهيري ليست على مستوى هـذه المشاعر في المشرق العربي . لاشك ان هناك فئات وبعض الأحزاب ترفع بين فترة وأخرى وفي ظروف معينة شعار الوحدة العربية ، ففي مراكش مثلاً توجد بعض الأحزاب ترفع شعار الوحدة ، وكذلك في الجزائر في عهد بن بيلا ، ولكن الطابع العام السائد والرئيسي هو ان المشاعر الوحدوية أو النضال من أجـل الوحدة متوفر وموجود في المشرق العربي ، وأنا عندما أشرت إلى أن هذه المشاعر الوحدوية قـد انبثقت في المشرق العربي ، ليس فقط بسبب قربه من الجزيرة العربية ، وانما أيضاً بسبب مستوى التطور ، والثقافة والنضال ضد الاستعمار ، وقرب هذه البلدان من بعضها البعض. في شمال افريقيا، شعار الوحدة العربية يبرز أحياناً كشعار وحدة الشمال الافريقي وقد يكون شعار وحدة شمال افريقيا لفترة من الفترات وبظرف معين خطوة نحو الوحدة ، وقد يكون حاجزاً أمام الوحدة . ان هذا مرتبط بنتيجة التطور وبالقوى التي تناضل من أجل قضية الوحدة العربية . واكررها مرة أخرى ، ان القوى التي تعمل لقضية الوحدة العربية ، هي فقط القوى التقدمية ، أما القوى الرجعية فليس باستطاعتها وليس بمقدورها أن تعمل بصورة صحيحة من أجل الوحدة ، وانما تعمل من أجل عرقلتها .

يوسف فيصل :

إذا كان الكلام يدور كما تفضل الأستاذ جورج صدقني حول مفهوم الوحدة من الناحية الفكرية وتطوره في هذا المجال ،يجب القول ان مفهوم الوحدة هو مفهوم متطور وليس ثابتاً ، لأنه كمفهوم لا بد الا أن يكون انعكاساً لواقع معين،واقع اقتصادي،واقع سياسي ، واقع فكري أيضاً ، درجة مستوى تطور الوعي لدى الجماهير ، ولدى القوى السياسية ، انطلاقاً من كون أن وجود الناس هو الذي يحدد ادراكهم وليس العكس .

من هذه الناحية اذا نُظر الى تطور مفهوم الوحدة ، نراه مثلاً في مرحلة معينة ، في ظل الدولة العثمانية ، يعكس واقعاً معيناً .

كان النضال في ذلك الحين متجهاً ضد الاضطهاد القومي الذي يمارسه الأتراك ـ سياسة التتريك ـ لا ثبات الوجود العربي ، وأخذ في المرحلة الأولى طابع ثقافياً فيما يتعلق باللغة ،ثم مع نشوء الجمعيات العربية وتطورها وتقاربها فيما بينها ، وصل الى درجة الكيان السياسي ، اذ أن جمعية الفتاة اتصلت بالملك حسين وعرضت فكرة اقامة دولة في حدود المشرق مع الجزيرة العربية ولكن نتائج الحرب العالمية الثانية ، واتفاق سايكس ـ بيكو ، نسف كل هذا الموضوع بعد ذلك كان المحتوى الأساسي لمفهوم الوحدة العربية ، هو التضامن في النضال لأجل الاستقلال ، واذا أخذت ثورة الـ ٢٥ والـ ٢٧ والتضامن العربي معها ،أو ثورة الريف أو ثورة الـ ٣٦ في فلسطين أو الحركات الاستقلالية في العراق ، كان المحتوى الأساسي لفكرة الوحدة العربية هو التضامن لا نجاح كل هذه الحركات السياسية لأنه لا يمكن في ذلك الوقت أن تتكون فكرة وحدة بدون أن يتم تحرير هذه الكيانات جميعها من الاحتلال .

طبعاً هذا المفهوم تطور فيما بعد الحرب العالمية الثانية عندما نشأت ظروف ذاتية وموضوعية تساعد،وهذا أدى الى وحدة الـ ٥٨ ، ولولا الاستقلال في سورية ومصر ، ولولا نشوء نظامين وطنيين معاديين للاستعمار في مصر وسورية ، ولولا وجود القوى الذاتية أيضاً في مصر وسورية متمثلة سواء كان في ثورة ٢٣ تموز أو في حزب البعث في سورية، لما أمكن الوصول الى تحقيق ذلك .

من هذه الناحية فان مفهوم الوحدة يكتسي باستمرار بتطورات جديدة،وحدة ٥٨ وفشلها أدى كذلك برأينا نحن الى اغناء مفهوم الوحدة . لا يوجد هناك شيء اسمه سلبي بشكل مطلق . الانفصال أغنى مفهوم الوحدة لانه أعطى امكانية دراسة انتقادية لرؤية

نقاط الضعف واغناء الوحدة بمفاهيم وبمضامين جديدة ، من حيث بناؤها ومن حيث نظام الحكم ومن حيث أشياء كثيرة أخرى .

ان مفهوم الوحدة هو مفهوم يغتني باستمرار ومتطور ، ولا يمكن في الظروف العربية الحالية في ظل التطور العربي الحالي الا أن يكون محتواه تقدمياً ومعادياً للاستعمار ويعتمد على الجماهير الشعبية وعلى القوى التقدمية ويتحالف مع قوى التقدم في العالم . وكل مفهوم آخر للوحدة العربية لا يمكن أن يعيش . لذلك فان هذا المفهوم لا يمكن أن يكون الا مفهوماً متطوراً يغتني باستمرار مع تطور الواقع العربي من حيث الظروف الذاتية والظروف الموضوعية . ان مفهوم الوحدة العربية في عام ١٩٧٢ واضح وصريح من حيث محتواه ، بأنه تقدمي ، ومعادي للاستعمار ، وديموقراطي أيضاً يعتمد على الجماهير ولا يمكن الا أن يعتمد على القوى التقدمية فيما يتعلق بقيامه وبتطوره .

فوزي كيالي :

أرى اننا من خلال اجابتنا عن السؤال الاول قد أجبنا عن عدد من الموضوعات الأخرى التي يتضمنها جدول البحث في هذه الندوة . لذلك فأنا أقترح الانتقال الى السؤال التالي :

لماذا لم يتحول هذا المفهوم النظري الى واقع عملي حتى الآن ؟

وما هو الرأي بالنسبة للمستقبل في تصحيح النضال الوحدوي من أجل تحقيق ما عجز عن تحقيقه هذا النضال حتى الآن ؟

ما هي المعوقات وما هو سبيل التغلب عليها ؟...

فاذا وافق الاخوان على ذلك انتقلنا الى هذا الموضوع مباشرة .

د أحمد طربين :

اعتقد بأن جزءاً هاماً من المسؤولية عن عدم تحوّل هذا المفهوم النظري الذي اتفقنا عليه وعلى مضمونه التقدمي والثوري ، من أجل ايجاد وحدة سياسية ودستورية بين الأقطار العربية المهيأة لها ، يقع على عاتق المفكرين القوميين والأحزاب العقائدية بالمرتبة الأولى .

ومن الخير أن أقصر حديثي على الناحية الفكرية القومية الوحدوية فأقول من المعلوم ان الشعب قوة نزوعية والسياسة قرار وتنفيذ ، ولا تكـون القوة والقرارات مجدية فعّالة إلا إذا اقترنت بالفكر المنفتح ، فاذا تحرّر هذا الفكر فلابدّ أن يحرّر معه الشعب وقادته - والمفكر هو صلة الوصل بين الشعب وقيادته السياسية ، يأخذ من الأول ويعطيه ، ويأخذ من الثاني ويعطيه ، ويوصل اليه هـذه التطلعات العفوية النزوعية التي يمكن ان يستقطبها من جماهير الشعب ، كما ينقل إليه توقها وتحرّقها الشديد الى انجـاز الوحدة على اعتبار أنهـا الجواب الأساسي على جميع التحديات التي تواجه أمة العرب الآن ، لا التحديات الخارجية فحسب ، وانمـا أيضاً التحديات الداخلية لمسألة الدفاع عن الديمقراطية وعن الحرية ، ومسألة القضاء على التخلف الذي يتكفل به تحقيق الاشتراكية - قلت ان المسؤول جزئياً عن عدم تحول مفهوم الوحدة النظري الى واقع عملي هو تقصير المفكرين القوميين والأحزاب العقائـدية في صوغ وبلورة نظر سياسي عقائدي موحَّد بين المنظمات الساعية لوحدة والتي ترفع شعارها منذ عهد بعيد ..

واذا سألتموني لـماذا بعد أن حققنا النصر في معـارك التحرر الوطني ضد الاستعمار القديم ، لماذا توقفنا عن كسب معركة الوحدة مـع أن التحرير والوحدة كانا وجهين لنضال واحد في الفترة ما بين الحربين وما بعدها ؟

لا يمكنني أن أضع المسؤولية على الحاكم وحده أو على المفكر وحده .، فكلاهما مسؤول . لقد مرت الأحداث بتسارع متزايد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى اليوم بشكل مذهل على الصعيدين الدولي والقومي ، فلم يتسع المجال أمام الفكر العربي ليلحق بها ، دعْكُمْ من توقّعها والتخطيط للتحصّن من تحدياتها . وهذا الواقع فتح الباب على مصراعيه أمام الارتجال السياسي ، واتخذ السياسي من المفكر موقفاً سلبياً ، ولجأ الى تعليق حريته أحياناً ،وبذلك حرم قضية الوحدة المنشودة من العقل المخطط لها والمحدّد خطواتها ، فبدت هذه مرتجلة على شكل ردود فعـل انفعالية على الأحداث الراهنة . وبـدا معها فكرنا القومي ضعيفاً في التفكير التحليـلي العلمي ، آلياً تستثيره الأحداث فيخضع لها دون أن تتوفر له امكانات تخطّيها وطرح حلول جديدة أمام مشكلاتها ، أو استباقها والمبادهة ازاءها .

وحين يغادر الحاكم توجسه من المفكر ، وحين يغادر المفكر تخوفه من الحاكم ، أي حين يلتقي هذان القطبان، يمكن عندئذ أن يتكوّن الشعب وتتكوّن الأمة ، ويصبح

للشعب وزنه وللرأي العام وزنه ، فيعبر للمفكر عن احتياجاته ، ويفرضها على الحكام لتتخذ لديهم صفة القرار والتنفيذ ، وتتحقق الاجابة على التحديات المصيرية لأمتنا التي يبدها وحدها حلّ مشكلة هي في المرحلة التاريخية الراهنة مفتاح مشاكلنا كلها .

ان مفكرينا هم مفكرو العالم الثالث ، أو العالم المتخلف أو النامي ، سموه كما تشاؤون ، فهذه التسميات من اختراع العالم المصنّع الامبريالي ، مفكرونا في كثرتهم الكاثرة موظفون يتقاضون مرتباتهم من السلطان الذي يدفع لهم في آخر الشهر . فالى أن يجرؤ المفكر على قول كلمته ، والى أن ينفتح الحاكم على المفكر ليستوعب كل أفكاره ، عندئذ فقط يمكن ان يتحقق التكامل بين الطرفين ، ويمكن بواسطة توفير شروط الحوار الجدي بين الأحزاب والمنظمات العقائدية الوحدوية والمفكرين القوميين أن نصل الى نظر عقائدي موحّد ، بعيداً عن ارتجالات وردود فعل التجارب الوحدوية السابقة التي تمت قبلئذ . ومعلوم ان شروط هذا الحوار الجدي هي الاخذ بالمنهج العلمي الانتقادي ، وانفتاح كل طرف في الحوار على الآخر ، وحرية المناقشة ، والبعد عن الشكل الانفعالي الذي قد تأخذه بعض الافكار ابان النقاش ، فتبدو اتهامية مضلّلة . وحينذاك فقط يمكن التوصل الى تحقيق شعار الحركة العربية الواحدة المطروح منذ بعض الوقت ولكن ينبغي الحذر من الانشغال كلية في مقتضيات هذا الحوار، وتجاهل الرد على تحديات البيئة الدولية. فكلما استغرقنا في حوارنا الداخلي من أجل التوصل الى صيغة علمية للوحدة المرتقبة ، كلما زادت تحديات حوارنا الخارجي مع البيئة الدولية ، وضاع الامل في مقدرتنا على التصدي لتحدياتها ، ونعني بها خطر الصهيونية العالمية وحلفائها. الحاجة الملحّة الآن هي النظر في كيفية التوفيق بين الحوارين على ضوء الحاح البيئة الخارجية التي تتطلب مناردوداً من النوع الآني ، والا فات حقائقها التقنية والاقتصادية والعسكرية والسياسية تباشر بتضييق الخناق علينا وتزيد العيون خبالاً .

جورج صدقني :

في الحقيقة ان العائق الرئيسي في رأيي أمام قيام الوحدة العربية ، ليس من نطاق الفكر . يمكن القول ، على الأقل ، إن مفهوم الوحدة العربية واضح بما فيه الكفاية . وقد أوافق على ان هذا المفهوم يمكن أن يتضح أكثر ، ولكن العائق أمام الوحدة العربية ليس من نطاق فكري أو نظري . إن قضية الوحدة العربية قضية صراع ، صراع بين

قوى مصالحها مختلفة ومتناقضة ، جماهير الشعب العربي في ناحية مصلحتها في قيام الوحدة العربية ؛ وهناك من جهة أخرى قوى أخرى يمكن أن نعددها : الاستعمار والامبريالية والشركات الاحتكارية الممثلة لمصالحها الاقتصادية في الوطن العربي — اسرائيل والصهيونية العالميـــة — الرجعية العربية الخ ... مصلحتها تثبيت التجزئة وتكريسها . وإذا أردنا الانصاف ، فإن صيغة السؤال فيها شيء من الظلم للنضال العربي وللمرحلة التي بلغهـا هـذا النضال على طريق تحقيق الوحدة العربية ، ذلك أن السؤال عن الأسباب التي حالت حتى الآن دون قيام الوحدة يوحي بأنه لم تقم أية وحدة عربية حتى الآن ، ولذلك لا بد من الاشارة الى أن قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية يعد حقاً خطوة على طريق الوحدة ، ونأمل أن تكون هذه الخطوة نواة تتعمق وتترسخ فتستقطب نضـــال جميع المناضلين العرب في هذا السبيل . لا بد أن السؤال منصرف إذن الى العوائق التي تحول دو نتحقيق الوحدة العربية الكاملة الشـــاملة . في هذه الحالة أقول بكل بساطة إن العائق الذي جعل هدف الوحدة العربية هدفاً نظرياً لم ينتقل حتى الآن الى حيز الواقع الفعلي هو أن القوى المعادية لقيام الوحدة العربية في الوقت الحاضر ماتزال من الناحية الواقعية أقوى من القوى الوحدوية . ولذلك سأسمح لنفسي بتغيير في صيغة السؤال ، فأجعله ينصب على طموحنا في المستقبل ، بدلاً من إحاطته بالقضية ماضياً وحاضراً . في هذه الحالة ، يصبح السؤال كما يـلي :

ما السبيل الى تغليب قوى الوحدة ممثلة في جماهير الشعب العربي الكادحة المناضلة على قوى التجزئة المعادية لقضية الوحدة؟.. يبدو لي أن الوقت قد طال ولابد من الايجاز ، وإذا أردنا أن نختصر فانني أقول ان السبيل إلى غلبة قوى الوحدة هو وحدة أداة الثورة العربية ، وحدة المناضلين العرب . يجب أن يكون من الواضح تماماً أنه ليس من حق القوى التقدمية العربية التي تنادي بالوحدة بعد الآن أن تبقى مشتتة وموزعة . إذا أرادت الوحدة حقاً ، فعليها أن تبحث عن صيغة للعمل المشترك ، للنضال العربي الواحد بين هذه القوى التقدمية العربية المختلفة ، عن طريق الحوار المفتوح والمناقشة الموضوعية الهادئة حتى يتحقق النصر على القوى المعادية للوحدة والمتمثلة بالدرجة الاولى بالاستعمار والامبريالية . ويجب أن يكون من الواضح تماماً أيضاً أنه لاسبيل الى قيام الوحدة العربية على يد أية منظمة سياسية من المنظمات السياسية القائمة منفردة . وإذا سلمنا جدلاً بذلك فانه سيكون على هذه المنظمة السياسية الوحدوية أن تنتظر حتى تنتشر في جميع أنحاء الوطن العربي ، وينخرط معظم المواطنين العرب (اذا لم نقل كلهم) في هذه المنظمة ، ثم تستلم الحكم في كل

قطر على حدة ، وعلى التوالي ، ثم تقوم الوحدة العربية . لابد اذن من توحيد أداة الثورة العربية ، لابد من لقاء هذه القوى التقدمية العربية ، ولا سيما أن هناك نقاط لقاء كثيرة وواضحة . بكلمة أخرى إن شعار الحركة العربية الواحدة شعار مناسب في هذا المجال ، وربما كان قيام الحركة العربية الواحدة سبيلاً ممتازاً لوحدة النضال العربي لتحقيق أهدافه في القضاء على الاستعمار والامبريالية ، وفي تحقيق الوحدة العربية ، والبناء الاشتراكي .

وعندما أتحدث عن « الحركة العربية الواحدة » سبيلاً الى تحطيم العوائق أمام تحقيق أهداف النضال العربي ، فان هذا لا يعني أنني غير شاعر بصعوبة قيام الحركة العربية الواحدة . والواقع أن دون ذلك صعوبات جسيمة ، ولا بد أن يتطرق الى الحديث عنها بعض الزملاء . على أنه لا بد من التأكيد على أن هذه الصعوبات لا تغير من الواقع شيئاً ، وهو أن شعار « الحركة العربية الواحدة » يبقى شعاراً صحيحاً يستحق بذل أقصى الجهود في سبيل تحقيقه .

أدهم مصطفى :

أريد أن أذهب فوراً الى الصيغ القائمة التي وصلنا اليها بعملنا الوحدوي . نحن الآن لدينا اتحاد، والاتحاد قام على اساس ميثاق طرابلس والأحكام الاساسية ودستور الاتحاد . أعتقد أن هناك في بنود هذه الصيغ مايكفل لنا التقدم نحو صيغة أفضل اذا طبقنا فعلاً الاهداف التي كرستها هذه المواد .

مثلاً نحن هنا في نطاق القطر ، لدينا جبهة تقدمية ، ونحن الآن بهذه الندوة ننتمي الى مختلف هذه الفئات التي تشترك في هذه الجبهة .

في الواقع أريد أن اقول انه في مقدمة القضايا التي طرحت الآن قضية الحركة العربية الواحدة . نحن هنا في نطاق هذا القطر لدينا جبهة كما قلت ، ولا أدري ما هو المانع في أن نسرع الخطى في عملية دمج أطراف هذه الجبهة كما نصت عليها الصيغ القائمة في المواثيق ، ثم تقوم هذه الجبهة في كل قطر لتلتقي مع الجبهات الموجودة في الأقطار العربية الثلاثة الموجودة في الاتحاد . هنـــاك مثلاً بين مصر

وليبيا عملية توحيد في الأجهزة السياسية ، الاتحاد الاشتراكي العربي . نحن هنا في الجبهة بعد كل هذه المناقشة تبينا طريقنا وهو أنه لا بد من عملية لقاء تقوم نتيجة حوار جدي ومتواصل نستطيع بعده أن نجد الصيغة الملائمة لعملية وحدوية أكثر مما هي قائمة الآن ، وأعتقد أن عمليات من هذا النوع تستطيع أن تجتذب كل الجماهير العربية من المحيط الى الخليج ، وبذلك نستطيع أن ننجز عملاً وحدوياً يلبي رغبات الجماهير ، ويلبي تطلعاتها بأسرع ما يمكن .

أديب ملحم :

إن مقومات الوحدة العربية كما ذكر الاخوان هي بالتأكيد الاستعمار الامبريالي والصهيونية والمصالح الاستعمارية الموجودة في الوطن العربي ، ولا داعي للتفصيل فيها لأنها أمور واضحة .

هنالك توجد احتكارات ، ومصالح للاستعمار في الوطن العربي إذا استطاع الشعب العربي في كل قطر من الأقطار أن يتحكم في مقادير إن كان من ناحية البترول ، أو غيرها ، فبالتأكيد يستطيع أن يقضي على ركائز الاستعمار ، ويقضي على عائق كبير أمام تحقيق الوحدة ، وكذلك فان القوى التقدمية في الوطن العربي كما ذكر الاخوان لو تلتقي مع بعضها البعض في حوار هادف ، وتتوصل في النتيجة الى نقاط ارتكاز ترتكز عليها ، وتستطيع أن توحد كل الجهود ، على الأقل القوى التقدمية في الوطن العربي سواء كان في المشرق أو المغرب ، وتتوصل الى صيغة ، كما توصلنا الى صيغة في سوريا كقطر ، كجبهة تقدمية ، نتوصل الى جبهة تقدمية على نطاق الوطن العربي ثم نتنازل عن بعض الأنانيات في هذه الأمور ، ونتوصل الى صيغة الحركة العربية الواحدة ، بالتأكيد ستقضي على كل الحكومات الرجعية ، تستطيع أن تخلق بؤراً ثورية في الوطن العربي تقوم بانتفاضات في الأقطار التي لا يتوفر فيها حكم ثوري ، من هنا نستطيع أن نضرب المصالح الاستعمارية ، وكذلك نقضي على الأنانيات ونسهل السبيل لتحقيق الوحدة العربية :

يوسف فيصل :

أشارك الأستاذ أديب ملحم والأستاذ جورج صدقني بأن المعوقات هي الاستعمار والرجعية والصهيونية . لاشك أن هذا شيء واقع وأن النضال ضد مواقع الاستعمار في البلدان العربية وخصوصاً مواقعه الاقتصادية هو ضروري جداً للوصول الى وحدة متينة جداً .

برأيي أن الأسس الضرورية لاقامة الوحدة وتوطدها واستمرارها هي الأسس الاقتصادية ، وان اقامة مشاريع اقتصادية واحدة تربط أية وحدة تنشأ هي عنصر أساسي في توطد هذه الوحدة .

أعتقد بدون مغالاة اذا أمكن القول أيضاً أنه بيد الدول العربية حالياً لاتوجد مشاريع اقتصادية ، وعلى هذا الاساس يمكن التطلع بأمل الى بعض المشاريع التي عرضت في نطاق الاتحاد الثلاثي مؤخراً أو بعض الاقتراحات التي تعرض مثلا لاقامتها بين سورية والعراق كأنبوب نفط أو ماشابه ذلك .

هذا أولاً .

وثانياً :من التعبير الذي استخدمه الأخ الأستاذ أديب ملحم في حديثه الأول ، عملية اللصق ، أعتقد أن هذه قضية يجب أخذها بعين الاعتبار ، بمعنى أنه لايمكن اقامة الوحدة على أساس لصق دولة بأخرى ، لايمكن الا النظر الى بعض الشروط وعدم القفز فوقها وعدم حرق المراحل اذاأمكن القول ، يجب دراسة الظروف المختلفة ، والوصول الى أحسنها في سبيل التدرج للوصول إلى أن تكون الوحدة كاملة .

ثالثاً ، لابد من تحديد الاتجاه السياسي فيما يتعلق بالمعركة العامة ضد الاستعمار كما تحدثنا،وفي الظروف الحالية لايمكن أن تتوطد الوحدة بدون اتجاه واضح في المعركة ضد اسرائيل في سبيل تحرير الأراض العربية .

فيما يتعلق بالحركة العربية الواحدةفي الاتجاه الذي جرى فيه الحديث حول الجبهات؛ جبهة في كل بلد في إطار معين ، وعلى اساس المثال السوري أؤيد ذلك . أما فيما يتعلق بأسس أخرى أعتقد أن الدكتور جمال الأتاسي يشاركني الرأي بأن هذا الموضوع قد بحث مطولاً في اطار الجبهة ووضعنا آرائنا بشكل صريح وواضح في هذا الموضوع .

يجب أن لاتقوم القضية لكي لاتعيش ، يجب أن تقوم لكي تعيش ، وعلى هذا الاساس المثال السوري فيما يتعلق بالجبهة ولقاء القوى التقدمية هو في الظروف الحالية وفي مستوى التطور السياسي الحالي ، افضل مثال ، وفي رأيي أنه يمكن السير عليه .

ظهير عبد الصمد :

اريد ان اقول ان التجزئة التي يعيشها العالم العربي الآن ليس لها مستقبل وهي شيء مصطنع ، فآفاق المستقبل هي للوحدة ، ولكن العمل للوحدة حتى الآن ليس على المستوى المطلوب .

ان الوحدة رغم التجارب التي مر بها العالم العربي لا تزال شعاراً ، لم تصبح بعد حاجة حيوية ملحة لكل الجماهير العربية ، فلكي تتحقق الوحدة ينبغي ان تدرك الجماهير العربية ان مصلحتها هي في تحقيق هذه الوحدة ، وهذا لا يمكن ان يتم الا من خلال تطور اقتصادي معين ، من خلال ايجاد نوع من التعاون والتنسيق والتكامل الاقتصادي بين البلدان العربية ، مشروعات اقتصادية مشتركة بين سورية ولبنان أو بين سورية والعراق باعتقادي يمكن ان تهيء تربة لدفع لبنان أو العراق في طريق الوحدة ، أي عندما تدرك الجماهير اللبنانية والعراقية ان الوحدة ستؤمن لها مكاسب اقتصادية بالاضافة الى العمل الدعائي ، والشعور الوطني والقومي ، والنضال ضد الامبريالية والصهيونية ، وتحقيق التكامل الاقتصادي بين البلدان العربية ، يمكن ان يلعب دوراً كبيراً في دفع مسيرة الوحدة الى الأمام بصورة واقعية وعملية . ان امكانيات التكامل الاقتصادي بين البلدان العربية متوفرة ، ولكن القوى الرجعية ، قوى الاستعمار والصهيونية ، قوى التجزئة ، تلعب دوراً كبيراً في عرقلة سير البلدان العربية نحو الوحدة ، وبالامكان التغلب على هذه العوائق والصعوبات فيما اذا تعاونت القوى التقدمية فيما بينها وسلكت سياسة تقارب وتعاون وتنسيق فيما بينها ، وتمكنت من التوصل الى مفاهيم مشتركة أو متقاربة .

ويلعب الجهل ايضاً دور العائق في قضية الوحدة ، الجهل بواقع البلدان العربية ، وأشكال تطورها . ان العديد من القوى التقدمية تتحدث عن الوحدة وتناضل من أجلها ، وهي في الوقت نفسه لا تدرك واقع البلدان العربية بصورة ملموسة . فأنا مثلاً أتحدث كثيراً عن الوحدة ، ولكن ليس لدى وضوح كاف عن الواقع الاقتصادي أو الاجتماعي بصورة ملموسة ، في مراكش أو تونس أو ليبيا أو في الجزيرة العربية . وفي اعتقادي ان تعاون البلدان العربية وتقاربها يتطلب المعرفة الدقيقة بواقع كل بلد عربي ، وهذا يتطلب رحلات متبادلة واجتماعات مشتركة وندوات مختلفة على النطاق العربي يبحث

فيها مثلا موضوع « الطبقة العاملة العربية، مهامها ، أهدافها، تنظيماتها ، أو موضوع» الاصلاح الزراعي في البلدان العربية كيف يتطور وكيف ينفذ ، ما هي الأشياءالايجابية فيه أو السلبية ، أو موضوع « قضايا الصناعة » ، وغير ذلك من المواضيع . ان هناك موضوعات كثيرة على النطاق العربي اذا بحثت بصورة ملموسة ومشتركة ، يمكن ان تهييء تربة لتقارب فكري على النطاق العربي لجماهير الأمة العربية . ان الأبحاث المشتركة والتنسيق والتعاون والندوات المختلفة بامكانها ان تلعب دوراً في تسهيل مسيرة الوحدة ، وتهيئة الظروف العملية لها .

صدقي اسماعيل :

اعتقد ان البحث في معوقات الوحدة على النحو الذي ذكره الاخوان يدل على الخطورة التي نعطيها عادة لمقاومة الوحدة ؛ أي كيف ان الشروط الاستعمارية تقاوم الوحدة بعنف يدل على ان الوحدة بطبيعتها عمل ثوري ؛ وهذا يقتضي منا ان نتجاوز المعوقات للبحث عن الشروط الموضوعية التي تمنع قيام الوحدة . مثلا نبحث بالشروط التي تحتم الوحدة ، يجب ان نبحث لماذا لاتقوم الوحدة الآن ؟ .. على الرغم من الاعتقاد بان هناك خوفاً منها أو انها تمثل خطراً على المصالح الاستعمارية وعلى الرجعية العربية. الحقيقة أن المعوقات التي تحول دون قيام الوحدة في اعتقادي ترتبط بالمرحلة السياسية التي يمر بها الوطن العربي الآن .

ان محاربة الوحدة من قبل الاستعمار والرجعية هي بشكلها المباشر محاربة سياسية ، ومقاومة الوحدة قد تكون لها نتائجها الاقتصادية ، وقد تكون بدافع حماية المصالح الاستعمارية اقتصادياً أو التغلغل الثقافي .. الخ ، ولكنها عمل سياسي يجابه بعمل سياسي أيضاً ؛ ولذلك اعتقد ان نقطة البداية هي تكوين المواطن «العربي» كمواطن من اجل دولة كبيرة ، يجب ان نحسن تكوين مواطن تقدمي في القطر من اجل دولة عربية واحدة ومن هنا تكون البداية ، تكون قومي متماثل بين المواطنين العرب في اوطانهم المختلفة ، هذه نقطة أولى .

النقطة الثانية تتناول فكرة الحوار ؛ أنا أخالف رأي بعض الاخوان في ضرورة توحيد وجهة النظر حول تحقيق الوحدة العربية أوحول الفكر القومي الذي يتناول

العمل الوحدوي . باعتقادي ان أكثر منطقة فكرية يجب ان يكون فيها حوار وتكون فيها تناقضات وتكون فيها اتجاهات متباعدة هي هذه المنطقة ، منطقة البحث في مستقبل الأمة ، ولا أعرف صيغة سياسية معينة يمكن أن تحل محل الحركة العربية الواحدة ، أو الفكر العربي الواحد ، ولكن أعرف بان هناك مستقبلاً عربياً واحداً ؛ ويمكن ان تكون الطرق اليه متعددة أي مثلما نعطي المواطن كل مجال التفكير بمستقبله كمواطن في دولة ، لكي نكون منه مواطناً في دولة اكبر ، أو في دولته الكبرى التي هي الدولة العربية الواحدة ، كذلك يجب ان نحاول خلق مناخ صالح لحوار جدي بين تعدد الاتجاهات التي تتعلق بمستقبل الحركة العربية الواحدة .

قد يكون هناك موقف واحد نتوسل به لتحقيق ماندعوه بالنضال العربي الواحد من أجل المصير العربي .. الخ . اما بشأن الوحدة ، فالقضية أشد خطورة مما نتصور .

اخيراً ، اعتقد ان السؤال الأخير بحد ذاته كان ينبغي ان يكون ، ماهو مستقبل الوحدة العربية ؟. ونعرف ان بحث مستقبل الوحدة العربية كمفهوم شيء ، وبحث مستقبلها كمنجزات سياسية او اجتماعية او اقتصادية شيء آخر . وباعتقادي ان السنوات القادمة ولا سيما السنوات العشر القادمة سوف تحمل الينا تبدلات جذرية حتى في مفهوم الوحدة . ولذلك لانستطيع ان نعطي اي جواب لأي تطبيق عملي يمكن ان يعكس به الواقع تغيراً في المفهوم النظري للوحدة .

د. جمـــال أتاسي :

— هناك ولا شك معوقات تعترض طريق الوحدة ، منها المعوقات الاقليميـــة والذاتية ، ومنها القوى الخارجية المعادية . ولقد تحدثتم جميعاً عن هذه المعوقات .

ان هدف الوحدة هو المستهدف قبل غيره من أهداف نضالنا في التآمر الامبريالي الصهيوني ضد أمتنا ، واسرائيل قائمة بعدوانها للتصدي لأي عمل وحدوي جدي ولو بحرب وعدوان جديد . ولكن ما تحدث عنه البعض هنا عن انضاج الظروف الموضوعية من فكرية وثقافية ، أو عن بناء القاعدة الاقتصادية اولاً والتقدم بها ، هـل هذا هو طريقنا الى الوحدة ؟

اننا اذا اقتصرنا على ترك هذا الهدف للتطور الطبيعي ، وبتمهيد القاعدة الاقتصادية التي يبني عليها ، وبالتحرك من خلال القاءات بين القوى التقدمية والتعاون بين النظم ، فما اظن أن هذا هو الطريق . ان للاقتصاد اهمية ولا شك في بناء المصالح المشتركة والتكامل.. الخ، ولكن ارادة البشروضغط الظروف المصيريةلهاهنا الدور الأكبر. أن نتحدث عن التطور هذا وعن الظروف الموضوعية ولكتفي .. اننا بهذا الأسلوب نلعن الى حد كبير آراءنا بالوحدة ، فالوحدة جميعاً هي ثورة ، والوحدة هي استراتيجية في التصدي وفي صنع القوة ، ونحن أمام خطر ، والعجز يهدد تقدمنا وجميع خطواتنا الموضوعية ، وللزمان دوره ، ولا بد أن تكون الحركة باتجاه الوحدة ، حركة تجاوز حركة دفع للظروف وحركة تغيير باتجاهها ، بل ومن خلالها .

فالمعوق الآن امامنا لا من الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، بل هو في ضعف تحرك النظم والقوى باتجاه تجاوز نفسها الى الوحدة ، كما هو في ضعف تحركها باتجاه الهدف المباشر ، هدف النصر في المعركة . فلان قوانا التقدمية ، ولأن نظمنا التقدمية ليست ثورية بالقدر الكافي ، فهي غير وحدوية بالقدر الكافي ولا تملك ذلك الدفع الكبير على طريق البناء الوحدوي .

ان إرادة الوحدة هي ارادة الجماهير العريضة ذات المصلحة الحقيقية في الوحدة كقوة وتقدم وثورة .ولكننا بحاجة لتلك الأداة الثورية المنظمة التي تبلور تلك الإرادة وتصوغها في استراتيجية عمل ، والتي تصوغ وحدة النظم . ثم هل يأتي تغيير الشروط الاقتصادية والاجتماعيةوخلق روابط وحدة بينها مقدمة للوحدة ، أم أننا بالأحرى ،وفي اطار دولة للاتحاد او الوحدة ومن خلال قيادة موحدةوتخطيط موحد، نستطيع أن نفعل في الظروف وأن نطورها وأن نحقق تكاملها ...

اننا اليوم لسنا بصدد البحث في النظم التقليدية والرجعية وفي كيفية سوقها على طريق الوحدة ، ذلك أمر متروك لجماهير تلك الأقطار لتغير النظم وتغير الأوضاع على طريق التقدم والتحرر لتصبح مهيأة للوحدة . ولكن المشكلة هي في النظم الجديدة والتقدمية ، فهي من خلال تشبثها بمصالحها الخاصة وتجاربها الخاصة لا تدفع للوحدة بل تبتعد عنها وتتباعد فيما بينها .

إن تلك النظم التي قامت من خلال تغييرات وظروف ونوازع ثورية ، ووراء

شعارات اشتراكية ووحدوية ، نراها تقع ضمن شروط خاصة تؤقلمها وتجعل منها نظاماً اقليمية ومحافظة الى حد ما . وفي مواجهة هذا كله تطرح ضرورة وحدة قوى الثورة العربية ووحدة أداة الثورة، أي الحركة العربية الواحدة .

ليس هناك بعد من تصور واضح لصيغة وحدة القوى الثورية والحركة الواحدة ، فهي صيغة لا تصطنع اصطناعاً ، كما وأنها ليست تصدير في نظام من النظم أو امتداداً او اتساعاً لحزب من الأحزاب . بل لا بد أن تكون صيغة متقدمة على النظم والقوى القائمة . والواقع أننا حتى الآن لسنا امام خط لتوحيد القوى، بل ما زلنا أمام تبعثر وتشرذم في القوى يتسع ويتمادى ، ومــا ذلك الا لأن طريقنا غير محددة بعد بشكل مباشر وواضح وكل منا يتحرك ويدور في دائرته الخاصة واطاره .

ثمة نظم أقامت بينها روابط وحدوية ، وأمامنا اتحاد الجمهوريات العربية كبناء قائم ، يمكن أن يهيء ظروفاً جديدة لمنطلق وحدوي يتوثق اكثر ويتسع ويشمل ، ولكنه بناء ما زال يعوزه الكثير من مقومات الوحدة الفعلية .

فالموضوع الكبير المطروح هنا هو صيغة توحيد النظم في نظام موحد، وصيغة توحيد التنظيم السياسي او القاعدة الأساسية التي يستند اليها نظام دولة الوحدة .

لقد دار الحديث حول العامل الاقتصادي ووحدة المصالح . وذلك جانب هام ، ولكن كيف تتوحد المصالح ويتكامل بناء القاعدة الاقتصادية بدون الارادة والأداة . فترك الأمور في مجراها الطبيعي يغذي مصالح ونعرات اقليمية . وهناك قوى كثيرة معادية للوحدة تغذيها وتحرضها .

لقد قامت ثورة وطنية في ليبيا وتحررت واندفعت على طريق الوحدة ، ولكن لو نظرنا الى التطور الموضوعي للظروف الاقتصادية والمصالح ، لوجدنا ان هنـاك من يدفع بالمصالح الاقليمية على طريق التعارض لا التكامل والوحدة بين مصر وليبيا ، فما لم تكن هنـاك وحدة أداة وإرادة ، وما لم تواجه تلك المسائل الاقتصادية في إطار وحدوي ، كما يفعل الآن ، فلا يمكن تجاوز تلك الظروف نحو نظام وحدوي ومضمون وحدوي تقدمي .

المفروض ان نظام الوحدة هو نظام يبني مجتمعاً اشتراكياً لصالح الجماهير العامة . فخطة النظام الوحدوي وتخطيطه هما اللذان يوجهان للتكامل الاقتصادي الصحيح ولبناء القاعدة الاقتصادية الموحدة لاقطار دولة الوحدة .

عندما نقول جميعاً إننا نعمل لأهداف واحدة ، هي الحرية والاشتراكية والوحدة، نؤكد أن الثورة العربية ثورة واحدة ، ولا تكون الثورة واحدة ما لم تكن لها أداة واحدة .

فالمسألة الكبرى التي تطرح نفسها علينا في هذه المرحلة من نضالنا ، وفي سبيل تحقيق اهداف نضال جماهير امتنا ، هي مسألة وحدة أداة الثورة ، أي اداة النضال واداة بناء دولة الوحدة .

انها مسألة ليست بسيطة ولا سهلة ولكن لابد ان نريد ذلك وان نسعى لذلك . وعندما نقول بوحدة الأداة . فاننا لانقول هكذا ببساطة للقوى التقدمية العربية والاحزاب تعالي واندمجي واصنعي حزباً واحداً او حركة واحدة .

ولكن المطلب هو ان تتلاقى وتتحاور ، قطرياً وقومياً ، في سبيل ذلك . لابد أن تتخاطب العقول وأن تتفاعل الافكار ، والفكر الذي يوحد ويضع ركائز التلاقي وركائز وحدة القوى ، هو الفكر الأكثر ثورية ، أي الاكثر تقدماً .

فهناك من يتقدم وراء شعار وحدة القوى ولبناء « حركة واحدة » من منطلق متخلف ومن أفكار فات أوانها . ولكن تلك المنطلقات والأفكار تفرق ولا توحد ، وهي غير قادرة على أن تقود الجماهير وان تعبيء القوى وتوحدها .

وبالمقابل فان الفكر الأكثر ثورية والأكثر تقدماً ليس بالفكر الأكثر تطرفاً ، بل هو الفكر الأرحب والأوضح ، الفكر الذي ينهض بنا الى آفاق العصر ويوجه نحو بناء دولة عصرية .

ان القوى التقدمية العربية تنطلق كلها من موقف جذري ضد الامبريالية ، وهذا يلزم بصيغ معينة في بناء وحدة القوى ووحدة الامة ، ويلزم بأساليب معينة في النضال وبمواقف محددة وواضحة من القوى والتيارات العالمية ، كما يلزم بمواقف وطنية وقومية معينة ..

كلنا نقول بأننا نرمي الى بناء نظام الوحدة من خلال تلازم اهدافنا في الوحدة والحرية والاشتراكية، ونقول بأن نظام الوحدة لابد أن يكون نظاماً ديمقراطياً شعبياً .. تلك كلها تصورات وأفكار مشتركة بين القوى التقدمية تساعد على تلاقيها وتعاونها

الوثيق وصنع وحدتها . ولكن المطلوب من الحوار أن يؤدي بنا الى رسم استراتيجية موحدة لصنع وحدة قوانا ولصنع وحدة امتنا .

لقد كان موضوع وحدة اداة الثورة والحركة الواحدة من المواضيع الكبرى التي دار من حولها النقاش بين القوى التقدمية في سورية في المباحثات التي مهدت لقيام جبهتنا الوطنية التقدمية في سورية ولوضع ميثاق الجبهة الذي نص على العمل لتحقيق ذلك الهدف ، أي وحدة القوى والاداة .

الا في مناقشاتنا لم نطرح صيغة الحزب الموحد او الواحد ، كتطبيق وحيد للأداة الواحدة ، ولا ان تخضع القوى كلها لمذهب واحد ونظرية واحدة . الذي وجدناه ان نقاط التلاقي بيننا اكثر بكثير من نقاط الافتراق ، وجدنا أننا نتطلع جميعاً الى اهداف استراتيجية واحدة . ثم ان ظروف المعركة المصيرية الراهنة تفرض اقصى حدود التلاقي والتعاون بيننا ، فالخطر يتهدد وجودنا جميعاً ، ودخولنا في مشروع نضال مشترك لابد ان يفرض في مرحلة من مراحله وحدة قوانا .

فعندما نناضل معاً في سبيل اهداف واحدة، وعندما نقاتل معاً لتحرير ارضنا ، وعندما نلتقي في التفكير الاشتراكي على الأمور الأساسية ، وعندما يكون تصورنا للنظام دولة الوحدة تصوراً ديمقراطياً تقدمياً يتطلع مباشرة الى حرية الجماهير ذات المصلحة في التقدم والتحرر والاشتراكية ، فان هذا لايصنع بيننا تعاوناً جبهوياً فحسب ، بل مؤداه الطبيعي أن ينهض بنا على طريق وحدة القوى والحركة الواحدة ، والحركة الواحدة لاتعني وحدة قوى النضال العربي المنظمة فحسب ، بل هي تهدف الى الوحدة العريضة لجماهير الشعب ، ولتوحيد طاقات نضالها وارادتها .

فالثورة في فيتنام ، وهي نموذج كبير امامنا ،استطاعت ان توحد قوى شعبية عريضة تقودها طلائع ثورية منظمة ، من خلال اهداف مباشرة واحدة ومن خلال مشروع نضالي مشترك . الفكر أو النظرية هناك لم تكن الا دليلاً كيفته الثورة مع شروط نضالها ، وفي تحديد اهدافها المباشرة وتحديد القوى المعادية والقوى التي يصعد بها نضالها وتصعد ثورتها .

ولكن القوى الثورية العربية والنظم التقدمية ، مع كل ما تلتقي فيه من افكار واهداف ومصائر ، لاتزال في تخبط ، ولا تزال التناقضات والمصالح الجزئية والذاتية

تباعد بينها ، وهناك مواقف تأتي لتكشف التباين في التصور والمنطلق .

فعندما نقول بضرورة وضوح الفكر ، وان يتقدم الفكر الذي يوحد ، فليس ذلك بالمفهوم العام والمجرد للفكر ، وانما بمفهوم الفكر الثوري ، أي الاستراتيجية الواضحة في العمل . فلا بد اذن ان يتقدم الفكر الاكثر تقدماً والاكثر وضوحاً . ولا بد أن تتقدم القوى التي تحمل هذا الفكر ، ليضع برنامج العمل الذي يحدد الطريق ويصنع وحدة الأداة .

فميثاق الجبهة الوطنية التقدمية مثلاً برنامج عمل ، ولا بد ان ينضج ويكتمل من خلال الممارسة وتفاعل القوى . ولكن هذا الميثاق اذا هدف بين ما يهدف اليه الى وحدة الأداة ، فانه يظل في اطار القطر وتجربة لتعزيز تقدمية نظام قائم . والحركة العربية الواحدة ، ليست موضوعا قطرياً ، ولو ان الوحدة الوطنية على صعيد القطر تساعد عليه وتمهد له ، انه موضوع قومي ، ويعني القوى التقدمية العربية كلها . والحوار من حوله لابد ان يصعد الى المستوى القومي ، والى مستوى المسؤولية التاريخية.

فوزي كيالي :

أنا أرى أن نصنف المعوقات الى صنفين :

١ ـ معوقات خارجية : هي الامبريالية ، والاستعمار ، والصهيونية العالمية ، والحكومات الرجعية ، عربية كانت أو غير عربية ، كحكومة الشاه في ايران مثلاً .

٢ ـ معوقات داخلية : التخلف بكل مظاهره ، وبكل أبعاده . ثم التجزئة التي التي ضربت لها جذوراً عميقة في أرض الواقع العربي وهي مستمرة في حفر مجراها وفي تعميق هذا المجرى مالم يأت القرار السياسي فيحول التيار عن مجراه الحالي الى مجرى جديد.

وفي الحديث عن المعوقات الخارجية ، احب ان لا اكتفي هنا بمجرد ذكر الاسماء، لأن ذلك قد يبدو في بعض الاحيان مضللاً ، وقد يبعدنا كثيراً عن ادراك المضمون الحقيقي لما نريد أن نقوله .

عندما اقول مثلا ان اسرائيل ضد الوحدة العربية ، واسرائيل كما معلوم ، وكما هو شأن كل دولة في العالم ، تقف تجاه عدد كثير من القضايا موقفاً معادياً او موقفاً مؤيداً بحسب ماتقتضيه مصالحها ، فهي ضد الوحدة العربية وضد انتصار فيتنام الشمالية ، وضد انتصار نضال شعب روديسيا ، او شعب جنوب افريقيا ، وهي ضد نضال زنوج

امريكا و ... الخ .. فهل معنى ذلك ان مواقفها في جميع هذه الحالات واحدة ؟ وهل كلمة « ضد » في كل جملة من هذه الجمل مساوية لذات الكلمة في الجمل الأخرى ؟..

ان الوحدة العربية بالنسبة لاسرائيل تعني قطعاً زوالها ، لا زوالها من الوجود على خارطة العالم ، وانما زوالها حتى من الخيال كحلم من الاحلام ، فهل نستطيع ان ندرك اذن ما هو معنى ان نقول ان اسرائيل تعادي الوحدة العربية وتقف ضدها ؟..

ومثل آخر فيما يتعلق بموقف الامبريالية من الوحدة العربية . لا شك ان الامبريالية والاستعمار هما ضد جميع حركات التحرر في العالم ، وهما كذلك بالنسبة لكل حركات التوحيد القومية ، لأن مصالحها تتعارض مع ذلك . فالامبريالية هي ضد ثورة كوبا ، وضد حرية ووحدة الشعب الفيتنامي او الكوري ، وهي ضد استقلال شعب روديسيا .. الخ .. وهي في الاخير ضد حرية ووحدة الشعوب العربية ..

فهل كلمة « ضد » هنا في كل جملة من هذه الجمل مساوية على الواقع لذات الكلمة في الجملة الاخرى ؟.. أنا اطرح هذه التساؤلات لأبعد ، ما استطعت ، خداع الجمل والالفاظ .

انا اقول ان هذه الكلمات غير متساوية ، وهي غير متساوية الى حد كبير جداً . ولكي نحدد موقفنا جيداً لا بد أن نفهم اولاً وبصورة جيدة موقف الآخرين منا .

الوحدة العربية ثورة ، وثورة كوبا ثورة أيضاً ، ولكن الوحدة العربية ثورة من نوع خاص بحكم مايترتب عليها من نتائج على النطاق العالمي ، وربما كانت ، بما تنطوي عليه من احتمالات في تغيير صورة العالم الراهن ، وما يترتب عليها من تعديل في موازين القوى الدولية ، لاتقل خطراً ان لم تكن أخطر من ثورة الصين ذات الملايين التي لاتحصى ...

ان عالماً فيه دولة عربية موحدة ممتدة على طول الشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وعلى طول شاطئه الشرقي ، تحتضن البحر الاحمر ، وقناة السويس ، ومضيق باب المندب ، والخليج العربي ، وتطل على المحيطين الهندي والاطلسي ، وتنطوي على ٧٠ او ٨٠٪ من الطاقة المحركة في العالم ، وتقع في سرة العالم وفي قلبه ، وتصل قاراته الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا ، وتتحكم في طرق المواصلات العالمية الجوية والبرية والبحرية ، وتختزن من الطاقات البشرية والثروات المادية والقيم الحضارية ماتختزن الارض

العربية ، أقول ان عالماً فيه مثل هذه الدولة هو عالم آخر تماماً ، عالم مختلف كل الاختلاف عن العالم الراهن .

ان الوحدة العربية ثورة على النطاق العالمي ، سياسياً واقتصادياً وتاريخياً وحضارياً ايضاً . هكذا أراها أنا على الأقل . .

اذا كان كل ذلك صحيحاً ، وهو صحيح قطعاً ، فماذا فعلنا حتى الآن لنحقق مثل هذا المشروع العظيم ؟ .. وحتى يحق لنا ان نتساءل بعد ذلك لماذا لم تتحقق الوحدة العربية حتى الآن ؟..

ماذا فعلنا على صعيد العمل السياسي ؟.. وعلى صعيد العمل الاقتصادي ؟ ..ماذا فعلنا على صعيد العمل الفكري والعقائدي ؟.. وعلى صعيد العمل الثقافي ؟.. ماذا فعلنا على صعيد العمل العسكري ؟ .. وعلى صعيد الوحدةالوطنية والوحدة القومية؟..

أين هي خططنا على المدى القصير والبعيد، وأين دراساتنا وابحاثنا ، وأين معاهدنا وفرق البحث التي تستطيع أن تغطي موضوعات الوحدة بكل أبعادها وتفصيلاتها على ماهي عليه من تشعب وتعقيد ؟

اذا كان موضوع الوحدة العربية هو على هذه الدرجة من الخطورة بالنسبة لنا بحيث انه يساوي الوجود نفسه ، واذا كان هذا الموضوع في الوقت نفسه هو على هذه الدرجة من الخطورة بالنسبة للعالم بحيث يؤثر في أوضاع الأمم الأخرى وفي وضع العالم كله وفي موازين القوى الدولية بحيث يؤدي الى خلق عالم جديد ، وهو كذلك قطعاً ، فما هي الاستعدادات التي اتخذناها ، وماهي الطاقات التي حشدناها وماهي الخطط التي وضعناها ، وماهي القوى التي خبأناها لخوض مثل هذه المعركة .. حتى نتساءل بعد ذلك لماذا لم تتحقق الوحدة العربية حتى الآن ؟.

اما بالنسبة للمعوقات الداخليةفهي كثيرةويمكن ان تنطوي جميعها تحت «موضوعة التخلف » .. التخلف في كل مجال ، وعلى مختلف المستويات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية والسياسية .

ولو اردت ان أبحث مظاهر التخلف في كل مجال من هذه المجالات ، لقلت الشيء الكثير ، وليس هذا مجاله الآن . ولكن اخطر مظاهر التخلف باعتقادي هو مانلاحظه من تفكك وضعف في بنيتنا الاجتماعية بحيث اصبح المجتمع العربي منحلا الى افراد يحاكم كل منهم العالم والحياة من خلال مصالح ذاتية ضيقة، وذلك بسبب غياب الهدف الواحدالذي

يشد الناس الى بعضهم بحيث يجعل منهم كتلة متماسكة الى الحد الذي يقضي على جميع اسباب التخلف والفرقة فيا بينهم .

في مثل هذا الوضع ، تستيقظ كل امراض المجتمع ، وتنتعش كل مظاهر التخلف والضعف فيه ، سواء كانت هذه المظاهر من طبيعة المرحلة التي تمر بها الامة العربية أو كانت متخلفة عن مرحلة سبقت .. فالعصبيات في مختلف أشكالها العائلية والطائفية والدينية والاقليمية ، والولاءات على تعددها ، تنتعش وتستيقظ لتفتات ولتنمو كالطفيليات على جسد الولاء الوحيد الذي يجب ان يدين به الفرد وهو الولاء للأمة والقومية .

صحيح اننا متخلفون اقتصادياً ، ولكن تخلفنا الاجتماعي والثقافي يفوق تخلفنا الاقتصادي . وبدلا من أن نقود بالعامل الذاتي «الثقافة ، والفكر ، والعادات، والتقاليد» العامل الموضوعي « الاقتصاد ، وأدوات الانتاج » ، وأن ندفع عجلة التطور الى الامام بوتيرة أعلى وأشد ، نرى ان العامل الموضوعي يجرنا وراءه جراً ونحن نقاوم ونتاضل، لنبقى حيث نحن « ذاتياً » برغم كل التغييرات الموضوعية التي تجري من حولنا، وبرغم الانقلابات الجذرية التي تحدث في العالم .

هذا التخلف عكس صورته في الوطن العربي ، وربما بصورة أشد على الدولة ، وعلى المنظمات السياسية ، وعلى العلاقات بين المؤسسات والأفراد . اذ لانزال في بلادنا العربية نفتقد الدولة العصرية ، ونفتقد حرمة القانون ، ونفتقد العلاقات الموضوعية ونفتقد كرامة المواطن ، ونفتقد على وجه الخصوص وبصورة أشد المنظمة السياسية التي يحق لها ان تدعي أنها « منظمة المستقبل » .

ان التشرذم في مجتمعنا تحت كل الشعارات التي عرفها تاريخ البشرية، ابتداءمن الدين والطائفة وانتهاء بالمنظمة والحزب ، قد أدى الى تفكيك المجتمع رأياً وعملاً فتفرق الشمل وتبعثرت القوى وتبددت الطاقات في وقت نحن أحوج مانكون فيه الى وحدة الصف القائمة على وحدة الفكر ووحدة الارادة حتى نتصدى لجابهة كل الاخطار وكل الاعداء. الذين حدثنا عنهم سابقاً وقلنا انهم يقفون منا كتلة واحدة موقف العداء حتى الموت. وكان من البديهي أن نفتش بكل الجدية اللازمة ، وبكل الاخلاص المطلوب ، عن الاطار الذي نستطيع بواسطته ان نجمع كل طاقاتنا وكل امكاناتنا لنخوض بها معركة الوحدة التي هي معركة الوجود ذاته .

واذا كنا نطالب باقامة الحركة العربية الواحدة كوعاء يمكن ان يجمع كل الطاقات ويضم كل الامكانات وتنسجم فيه كل الرغبات والارادات ، فليس ذلك في سبيل خلق منظمة سياسية نضالية أوسع وأشمل فقط ، وانما بالدرجة الاولى من أجل خلق منظمة أعلى ، منظمة من نوع جديد تتجاوز كل المنظمات القائمة بفكرها وتنظيمها في مستوى المهمة التي تتصدى لها : قادرة على توحيد الامة العربية وتحريرها وبناء مجتمعها الأفضل .

نحن لم نفعل حتى الآن في سبيل تحقيق الوحدة العربية اكثر من اننا رفعنا الشعار ، هتفنا به .. صفقنا له .. كتبناه على اللافتات والجدران .. ادخلناه في كتب المدارس جملاً منعزلة عن المنهاج .. أشعلناه زيتاً مباركاً في اسرجة (انعزاليتنا) . حرقنا بخوره في مجامر اقليميتنا .

نحن بحاجة في الواقع ، من أجل أي تحرك جدي على طريق الوحدة ، ان نصنع الانسان الذي سندفعه على الطريق الشاقة الصعبة الطويلة ، صناعة جيدة ، وان نزوده بعقل وثقافة جديدين .

وفي سبيل ذلك لابد من منظمة سياسية جديدة تصنع ثقافة جديدة وبيتاً ومدرسة جديدين .

نحن نعيش في واقع انفصالي ، وفي واقع التجزئة بين الاقطار العربية المختلفة ، ولايمكن بحال من الاحوال ان نوحد اقتصاد البلدان العربية المختلفة قبل ان نقيم الدولة الواحدة ، أي ان نخلق الارادة السياسية الواحدة . ولايمكننا ان ننتظر اقامة هذا الاقتصاد الواحد اولاً حتى ننتقل منه الى القيادة السياسية الواحدة ، ولو فعلنا ذلك لطال بنا الانتظار ولعجزنا عن تحقيق كل من الهدفين معاً .

فالقرار السياسي يجب ان يسبق - او لابد ان يسبق - القرار الاقتصادي . ولدينا اسرائيل كمثل . وهي كما نعلم مؤلفة من اشتات من الناس كانوا يعيشون في الاصل في بقاع مختلفة من العالم ، لايجمع بينهم أي عامل مشترك ، لااللغة ، ولا التاريخ ، ولا الاقتصاد ولا الأرض . كل مايجمع بينهم الارادة ، القرار السياسي . ان هذا القرار كان كما ظهر في الواقع لأن يأتي بجميع هؤلاء الناس الى ارض جديدة ، تاركين ورائهم أوطاناً عاشوا فيها هم واجدادهم مئات السنين ، وتركوا فيها بيوتهم واهلهم ومتاجرهم ، وكل تاريخهم وماضيهم ، جاءوا الى فلسطين تحدوهم ارادة معينة من أجل بناء وطن جديد .

وفيما لو طال الزمن على حالنا وحالهم ، ونحن على مانحن عليه ، لاستطاع الكيان السياسي الواحد في اسرائيل ان يقضي على جميع الخلافات وان يصهر الجميع في بوتقة واحدة ، ولأمكن للحواجز والفواصل القائمة بين اقطارنا ودولنا ان تفرق الامة الواحدة وان تعمق الخلافات بين أقطارها وان توصل الخصائص الاقليمية بين اجزائها .

فالسؤال اذن : كيف السبيل الى بناء المنظمة التي تستطيع ان تصنع الانسان العربي الجديد ؛ هذا الانسان الذي يحمل ارادة الوحدة ويملك في الوقت نفسه القدرة على تحقيقها ؟ ومالم نفعل ذلك فستبقى الوحدة العربية شعاراً ، مجرد شعار ، وسيبقى التساؤل قائماً ودائماً ، لماذا لم تتحقق الوحدة العربية حتى الآن ؟

وفي ختام هذه الندوة ، أتوجه بالشكر العميق ، باسم وزارة الثقافة والارشاد القومي وباسم اسرة تحرير مجلة « المعرفة » الى الاخوة الذين اسهموا في هذا الحوار الذي لابد ان يستمر ويأخذ مداه حتى نصل الى صيغة مشتركة من الفهم المتبادل حول قضية الوحدة العربية التي يمكن اعتبارها قضية العرب الاولى .

أشكركم مرة أخرى والى لقاء آخر .

صدقي اسماعيل ... وقفة توديع

حين اقامت مجلة « المعرفة » ندوتها ودعت اليها تلك النخبة الممتازة من العاملين في حقلي الفكر والسياسة ، لم يكن يدور في خلدنا أن مشاركة استاذنا وزميلنا المرحوم صدقي اسماعيل سوف تكون آخر اسهاماته في مجلتنا .

كان صدقي عضواً في هيئة الاشراف على المجلة ، يخصها بالكثير من جهوده ، كتابة وتخطيطاً وتوجيهاً - على الرغم من أعبائه الاخرى الكثيرة كرئيس لتحرير الزميلة « الموقف الأدبي » ، ورئيس ثم نائب للرئيس في « اتحاد الكتاب العرب » ، وأمين سر « المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية » ، بالاضافة الى عدد كبير من اللجان الاخرى في مختلف حقول الثقافة ، كلها كانت تبغي مشورته وتنشد رأيه . بحيث يصح القول بأنه ما من عمل يحتاج الى انشاء مؤسسة لرعاية أمور الفكر الا وكان للراحل الغالي يد في تأسيسها أو تسييرها .

* * *

كان صدقي اسماعيل من اوائل المنفيين الذين ابعدهم الاستعمار العرقي التركي عن مسقط رأسهم في أنطاكية الى وطن العروبة في دمشق . فاحتسبها هجرة في سبيل عروبته ، وانفق عمره مناضلاً بالكلمة والفكر حتى غدا في عداد مفكري الامة وطلائعها منذ ربع قرن مضى الى اليوم .

وكان من أوائل المتطلعين الذين قضى الفقر بأن يحد من تطلعاتهم ، فأمضى حياته باحثاً عن المعرفة والحكمة يأخذها أنى وجدها . فإذا به نبراس يقبس من اشعاعه المدلجون أنى طلبوا لأمتهم الهدى ولانفسهم الهداية .

وكان من أوائل المؤمنين بالتنوير والتحرير ، ممن هالتهم الجهالة الجهلاء التي تردت الأمة في حبائلها ، فضرب بخلقه وخلائقه مثالاً للحلم والتسامح وسعة الصدر والصبر على البناء والعمل .

* * *

آن انفضت الندوة وتفرق المنتدون خرجت بصحبته أستمع له . كان من كلامه عن الندوة

— كان اجراء الندوة عملاً عظيماً . أتدري .. إن ايجابياتها أكبر بكثير من سلبياتها ان نقاط الاتفاق فيها تفوق نقاط الاختلاف . وهذا في حد ذاته أمر يستحق الاهتمام . غير أن الأسئلة فيها كانت ذات صيغة تعميمية ، وإن كان ذلك من طبيعة أي نقاش شفهي سريع .

وعن مشاغله الادبية :

— انني أعمل في رواية جديدة . المشكلة هي مشكلة الوقت . ما ان يصبح المرء معروفاً في هذا البلد حتى يغرقوه في لجان وأعمال تستهلك جل نشاطه . انني لا أجد الوقت للتفكير والتأمل .

وعن همومه اليومية :

— لقد تخلينا — أنا وأم إياد — عن كل مطامحنا العملية . اتفقنا على أن نسقط من حسابنا شراء بيت أو سيارة أو حتى رحلة صغيرة الى اوروبا . وقد اراحنا ذلك كثيراً لان الانسان لا يستطيع أن يتابع حياته الفكرية وهو مطمئن ، اذا ربط حياته اليومية بضرورات حاجاته المادية .

* * *

واليوم، وقد مضى الرجل لطيته، فان له في أعناقنا دين أمن الواجب سدادها ...

فنحمي أسرته من التشرد ونقيها مغبة غياب عائلها ، بأن نؤمن لها المسكن الذي انصرف ربها عن تأمينه بأن وقف نفسه على التفكير في شؤون أمته ..

ونصون آثاره من التبعثر أو الضياع فنعمل على جمعها وتوفيرها لجمهرة القراء الذين احترموا فكره وترسموا خطاه ..

ونحافظ على ذكراه حية بيننا بتسليط الضوء على جوهر فكره المبدع واجتهاداته الخلاقة في حقول الابداع الأدبي والنقد والفكر القومي ..

إننا لنتوجه الى قائد هذه المسيرة لتحقيق المطلب الأول ، فقد عودنا أن يولي برعايته شؤون الفكر والمفكرين . كما أن لنا من الالتفاتة الكريمة التي خص بها صديقنا الراحل مايشجعنا على الشكر بتوقع المزيد من عطائه السخي .

واننا لعلى ثقة من أن « اتحاد الكتاب العرب » الذي وهب له صديقنا الراحل سنواته الأخيرة ، سيؤدي المهمة الثانية خير أداء ، فيجمع آثار المفكر الراحل وييسرها للقراء بطبعة جامعة .

وسوف تقوم مجلة « المعرفة » بجهد متواضع ، فتحشد الأقلام لإحياء ذكرى المفكر الصديق ، والكشف عن ينابيع خلقه .

* * *

صدقي ، أيها الراحل الحبيب

لقد رزئنا بك أديباً صان شرف الكلمة ، وفجعنا بك مثقفاً يرعى المؤسسات الفكرية ما وسعه الوقت والطاقة . فلئن اعتبطك الموت شاباً فان لنا في رأيك الاصابة ، وفي تراثك الاثابة ، وفي وجدانك الحي ما يسعفنا على اكمال الطريق الذي بدأه صديقك الارسوزي ورصعته بحياتك الغالية .

تغمد الله أبا اياد برحمته ، فقد كان يشفق على امته من أحداث الدهر ، وأعان امته على فجيعتها لان فقده واحد من الحدثان .

محيي الدين صبحي

كتب في الوحدة العربية

عبد الحميد حسن

أزمة الوحدة العربيّة

«أزمة الوحدة العربية»
للدكتور عبد العزيز الأهواني

الجانب النظري في الكتابات الوحدوية العربية أغنى بكثير من الجانب العملي فيها ، وأعني بهذا أن التجزئة هي الأمر الواقع العملي في العالم العربي ، فهي الأزمة ، والكتابات الوحدوية يجب أن تتطرق لها بأكبر قدر ممكن من التحليل والتخطيط ، وبهذا تكون الوحدة أمراً « أخص » من القومية التي تعبر عن هوية الشعب وعن وعيه لهذه الهوية ، ذلك الوعي الذي يزداد ويخف حسب الظروف التاريخية ، والأحداث التي تمر بالشعب أي بالأمة ، ويصل الى منتهى وضوحه عندما تكون الهوية في خطر .

فليس غريباً غنى المكتبة العربية بالكتابات القومية ، وليس ضائعاً ذلك الجهد الجبار الذي يبذل في هذا المنحى . فنحن في « أزمة » قومية حادة ، لا يستهدف خطرها

هويتنا فحسب ، بل وجودنا ذاته .

لكن الملاحظ أن التركيز كان في الغالبية العظمى من كتابات المفكرين والسياسيين على جانب عوامل القومية ، وإثباتها إثباتاً نظرياً ، ومقارنتها بغيرها من القوميات منذ ظهورها على يد الثوار الفرنسيين حتى القوميات الحاضرة ذات العلاقة بالعروبة ، ولو علاقة سلبية كالفارسية والتركية ، أو القوميات «المهجنة» من الداخل كالفرعونية والسورية . وتتراوح هذه البحوث بين الفلسفة والتاريخ واللغة والاقتصاد ، وتتدرج من أعلى المستويات الأكاديمية حتى مستوى الكتب الإعدادية والشعبية .

لكنها كانت تصل في النهاية الى إثبات حق العرب ، أو واجبهم ، في الوحدة وإعادة التنظيم الاجتماعي والتقدم ، تصل لاهثة الانفاس شاعرة أنها وصلت غاية طريقها ، وكأن إثبات الفكرة يكفي لتطبيقها ، أو أن التغلب على الخصم بالحجة يكفي لنزع كل الأسس الأخرى التي يعتمد عليها ... وكثيراً ما تكون القوة السافرة ، أو الأجنبي .

ثمة كتابات وحدوية ممتازة تتجاوز العموميات ، لكن أغلبها مبثوث في كتب الستراتيجية العسكرية ، والاقتصاد السياسي والتاريخ .. وحتى في الأدب ؛ وهذا هو مكانها الطبيعي ، فالثقافة العربية واحدة . لكن الكتب التي تجمع بين هذه الأشياء بحيث يمكن أن يقال انها « وحدوية » أو « عن الوحدة » قليلة ، والسبب هو كون التجزئة هي الأمر الواقع . فالكتاب الوحدوي بطبيعته سوف يكون « ضد » بعض أنظمة الحكم . أما القومية « النظرية » فما دامت هي المبدأ المعلن عند أكثر الأطراف فالمجال مفتوح أمام كتبها ، أو هو على الأقل أفسح .

وهكذا نستبشر عندما نجد أستاذاً جليلاً قديماً مثل الدكتور عبد العزيز الأهواني يضع خلاصة دراساته وثقافته في كتاب وحدوي جيد . وهو الدارس الثقة للأدب والتاريخ العربيين ، وهو من الشيوخ الذين عاصروا كافة الأحداث والتطورات السريعة الماضية في مصر الشقيقة ، وشاهدوها بعين اليقظ المهتم ، لا بعين المخدر أو المضلل .

* * *

كتاب الأستاذ الاهواني هو : « أزمة الوحدة العربية» ويتألف من مجموعة مقالات سبق له أن نشرها في مجلة الكاتب المصرية ، وقد نجح في التأليف بينها بحيث بدت وكأنها فصول متعاقبة لكتاب واحد . ولكن ما زال يَنِمّ عن أصلها المتفرق تكرار الفكرة الواحدة في عدة فصول ، أو تجزئة الجوانب المتعددة للموضوع الواحد ووضعه في أماكن متفرقة . فبين دور الجماهير العربية في الوحدة وتطلع الجماهير الى تغيير النظام الاجتماعي في دولة

الوحدة : بين هذا وبين دور الفلاحين والعمال في الثورة وعلاقتهم بالمثقفين مائة صفحة كاملة ، مع أنها طرفان بقضية واحدة .

لكن غياب « النفَس » الواحد في الكتاب ، لا يحرف المؤلف عن موضوعه الواحد . فهو ان عاد الى المبادىء القومية الاولى او اثر الجغرافيا والتاريخ واللغة فيها ، او حدود مفهوم التاريخ وتفسيره ، او تقصّى أزمة البرجوازية المصرية ، فانه لاينسى أن كل هذا في سبيل توضيح موضوعه الاساسي ، الوحدة .

بدأ المؤلف كتابه بهذه الفقرة البسيطة : « لست اشك في أن عوامل الوحدة وأسبابها بين ابناء الوطن العربي الكبير اقوى من عوامل التفرقة واسبابها . وكذلك أومن بأن في تحقيق هذه الوحدة الخير الشامل لكل جزء من اجزاء الوطن الكبير ، بحيث يصبح العمل في سبيلها واجباً قومياً لايجوز التخلي عنه مهما تكن الظروف والاحوال » فهو لم يخشَ ان يتهم « بالشوفينية » او بأنه قرر موضوعه سلفاً في البداية ، فكأنه يعرف انه يكتب اكمالاً لموضوع سابق ، وانه يبدأ حيث انهى غيره من امثال ساطع الحصري حياتهم في الوصول اليه .

يتطلب تحقيق الوحدة تجاوز الحدود الضيقة الى حدود اوسع واشمل . انه يتطلب ان يكون ولاء العرب للوطن الكبير « اشد » من الولاء للوطن الصغير . وقضية الوحدة العربية تبدأ بالتساؤل عن سبب توزع الولاء أو تركزه على الاوطان الصغيرة اي تبدأ بمناقشة الاقليمية .

والاقليمية ليست مجرد حواجز وحدود سياسية ، فلها جوانب اقتصادية واجتماعية وثقافية .

الأزمة الثقافية :

الكاتب لم يجد ، مبدئياً ، أية غضاضة في الانتماء الى جزء من الوطن العربي هو اقرب اليه من باقي الأجزاء ، لكنه لم ينس أن هذا امتداد للمنزل فالحي فالمدينة فالقطر . بل هو لم يجبن عن التصريح بامكان الانتقال من القومية العربية المتميزة في المستقبل الى حضارة تختفي فيها الفوارق بين الأقوام وقد تتلاشى . وهذا يكشف ضمناً مفارقة طريفة وهي أن الاقليميين هم في الواقع شوفينيون ولا انسانيون اكثر من الوحدويين الذين يبدون في محاولتهم لم شمل أمة ما وكأنهم يحاولون عزلها عن العالم كله . ونحن بهذا نكون أخرجنا للاستاذ الأهواني من منطقه ذاته عنصراً هاماً من عناصر « رسالة الأمة العربية » وهو الذي نسب الايمان بالرسالة الى عناصر غيبية تدخلت في تفكير بعض الوحدويين .

نعود الى موضوع الإقليمية التي يشرح منها الأستاذ الاهواني « المصرية » ،

لسبب بسيط هو أنه يعيش في مصر ويعرف مشاعر أهلها تمام المعرفة. والشيء الجديد الهام في كلامه عنها أنه يقرر أنها ليست على درجة واحدة من الوضوح في أذهان المصريين جميعاً. والاهم أنها ليست واضحة الا في أذهان قلة من النخبة المثقفة، بل هو يحدد بداية رسوخها في أذهان الرسامين والمثالين الذين كانوا أوائل من انتسبوا الى التراث الفرعوني الفنى واعتبروا أنفسهم، في محاولتهم التميز عن أساقذتهم الغربيين امتداداً لذلك التراث. أما كتلة الجماهير المصرية فبقيت آلاف السنين تعيش بين المعابد والهيا كل بعيدة عنها لا ابتعاد الجاهل بل ابتعاد الذي انفصل عنها بثقافة أخرى معارضة لها تمام المعارضة.

فالمصرية وان كانت ترجع الى كذا الف سنة لكن تاريخ ظهور مبدئها والظروف التي عملت على وجوده حديثة الظهور. وفي مجتمع ماتزال أكثرية أهله تناضل ضد الأمية لم يكن المصريون قبل القرن الماضي يعرفون عن تاريخ مصر القديمة شيئاً ذا بال، وقد ارتبطت مصر الفرعونية في أذهانهم بالسحر والطلاسم والجبروت الذي جعل من فرعون إلهاً يعبد. اما التاريخ المصري فقد انقطع لا بانتشار الاسلام كما يقول الغربيون بل منذ انتشار المسيحية وقبلها الهلينية.

جاء اكتشاف مصر الفرعونية في وقت كانت مصر فيه تمر بمحنة اختلال ثقافي وحضاري وتجتاز أزمة حادة من الشعور بالهزيمة والنقص والتخلف أمام التقدم العلمي في أوروبا والازدهار الثقافي والسيطرة الفكرية الساحقة للغرب، ولكي يكتمل المذهب قال أكثر «المصريين» ان مصر قد «مصرت» كل من دخل اليها من الفاتحين من الفتح المقدوني والروماني ثم بيزنطة وفارس والعرب ثم الفتح العثماني حتى الاستعمار الأوروبي، فكأن هنالك إسلاماً مصرياً ومسيحية مصرية تلتقي مع وحدانية أخناتون. وهكذا صارت القضية فيما يتصل بالمصرية تشبه قضية الحقيقة الالهية عند القائلين بوحدة الوجود، تتجلى في مظاهر شتى ولكنها حقيقة واحدة.

ويظن الدكتور الأهواني ان هذا الموقف بالنسبة الى مصر والمصرية له نظائر في اوطان عربية اخرى، وأن يكن في صورة ابسط، ونحن في الشمال نشكر له حسن ظنه فينا، أو جهله المحمود «للمنطلقات» السورية بل والبنانية التي تلبنن العالم، ان مصر المصريون من يغزوهم فقط.

وهو يفصل القول في دور التاريخ في

أية قومية،والجديد عنده انه يقرر بصراحة أن التاريخ الحديث هو الاكثر تأثيراً في هذا المجال . اما الحنين الى آماد عريقة في القدم فيبدو انه يعتبر طنيناً رومانسياً لايتفق وطبائع الامور، فعنده ان الحاضر هو الذي يتحكم في الماضي ، والمهم في كل شيء سواء أكان قيمة ام عقيدة هو كونه ذا علاقة بالحاضر أي كونه حياً . والوقوف عند الفرعونية والفينيقية والآشورية والقرطاجنية واعتبارها الأصل الأول والاخير في تشكيل العقليات وتكوين الامزجة دعاوى اقرب الى الاوهام منها الى الحقائق .

فالتاريخ عنصر جوهري من عناصر القومية ، وإنما تجيء أهميته لا من مجرد الأحداث التاريخية وحدها ، وانما من طريقة فهم هذه الأحداث حين تدون ، ومن تفسيرها وتأويلها حين تكتب وتدرس .. وليست لهذه الأحداث قيمة في ذاتها تتجاوز حاضرها وانما قيمتها فيما تتركه من آثار معنوية أومادية . ويمكن ان تدرس هذه الآثار في واقعها الحاضر دراسة ميدانية مستقلة عما سمي بالتاريخ . فندرس اللغة العربية في مصر المعاصرة ، وندرس نظام الزراعة والري فيها دون حاجة الى تتبع هذا تاريخياً . فاذا فهم التاريخ على هذا الوضع لم يصبح له كيان خاص به ، بحيث يكون عنصراً مستقلاً من عناصر القومية، يقرن الى عنصر اللغة مثلاً (عنصر اللغة من أهم عناصر القومية حتى بناء على هذه النظرة .. فاللغة واقع حي حاضر) .

ويتضح هذا الرأي بمثال نستعيره من المؤلف مع أنه استعمله في سياق آخر ، ان « الشادوف والجاروف » اللذين ورثهما الفلاحون المصريون عن الفراعنة ، في رأي الفرعونيين ، ليسا ذلك الارث الثمين ، وهما وسيلتان لايرغب حتى فرعون ذاته في الاحتفاظ بهما الآن . ونستعير أيضاً من الأرسوزي مثالاً آخر ، ان فكرة الجهاد والشهادة والقيم الرفيعة التي نبهنا العربي للموت منذ عهده الجاهلي مازالت تحتفظ بأهميتها حتى اليوم ، بل ما أهمها اليوم .. وهي ، بالمناسبة ، ليست غيبيات .. انها ارث تاريخي واقعي وان كانت غير متجسدة في خشب وحديد مثل الشادوف والجاروف، وهي ، لعدم تجسدها ، أهملها الكثيرون بما فيهم كاتبنا الأهواني نفسه ، بينما أدخلها الأرسوزي في « رسالة الأمة العربية الانسانية الى العالم » مع الكرم والجود والحمية التي تجعل من العربي مناضلاً بتكوينه الأصلي ضد الاستعمار مهما اتخذ من أشكال ، وتجعل من المجتمع العربي مجتمعاً مستعمراً بتكوينه الأصلي منذ عهده الاقطاعي القبلي حتى عهده « الليبرالي » الحالي .

ونحن هنا في مجال العرض ، لا مجال الموازنة ، وعرضنا يهدف الى تبيان تقصير مفكرينا في فهم بعضهم لبعض وكم يتوقفون

أحيـاناً عن استخلاص النتائج المنطقية لمنطلقاتهم هم بعد التقديم لهـا بمقدمات في منتهى الروعة والتماسك .

ونعود الى قول المؤلف مع « كروتشه » ان « كل تاريـخ فهو تاريـخ معاصر » . فالاعتماد على عنصر التاريخ بـكل مافيه ينطوي على مشاكل كثيرة ، أولاها ان عنصر التاريخ المشترك ليس دائمـاً عامل توحيد وربط وجمع ، بل انه في أحيان غير قليلة عامل تفرقة ، يستوي في ذلك الأمر بالنسبة للوطن العربي الكبير او الصغير . فكثير أما يجد الصراع المذهبي والطائفي والقبلي والعنصري داخل الوطن الصغير وقوداً من التاريخ والذكريات التاريخية يحفظ عليه اشتعاله ودوامه . فاذا اتسع الأمر من الوطن الصغير الى الكبير اتسعت المشكلة أحياناً ، فدخلت الاقليمية الوطنية في حلبة الصراع.

ومن هنا يكون التاريخ القصير نعمة في مطلب الوحدة نعمت بهـا الولايات المتحدة مثلا ، بل وكافة القوميات الأوروبية الـتي لاترجع الا الى عدة مئات من السنين ، بينما يسمح اخذ التاريخ بجمله ودون تحليل والتقاء (وهنا نتبين مزايا امثال الارسوزي الذي صرف في دراسة التاريخ العربي وتنقيته مايزيد كثيراً عن بحوثه اللغوية التي يتمسك بها كثير من تلامذته) اقول يسمح اخذ التاريخ الطويل الجمال « لنقم » ابتلي بهـا اليهود المعاصرون على شكل « الصهيونية » العالمية ، وابتلينا نحن العرب بهم وبكل من يعتبر ذاته وريثاً لحضارة منقرضة .. وما أكثرها تحت ترابنا !

وهذا ليس مبعثـاً لكثير من الغموض والتشتت الفكري والعاطفي فحسب بل يفتح الباب لصراع بين اتجاهات رجعية وتقدمية او بين محافظة ومجددة ، تختلط فيها العرقيـة بالدينية بالطبقية .

ونستطيع من هنـا أن ننتقل الى بحث أبعده المؤلف الى مكان آخر من الكتاب هو : « سلطان الحاضر على الماضي » .

وهو يعتقد أن وضوح الرؤية في هـذه المسألة يتصل بمستقبلنا اتصالاً مباشراً ووثيقاً، فهي مسألة يرتبط فيها مصير الثورات، وفرص النجاح والاخفاق فيها .

ثمة دعوة لاحياء التراث القديم. والتراث القـديم لا يشمل نشر الكتب وجمع الآثار فحسب اذ أن هذا ليس عظيم الخطر في حياة الجماعة ، وتأثيره لا يتجاوز طبقة ضيقة من العلماء او الهواة . والتراث بهـذا المعنى جزء يسير جداً من تراث اوسع مدى هو مانجوز أن نسميه بالتراث الحي وهو تلك العقـائد والأفكار والاذواق والوسائط التي لا يزال الناس في حاضرهم يستخدمونهـا ويحتكمون اليها .. والتي هي امتداد طبيعي لحياة ماضية نمارسها ونتأثر بها في حياتنا اليومية . فالثقـة

التي نتحدث بها او نكتبها ليست من صنعنا وانما صنعتها الأجيال السابقة ، وكذا العقيدة الدينية والصلات الاجتماعية والقيم الخلقية حتى المظاهر والشكليات في المأكل والملبس والمسكن . كل هذا يخيل الناظر أن ليس له ولا لجيله من الأمر من شيء، وانما هو سلطان الماضي على الاحياء من أفراد وجماعات .

لكن الامر على غير مايبدو للوهلة الاولى، فهذا التراث الحي بقي حياً لان الحاضر أراد له الحياة . والحاضر يملك الحق في أن يحكم عليه بالموت ، وهو قد حكم فعلاً بالموت على الشادوف والجاروف وكثير من مظاهر المأكل والملبس والمسكن . وهذا هو معنى سلطان الحاضر على الماضي ، يبيد منه كل ما انتهت مهمته الحيوية ويصل سلطانه حتى الى معاني ألفاظ اللغة ثم الى الالفاظ ذاتها .

ويصل الأستاذ هنا أيضاً الى نتائج دقيقة مهمة :

لا .. ليس النظام الديمقراطي الغربي وريث المدن اليونانية والا لورث هذا النظام الرومان والفرس والعرب قبلهم . مع أنه لم يرثه الا بعض دراس الأديرة والتكايا .. وانما الديمقراطية الغربية (بعلاتها) ثمرة واقع اجتماعي مرت به أوربا في القرون الأخيرة وكانت حلاً لمشاكل اجتماعية واقتصادية وحضارية لم تعرفها من قبل .

وليس التشريع وفكرة الدولة والقانون إرث روما . إنها أمور ظهرت في أوقاتها.. ولو كان لها أن تورث لورثتها شعوب أبعد ما تكون عن الغرب .

وهكذا.. باثبات أثر الحاضر في الثقافة.. وهو في الثقافة العربية ، عربي مئة بالمئة لا شك في ذلك ، ننتقل الى جوانب أخرى من أزمة الوحدة العربية هي الجوانب الاقتصادية والاجتماعية .

الأزمة الاقتصادية والاجتماعية :

وتتضمن الأزمة السياسية والعسكرية ومع. أن الثقافة العربية واحدة وأمر واقع فشل في تحطيمه كل من حاول ذلك بالانتماء الى ثقافات بائدة ، أو بادخال ثقافات أخرى . الا أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي (بما فيه السياسة) يقف حاجزاً فعلياً أمام الوحدة .. بحيث يستدعي الأمر لا مجرد « إثباته » كالعامل الثقافي ، بل تغييره أو وعي تغييره..

يعتبر الدكتور الأهواني أن ثمة من قال فعلاً ان الوحدة العربية غاية في ذاتها ، لأن الشعور القومي ونزوعه الى الوحدة يصدر عن عاطفة كعاطفة الحب والأمومة ، بما لا يستقيم معها أن نبحث عن غاية أو هدف وراءها.. وهو يعتبر أن هذه النظرة تستلزم أن الجانب النفعي يقوم من الوحدة مقام العرض لا الأصل وتقضي حتماً الى اسقاط العامل الاقتصادي والتطور الاجتماعي من

حساب الوحدة .. وهو رد على هذه النظرة ردا جيلا سيأتي بيانه .

ولكن، من قال ان الوحدة غاية الغايات ؟ وكأنها إله أرسطو يتحرك الكون كله شوقاً اليه ، والا لما خرج عن سكونه ! قاله أحد اثنين : انتهازي المبدأ الوحدوي ، وخبيث تكريس التجزئة . أعني أن الإقليميين يبدأون بهذه المقدمة لا لكي يثبتوا أن « الجانب النفعي يقوم من الوحدة مقام العرض » بل لكي يصلوا أيضاً الى أن المنفعة معارضة تام المعارضة للوحدة . فالفقراء عندهم ينهبون بترول الأغنياء ويسلبون الاراضي الفائضة في الأقاليم القليلة الكثافة . والاشتراكيون يؤممون أملاك الاقطار اليمينية والملاك يستغلون عرق كادحي الأقطار اليسارية .

انه موضوع دقيق وكثير المزالق .. ويجب أن نكون في منتهى الحذر عند معالجته .. لا حذر الخائف المتردد ، بل حذر الجراح تعالج أنامله مناطق دقيقة وتكفي حركة طائشة لتفجير عرق أو قطع عصب .

يجب الانتباه الى أن في العالم العربي تيارات اجتماعية فعالة تتراوح بين أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، وثمة فئات شبه اقطاعية تعود في رسوخها الى تراث الفعام وأخرى شبه بورجوازية تعتبر ذاتها ، بمجرد تعاطيها الصيرفة أو توزيع السيارات ومحافظتها على سلامة أنابيب البترول ، نسيبة لفورد وركفلر . . وروتشيلد . وهذه الفئات ليس من المحال تصورها تتصارع الآن داخل دولة الوحدة شأن كل مجتمع صحي لكنه لم يصل الى غاية تطوره . وبعض الوحدويين لا يلتزم الا بالوحدة بناء على هذا الخيال الساذج ولكنه غير المستحيل .

وهذا المنطق الوحدوي الساذج كان سائداً في مرحلة بداية النضال الوطني ضد الاستعمار حتى طرد الأتراك في أوائل هذا القرن ، وليس مرده في أن النضال كان قائماً بين مواطنين عرب من ناحية وبين معتدين أجانب من ناحية أخرى مما أدخل فيه كافة طبقات الشعب كما يقول كثير من اليمينيين ، وبعض ذوي النزعة التقدمية مثل الدكتور الأهواني ، مما يعطي للطبقات الحاكمة في تلك الأيام ، وقد بقي أغلبها في الحكم حتى الآن، شهادة حسن سلوك يبدو أن التحليل التاريخي المتأني لا يسمح لها بها . والحركات الجهادية، وحتى ولو اشترك فيها كبار الملاك والتجار ، فان العامل الاقتصادي والصراع الطبقي السافر اذا لم يكونا المحرك لقيام الثورات ، فالواضح بعد التحليل أنهما كانا سبب فشلها .

لنأخذ الوضع في اوائل هذا القرن .

لم تكن الجماهير الشعبية اولاً قد التهبت الى فكرة الأمة كما فلسفها الدعاة بعدئذ . كانت الأمه مختلطة بالدين والطائفة لكن

ما كان يمسكها التتميز الصارخ لشعوب المنطقة بكافة فئاته عن أعدائه (في اللغة من الترك وفي كل شيء عن الغربيين) . ولم تكن الأمور الاقتصادية قد تبلورت كما هي الآن . فالطبقات الوسطى وتحت الوسطى من التجار والوكلاء والمتعهدين وأصحاب العقارات ، وأصحاب الياقات البيضاء من إدارييم ومحاميهم وسياسييهم ، هذه الطبقات لم تكن حتى موجودة . ولم يكن دور الدولة في الاقتصاد والخدمات الاجتماعية قد اتضح في أذهان العامة . كان هذا دور القضاء والقدر . أما الدولة فكانت كلمتها الدفاع والأمن ، ومن هذه المهمة البسيطة كان الفرد العادي يبتهل الى الله الهام الدولة عدم القيام بها .

أما حركة جهاد العرب ضد المحتلين فهي ، خصوصاً في المشرق العربي ، كانت ذات شقين ، حركة تخلص بدا أنها عربية ضد الأتراك ، مع أنها بدأها القوميون الأتراك بالتتريك وأنهاها الحلفاء سنة ١٩١٦ بأن خلصوا أنفسهم وأتباعهم من الترك .

كان العرب في هذه الفترة يجاهدون ضد الترك وبعدهم المحتلين ، وكان جهادهم شريفاً . فهم لم يكونوا يعرفون لورنس والنبي ، ولم يحضروا المؤتمرات ، ولم يفتشوا الجمال المحملة ذهباً لقادة الجهاد . لكن جهادهم لم يكن « وحدوياً » ، فهم كانوا عملياً في وحدة ، بل كان استقلالياً ، وهذه الكلمة بالذات هي التي استعملوها .

لكن ماهي المكاسب التي نجمت عن «نجاح» هذه الثورة ؟

زوال الترك ، مقابل حلول الانكليز والفرنسيين والصهيونية الناشئة . وتجزئة البلاد العربية بين الشركاء وتسليم اشتاتها لقادة الجهاد وهم بالذات الطبقات المالكة والتجار الذين قد ينخدع المرء برؤيتهم يقودون الثورات في البداية ، لكنه يتعامى عن رؤيتهم يجهضونها ويقتسمون مكاسبها في النهاية .

والدكتور الأهواني ، القريب من مصر ، يستطيع أن يطبق هذا على الثورات «الوطنية» التي قامت في مصر قبل ٩٥٢ . فيلاحظ كما لاحظنا في المشرق ، أن نفس الفئات ، بل بالضبط نفس الاشخاص اذا امتد بهم العمر تقلبوا على الحكم منذ عهد الاتراك حتى عهود ما بعد الاستقلال دون أي تبديل .

من هنا ، خصوصاً بعد تكريس التجزئة باستقلال كافة الدول العربيه تبين أن لها أسباباً نفعية اقتصادية واضحة لفئات معروفة ، تتمسك بها ، خصوصاً وأنها أمر واقع ، ولا ولا تعدم من المبررات ما تبرر به تصرفاتها ، فهي الحاكم الفعلي .

وهذا هو جوهر أزمة الوحدة العربية . إنها أزمة اجتماعية اقتصادية طبقية مغلفة

بمظاهر سياسية وعسكرية ،أما الجانب الثقافي فهو أقل الجوانب خطراً، وإن يكن أكثرها منطقية . وهو لقلة خطره ولوضوحه ، ولانعزال الوحدويين عن الحكم الفعلي، أكثر جوانب الأزمة تناولاً عند المفكرين بحيث يؤلف غالبية صفحات « الفكر القومي » .

ومع أن كتابنا لخلص من كثير من هذه الآفة ، إلا أنه وقع في فخ حسن النية فكتب إن : « الأغنياء وكبار التجار وأصحاب الأملاك الواسعة قد ساهموا في هذا الجهاد مساهمة الفقراء والعمال والأجراء . وكانت « الوحدة الوطنية » هي الشغل الشاغل للمجاهدين وقتذاك. ولم يكن للثروات والدخول اعتبار يذكر » .

إدفعوا منطقكم إلى كافة نتائجه.. انظروا إلى نهاية الثورة لا إلى بدايتها .

هذا هو المفصل الذي يربط بين الوحدة والثورة الاجتماعية (سمها الاشتراكية) ويجعل منها عضواً واحداً لايتجزأ .

والمؤلف رغم حسن ظنه منتبه إلى هذا المفصل : « فالمواطن العربي يؤمن الآن بأن مجتمعه الذي يعيش فية مجتمع متخلف ،وأن هذا التخلف يرجع ، بالإضافة إلى الأسباب الخارجية إلى أسباب داخلية ، اقتصادية واجتماعية وثقافية ، تتمثل في نقص الموارد وسوءتوزيع الثروة، وفسادالحكم والاستغلال والتأخر العقلي » .

كما أنه يخصص فصلين في كتابه عن أزمة البرجوازية المصرية توضحان بأجلى مايكن أن أزمة الوحدة العربية أزمة اجتماعية يتبعها من جوانب سياسية واقتصادية .

وهـذا هو الطريق لاثبـات أن النضال الوحدوي نضال لاقامة المجتمع الجديد، مجتمع الكفاية والعدالة والرقي بكل معانيه « ذلك المجتمع الذي لا شك في أن المؤلف يؤمن به بكل جوارحه بحيث يصل إلى « الاشتراكيين الصادقين من العرب » وحدهم الذين يستطيعون أن يقودوا مواطنيهم إلى هذه الوحدة المنشودة» وان كان يصل اليـه بطريق طويل وضيق جـداً .

منطق العزلة

يشترك في التمسك بالتجزئة حتى بعض من وصلوا الى أن غاية الغايات هي المجتمع الجديد المتطور وحجتهم أن هـذا المجتمع الجديد المتطور أيسر تحقيقاً في حدود كل قطر منـه في حـدود الوطن الكبير . ومن هؤلاء بعض مدعي اليسار .

ومع أن هذه الحجة أيسر تناولاً عنـد المحافظين منها عند التقدميين ، فمهمـة الاول تبرير الامر الواقـع بتضخيم المزايا والاستشهاد بوقائع جزئية؛ ويعزلون الحدث الواحد عما يرتبط به من سلسلة الاحـداث الطويلة، ويضيقون من افق التفكير فلا يعدون بصرهم الى التطور العالمي والقضايا العالمية في مجالات السياسة والاقتصاد .

ورد المؤلف على هؤلاء رد بسيط ذكي . فهو يعرف أن التهم والخطب الطويلة العاطفية لا تجدي بهم. وانما الذي يجدي هي الدراسات الموضوعية العلمية بما فيها التي تشمل ماينطوي عليه الوطن العربي من امكانيات وقدرات في جميع الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية .

غير أن الاشتراكيين العرب في هذا المجال اقدر من سواهم على فهم مـــدى التشابك بين السياسة والاقتصاد في المستويات العالميـــة والمستويات الوطنية واقـــدر على أن يعرفوا أن قطراً عربياً لا يستطيع بمفرده أن يحقق المجتمع المنشود ، وان استطـــاع ان يحقق قدراً مما يصبو اليه .

وهو واع لقضية ان الطبقات التي ترى في الوحدة خطراً على مصالحهـــا هي نفس الخطر ماثلاً مسلطاً في كل حركة ثورية والوحدة العربية هي حتماً احدى هذه الحركات الثورية.

اما المعدمون والاجراء من الفلاحين والعمال الصناعيين فلا يشعرون بأن قيام الوحـــدة العربية يضيع عليهم مصالح لهم . ومثل هـــذا يقال على الجنود والطلاب وصغار الموظفين وهم اصحاب الكسب الحقيقي من الاشتراكية ومن الوحدة جميعاً . ان المعذبين في الارض والكادحين ، وهم الاغلبية الساحقة في الوطن العربي ، هم الذين يستطيعون حين يتسلحون بالوعي ان يعرفوا ما في الوحـــدة من خير مشترك يعمهم جميعاً .

كأنه ينصح الكادحين بالوصول الى حقهم بالعصا . وهو قد صرح سابقاً أن للطبقات المستغلة لاتفهم بالخطب العاطفية. وهذا حسن فليعفنا إذن من «الدراسات العلمية الموضوعية» التي كان يظن قبل قليل أنها تكفي لاقناع الانعزاليين بتغيير رأيهم .

ومع أن مؤلفنا يصرح برفضه للعاطفية في السياسة . إلا ان عاطفيته هو أو قـــل منطلقه العاطفي من الأمور المحببة في كتابه، أليس الايمان والاخلاص والتضحية عواطف؟ هاهو يصل الى الاشتراكية والوحدة في نهاية فصل عن أثر النكبة الفلسطينية :

« ان المعركة ليست معركة جيش بالمعنى القديم، وانما هي معركة أمة بالمعنى الحديث، أمة عربية موحدة يشعر كل فرد فيها أن المعركة معركته هو ، لأن العدو صهيونية عالمية واستعمار دولي يعي مايريد ويخطط له ويتسلح بكل شيء . وإن معركة من السعة والعمق بهذا الحد لايمكن ان تنهض بها أمـــة تعيش في العصر الحاضر حياة القرون الوسطى . أمة تشعر الأغلبية الساحقة من أبنائها أنها لاتملك من الأمر من شيء، وأنها تكدح ومع ذلك تتقلب في البؤس ، لينعم بكدحها نفر قليل يجعلون مصلحتهم الشخصية أو الطبقية فوق كل مصلحة عامة . إنهـــا قضية العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية والمسؤولية الجماعية . انها الاشتراكية التي معيارها العمل ، والعمل وحده » .

ماهي اشتراكية الأهواني التي أثبتها جزءاً جوهرياً من الثورة الوحدوية ؟ علم ذلك عند ربي . إن اشتراكيته مثل وحدوية من قبله ، يذهبون من القومية الى ضرورة الوحدة ، فتخطاهم الى ضرورة الاشتراكية المرادفة للعدالة الاجتماعية ، لكن ثمة جانباً ثالثاً للهرم يضاف الى جانبيه : الوحدة والاشتراكية ، هو جانب الحرية، طرحه دون أن يصرح به شعاراً ؛ فالثورة واحدة عند القوميين : إن الثورة الوحدوية الاشتراكية الحرة تتطلب من طليعتها خصائص فن القيادة والزعامة واحدة ، بعد ان تثبت أن التغني بواحد من جوانب الثالوث قريب من الدجل.

الحرية

نقطة الضعف في كثير من الكتابات الوحدوية هي الحرية، يبدو أنها أصعب أفراد الثالوث تعريفاً وأصعب تطبيقاً أيضاً ، فمعناها ملتبس مشكل يتراوح بين منتهى الفوضى ، وبين أقسى نظم التوجيه من فوق التي تتخيل الحرية شعبية وكأن الشعب كتلة واحدة وحرة . انها لاتنفصم عن العدالة الاجتماعية ، وهذا صحيح . لكن حتى المفكرين لايستطيعون فصلها ، ذهنياً ، بمجرد التعريف والبسط . وثمة شكل ساذج من أشكال الحرية ، هو الحرية الليبرالية الفردية . كان لبساطته ، ومازال ، سلاحاً قوياً في أيدي أعداء الحرية والوحدة والاشتراكية ؛ بحيث بدت الحرية ، حتى في أذهان التقدميين مرادفة للفردية البورجوازية .

في كتابنا كل عناصر البحث عن الحرية ، لكن مؤلفنا ، هنا أيضاً لايدفع منطقه الى منتهاه فيبقى موضوعه غامضاً ضبابياً . لو قال فقط إن الثورة الوحدوية الاشتراكية هي ثورة تحرر اجتماعي !

فلنجمع من كتابه فقرات عن الحرية :

« ولابد هنا أيضاً ؛ ونحن نستكشف الأمر في الانعزالية ، ألا نغفل قضية أخرى لها دور خطير في ترويج هذه الدعوة . هي سوء الظن المزمن عند الجماهير العربية بالنظر الى الحكومات في الوطن العربي ، والى الاجهزة البيرقراطية التي تتألف منها .

« ان المواطن العربي لايكاد يفرق بين لفظ الدولة ولفظ الحكومة ، ولايمكن أن يفهم اليوم ما كان يقوله هيجل في القرن الماضي من أن الدولة هي الله يمشي على الارض (بل هو يفهمه جيداً ، لكنه لايعتقده . انه يعرف ان الله لو مشى على الارض لما رضي بكثير مما تفعله الدولة .. لقد أصبحت الحكومات بأجهزتها عند المواطنين العرب تكون طبقة اجتماعية خاصة ذات مصالح نفعية خاصة بها ، وانها تتلمس كل وسيلة لتتاجر بأقوات الشعب ولتستنزف دمه باسم القضايا العامة ، حتى أصبح الشعب العربي لايرى في القضايا القومية حين تتبناها حكوماته الا ذريعة للاستغلال والكسب ، ولابد له هنا من سد

باب الذرائع كما يقول الفقهاء لينجو ولو إلى حين من جشع حكوماته » .

لقد خلط المؤلف بين الدولة والحكومة . ولوقصر حديثه على الحكومات لكان أبلغ.

بقي المواطن العربي حتى التاريخ القريب يعتقد أنه يعيش في دولة الله . ولكن هذا لم يعمه عن ملاحظة ماتفعله الحكومات «باسم الله » . وهذا ماانتبهت اليه نوعاً ما بعض الحركات القومية الاكثر وعياً ففصلت القضايا القومية من القطرية وبعضها قسم حتى أجهزته العامة ، على هذا الأساس فكأنها وعت أنها انما تعمل « لدولة » الوحدة، لكنها تملك « حكومة » قطرية .

وبعد أن تغيرت نظرة العربي الى وظائف الحكومة ، بأن اعتبر ان حكومة الله عليها واجبات أكثر من مجرد حفظ الأمن، كالصحة والتعليم والتوظيف . صار سوء ظنه في « الحكومات » القطرية له مايبرره . ألم ندأب على ترداد القول له أن معظم مشكلاته حتى الاقتصادية منها لن تحل الا في دولة الوحدة. وان الحكومات الانفصالية هي في معظمها حكومات طبقات مستفيدة من التجزئة ؟

أننتظر منه ألا يصدقنا ؟ ان هي الا مبادؤه فلسفناها ورددناها اليه .

ولقضية «سوء الظن » وجه آخر واضح تماماً ، لايذكره المؤلفون ، هو سوء ظن الحكومات بشعوبها وبقدرتها على المبادرة . وفي هذا الشعور » المتبادل بين الطرفين من الأعدل ان نضع الحق على الحكومات بالبدء، فغالبية الشعب العظمى مع الحكومة العادلة. ومفهومه عن العدل متواضع جداً لدرجة أن الحد الأدنى من الجهد يكفيها لتظهر كذلك في أعينه ، فهو لايطلب منها تحقيق كافة « مشاريعها » . انه بالعكس سريع جداً في التخلي حتى عن مطالبتها « بالعمل » ، ليصبح كما يصرح المؤلف ، « يشتهي أن تكف الحكومات عن كل نشاط ، وأن يصرفها او يقنعها بالعدول عن مشروعاتها جميعاً ليكفيه الله الشر المتوقع حتماً » .

ولكي لاينقلب عرضنا الى بحث فلسفي في الحرية ، ولكي لانتعثر بالحرية الفردية الغوغائية ، نقف هنا عند الحرية السلبية « أزمة الثقة » انها ليست اضافة لشيء آخر يختلف في حالتنا عن الوحدة والاشتراكية، أو العدالة الاجتماعية ، انها ازالة للعوائق التي التي كبلت الشعب قروناً ،وفتح المجالات التي تفتح امكانياته هو ، شرط أن يكون الفاعل واثقاً من نفسه وشعبه ، وواثقاً من أنه ليس ضد استاذ الكيمياء عندما يكون في مخبره الا حين يبدأ ، وحين يبدأ فقط ، بصنع المتفجرات وقنابل المولوتوف وزرعها في طريق عودته الى المنزل . وقتها يصبح عدو الدولة والحكومة ، عدواً للشعب ، في أعين الشعب ، لا في أعين الاجهزة السرية، فقط .

هذه الآراء كلها ، مأخوذة من كتابات رجل شريف بسيط متعفف هو « زكي الارسوزي » ... كتب في القومية لكنه وصل ، لاحساسه بالمسؤولية ، في تحليله لقضايا القومية حتى الى جمعيات الرفق بالحيوان في دولة الوحدة .

ونحن هنا لم « ننقد » الدكتور الاهواني بقدر ما « وازنا » بين كاتبين قوميين شريفين .

علة الارسوزي ، او مزيته ، أنه لم يكن ينشر مؤلفاته لتدريسها في الجامعات أو لتوزيعها على المثقفين ، بل كان يعطي مخطوطاته لتلاميذه ، أصحاب المصلحة الحقيقية فيها لنشرها وتوزيعها .

وعلة الدكتور الأهواني ومعظم كتابنا القوميين أنهم لايقرأون كتابات بعضهم بعضاً ولايصلون بمنطقهم الى غايته .

محيي الدين صبحي

المثال في نظريات الانفصال

عانى الفكر القومي من المتاعب والاتهامات ما عانته الوحدة العربية ذاتها من الحصار والتضييق ، إن لم يكن أزيد بحكم أنه فكر دعوة وتبشير . وقد سار البحث عن الهوية العربية بين غابات من المتاهات القطرية والاقليمية والدينية والاقتصادية والعالمية ،

وخاض في بحار من الضلالات التاريخية والجغرافية والسياسية والعقائدية .. ثم لما يكد يتبلور وينجو حتى عاجلته الأزمات والنكسات والاعتداءات والاضطهادات ، بحيث يتبين لمن يتتبع الفكرة القومية أن مقامها قليل على الأرض العربية ، وانها تمر مر السحاب على كل قطر فتنوشها السهام وتتعاور عليها الطعنات وتتوالى من حولها الصرخات حتى تشد رحالها من اقليم لاقليم لاهثة مطاردة بينما يقيم الذين طاردوها وطردوها ، سرادقات للاحتفال بمآثرها والتغني بذكرياتها ، وتأثيل مجد الامكانات الكامنة فيها ..

إن الفجوة القائمة بين مثال الوحدة وواقعها لتثير العجب وتبلبل الخواطر ، بحيث يبدو الواقع تركيبة أشبه ماتكون من نسج خيال كاتب من كتاب العبث : لاينطبق أي تفصيل من التفاصيل على ما يقره العقل أو المنطق ، غير أن سياق الاحداث إنما يجري بحسب منطق معين يكشفه المتتبع ويستنتجه المستقريء. فإذا نظرنا إلى واقع الانفصال من منطق الوحدة وقعنا في العبث أو سوء الظن أو سوء النية ، وهو ما تجلى في مصطلح « أزمة الثقة » بين الوحدويين والانفصاليين ، وبين الفئات القومية ، في الستينات ، وبين الاستقلاليين والاتحاديين في الخمسينات والاربعينات ، وبين « الفيصليين » والاسلاميين ثم الطائفيين في الثلاثينات والعشرينات ...

أما إذا نظرنا إلى الواقع الانفصالي للدول العربية من منطق الانفصال فان ذلك يوصلنا إلى نظريات وممارسات ماتزال تفعل فعلها في حياتنا وواقعنا حتى هذه الساعة . ذلك أن مالايدركه الوحدويون هو انهم حين يطالبون بالوحدة فإن مطلب الوحدة ذاته يقوم على افتراضات مضمرة تتضمن أن العرب أمة واحدة ، وأن الوحدة بين أجزائها واجب تمليه المصلحة القومية والارادة المتبادلة بين هذه الاجزاء ، وأن الترتيبات التي أملتها القوة الطاغية للاستعمار الاوروبي ، بعيد تحطيم الامبراطورية العثمانية ترتيبات، باطلة وملغاة لانها لاتمثل ارادة الشعوب العربية ولا مصلحتها ولا المصير الذي ترغبه لنفسها وحضارتها.

ولما كان الواقع الانفصالي مفروضاً بقوة السلاح على الحلم والتطلع العربي ، ولما كان النضال ضد الاستعمار سابقاً على النضال ضد التجزئة ، ولما كان واقع النضال ضد الاستعمار قد فرض على كل جزء أن يتعاون مع استعماريي الاجزاء الاخرى (المستعمرات الفرنسية تعاونت مع الانكليز ضد الفرنسيين والعكس بالعكس ، وهؤلاء واولئك تطلعوا الى امريكا بعد الحرب العالمية الثانية) فان ذلك كله قد منع المفكرين والساسة من مناقشة المنطلقات النظرية التي يقوم عليها الواقع الانفصالي ـ هذه المنطلقات التي تبدأ باحداث

الكيانات وتنتهي بانكار العروبة ، على صعيد الممارسة ، والحال هو العكس على الصعيد النظري .

للوصول الى نظرية الانفصال وفهم واقعه سوف نعود الى كتاب ممتاز يعالج موضوع الوحدة وموقف الاستعمار منها ، وهو :

«الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر ١٨٠٠ – ١٩٥٨» من تأليف الدكتور احمد طربين .

وسوف نبدأ بالتاريخ لأنه أبو العلوم . ولأن تتبعه يبين العلل التي تعلل بها المطالبون بالأرض العربية والمنكرون للعروبة ، والاستعماريون الذين ظاهروهم . إذ ليس سراً أن الأرض العربية مهددة بالاستلاب من محيطها الى خليجها . وبالرغم من أن هذا الاستلاب نتيجة مؤامرات استعمارية وضعف في القوة العربية ، إلا أنه مدعوم بنظريات متمحلة وأبحاث تاريخية مصطنعة ، وضعت خصيصاً لتبريره من جهة ، ولاستعداء الأقليات العرقية على الاكثرية العربية من جهة أخرى ، ولإحاطة العرب بدول قومية معادية للعرب ووحدتهم بحكم مطامع ومطالب هذه الدول في الارض العربية ، من جهة ثالثة ، كما أن هذه النظريات المتمحلة هدفاً رابعاً يتجه نحو تفسيخ المجتمع العربي من داخله عن طريق الحاق الطوائف الدينية العربية بالأقليات العرقية لتجد هذه الاقليات سنداً لها من داخل المجتمع العربي ، فضلا عن التأييد الاستعماري الخارجي ؛ بحيث لا تكتفي الاقلية العرقية – الداخلية او الخارجية – بالانفصال برقعة أرض عربية تحرم العرب من خيراتها ومن موقعها الاستراتيجي بل وتوقع جزءاً من العرب أنفسهم تحت استعمار عرقي مما يشدد العداء بينها وبين العرب المحيطين بها والداخلين بين صفوفها . وتكاد لا تخلو دولة عربية أوتخوم عربية من هذه المشكلة في داخلها وفي خارجها ، في الداخل أقلية تدفع الى الانفصال وفي الخارج دولة تستولي او تطالب بأرض عربية يقطنها عرب لا يلبثون أن يتحولوا الى أقلية عرقية محرومة حتى من حقوق الاقليات : فالجزائر والمغرب عمل فيها الاستعمار الفرنسي عمله الحثيث ليكون للبربر شخصية قومية تختلف عن الشخصية الحضارية التي طبعهم الاسلام بها ، فأحدث لهم لغة سجلت مفرداتها بالأبجدية اللاتينية ليكون انفصالهم عن العروبة شبيهاً في كماله بانفصال الاتراك . ونحن نعلم أن بريطانيا بذت فرنسا في تأثيرها بالزنج الوثنيين القاطنين في جنوب السودان بحيث لم تكد تستقل السودان حتى انخرطت في تمرد تجلى على شكل حرب عصابات اتخذت ذريعة لتدخل اسرائيل والمرتزقة البيض وبعض الدول الافريقية المجاورة . بغية الايقاع بين العرب

والافارقــة . أما ليبيا وفلسطين فقد ابتلينا بشر أنواع الاستعمار العرقي بناء على دعاوى تاريخية رجعت بالاولى الى الامبراطورية الرومانية ورجعت بالثانية الى أيام موسى وابراهيم حين كانت الآلهة تكلم البشر وتقطعهم من الارض الاقطاعات الواسعة التي تعــود الى شعوب أخرى . فاذا انتقلنا الى حالتي لواء الاسكندرون ومقاطعــة الاهواز وجدنا استعماراً من دول قومية مجاورة حازت أرضاً عربية وحولت العرب الى أقلية عرقية تمنع من تكلم لغتها او تعلمها .. دون أن تخفي ايران مطامعها في الخليج العربي بأكمله نظراً لغياب قوة عربية تردعها .

فأين تكمن النظرة الانفصالية في تكوين المنطقة ؟

انها تكمن في النظرة الرجعيــة الى التاريخ . هــذه النظرة التي تجعل من تاريخ المنطقة مجموعة غزوات هوجاء ، بدأت بالسومريين ثم البابليين فالآشوريين والكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين .. مجموعــة من الاقوام ليس بينها رابط تصارعت بالغزو على المنطقة فاستقر فيها من كانت له الغلبة الى أن جاء العرب فكانوا آخر الغزاة واستطاعوا أن يصدوا غزوات الصليبيين والمغول وان عجزوا عن صد الغزو الصهيوني الذي قامت به عناصر اوروبية لتقدمهم في « التكنولوجيا » . بمثل هذه البساطة يعرض الفكر الاستعماري تاريخ المنطقة ــ الزيادة الوحيدة عليه تعقده إلى حد بعيد : وهي أن الاسكندر الاكبر غزا سورية ومصر سنة ٣٣١ ق. م فأدخلها في العالم الهليني ، ثم ظهرت النصرانية وانتقلت من فلسطين الى سورية ومصر ثم روما مما أكمل دمج المنطقة في العالم الهليني، في حضارة البحر المتوسط... لولا أن العرب جاؤوا من الصحراء (٦٤٠ ب.م) بدين جديد ولغة جديدة فأخرجوا المنطقة من الملكوت الروماني وأعاقوا « اوربة العالم » ما يقرب من ألف واربعمائة عام ، الا أن هذه الغلطة التاريخية يجب أن تقوم ، ولا يتم تلافيها الا على أيدي الاوروبيين : ان فشل الصليبيون منهم فقد ينجح اليهود .

لهذه النظرية نتائج عملية خبيثة . فهي :

١ ـــ تنفي عن منطقة الشرق الأوسط طابع العروبة الخالد وتظهر العرب بمظهر الفاتحين الذين طرأوا على أرض غريبــة وشعب غريب فأخضعوهما بقوة السلاح ، مثلما أخضع الانكليز شعوب أمريكا واستراليا ونيوزيلندة ..

٢ ـــ ليس في المنطقة قومية ثابتة تمنحها هوية ثابتة ، وانما هي لمن غلب .

٣ – ما دام العرب طارئين على الشرق الأوسط ، لأن أصلهم من الجزيرة ، فمن حق سكانه أن ينفصلوا عن العرب والعروبة .. بل ان من واجبهم أن يتحرروا من هذا الاستعمار البدوي وأن ينسلخوا عن هذا الدين البدوي، كما يقول أحد المستشرقين ، وهذا يؤدي في النهاية الى دفع سكان سورية الطبيعية نحو الاستقلال وكذلك العراق ، وتبقى الجزيرة وحدة منفصلة .. أما مصر فهي من نسل الفراعنة !وليس المغرب سوى مجموعة من البربر المسلمين الذين ينطق بعضهم بالعربية ...

٤ – تقوم على هذه النظريات التاريخية «العلمية» تيارات سياسية «موضوعية» يلفت النظر أنها كلها تعاونت مع الغرب :

فقد استندت نظرية القوميين السوريين الى أن سكان سورية الطبيعية هم آراميون وقعوا تحت الاستعمار العربي !

أوليس العراق بابلياً – آشورياً ايضاً .. !

كذلك ألا يجب أن يتحرر فراعنة مصر المعاصرون من الغزو العربي كما تحرر أجدادهم من غزو الهكسوس ؟

٥ – وإذا عادت المنطقة إلى صورتها القديمة قبل المسيح ، فماذا يضير عندئذ اذا عاد بضعة ملايين من اليهود الى أرض الميعاد ؟

ان الذين رسموا الخارطة السياسية للوطن العربي بعد الحرب العالمية الأولى كانوا – في زعمهم – يستهدون بهدي النظريات التاريخية ، فحق سورية الطبيعية التي قسمت الى أربع دويلات إنما تقسم بحسب وجود العبرانيين والكنعانيين في فلسطين والمؤابيين في السلط وعجلون ، والفينيقيين في سواحل لبنان ، والآراميين فيما بين دمشق وحلب وحوران .. أما بقية الوحدات السياسية في الوطن العربي فهي تساير بقية النظريات المدروسة ، من أن العراق بابلي – آشوري ومصر للفراعنة وليبيا لليبيين .. الخ .. وليس عجيباً ان الأحزاب التي حاولت ان تجاهر بهذه النظريات قد اندرست بمجرد ان ظهرت على سطح الحياة الفكرية والسياسية، اما الدول التي أسست بموجب هذه النظريات فقد ظلت قائمة الى الآن ، فالمجاهرة بانكار العروبة وتثبيت أوضاع الرقعة العربية بحسب ماكانت أيام الامبراطورية الرومانية والحضارة الهلينية انما يعني انصاحبه ينكر الحضارة

العربية وينكر طوديها الراسخين : العربية والاسلام .. مما يجر عليه عداء الجماهير الغفيرة ويحرك وجدان العامة من الناس بأن يعري المشكلة من جذورها ويطرحها هيكلاً عظمياً بشعاً ، فيفضح المقصد النهائي لمقاصد الاستعمار جميعها : خلع الجماهير العربية من قوميتها وسلبها هويتها الانسانية عن طريق تشويه صورتها عن نفسها ثم ادخالها في صورة أخرى . ذلك ان الاسلام ليس ديناً فقط وانما هو أديم حضاري يدخل في صميم تكوين الانسان العربي وينتج أيضاً عن صميم تكوينه : يستوي في ذلك العربي المسلم وغير المسلم ؛ فكلاهما أسهم في نسج هـذا الأديم وتلون بلونه حتى صار تعبيراً قومياً عن حضارة أمة من الأمم العظيمة في التاريخ القديم والحديث ، هي الأمة العربية .

بالطبع ، لم تنسحب تلك الأحزاب والمنظمات الانفصالية من تلقاء نفسها أو بعد اصطدام بسيط بالجماهير . لقد كانت تملك القوة الغاشمة ، قوة الاستعمار ، وكانت تملك المال والامتيازات القانونية مما يؤهلها للتبشير بنظريتها وممارستها . إلا أنها كانت تهزم في كل مرة تتعرض فيها تعرضاً مباشراً لأحد هذين الطودين الراسخين أو لكليهما معاً . يصح هذا على الأتراك في المشرق العربي مثلما يصح على الفرنسيين في المغرب العربي . فقد انفتح المشرق العربي للعثمانيين منذ ان انتصر السلطان سليم الأول على قانصوه الغوري سلطان المماليك الشراكسة في مصر والشام ، وذلك في معركة مرج دابق قرب حلب سنة ١٩١٦ . غير أن (كتلة الجماهير العربية الواسعة ظلت سليمة العروبة بعيدة عن التأثير العثماني) كما يقرر الدكتور أحمد طربين ص ٦٩ ، ويعلل ذلك بشعور الولاء الاسلامي للخليفة ؛ وبطريقة العثمانيين في ترك ادارة البلاد المفتوحة لعناصر الحكم القديمة :

(ومهما يكن الأمر ، وعلى الرغم مما وصفناه من عسف الأقوياء بالمستضعفين واختلال الحكم العثماني وادواته وتدهور السلطان الشرعي قبل عصر التنظيمات ، فقد توفر لأقطار العروبة نوع من الترابط والوحدة داخل نطاق الدولة العثمانية ، وذلك بفضل الشكل اللامركزي الذي اتبعه العثمانيون في شؤون الحكم والادارة. لذلك احتفظت المجتمعات العربية بمقوماتها الأساسية وبقدر من حرية التصرف والتنقل) ص ٧٨ .

الا ان مصر بعد ان تخلصت من الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) بدأت عهداً من الحركة والتطور والتغيير توّجه اظهور محمد علي باشا (١٨٠٥). واحتلاله لكل من الاقطار العربية التالية: ١ — الجزيرة العربية (١٨١٢) ٢ — السودان (١٨٢٠). وبذلك تحكم في طريقي الهند: طريق البحر الأحمر وطريق البر الى الخليج (وعين له وكلاء في بومباي وأخذ يصدر الى الهند البضائع.. وأصدر أمراً يحرم على السفن الآتية من بومباي أن تصعد في البحر الاحمر شمالي جدة، فزادت مخاوف الانكليز من الخط الجديد الذي يهدد طريق الهند) ص ٩٤.

٣ — احتلال بلاد الشام بأكملها من فتح عكا في آذار إلى فتح انطاكية في آب من عام (١٨٣٢) وفي أواخر العام سحق الجيش العثماني وأصبح جيش محمد علي على أبواب الاستانة. فتدخلت انكلترة وفرنسة بالضغط على الطرفين بالصلح. أما روسيا فأرسلت من البحر الاسود مائتي ألف جندي لترابط عند الاستانة. فازداد استياء الانكليز من محمد علي لأنهم اعتبروه مسؤولاً عن وصول الروس الى آسيا الوسطى وتهديدهم لشرقي البحر المتوسط. غير أن النمسة أعلنت أنها لا تسمح لروسيا ان تنفرد بحماية السلطان العثماني فكسبت انكلترا حليفاً ضد الدولة العربية الجديدة، وأما فرنسا فانها محايدة. في (١٨٤١) نجحت انكلترة في اسقاط اول دولة عربية متحدة في التاريخ الحديث. فماذا فعلت ؟

١ - اتبعت الحرب الاقتصادية ضد محمد علي (ص ١٠٦).

٢ - اتبع محمد علي في بلاد الشام سياسة التسامح الديني لإرضاء الاقليات غير الإسلامية، والبعثات التبشيرية. غير أن عملاء الانكليز صوروا للعامة (أن الحكم المصري الجديد حكم معاد للاسلام، او على الاقل يهدد ما كان للكثرة الاسلامية من مقام اسمى وأعلى ويفسر على أنه مقدمة لحكومة لا دينية، او على الاقل لحكومة مذلة للاسلام والمسلمين. وكذلك جمع السلاح من الاهلين بصور

أيضاً بأنه يعرض بعض الطوائف للخطر بعد تجريدها من السلاح الذي اعتادت أن تعتمد عليه لحماية نفسها.. والتجنيد يصور على أنه انتقاص لحقوق الرعايا الذين لم يعتادوا على حمل السلاح مكرهين) ص ١٠٧ .

٣ — على الصعيد الدولي نجحت انكلترا في تدويل القضية السورية فقدمت انكلترا وروسية وفرنسة وبروسية مذكرات الى الباب العالي واتفقت معه .. وتم انذار محمد علي بالانسحاب من سورية .

بهذه الاجراءات اختطت انكلترة لنفسها ولاوروبا منهجاً يحقق استراتيجية ثابتة لضرب كل عمل وحدوي عن طريق التجويع والتدويل واساءة تفسير اجراءات التطوير والتحديث التي تتبعها الادارة العربية — اضافة الى استخدام القوة المسلحة لفصم أية وحدة بين مصر وسورية : فقد قطع الاسطول الانكليزي طريق البحر بين مصر وسورية — ربما عملاً بحرية الملاحة التي يؤمن بها الانكليز — وتم انزال قوات انكليزية احتلت بيروت وصيدا ثم عكا .. وأخيراً حوصرت السواحل المصرية فابتدأ ابراهيم باشا بسحب الجيوش المصرية من بلاد الشام .

ساقنا الى عرض هذه التجربة أننا أردنا أن نقدم لمحة عن وضع العرب في الدولة العثمانية التي لم تبدأ بتغيير نظمها القروسطية إلا بعد أن شاهدت هي والدول الأوروبية خطر النهضة العربية عليها فتعاونت السلطنة مع أوروبا لاصلاح نظمها بما يسهل للعثمانيين متابعة التحكم بالعرب . غير أن التنظيمات الجديدة أدت الى المركزية فبدأ العرب يحسون بالخطر على لغتهم ووجودهم القومي (ففي عهد بساطة الحياة الاجتماعية والسياسية كانت دواعي الاتصال والاحتكاك بين الأفراد وبين الحكام محدودة . ولذلك فان اختلاف لغة الحاكم عن لغة المحكوم ما كان يولد مشاكل كبيرة . ولكن عندما تعقدت الحياة الاجتماعية وتنوعت أجهزة الحكم، بموجب حركة التنظيمات الخيرية والاصلاحات، والسياسة المركزية والاقتباس عن الغرب ، زادت وتوسعت دواعي الاتصال والاحتكاك بين الافراد ورجال الدولة) ص ١٥١ (واعتقد معظم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بعد اسقاط عبد الحميد (١٩٠٩) أن سياسة التتريك ستصهر بقية عناصر الامبراطورية العثمانية في بوتقة تركية واحدة) ص ١٦٣ (وفي هذه الغمرة وازن احرار العرب بين الحكم التركي واستمراره ، وبين امكانية الاتفاق مع حليف أجنبي قوي يضمن لهم الحرية والاستقلال

مقابل انحيازهم الى صفه ، والثورة على الدولة العثمانية ، فرأى معظمهم أن مصلحة العرب تقتضي اضرام نار الثورة) ص ١٦٥ . وسوف تصبح هذه الموازنة علماً على سير الفكر السياسي العربي خلال القرن العشرين بأكمله، كما أن (غدر) الحلفاء بالعرب سوف يصبح علامة مميزة على سياسة كل الدول الكبرى التي دخلت الى المنطقة بالسلم أو بالحرب . وسوف ينفق القوميون جهودهم بالعمل على التخلص من أسياد اليوم وحلفاء الامس ، مما يستغرق منهم وقتاً طويلاً .

أقامت ثورة الشريف حسين بمعونة الاحزاب والجمعيات العربية أول دولة موحدة للعرب في المشرق تحت تاج الملك فيصل ، غير أن فرنسا أسقطتها بقوة السلاح وخرج فيصل من دمشق (تموز ١٩٢٠) بعد أن توصلت فرنسا وبريطانيا في مؤتمر سان ريمو (نيسان ١٩٢٠) الى تسوية حول اقتسام الاقطار العربية التي ثارت على الحكم العثماني . وبذلك ظهرت العلامة المميزة الرابعة في السياسة الدولية ، بحيث جرى العرف على وضع العرب في موقف المستضعف واجراء التسويات الدولية كلها على حسابهم ، كما حدث في تسوية حدود تركيا مع سوريا حين سلخ لواء الاسكندرون (١٩٣٩) . وقد استشهد المؤلف بقول فيكتور برارد :

« عندما وصلنا الى سورية (١٩٢١) وجدنا أن الفكرة العربية راسخة في كل مكان ومتجسمة في شخص فيصل . وفيصل مضى من سورية ، ولكن الفكرة بقيت فيها حية في نفوس الافراد ، وفي منازل الاسر ، تهيمن على المحادثات والمناقشات السرية بين الناس» .

كان الملك فيصل على علم بمشاعر العرب الوحدوية ، وكان يستخدمها وسيلة للضغط على بريطانيا من جهة ولاثارة مطامعها في سورية من جهة اخرى . غير أنه توفي وترك البلاد بين يدي ابنه غازي الذي استقبل انقلاب الجنرال بكر صدقي بالترحاب (١٩٣٦) وألف وزارة عقدت ميثاق سعد آباد مع كل من ايران وافغانستان وتركيا على الرغم من أن معركة هذه الاخيرة مع سورية من اجل سلخ لواء اسكندرون كانت في تصعيد مستمر وكان ذلك اول انحراف في سياسة العراق عن الخط القومي . في مطلع عام ١٩٤٠ شكل رشيد عالي الكيلاني وزارة دعمها التنظيم القومي للضباط الاحرار بزعامة العقداء (صلاح الدين صباغ ، فهمي سعيد ، محمود سلمان ، كامل شبيب) فجلبت الحكومة البريطانية قواتها واشتبكت القوى العراقية الآلية حول الحبانية مع القوى الانكليزية وهنا أبرقت الخارجية العراقية الى وزيرها المفوض في انقرة كي يتصل بالسفارة الالمانية ، ويبلغها قرار

العراق بإعادة العلاقات السياسية مع المانية ورغبته الشديدة في معونتها .. غير أن ألمانيا كانت منهمكة في تعزيز مواقعها في اليونان ومالطــة ، وفي التحشيدات اللازمة لغزو روسية : ويعلق المؤلف :

[هل من دليل أوضح من هذا على أن الوزارة العراقية لم تكن على أية صلة بالالمان ودعاتهم كما كان يزعم الانكليز ؟..

إن دعوى اتصال الكيلاني وأعوانه بالمحور قبل نشوب الثورة العراقيــة على البريطانيين في (٢ أيار ١٩٤١) هي دعوى باطلة لا تقوم على أساس ، وانما كانت ذريعة لتسويغ ما يخبئه البريطانيون للعراق] ص ٣٧١ .

ومنذ ذلك الحين صار من الحجج الثابتــة للغرب أن يدمغ كل حركة ذاتيــة استقلالية للعرب بدمغة التعامل مع أعداء (العالم الحر) : مع دول المحور سابقاً ومع المعسكر الاشتراكي بعد ذلك .

وفي نفس اليوم الذي كانت فيه ثورة العراق تلفظ أنفاسها (٢٩ أيار ١٩٤١) أدلى المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية بتصريح قال فيه « انه من الطبيعي ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية ، وكذلك الروابط السياسية أيضاً ، » ص ٣٨١ .

فرد نوري السعيد على التصريح باصدار (الكتاب الأزرق) الذي يقترح فيه أن تتوحد سورية ولبنان وشرقي الاردن من جديد وأن تنشأ جامعة عربية تنضم اليهـا العراق وسورية مباشرة ، ويكن أن تنضم اليها الدول العربية الأخرى متى شاءت على أن يمنح اليهود في فلسطين والموارنة في لبنان نوعاً من الادارة المحلية .

وفي ٢٤ شباط ١٩٤٣ صدر لايدن تصريح ثان بخصوص « عطف » بريطانية على أماني العرب في الاتحاد ـ وقد استجاب أمير الاردن عبد الله بن حسين لهـــذه البادرة بمشروع « سورية الكبرى » الذي نشر كاملاً في (الكتاب الابيض) الاردني .

ومع أن المبادرة البريطانية كان يراد بها استخلاص سورية ولبنان من النفوذ الفرنسي أكثر مما يراد بها الصالح العربي فإن فرنسا كان يهمها أن تحارب الوحدة العربية أكثر مما يهمها أن تستبقي على نفوذها . والمؤلف يورد برقية أرسلهــا الجنرال كاترو إلى ديغول بتاريخ ٨ آذار ١٩٤٣ يوضح فيها أسلوبه بجر سورية ولبنان إلى معاهدة مــع فرنسة

وطريقته لابعادهما عن أي اتحاد عربي . وسوف أورد هذه الرسالة بنصها الكامل لاهميتها في بلورة الفكر الانفصالي وايضاح مرتكزاته :

[يمكن أن نتوسل لعقد المعاهدة مع لبنان باستخدام المشاعر العاطفية التي تربط البنانيين الى فرنسة، وباستخدام غريزة الدفاع اللبناني ازاء مشاريع الابتلاع العربية. ان النزعة البنانيـة – Libanisme – لها حالياً أنصار كثيرون حتى في صفوف المسلمين ، وكذلك القول بتوافق المصالح الفرنسية – اللبنانيـة له مؤيدون يؤمنون بأنه ليس كمثل فرنسة دولة تضمن سلامة لبنان – صنيعتها ..

[أما في سورية فمن الطبيعي أن أؤيد الرأي القائل بأن تعضيد فرنسة ضروري من أجل الحفاظ على سلامة الاراضي السورية ضد تهديد الصهيونيين والاتراك .

[ولكي أضمن حياد التيار المعارض الذي يدفع بالسوريين نحو البريطانيين على أساس مشروع التجمع العربي ، فانني سوف لا أظهر نفسي عدواً لهذا المشروع ، فبينما اوافق عليه وأرى وجوب تدعيم اواصر اللغة والثقافة والاقتصاد التي توحد البلاد العربيـة ، فسوف اشير الى انه في مثل هذا النظام (نظام الاتحاد العربي) يجب أن تلعب سورية دور الموجه القائد ، وذلك لاسباب جغرافية وتاريخية وفكرية ، مع التنبيه الى ان دمشق يجب ان تكون مركز هذا النظام . ولاجل تأكيد هذا التفوق « السوري » تجاه البلدان العربية الموالية لبريطانيا ، سأعلن ان سورية بحاجة الى مساندة فرنسا ...

[وأخيراً سأقول إن جوهر الارتباط بفرنسة وفق معاهـدة لن يكون عقبة في وجه مشروع التجمع العربي ، لان هذا النظـام الاتحادي ينبغي أن يحترم بالضرورة استقلال الدول المشاركة فيه ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان فرنسة وبريطانية العظمى سوف تتشاوران بخصوص سياساتها في الشرق الادنى . كما تتشاوران بخصوص غيرها]، ص ٤١٥ .

هذا النص من أخطر النصوص في شرح « تكتيك » الفكر الانفصالي بغية تثبيت الستراتيجية المعادية للعروبـة . وإن من يمعن النظر في الافكار الواردة فيه ليكتشف أن أعداء الوحدة العربية في الداخل والخارج قد استخدموا أفكاره وعملوا بها طيلة العشرين عاماً الماضية ، على صعيدي الممارسة والاعلام ، كل فئة بحسب ترتيب ظهورها على مسرح مقاومة تحقيق الوحدة العربية وتأجيل انجازها .

١ – هدف الخطة ابقاء الارتباط بين سورية ولبنان وفرنسة قائماً .

٢ – القوى الاستعمارية لاتعلن عداءها للوحدة بل تصرح بما يؤيد جانباً منها .
٣ – اثارة الحساسية الاقليمية في لبنان ضد (مشاريع الابتلاع العربية) .
٤ – تهديد سورية بعصا الصهيونية والتوسع التركي .
٥ – ايجاد نزعة اقليمية في سورية ترتكز على فكرتين :
آ – تفوق سورية على غيرها من الدول العربية (بماذا ؟)
ب – قيادة سورية للاتحاد وعدم قبولها بقيادة غيرها .

ان طرح شعار قيادة سورية للاتحاد العربي بحجة تفوقها – فضلاً عن أنه يخدم النزعة الاقليمية بواجهة وحدوية – ليطعن في الصميم أية نظرية في الوحدة أو ممارسة لها . انه تشويه للعملية الوحدوية يكاد يصل الى مرتبة الطعن في الوجود العربي ذاته ، فاذا كانت هناك أمة عربية واحدة فلا مجال لأي قطر أن يدعي بالزعامة أو بالتقدم على غيره ، لأن ذلك سوف يكون بحسب تجربته وربما مصلحته ، وهذا مايوقعنا مرة أخرى في الأقليمية . ان الزعامة العربية الحقة ليست زعامة اقليم لأقاليم بـل زعامة مناضلين يأخذون على عاتقهم وضع تكتيك نضالي يهدف الى تحقيق استراتيجية الوحدة، عن طريق فهم المشكلات القطرية ووضع ظروف كل قطر في مكانها المناسب دون تضخيمها بحيث تظهر بمظهر المعوق للوحـدة أو بمظهر سمة حضارية أو عرقية خالدة أبدة ...

لقد لعب الاستعمار ورقة الزعامة القطرية لدولة الوحدة أمـداً طويلاً ، فأوجد التنافس بين العراق ومصر منذ أن اعتلى الملك فيصل عرش العراق ، وجعلت بريطانيا من مشروع الهلال الخصيب أو سورية الكبرى حجة لإخافة مصر وملكها وساستها من أن يؤدي تحقيق المشروع الى عزلها عن المشرق العربي ، وتفاقم ذلك الخوف بعد دخول العراق في حلف بغداد ومحاولته لجر سورية اليه ... ولم تتورع أية دولة كبرى دخلت الى الشرق العربي من أن تكرس اللعبة ذاتها لتحافظ على الفراغ في الشرق الأوسط حماية لمصالحها وللتوازن الدولي .. ولمصالح الحركة الصهيونية أيضاً ، اذ يجب ألا يغيب عن بالنا أن بريطانيا بالرغم من تبنيها لمشروعي الهلال الخصيب وسورية الكبرى فانهـا لم تكن راغبة تمام الرغبة في تحقيقه لكي لاتغضب الحركة الصهيونية وتخل بمضمون وعد بلفور في التمكين لليهود من انشاء وطن قومي لهم في فلسطين – ذلك أن تنفيذ أي من المشروعين ، أو تنفيذهما كليهما يؤدي الى وضع العراق على حدود فلسطين ، والى ملء الفجوات القائمة بين سوريا وكل من لبنان والأردن (ص ٤١٦) ، ان عدم رغبـة

بريطانيا في تحقيق أي من المشروعين على الصعيد العملي ليبدو واضحاً أشد الوضوح في اصرارها على أنها لاتؤيد أية خطة اتحادية الا اذا وجدت أنها « تلقى موافقة عامة كما جاء في تصريح ايدن الأول في أيار ١٩٤١ ، وكما ورد في تصريحه الثاني في ١٩٤٣/٢/٢٤ حين قال :

« إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية ، ولكن من الجلي أن الخطوة الأولى لتحقيق أي مشروع ، يجب أن تأتي من العرب أنفسهم ، والذي أعرفه أنه لم يوضع حتى الآن مثل هذا المشروع الذي ينال استحساناً عاماً » ص ٤١١ .

ذلك أن بريطانيا التي استمرت بين الحربين العالميتين بكل رغبات العرب ومبادراتهم ، كانت تعرف أن الأوضاع التي خلقتها أوجدت لكل قطر ظروفاً سياسية يصعب أن تنال « استحساناً عاماً » من الشعوب أو من القيادات . ومن هنا فان هذا الشرط المستحيل بوجود استعمارها انما يعني تلكؤاً من قبلها في تحقيق اي مشروع لصالح الوحدة العربية قد يكمل الغرب من التصدي للغزاة الصهاينة . ذلك أن التوحيد بعد هزيمة الأتراك كان مسألة سهلة بل ومطلباً منشوداً . أما التوحيد في ظل بريطانيا وبوجود فرنسا فيشي وفرنسا ديغول وعصابات الحركة الصهيونية المسلحة في فلسطين فمن المشكوك أن يلاقي « استحساناً عاماً » خاصة وأن الشعوب العربية كانت موضوعة تحت قيادات من أمثال الوصي عبد الإله والأمير عبد الله وهما لا يلقيان « استحساناً عاماً » من هذه الشعوب .

خلاصة القول ان القوى الاستعمارية والدول الكبرى التي تسلطت على العرب حاولت ، كل بدورها ، أن ترسخ الكيانات وتمكن للفراغ في الشرق الأوسط لئلا تنبثق منه قوة عربية تحفظ لسكانه وجودهم ومصالحهم ، ولم تخرج الدول الكبرى في تآمرها على منع تحقيق الوحدة عن واحدة من النظريات التي اوردناها وأوردنا المثال عليها ، غير أن من المؤسف أن الدول الكبرى قد تعمد الى تكرار العابها ومما يزيد في الأسف أن نجد لدى بعض الدول العربية استعداداً للانسياق وراء هذه الألعاب ، بعد تقنيعها بقناع فكري يزيد الحدود بين الدول العربية تصلباً ويعطي لاسرائيل مزيداً من الوقت لتحصل على ما تصبو اليه من قوة ذاتيه .

جورج الراسي

عرض للعدد الخاص الذي أصدرته مجلة « الثقافة العربية ٧١ » حول الوحدة والثورة العربية

الوحدة والثورة العربية

قبل التطرق الى عرض وتلخيص مواد العدد الخاص الذي اصدرته مجلة « الثقافة العربية » حول موضوع « الوحدة والثورة العربية » في تشرين الثاني – (نوفمبر) من عام ١٩٧١ ، لابد من قول كلمة ضرورية حول اسباب صدور هذا العدد وكيفية صدوره . فقد جاء في الاساس كتعبير عن رغبة مجموعة من الشباب العربي التقدمي في اعادة اكتشاف الواقع العربي من جديد ، ومن جميع جوانبه ، باسلوب البحث العلمي الملتزم ، وبعيداً عن أية افكار او مواقف مسبقة . خاصة وان التجارب التي تعرض لها الجيل

الشاب على امتداد الارض العربية قدزعزعت ثقته بنفسه اولا ، وبامور كثيرة من حوله ثانياً . لذلك تنادت هذه المجموعةالىضرورة المباشرة بعمل ثقافي يشمل نشاطات كثيرة متنوعة ، كان من جملتها اصدار المجلة التي لم يصدر منها حتى الآن سوى ثلاثة اعداد خاصة هي : عدد عن اول ملتقى الشعر الحديث اقيم في بيروت ، وعددحولموضوع الحركة الطلابيــة والثورة ، والعدد الثالث والأخير هو الذي بين ايدينا .

تبقى اشارة اخيرة الى أن هؤلاءالشباب هم الذين يقومون بتمويل نشاطاتهم بالتبرع بجزء من رواتبهم ، وبملاحقتها ، وبتحمل كافة مسؤولياتها . (عدد الوحدة مثلاتطلب منا عملا متواصلا طيلة ستة اشهر ، قضينا معظمها في المطبعة وفي عز الصيف ، وقمنا نحن بتوزيعه على المكتبات بالاضافة الى تحمل كافة نفقاته !..) . فلم يكن هدفنا مجرد اصدار مجلة ، بل كان الاضافة على أي موضوع نطرحه للمعالجة ، وايصاله الى اكبر عدد من الناس،وتحريك الجو الفكريالعربي، بممارسات نضالية جديدة .

لن اطيل اكثر من ذلك في ايضاحاسباب وكيفية صدور هذا العدد ، ولكنها كانت اشارات ضرورية لكي نضع انفسنا تماماً في جو هذا العمل، ولنتبين الدوافع وراءه .

* * *

الوحدة في التنوع

المنهج الذي اتبعناه في وضع العدد يمكن ان نطلق عليه اسم « الوحدة في التنوع » . والمقصود بالوحدة هنا وحدة الموضوع من خلال آراء كثيرة متضاربة تصل في بعض الاحيان الى حدود التناقض . ونحن آثرنا ان نبقي هذه الآراء على حالها ، حتى تكون مهمة القارىء ان يستخلص منها ما يراه اقرب الى الصواب . فنحن ضد ايصال الافكار معلبة جاهزة ، ومع ضرورة فتح الحوار بين كافة اطراف العمل الوطني مهما بلغت حرارة هذا الحوار وحدته .

وحتى تسهل علينا مراجعة العدد فسوف اقسمه الى ستة اقسام رئيسية اطلق عليها العناوين التالية : ١ — المناقشات . ٢ — الابحاث . ٣ — اسرائيل والوحدة . ٤ — رسائلوحدوية ، ٥ — شهادةالدكتور جمال الاتاسي . ٦ — (البيان) الوحدوي .

وسوف أمر على هذه الاقسام مروراً سريعاً مع الاشارة الى النقاط الأساسية في كل قسم منها .

١ — المناقشات : الديموقراطية والطريق الى الوحدة :

اشتملت مناقشات العدد على ندوة أساسية ضمت ممثلين عن مختلف التيارات التقدمية الفاعلة في الوطن العربي : التيــار

القومي (البعثي والناصري) ، والتيار الشيوعي ، وتيار الكفاح المسلح الذي تمثله حركة المقاومة الفلسطينية . وقد شارك فيها كل من خليل نعوس وياسين الحافظ ونبيل شعث ومنح الصلح وعصام نعمان . وقد تركز النقاش فيها على ثلاثة محاور اساسية هي :

١ ـ قضية الوحدة بين الاتجاه القومي والاتجاه الشيوعي .

٢ ـ دور النواحي الشعورية والمصالح المشتركة في صنع الوحدة .

٣ ـ الوحدة العربية من خلال الكفاح الفلسطيني المسلح .

ورغم أن بعض المشاركين في الحوار تتحكم فيهم حساسيات معينة الا أنه أمكن الخروج ببضعة نتائج ايجابية . النتيجة الأولى هي أن المسافة تضيق باستمرار بين الاتجاه القومي والاتجاه الشيوعي على امتداد الأرض العربية (وفي المشرق بشكل خاص). وذلك ناتج عن كون القوميين يأخذون اكثر فأكثر بمبادىء النظام الاشتراكي ويضعونها في اطار قومي ، في حين أن الشيوعيين وخصوصاً الجيل الشاب بينهم ، بدأوا يقتنعون بأهمية النضال الوحدوي ، ويضعون قضية فلسطين في رأس الأهداف التي يناضلون من أجلها .

أما بالنسبة لدور النواحي الشعورية والمصالح المشتركة في صنع الوحدة فقد اظهر النقاش حقيقتين أساسيتين هما : أولا أن الوحدة ليست فقط مجرد استعادة لخصائص مشتركة ، وثانياً ان الوحدة لاترتكز فقط على المصالح المشتركة . فهي تتغذى بالتراث الحضاري العربي الذي يعطي للعرب جميعاً شعوراً بالانتماء الى كيان واحد ، وتعتمد على المصالح المشتركة لدول تحكم علاقاتها ظروفها أن تتكامل فيما بينها في عصر التكتلات الضخمة . أضف الى ذلك ان لاسبيل اليوم لبناء اشتراكيات قطرية في العالم العربي وفي العالم الثالث عموماً ، لأن القاعدة الأساسية في الاشتراكية هي الصناعة الثقيلة ولا سبيل الى انشاء هذه الصناعة ضمن سوق قطرية محدودة . ففي طريق الوحدة يستعيد الانسان العربي ذاته على المستوى الشعوري ويبني دولته على المستوى القومي والاقتصادي ، ويتفاعل مع المستقبل على المستوى الحضاري .

أما بالنسبة للكفاح المسلح الفلسطيني ، فقد جرى التشديد على ضرورة تجنب تجزئة الثورة العربية ، فليس هنالك عدة ثورات عربية . بل هنالك ثورة عربية واحدة طليعتها الكفاح المسلح الفلسطيني الذي يتوجه الى الجرح الأعمق في فلسطين .

أما النقطة التي تعثرت عندها الندوة فكانت : الجماهير ! من هي الجماهير ؟ اين

تقف الجماهير ؟ من يعبىء الجماهير ؟الجماهير وحدوية بطبيعتها ، ولكن كيف السبيل الى جعل نضالها يحقق الوحدة ؟ كيف ندخل بالجماهير الى ساحة المعركة ، أو بالاحرى كيف نتيح للجماهير ان تمارس حريتها ووحدويتها عبر تنظيماتها الشعبية ؟

وهذا الموضوع يقودنا الى طرح السؤال الاساسي والمستعصي في نضالنا العربي الراهن وهو ، الوحدة العربية والديموقراطية ، أين هي الديموقراطية ؟ واذا تحققت فماذا يحول بين الجماهير العريضة المؤمنة بالوحدة ، وبين تحقيق هدف الاجيال العربية ؟ انه لسؤال معقد وبسيط في آن واحد ، ولكنه مطروح بالحاح أمام كل المناضلين العرب.

هذه هي بايجاز المواضيع التي طرحتها الندوة .

وكان بين المناقشات الأخرى مقابلة مع المفكر المصري ميشيل كامل مدير تحرير مجلة « الطليعة » القاهرية ، تحدث فيها عن « البورجوازية الصغيرة ومصر والوحدة »، ورسم فيها صورة التطورات الطبقية التي رافقت ثورة ٢٣ يوليو في مصر ،وارتباط هذه التطورات بدعوة الوحدة العربية . كما أشار الى نقطة أساسية في سياق تحليله للوضع الاجتماعي العربي وهي « ان اهم ماساعد على سيادة فكر البورجوازية الصغيرة هو تخلف النمو الرأسمالي وعدم سيره في مساره الطبيعي التقليدي ، وهذه ناحية تحتاج الى المزيد من التعمق والمراجعة .

وفي مقالة اخرى للاستاذ الياس مرقص حول « الوحدة والماركسية الغالبة في الوطن العربي » انتقد الاستاذ مرقص الموقف «الاقتصادي» المتشنج الذي كانت تقفه بعض فئات اليسار الشيوعي بقوله ،

« لو كانت امور الوحدة القومية تسير بموجب السببية الاقتصادية الاحدية والمجزوءة والمجردة لكان ينبغي ان تسبق ايطاليا فرنسا وانكلترا في مضمار الوحدة ، ولكان ينبغي ان تتأخر وحدة الامة الروسية الى ما بعد الوحدة الالمانية بكثير » . ومن ناحية اخرى اشار مرقص الى تعمق التجزئة العربية من خلال انعدام التبادل الاقتصادي بين الكثير من الاقطار العربية (التجارة بين المغرب والمشرق معدومة ، التجارة بين دول المغرب الثلاث شبه معدومة ، تجارة مصر مع الدول العربية تؤلف ٧ ٪ من تجارتها العالمية، وتجارة العراق تؤلف ٤ ٪ فقط بوجه الاجمال الخ ..) . وركز مرقص على ان الوحدة القومية كانت جزءاً من عملية الثورة البورجوازية (والتطور البورجوازي) في تاريخ اوروبا ، لكن الوحدة القومية العربية جزء من عملية الثورة الاشتراكية العربية . فالوحدة العربية ستكون جزءاً من الثورة الاشتراكية العربية او لن تكون . ولكن

الثورة الاشتراكية العربية لن تكون (ولن تكون الثورة الاشتراكية) بدون الوحدة العربيــة .

وفي مقالة تالية طرح الاستاذ ياسين الحافظ بعض الاطروحات التي تمحورت حول ان حجر الزاوية في استراتيجيــة القوى الامبريالية في الوطن العربي قائم على استمرار التجزئة ومنع الوحدة . ويخرج من تحليله ليقول بان الوحدة لايمكن ان تقوم اوتنطلق من أسس رأسمالية ، ومعادية للاشتراكية ، وان طريق الرأسمالية الوطنية لايقود الى الوحدة بل الى عكسها ، أي الى حماية وتعزيز التجزئة في اطار الاوضاع الامبريالية العالمية . ويلخص اطراف النضال العربي بأنها : الاستقلال والديموقراطية (السياسة : والثورة الزراعية) والتأميم والوحدة والاشتراكيــة . ولكن لااستقلال كامل بدون وحدة وبدون اشتراكية . ولااشتراكيــة بدون وحدة . ولاوحدة بدون نضال دائم ضد الامبريالية . ولاقطع نهائي لروابط الامبريالية بــدون وحدة .

وقد تضمنت المناقشات كذلك ردأوضعه المفكر المصري لطف الله سليمان على كتاب صدر مؤخراً في باريس ، وترجم الى العربية في بيروت ، وهو يحمل عنوان « صراع الطبقات في مصر » للــدعو محمود حسين (اسمه الحقيقي هو ادي ماير) ، وفيــه يفضح لطف الله المغزى الحقيقي لثورة ٢٣ يوليو في مصر ، وكونها جاءت بعــد فشل الفئات الحاكمة في حل المشاكل التي كانت مطروحه ، وكونها تجاوزت في انجازاتهــا اقصى ما كان يحلم به اليسار المصري الشيوعي نفسه . ويحلل اسباب انتكاسة وحدة ٥٨ ، ويردها الى عدم الأخذ بعين الاعتبار لعملية النمو المتوازية لحركات التحرر في البــلاد العربية المختلفة . وفي مقــالة اخرى تحت عنوان « الوحدات الاقليمية خطوات نحو الوحدة العربية ام عقبات في سبيلها ؟ » جرى فضح الخلفية الحقيقية « للوحدات الاقليمية » التي استنبطها الاستعمار لتخدم التجزئة اكثر بكثير ماتخدم أمنية الوحدة (وحدة الهلال الخصيب ، سوريا الكبرى ، الجزيرة العربية ، المغرب العربي الخ . .) ، وقد جرى التركيز في هذا المقال على الحزب القومي الســوري كمثال بارز على هذه العقلية (وتجدر الاشارة الى ان مجلة الحزب في بيروت « البناء » قد ردت على هذه المقالة بــلسلة من المقالات تصل الواحدة منها الى عــدة صفحات من صحف الجرائد ، وطيلة اسابيــع متتالية !!)

٢ — الابحاث ، فكرية وتاريخية واقتصادية

يمكن ردها الى ثلاثة انواع ، الاول تركز على مواضيــع فكرية عامــة ، ضم دراسة للاستاذ الطون مقدسي بعنوان : « من

الامة الى الدولة » . وهي جزء من كتاب ضخم اصدره المكتب الثقافي لحزب البعث في دمشق ، وحمل اسم « الماركسية ، عرض وتحليل » .

وقد ركز الاستاذ مقدسي في دراسته على استنباط معنى القومية بالنسبة لدول العالم الثالث ، ومعنى الامة بالنسبة الينا نحن العرب ، فالنظرية القومية التي تدرس في بلادنا وفي بلدان العالم الثالث على انها نظرية علمية ، والتي تقوم على ارجاع الامة الى مجموعة (عوامل) ، ماهي سوى تعبير عن (واقع غربي) يدرس المسألة القومية في سطحها ، لا في أعماقها ، ولذا فهي بالنتيجة وعلى الصعيد العملي — شئنا أم أبينا — (خدعة استعمارية) . اما انور عبد الملك فقد كانت مقالته مأخوذة من مقدمة كتابه الاخير الذي صدر في باريس بعنوان « الفكر السياسي العربي المعاصر » وفيها يؤكد على المضمون الثوري والتقدمي للوحدة العربية باعتبارها مرحلة استعادة الهوية وقهر الاستعمار .

وفي محاولة مقتضبة للاستاذ صابر ابو نضال (مؤلف كتاب « معركة حزيران ») حاول طرح مسألة الاقليات ضمن حركة تكون الامة العربية طرحاً اولياً ، يحتاج الى الكثير من التعمق لوعي أوضاع الاقليات داخل الوطن العربي ، والاقليات العربية في الخارج ، وربطها بسير الثورة العربية .

اما الزميل محمود حداد فقد تحدث عن « دور مصر في معركة الوحدة والتحرير » مشيراً الى انه لاعروبة كاملة بدون مصر ، ولا استقلال لمصر بدون قيامها بمسؤولياتها العربية القومية .

القسم الثاني من الابحاث كان ذا صبغة تاريخية ، وتضمن عرضاً مسهباً اعده الزميل ماجد نعمة لكتاب قيم جداً صادر مؤخراً في بلجيكا تحت عنوان « اوروبا ومصائر الشرق الادنى » لكاتب سوري هو الأب جوزف حجار الذي امضى سنوات عديدة في اوروبا يؤرخ فيها لتاريخ المنطقة ، ويكشف جوانب بالغة الأهمية ، تهدف الى اعادة كتابة التاريخ الحقيقي لأمتنا ، وأهم ماجاء في هذا الكتاب حديثه عن اول تجربة وحدوية للعرب في عصرهم الحديث ، وهي تجربة محمد علي ، حيث سيدهشنا مدى تشابه أوضاعنا اليوم باوضاعنا في الأمس . فمن كان محمد علي هذا ؟ وماذا فعل في مصر وفي سوريا وباقي اجزاء المنطقة حتى أثار غضب اوروبا وخوف السلطان ؟

وماهو سبب اجتماع اوروبا المسيحية مع خليفة المسلمين العثماني هو محمد علي والي مصر الثائر ومحور الحركة العربية الطالعة؟ واخيراً لماذا عارضت أوروبا الوجود المصري في سوريا وحاربت الاجراءات الاصلاحية في

المجال الاقتصادي والسياسي والتشريعي والثقافي والصناعي التي قام بها هذا المصلح الكبير ؟ ففي الاجابة على هذه التساؤلات سنرى بمنتهى الوضوح حقيقة دور وأهداف الاستعمار في منطقتنا ، ومدى أهمية بقائنا مجزئين ومتخلفين بالنسبة اليه .

القسم الثالث من الابحاث كان ذا طابع اقتصادي وتضمن دراستين اساسيتين . الاولى للزميل سليم نصر حيث أعد ملفا احصائيا شاملا حول أهم مؤشرات البنيان الاقتصادي – الاجتماعي العربي (لعله اكمل ماظهر حتى الآن) ، وتناول الملف سبعة اجزاء تدور حول :

١ – الاوضاع السكانية .

٢ – البنيان الاقتصادي العام .

٣ – تعداد وتوزيع وتأهيل قوةالعمل البشرية .

٤ – القطاع الزراعي والمسألة الريفية .

٥ – قطاع المعادن والمناجم والنفط ومستوى التصنيع .

٦ – المبادلات التجارية حجمها ومضمونها وتوزيعها الجغرافي .

٧ – الاستثمارات والمساعدات الاجنبية وارباح الاحتكارات النفطية والأموال العربية في الخارج .

وابرز ما في هذا الملف انه يشكل مسحاً كاملا للطاقة الاقتصادية العربية في كافة اقطار العالم العربي ، وهو غني بالنتائج والعبر الى اقصى الحدود ، بحيث يستحيل تلخيصه الا بكلمة واحدة هي كونه صورة ناطقة بالارقام لما يعنيه التخلف ،ولما تعنيه التجزئة ، ولمايعنيه استغلال وهدر الطاقات العربية . وهذا الملف بحد ذاته يمكن ان يكون منطلقاً لدراسات اوسع وأعمق . فهو يكتفي بطرح الاوضاع كما هي ، وينقصه تحليل النتائج بشكل وافي ، وهذا يتطلب دون شك جهداً ضخماً ولكنه ضروري .

اما الدراسة الاقتصادية الثانية فقدكانت للخبير البترولي العربي الدكتور نقولا سركيس حول « النفط العربي ومعركة التحرر والوحدة » وهي تتضمن ثلاثة اجزاء،الجزء الاول تناول دور البترول في موقف الدول الكبرى من النزاع العربي – الاسرائيلي ، والجزء الثاني تناول الخطر الصهيوني على البترول العربي من خلال تغلغل الرأسمال الصهيوني في شركات البترول الغربية وكيفية افلات اسرائيل من شبكة المقاطعة العربية، اما الجزء الثالث فقد طرح الافادة من البترول لتنمية الاقتصاد العربي من خلال طبيعة علاقاتنا مع الشركات ومع الدول المستهلكة ، وسبل التعاون البترولي العربي. ولاشك بأن هذه المسائل تكتسب اهمية خاصة بعد اجراءات تأميم البترول الاخيرة في كل من العراق وسوريا .

٣ - اسرائيل والوحدة : طرح اولي

هذا الموضوع اكتفينا بطرحه طرحاً أولياً . فمن الملفت للنظر ان لاتكون هناك في المكتبة العربية دراسة واحدة حول هذا الموضوع الحيوي والاساسي . ففي اسرائيل ذاتها يصدر كل فترة كتاب يعالج مسألة الوحدة العربية من وجهة النظر الصهيونية . (كان آخر واحد ليبغال آلون) . وقد اشتملت محاولتنا الأولية على مقالة للدكتور أنيس صايغ حول سؤال : كيف اثر انشاء دولة اسرائيل على تطور مضمون القومية العربية؟ فابرز الدكتور صايغ تطور الحركة التحررية العربية اثر هزيمة ١٩٤٨ ، وخروجها عن وصاية الرجعية ، وعلنيتها ، واعطائها مضموناً نضالياً ثورياً . كما تحدث الاستاذ حبيب قهوجي (مؤسس حركة الارض في الارض المحتلة) عن الصهيونية وعرب اسرائيل والوحدة ، مشيراً الى كيفية محاربة اسرائيل للوحدة بالبرامج المدرسية ، ومدى تمسك عرب الارض المحتلة بقوميتهم العربية . هذا التمسك الذي تتيح له بعض الظروف ان يظهر على حقيقته (يوم وفاة عبد الناصر مثلاً) . وكتب اسعد عبد الرحمن (الذي مر في سجون العدو) عن التحدي الصهيوني وقضية الوحدة ، كما كتب ابو هلام (وهو مسؤول عسكري في حركة المقاومة) عن اسرائيل ووحدة الجيوش العربية ، حيث أوضح مفهوماً خاطئاً وشائعاً حول نظرية «الكماشة العربية على عنق اسرائيل» ، مشيراً الى أهمية القتال أولاً ، والى أهمية العمق العربي في أي صراع شامل مع العدو ، وطبيعته الاستراتيجية الهجومية الصهيونية التي تتركز على ضرورة نقل القتال دائماً خارج الاراضي المحتلة .

واشتمل هذا القسم كذلك على مقالتين سريعتين للدكتور يوسف شبل حول وحدة الاقتصاد العربي وخطره على اسرائيل في السلم والحرب ، وللاستاذ صبري جريس حول مفهوم الوحدة بالنسبة للكيان الصهيوني ، ومفهومها بالنسبة للعرب . كما طرح عبد الحفيظ محارب مشروع دراسة حول نظرة اسرائيل الى المجتمع العربي من حيث تقسيمها له الى فئات وطوائف لاتنتهي ، (وهؤلاء الكتاب جميعاً هم من الباحثين في مركز الابحاث الفلسطيني في بيروت) .

٤ - رسائل وحدوية من المغرب الى البحرين :

هذه الرسائل القادمة من مختلف الأقطار العربية من المغرب حتى البحرين ، كانت تهدف الى اعطاء صورة ملموسة حول نظرة الشباب العربي في مختلف أقطاره الى قضية الوحدة ، والدور الذي تلعبه فلسطين كمحور يجمع العرب وكمحط لانظارهم ولتوجههم الذهني والعملي . كما كانت تهدف الى تعريف العرب في مختلف أقطارهم بالأوضاع في

الاقطار العربية الاخرى . فلا يزال هنالك نقص كبير في هذا المجال . او ليس عيباً أن لا تتاح لعرب المشرق والمغرب فرصة اللقاء سوى على الارض الاوروبية مثــلاً حيث يتلقون دراساتهم العليا ؟

وقد ضم هذا القسم مقالة للدكتور عبد الكريم احمد من مجلس تحرير مجلة « الكاتب » المصرية ، ومدير تخطيط التعليم العــالي في مصر ، بعنوان «المثقفون والمسيرة العربية»، أوضح فيها مخاطر التبعية الحضارية للغرب ، وضرورة الالتحام بين المثقف وشعبه .

٥ – شهادة الدكتور جمال الاتاسي

الدكتور جمــال الاتاسي كان رئيساً لتحرير عددنا عن الوحــدة . فقد اعتمدنا بدعة – اذا شئتم – تقضي بأن نختار لكل عددخاص رئيس تحريرزائر، حسب الموضوع الذي نعالجه، وحسب علاقة الشخص المقترح بهذا الموضوع . وكما تعلمون فعلاقة الدكتور جمال وثيقة بموضوع الوحدة . لذلك جاءت المقابلة المطولة معه شهادة كاملة وصادقــة حول مرحلة هامة ومعاصرة من مراحــل نضالنا القومي . وقــد قيم فيها التجارب الوحدوية السابقــة والتيارات القومية التي شهدتها الساحة العربية في تاريخها المعاصر ، كما وضع اشارات اولى لدراسة حقيقــة العلاقات بين حزب البعث وجمال عبدالناصر في مختلف مراحــل نضالها . وهذه دراسة ضرورية كدليل لنضالنا اليومي ، لان هاتين الظاهرتين كانتامحور استقطاب آمال الجماهير العربية طيلة العشرين سنة الماضية . ويخلص الدكتور جمال من تحليله لهــذه المرحلة بنتيجة تقول بأن توحيد التيار الثوري العربي ووضعه على طريق المواجهة يشكل المسألة الاساسية المطروحة اليوم في ظروف المعركة وفي ظرف بناء اتحاد الجمهوريات العربية . (والجبهة الوطنية في سوريا خير دليل على أهمية هذا الهدف) .

٦ – (البيان) الوحدوي

هذا (البيان) الذي وضعه كاتب هــذه السطور انما جاء كخط بياني خرجت به مع زملائي عبر استعراضنا لكافة الآراء والمواقف المطروحــة آنفاً . وهو يشتمل على عشر موضوعات أساسية تهدف الى وضع المرحلة الراهنة من وجودنا ومن نضالنا في مكانها الصحيح ، وضمن رؤية شاملة وواضحة .

فالموضوعة الأولى «حضارة احاديةالبعد» انطلقت من كون التقنية هي البعد الأساسي للحضارة المعاصرة . وجاءت الموضوعــة الثانية « القطيعة » لتحدد مظاهر انقطاع العربي عن تراثه وعن عصره وعن واقعه . اما الموضوعة الثالثة «الاستعادة» فهي تشير الى مرحلتين لاستعادة الذات .

المرحلة الاولى تعيد صياغة التراث بلغة العصر ، في حين ان المرحــلة الثانية تقول

بالثورة على اعتبارها أسرع وأفضل سبل الاستعادة . الموضوعة الرابعة تناولت أهمية اللغة كعامل وحدوي اساسي . فنادراً ما يتحد التراث والتاريخ مع القومية في ظل لغة واحدة ، كما هو الحال مع الأمة العربية. الموضوعة الخامسة ركزت على أهمية «التاريخ او الاستمرار في الزمان » وضرورة دراسة تاريخنا دراسة حقيقية وعلمية وشاملة وضرورة تمثله في حاضرنا. وطرحت الموضوعة السادسة مسألة شائكة ربما كانت محور العديد من مشاكلنا ومشاكل العالم المتخلف وهي مسألة « الدولة او الاستمرار في المكان » . فكيف نخرج من دائرة القبيلة التي يسيرها الولاء الشخصي والرعوي الى دائرة الدولة التي تحكمها نصوص مكتوبة وينظمها الانتاج والعمل ؟ انها قضية حضارية بالدرجة الاولى .

الموضوعة السابعة «من التجزئة الى التخلف» اشارت الى ثلاثة خصائص للمرحلة الحاضرة وهي : القوميــة على المستوى السياسي ، التصنيع عــلى المستوى الاقتصادي ، والايديولوجيا على المستوى الفكري، باعتبار انه عبر هذه المراحل الثلاث تمر النهضة العربية للخروج من التخلف ، الذي جاء كاحدى ثمار التجزئة ،وظل من أهم العوامل الفاعلة فيها .

الموضوعة الثامنة بعنوان « الطبقــة ، مصلحة الامة في مرحلة » ، طرحت ضرورة دراسة البنى الاجتماعية في العــالم المتخلف دراسة جديدة لتحديد الدور الحقيقي الذي تقوم به كل بنية، ولتحديد الطبيعة الحقيقية للتقسيم الطبقي في هذه البلدان .

وتناولت الاطروحة التاسعة كون القومية شرط الأممية باعتبار الأمة العربيــة وجوداً تاريخياً وسياسياً واقتصادياً متكاملا وغير قابل للتجزئة . الموضوعة العاشرة والاخيرة صبت في بوتقة الوحدة تحت عنوان « ثورة الوحدة» لتؤكد بان مفهوم الوحدة في المرحلة الحاضرة ليس مفهوماً جــامداً بل اصبح يعني الصدام، فلا وحدة اذا لم تكن تصادمية مع اعداء الثورة العربية .

تبقى اشارة أخيرة ، وهي أننا اتبعنا عددنا عن الوحدة بملحق خاص حول «حركة التحرر الارمني وحركات التحرر الوطني في المشرق العربي ضد السلطنة العثمانية » للمحامي كــبار ديردريان . والحقيقة ان هذا الملحق لم يكن سببه أهمية هذه الدراسة وجديتها فحسب ، بل كان يرمز كذلك الى انفتاح الجيل العربي الشاب على مشاكل الاقليات في في بلاده ، ويــدل على ان الحماس للوحدة والثورة العربية لايجعلنا ننغلق على انفسنا بل على العكس من ذلك يزيد من تفاعلنــا مع كافة قوى التقدم في العالم .

انه مجرد عرض سريع لمحتويات عددنا الخاص عن الوحدة والثورة العربيــة والمشاكل التي يطرحها أكثر بكثير من المشاكل التي يحلها .